

خبرى سللى



روايات الهلال Rewayat Al Hilal

> سلسلة شهرينة لنشر القصر العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهــــالال المــــروس بهدن الإدارة مكرم محـمد الحمد عبد الحمد عبد الحميد حبروش عبد الحميد حبروش مصــطغي مناسيل التحديد مصــطغي مناسيل محــمود وتاسم مجـمود وتاسم

تعن النسخة

سوریا ۱۳۵۰ لیوه ـ ابنان ۱۳۹۰۰ لیوه ـ الارین ۱۳۰۰ الارین ۱۳۰۰ الارین ۱۳۰۰ الارین ۱۳۰۰ السید السعودی السعودی میشود السعودی السعودی السعودی السعودی السعودی السعودی السعودی ۱۳۰۰ درسالا ـ السطنان عسان ۱۳۰۰ درسالا السطنان عسان ۱۳۰۰ السطنان السعادی الستسدة ۵ هیات

العدد ٥٥٠ ابريل ١٩٩٥ ♦ ذو القعدة ١٤١٥ هـ NO - 556 - aP - 1995

الإشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (۱۲ عددا) 84 جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٣٥ دولارا ـ امريكا واروبا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٦٠ دولار القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ـ ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك في الكويت: السيد عبدالعال بسيوني زغلول : المسئل من به ۲۱۸۳۳ (13079) ت - ۴۷۴۱۱۹ (13079) الرائد الملاورة - ۱۲۸۳۳ (المبتيان الادارة : الملاورة - ۱۲ المبتيان : من ب : ۱۳ المبتيا - الملاورة - ۱۸۳۳ (۷ خطوط) المكاتبات : من ب : ۱۳ المبتيا - الملاورة - الرائم الدريدي ۱۹۵۱ - تلفرائليا : المعاور - الملاورة - ، م ، ع .

تلکس: TELEX 92703 hilal u n لاکس: FAX 3625469

وثالثنا الورق

سيرة شعبية يرويها:

خيرى ثلبى



الجزء الثالث والأخير من:

الأمالي

لأبى على حسن .. ولد خالى

الغلاف للفنان : حلمي التوني

تطبيق

تحلف اليمين يابوى أن الولد هليل قد ارتاع حين رأنى فجأة أمامه على غير انتظار بعد غيبة طويلة عن البلدة وفى حالة من التقمش والقنزحة فشر سعادة الباشا النحاس فى عز مجده ..

بالحضن يابو العم . فى كلمات قليلة فهم أننى قد اغتنيت صرت من وجوه القوم أسكن على كورنيش النيل مثلى مثل كبراء مصر ، وأننى بعون الله وفضل من الشيخة سعادة قد تبت عن كل ما يغضب الله . قال بشىء من الخبث إنه لا يعرف الشيخة سعادة هذه ولم يسمع بها من قبل . فلما أخبرته أنها من أسيوط ومعروفة لكبراء البلد نظر لى فى حسد مصطنع وطلب منى أن أعرفه عليها بحق الأخوية . ومع أننى لا أعرف عنوانها فإنى قلت له : إن شاء الله سنصل إليها معا إذ أنها لابد أن تبارك مشاريعى التجارية التى أنوى إقامتها هنا أو فى مصر ...

على أن الإرتياع أفقده توازنه وجعله يضرب كفا على كف لما حكيت له عما انتويته في زيارتي هذه المفاجئة للبلدة محملا بالهدايا من كل لون قلبك يحبه ..

- «هيه إتريد أن تخطب البنت حنه يابو العم ؟! كلام كالعسل !»

استشعرت في كلامه نبرة الهزء والاستهجان . كنا نجلس وحدنا في قاعته المنفصلة وحدها في جوف الدار مطلة على حوش الدجاج والبط والأوز والأرانب ، والمنفتح على السماء مباشرة . فتحنا الشباك الذي يبص على الحوش ، فهبطت السماء على فتحة الشباك كالخيمة الرمادية يضيء من خلفه فانوس نرى رسمه وضوءه المحجوب خلف الخيمة وذلك كان قرص الشمس الذي لم بكن معاد رواحه

قد حان بعد ؛ مما جعل الأمر يبدو وكأن في الأمر ثمة مؤامرة غامضة ..

وجه هليل نفسه كان هكذا يابوى : فانوس الحق والعدل فى موافقته على ما انتويته يضىء خلف قماشة وجهه الرهيفة لكنه يظهر كما لو أنه جاء بقماش الخيم المشمع السميك فطرحه على وجهه ليطفىء به فانوس الحق . لكننى على ضوء هذا الفانوس الذى استمر يضىء خلف سحابة ظلماء مربدة فى عينى هليل . رحت أحكى عما سأفعله بكل صدق وحرارة ؛ فيما هو فاغراً فاه من الدهشة لا ينطق . فلما رأنى قد أنهيت كل ما عندى من كلام هب وإقفا ؛ سحبنى من يدى :

- دقم بنا !ه .

فى صوته خشــونة تشى بكثير من الوعيد والتهديد . قلت وأنا متشبث بمكانى:

- «دعنا هنا في أمان الله ياخوي! »

أمسكنى من قفاى ، علامة على شدة استحقاره لى مع الإنذار بأنه لن يعرف الأدب معى هذه الليلة بل ريما ضرينى . نعم يابوى هذا ما توقعته : ففى سبيل مصلحتى يمكن أن يتجنن . من هنا حرصت على أن يتم الكلام والتشاور هاهنا فى أمان الله بسر هادى، بعيدا عن الذى يسوى والذى لا يسوى . لكن يظهر يابوى أن قرص الشمس الأحمر عدل عن الرواح وسكن فى عينى هليل فصارتا يقدان لهبا وشرراً حتى لقد خفت منه والله يابوى فقعت معه فى الحال متمتما :

- «اللهم اجعله خيرا !» ،

فإذا به يلطمنى بطرف عباعه الجوخ التى كان يلفها لحظتند حول كتفيه ؛ فلم أدر - من عنفها - أكان يقصدها أم أنها جاءت عفوا لوقوفى فى طريقها ؟ إلا أنه لم يعتذر ولم يعبأ بعينى التى دمعت من لسعة اللطمة ..

قلبي حدثتي يابوي بأن الأمر فيه شيء غير طبيعي جعل هليل ينقلب هكذا

فجأة فيقع في حمأة الغضب لهذا الحد . ثم إننى فكرت يابوى : إذا أنا مشيت مع سلامة نيتى بأنه زعلان على شانى فالإنسان لا يزعل على الواحد أكثر من نفسه . شعرت في الحال ياخال أن دودة الغضب بدأت تفقس في صدرى بل إن فقسها راح يجرى هنا وهناك في كل عروقي . مرت برهة وجيزة شعرت فيها أننى أحمل الجبل كله فوق صدرى ، وأننى أحاول الإفلات من تحته لأفعل فعلاً مجرماً : أضرب هليل مثلا أو أتف في وجه الدار كلها وأنصرف . قلة الأصل كانت شبحا قبيح المنظر واقفا أمام عينى كالجدار ؛ فلما انزاح الجبل اختفى وصفت عينى من غبار الغضب . زفرت بشدة وحمدت الله . لكن مخى راح يضرب يقلب . ذلك يابوى منذ جئت بسيرة البنت حنه ، مما جعلنى أتوهم بأنه يحبها وينتوى لها نية معينة في نفسه . قلت انفسى : اللهم نجنا من الفتن يارب واحفظ لي صديقى هليل وابق على الصداقة بيننا من أجل خاطرى ، إحفظه يارب من لسانى المقلوت ، من قلبى على الصداقة بيننا من أجل خاطرى ، إحفظه يارب من لسانى المقلوت ، من قلبى المسرد بهباب العوز والتشرد في مصر معدومة الرحمة ...

- «على كل حال لن نختلف ياهليل! الكلمة كلمتك والشوره شورتك وإن أفعل شبئا إلا بعد رضاك! »

هكذا قلت وأنا أسبقه نحو الباب . لكنه كان مكفهراً وغير راغب في الكلام بقيت واقفا شاعرا بالذنب حتى انتهى من لبس حذائه الاستك ولمعه وسحب عصاه ومضى . فتح الباب متنحنحا ؛ استدار برأسه نحوى في نظرة خاطفة تعنى : إنبعني ..

صرت رجلاً أبهة ياهليل ياخوى ؛ لبست العباءة مبكرا وأمسكت بالعصا قبل الأوان ، صرت شيخ عرب يملؤه الشباب تنسكب منه الرهبة يتجسد الورع والتقوى على صفحة وجهه واو أطلقت لحيتك لصدقك القوم إن زعمت لهم أنك أمير المؤمنين. معك حق ياولد ، فانت الآن تعيش رجولتين ، رجولتك ورجولة أبيك التي فاته أن يعيشها في الوقت المناسب مثلك . ذلك المتصابي المهزار لولاك ياهليل لأصبح هزأة للقوم إنما الفضل في النهاية يرجع لأبيك ياهليل مهما كان ؛ لقد أهمل نفسه ورباك على القالى ، إقتني وملكك ؛ توارى لكي يظهرك على القوم ؛ تواضع فألبسك فكبرك . أكون حماراً إذن لو خسرتك من أجل أي شيء ؛ لكن مسألة حنة هذه هي العقبة الصلبة بيننا الآن ؛ هي الكلكعة في قلبي فاللهم أذبها اللهم اجعله يوافقني على مسعاى الشريف إجعله يفهم غرضي فلا يتشدق بكلام عن الأصل والتربية فكلنا أولاد تسعة ثم إن مسألة الأصل هذه يعلمها الله وحده واربما كانت هي من أصل أفضل من أصلنا فالزمن غدار لا يؤتمن ؛ وإذا سلمنا بقول أعمامي بأننا نمت بصلة نسب قديم إلى الإمام الشافعي فأين نحن الآن من الإمام الشافعي واكنا أولاد أدم وحواء وكلنا خطاة ومكتوب علينا الخوض في الطين .

تفنيط

صرنا فى الشارع نمشى باحتراس واحترام لم أعهده فى نفسى من قبل . وكنت أحس أن احترام هليل لنفسه ينعكس على تلقائيا . كل من مررنا بهم يهبون وقوفا ليسلموا علينا ولابد أن يوجهوا الحديث إلى هليل ..

حازينا غابة النخيل مشينا أكثر من نصف ساعة دون أن يفتح أحدنا فمه بكلمة . كانت رياح الغروب تهب علينا كلما اقترينا من الجبل ؛ إذ هى تلطم الجبل فيفتتها يبعثرها علينا فيتلقفها النخيل بالزغاريد ، بضجيج فرح خشن ؛ والهواء يتلاعب بنا وبخلقاتنا فتبرز الطبنجة في جيب الصديري تحت إبط هليل ..

بدأ القلق يساورنى ياخال: إلى أين يذهب صاحبى العزيز الفالى ساحبا إياى؟! أيكون قد أصبح في غيبتي من المطاريد ؟! إنه لا يمكن أن يكون منهم أبداً. لكن الملعون يخرم بي نحو الجبل . أخذ يدور حوله . رأينا في سفحه الخلفي غابة كثيفة من البوص والهيش والحلفاء ؛ خلفها حقول من القصب ؛ بدت في تلك اللحظة يابوي كشوارع من الرعب المصفوف تتصاعد منه أنفاس كالفحيح كالزفيف . عجبت والله ياخال كيف يتأتى لهليل المسالم أن يجيء إلى هذه المنطقة في دخلة الليل ؟ صحيح إنه مسلح وقوى وشجاع ؛ ولكن كيف يأمن الشجاع على نفسه بينما صفوف الخيانة مرتصة حواليه وإن حوت رحيق القصب السكرى ؟! ها هو ذا يتقافز فوق نتوءات الطريق يتجنب عثراتها بمهارة المتودك يخرم من خلال قطعان القصب في جرأة وثقة كأن كل هذه العيدان التي بلا حصر وبلا نهاية تأتمر قطعان القصب في جرأة وثقة كأن كل هذه العيدان التي بلا حصر وبلا نهاية تأتمر بأمره تخضع لهيبته . ظهر كما لو أن المسافة التافهة التي بين العيدان قد اتسعت

له مبتلعة ظلالها كى تحتويه . حقول القصب بحر ، حين غطسنا فيه رأينا ما فى جوفه مما يطويه الموج من خفايا وأسرار ؛ ففى هذه البقعة يعشش المطروب الفلانى؛ وفى هذه الشقى العلانى ؛ وهنا قتلوا فلان الفلانى ؛ وهاهنا ذبحوا فلانة الفلانية .. إلخ إلخ ..

صرتُ يابوى - أنا يا المخريشاتى - أمشى وراءه كطفل غرير . لا أقوى حتى على سؤاله عن وجهتنا . زعق فى صدرى صوت يقول لى : ما أنت إلا ولد دعى خلبوص . ما كاد سرداب الليل يحفر عميقا فى الظلام حتى بزغت عين محمرة تتموج فى البعيد تحت أجفان السواد هى الأخرى تتسع خطوة بعد خطوة فرأينا ذبالة ضوء كبيرة ، سرعان ما تكررت وتعددت وترادفت ، حتى استطعنا أن نتبين على ضوئها أشباح جدران رابضة كسوء المصير الذى ينتظر كل سالك سبل الظلام . لكن هذه الجدران الكالحة سرعان ما وضحت فى دور ذات أبواب وشبابيك تفصلها شوارع وحارات . هى إذن بلدة صغيرة مجهولة . متى نشأت ؟ كيف لم أعرفه—ا من قبل ولم أسمع خبرها ؟ هنا تكلم هليل ، شوح بذراعه نحوى:

- دهذه بلدة لا اسم لها !! لا أحد يعرفها حتى الحكومة نفسها فالحكومة دائما هى أخر من يعلم !! هنا تقيم طائفة من العبيد والخدم الذين يوفرون للمطاريد كل شيء يطلبونه من الخبر حتى اللحم البشـــرى ! لا شيء يعز عليهم !! ســـكانها لا يعرفون الله ولا قلب لهم ! موتاهم يدفنون تحت دورهم ! وعلى كل حال فالمطاريد يسمونها الهيش ! لكن فيهم فضيلة : يحترمون الطيب ويهابون القوى ! مع القوى يزيونه قوة إضافية ! ومع الطيب يؤكنون طيبته بالإحسان إليه ومساعدته إن طلب العون منهم شرط أن يطلبه بلسانه !!»

قلت من دهشتی :

-- «أنا أست من هذه النواحي بإخال أم ماذا ؟! » .

جذبني من فتحة طوق جلبابي كصبياع المبينة:

- «نعم أنت أست من هنا ! هذه البلدة عمرها مئات السنين ! وأو مكتت أنت طول عمرك في بلدتنا ما كنت عرفتها فليس يعرفها سوى مجنون أو ضارب في التله على غير هدى !! ومن يلقى به سوء البخت فيها يسلم أمره الله في الحال يتشهد على روحه !! أما أنا فقد عرفتها الآنني في الواقع - كما لا أظنك تعرف - مجنون كبير !! نعم نعم يابو العم فالجنون وحده هو الذي جاء بي إلى هنا ذات يوم والجنون هو الذي لا يزال يحميني من وحشية أهلها الجبابرة ! لا يفل الحديد إلا الحديد ! فلأنهم مجانين أصلاء أو كما يقسسول المتعلمون بالسليقة فإنهم لا يخافون إلا من هو أكثر جنونا شراها أن يتقن الجنون على أصوله !! »

قلبى يا خال صار بين أنياب كلب ينهشه ، من الآن أنا أست مخربشا ولا شيء بالنسبة لهليل ..

- «ولكن ياهليل هذه البلدة قريبة من بلدتنا و ..» ،

قاطعتی:

- دالسكينة سرقتك! أنت لم تشعر بعد أننا سافرنا!! كان الفروض أن نركب فرسين عفيين لنجيء إلى هنا لكننى لم أفعل خوفا من شيئين اثنين: أن يشعر أبى وأنت بأتنا على سفر فيقلق وتقلق فينفضح غرضنا حين يسمع الجبل وقع حوافر الفرسين في الليل فيقذفنا بالأعيرة النارية من كل مكان!! مشية الفرس في الجبل في الليل لا تكون إلا لفارس من فرسان الجبل أو مقتصم من الحكومة فإن كان من عيال الجبل فالجبل كله على علم بموعد سيره كما أن الجبل يميز وقع أفراسه أما إن كان مقتحما فخطوه معروف مفضوح على أرض الجبل الذي لا يعرفها ولا تعرفه وهنا يتلقى في كل خطوة عوانا!! »

بدأت أشعر الأول مرة في حياتي يابوى أنني وقعت في قبضة مجنون رسمي ويظهر أن ليلتنا بإذن الله أسود من قرون الخروب . جاحني يقين بأن دور الدروشة الذي كان آخذا بخناق هليل منذ صباه قد كبر معه فخلخل توازنه بات يفعل أفعالاً خرقاء كهذه . هتف بي هاتف أن تشهد على روحك يابطل أو ادع الله أن ينقذكما بمعجزة كبيرة لا تقل عن معجزة موسى عليه السلام . استثلات صوتي من جراب ربق ناشف :

- «هليل! صف لي هذه البلدة من حدود بلدتنا! »

شوح بكفه إشارة إلى أن أخفض صوتى لحد الهمس ! إذ أن الدور المبنية حوالينا كانت قد تراجعت فبدأنا ندخل فى دور آخرى مبنية بصاج السيارات القديمة وقوائمها وعجلاتها مأخوذة من سيارات الحكومة التى كانت تتوه وتضل فى الجبل . ثمة أخصاص من عيدان التيل والبوص وأوراق القصب .. تلونت نبالات الضوء من فوانيس داخل النوافذ إلى شعلات من لمبة الجاز الصاروخ إلى ركيات نار من خشب مشتعل ..

قرب واحدة كهذه توقفنا على جنب . همس هليل في أنني :

- دهذه البلدة السحرية في جيب عميق من جيوب الجبل! هي معدةُ الجبل التي تهضم كل فريسة تقع! هي أيضا صندوق زيالة الجبل!! الفتوات الدّين خاب أملهم! الذين انفضحوا لسبب من الأسباب فنفاهم أهل الجبل الفوقي عزاوهم لانهم أقل من أن يكونوا رجالا أقل من مرتبة الفتونة!! هنا أيضا الذين عجزوا وانهدت قواهم! الذين خانوا ولو خيانة صغيرة فانفض عنهم الرجال! الذين هريوا من واجب ثأر من ننب من جريمة فقادهم سوء البخت وأحيانا حسن الحظ إلى هذا المدفن الحي !! ويل لمن كان ضعيفا ويقع هنا! لو كان حلوا فسيأتكلونه!

ثم غمزني وأردف:

- داقد جئتا من الطريق السرى الذى كان يغرقه النيل عند الفيضان وتقطعه غابات الهيش والبوص عند الغيض ! وهى كما تعرف مأوى لجميع أنواع المقترسات!!»

ومضى خطوة ثم توقف هامسا:

- «ليكن في معلومك أن الدار هنا أمان بالنسبة لي يعنى تمشى على كيفك كأتك تمشى في أي بلد آمن !! هم هنا يعلمون عن ثقة ويقين أن شخصا عاديا ان يجرؤ على السير هاهنا بثقة واطمئنان إلا إذا كان أهلاً لذلك بالفعل ! الويل له إن انكشـف أمره وظهر عليه الخوف يكون لقمة طرية شهية يأخذ كل واحد منها نصيبه !! فمهمتك الآن أن تكون صلبا قوى الأعصاب حتى آخر لحظة فلا تظهر منك نقطة ضعف واحدة فالخوف هنا هو الحكومة الوحيدة التي تفصل في المنازعات بين الناس !! إن ظهر هنا أنك است الأقوى من الآخر فإن مهمة الآخر تنصب في محاولة إضعافك بأى شكل وبكل شكل مهما تذرعت أنت بالقرة دون رصيد حقيقي من القوة !!»

مضى خطوة أخرى وشوح كأنه تنازل عن كل ما قال ، ثم استدرك :

- دوعلى كل حال فاحسبها حسبة بسيطة وأرح نفسك: مادام الشيء الوحيد المضمون هنا هو الموت فلتمت شجاعاً مرفوع الرأس حتى لا يكون موتك بالمجان! من يطلب الموت لا يأتيه الموت هذه هي حكمة الزمان! فكن شجاعا جدعا حتى أخر لحظة تكسب حتى وأنت ميت!!»

جذبنى ، فتبعته ، وصلنا إلى ركية النار ؛ فتناهى إلينا -- رحمتك يارب -- صوت المغنية صباح تغنى : حبيبة أمها ياخوا .. تى .. ياخوا .. ا.. تى .. يااختى يااختى ياختى !! . قبل أن يركبنى العفريت فأتسبب فى فضيحة قبض هليل على ذراعى وقرصنى هامسا :

- «اليوم توجد طرق سرية كثيرة لا يعرفها سوى قلة من المخربشين يتواون قضاء كل الطلبات من كل مكان فى كل وقت فلا يجرؤ على تتبعهم أحد لأنهم خبيرون بكيفية تضليله وتوصيله إلى الجنون ثم التهلكة !! وحدهم يرون فى الظلام يعرفون متاهات الظلام وليكن فى معلومك أن هذه البلدة فيها بيع وشراء وكل شيء كما سترى الآن !!»

مبرت أبحث عن عقلي الشاتت يابوي :

واكن بالله كيف سترجع ياهليل؟ كيف نعود إلى دارنا في هذه الحلكة؟
 وهل ترانا ستعود حقا؟! »

بكل هدوء قرصني في ذراعي :

- وومن قال إننا سنعود الليلة ؟! سنبقى هاهنا حتى الصباح وبرجع عند طلعة الشمس إن كان لنا عمر بإذن الله !! » .

ابتلعت صرختي:

- دولاذا جئت بنا إلى هنا بحق جاه النبى والمسلمين ياهليل ؟ ظننتك كبرت اليوم على هذه المشاوير اللبط !» .

شدد من قبضته ، ويلهجة ذات معنى :

 - «لبط ؟! لبط ياابو على ؟! فما الذي تفعله أنت في مصر قل لي ؟! أبنت الآن في نزهة فاحمد ربك واخرس!!»

نزهة ؟! أهذه نزهة ياابو العم ؟! سيبت ركبي! الواحد لابد أن يجعل لدماغه
 سقفا يقيه التهور يمنم مخه من المشي بعيداً عنه! ».

كتم ضحكة هازئة:

- «بعد قليل سيطير سقف دماغك إلى غير رجعة !! » .

ثم أخذ ينقر بطرف العصا على باب ، عبارة عن واجهة سيارة نقل كبيرة

مركب على مربع من أعواد الحديد بعقصل من عمود حديدى مغروز في الأرض . فجأة انخفض صوت الراديو ، وصاح من الداخل صوت جهورى لكنه واطىء ومتحرز:

- «من الكريم ؟! » .

مناح هليل في بساطة أسرة :

-- دهلیل !ه

فهتف الصنوت في الحال يترجاب شديد:

– «تفضل ياشيخ العرب! » .

ثم دوى فى الفراغ صوت نعيب حاد ، تيقنت من أنه زيق الباب ، الذى هو وجه السيارة الكميون وهو يابوى يحتاج لاثنين عقيين يدفعانه حتى ينفتح ، فلما انزاح نحونا يابوى – إذ هو ينفتح للخارج – كاد يصدمنا ، فاضطررنا إلى التراجع عنه بسرعة . وإذا بهلف كبير ينام خلفه ولم يفعل أكثر من أنه دفع الباب بأصابع قدمه كان ممددا كشجرة كافور قطعت جنورها عن الأرض ، راقدا على بطنه وماسورة البندقية فى حضنه ، يبعث إلينا بعينين لوزيتين مضيئتين فى ظلمة الدهليز . قال هليل وهو يبرز نفسه للهلف :

 معى ضيف عزيز يابق العم قادم اتوه من سيننا الحسين!! أحببت أن أكرمه كرماً زائدا يعود علينا بخير كثير ينتظرنا حين نفى بالندر لمولانا!!».

-«أهلا وسهلا! مرحبا!».

ذلك ما نطق به الهلف وهو يتلوى كحوت فى محيط الظلام ، ينعوج وينكمش ثم ينتقض قائما معلقا البندقية فى كتفه . أقبل نحونا ماداً يده . سلم عليه هليل بحرارة كبيرة يابوى كانهما أحباب بل عشاق أصفياء . سلمت أنا الآخر ؛ فما أن احتوت يدى حتى خيل لى أننى أسلم على واحد من أحب الناس إلى قلبى .

استدار ذلك الهلف الجذاب نحو الجدار ، الذى هو الآخر عبارة عن صاج تخين من صاج الطائرات التى كثيرا ما وقعت فى الجبل ، صاج معشق فى بعضه البعض بشرائح وبوائر من كاوتشوك السيارات والطائرات ..

مد الهلف يده إلى لمبة الجاز نمرة عشرة المعلقة على الجدار ؛ فرفع شريطها المرمد فاتسعت دائرة الضوء فظهر الهلف رجلا ولا كل الرجال ، أحمر الوجه مستديره كالأوطاية تكاد تختفى بين شاربين كبيرين تحت لبدة كشاهد القبر ؛ لكن الأوطاية نفسها – وجهه – عبارة عن عينين كلوزتين من النوار تنام كل منهما على طرف شارب . هذا الوجه الدقيق نو الرأس الصغير – رحمتك يارب – يقف على كتفين كل منهما يصلح أن يكون ناصية حارة من حوارى مصر ؛ على قوام سمهرى ميروم يخشى الواحد منا سطوته وهو بعيد عنه بمسافة ؛ يرتدى جلبابا من الجبردين الأزرق الداكن ليس تحته شمة ثياب على الإطلاق .

تطـــع

أقبل علينا الهلف مسلما من جديد وهو يدعونا الدخول ، ما أن دلفنا إلى حيث كان يرقد حتى جذب الباب فسنكره في قائم حديدى بضبة حديدية كالدرفيل تبيت في موضع لها عاشق في معشوق . أشار هليل نحوى قائلا :

- «حضرته حسن ابو على ولد أبو ضب أجاويد سيدنا الحسين ! شهبندر تجار السمك والفسيخ ! عيبه أنه ولد خسران وابن ليل ينوى إن شاء الله أن يفنى ثروة أبيه التى يقال إنها لا تفنى ! يصرف على الهلس والكلام الفاضى ما يبنى عمائر ويشترى قدادين !! لكنه ياعم عرندس قلبه أبيض كالبفتة ! تصور ياعم عرندس أنه يسعى فى طلب الحاجة فيصرف عليها دم قلبه فلما يحصل عليها ربما لا ينوقها !! يكفيه أن يطلب الشيء فيجده !! يحلم بالمستحيل ! لهذا حيرنا وغلبنا الغلب كله ! لم يكفه ما هو فيه من متع وهلس فى أم الدنيا فجاء يطلب متى ليلة فى الجبل يتمتع بها حتى الموت !! وقد صعمت الليلة أن أقتله ياعم عرندس فجئت به إليك لتساعدنى على الخلاص منه ولك الأجر والثواب عند الله أما عندى فلك المكافئة التى يمكن أن تطلبها !! »

ثم كف عن الكلام مشوحاً كمن خلّص ضميره . ويقيت واقفا في محلى كطفل يرتجف من لعبة مثيرة مخيفة معا يابوي .

يخرب بيتك ياهليل ياولد الحرام: أملعون أنت إلى هذه الدرجة ياولد الأبالسة؟! ما هذا الذي فيك لم أكن أعرفه من قبل ؟ يالي من غشيم أهبل . لابد أنك يا هليل تعيش هنا بشخصيتين بون أن أعرف أو يعرف أحسد من أهل البلدة الذين يوةرونك ويحتــرمونك كرجل صالح لا يترك الفرض يجيء على أخيه الفرض ..

ظل الملعون هليل واقفا خافض البصر كطفل برىء لم يكذب منذ هنيهة . أما الرجل الهلف ، أقصد عم عرندس ، فقد جعل ينظر إلى بحب وإعجاب واندهاش ، تكاد نظراته تعريني من خلقاتى ؛ ولا أكاد أصدق أن كلام هليل عني بهذه الرسماية الخيالية يمكن أن يدخل هذه الدماغ الصغيرة يابوى ؛ فأه من هذه الدماغ الصغيرة يابوى ؛ فأه من هذه الدماغ الصغيرة يابوى ، على أن هاتين الدماغ الصغيرة ، ليس في صندوقها متسع للخرف والكلام الفاضى . على أن هاتين العينين الثاقبتين سرعان ما غرقتا في بحيرة من العهر والطراوة المخنثة ؛ غير أنه العهر الناعم يابوى ، المخيف بشدة نعومته ، المنثر بسوء العاقبة ياخال . إنه الغهسر الخديعة ؛ فليس يصدر العهر متقنا هكذا إلا أن يكون محض خديعة الغهال .

نظرة العهر تلد ابتسامة طرية على شفتى الهلف عم عرندس مفروشة كالبساط الأحمدى ؛ وسعّت وجهه سوت رأسه بين شدقين منبعجين . ثم إنه حول بصره عنى نحو مليل قائلا بكل رقة وحلارة :

- «حُداميته ياعم! مجيئك عندنا بالدنيا!! ».

رفع هلیل حاجبیه مشیرا نحوی :

- «هذا السفروت الخلبوص الكحيان لا تستهزىء به فقد ذاق كل فواكه مصر والبلاد كلها فلم يشبع !! قلت له إن عندنا فواكه لم ينقها فاستهزأ بى وأم يصنفنى فحلفت الأنيقنه طعم الخوخ العرندسى !!» .

قال عم عرندس وهو يعاود التفرس في وجهى بنفس النظرة المنبعجة الشدقين وفي لهجته نبرة ذات معنى : - دتريد الخوخة بنفسها إذن ؟! من حسن حظه أنها الليلة موجودة في الجبل الرزقها !! » .

دب هليل يده في جيب الصديرى نزع المحفظة ثم نزع منها ورقة بعشرة جنيهات غمز بها الرجل في يده:

- «هذه لك أنت وحدك حتى تشوف مزاجنا أولا !! »

تُم نزع ورقتين أخريين غمزه بهما في يده :

-«وهذا رزق الضفة !! » .

وأشار لي:

-- «والها رزق آخر عنده حين ينوق ويعجبه الطعم!! »

وغمر بشاريه الكث غمزة ذات مغزى وقال لى كانه يكشف تماما عن جوهر غرضه من هذه اللعبة كلها :

- «لقد عرفت داخ ياملعون !! أنت عطشان ثريد أن تعب من مستنقع نتن ! قلت في عقل بالى إنك لن ترتوى إلا من هنا !! فهنا أشبه ببئر الساقية ماؤه بارد صاف وإن شابته بعض الجراثيم المقدور عليها !! هنا سوف ترتوى جيدا حتى تزهد الأمر كله وتصرف النظر عما في رأسك !! وقد أجلت الكلام معك في أي شيء حتى ترتوى وتصير في حالتك الطبيعية وبعدها أقول لك نصيحتى ومشورتى!! ».

صدقته ياخال ؛ منيت النفس بليلة ولا كل الليالي .. بالفعل بانت تباشيرها يابوي . في جدية قال عم عرندس :

- «على كل حال الخوخة زمانها قادمة ! هى لابد أن تبيت هنا الليلة ! وإلى أن تجىء فإن صاحبك أمامه التفاحة والبرتقالة والجوفاية كلهن موجودات تحت أمره وله الحرية مع كل واحدة إن شاء حاسبها بعد الإنبساط وإن شاء صرف نفسه عنها إلى غيرها بغير حساب !! » .

إنقرص قلبى يابوى قرصة موجعة . تسرب الشك من جديد إلى مخى يقول : إصبح يامفقل وإلا فالملعوب كبير سيما وأن هليل تبدو عليه أمارات تتراوح بين الخيث والبراءة . ثم إنه قال :

- «نـــريد أن نشوف مزاجنا الأن ! دماغنا صفّــرت من طول الطريق .

مسح الرجل كفيه في ركبتيه قائلا: «وجب!» ثم أمسك بالمصباح ومضى أمامنا قائلا: «تعالوا». فمضينا وراءه في دهليز طويل يشبه القبو المظلم . بقينا نمشي مسافة طويلة حتى مللت يابوي وتوقعت السقوط في الجبّ الذي لا طلوع منه لكننا وصلنا أخيرا – رحمتك يارب – إلى واجهة منزل مبنى بالحجار المسواة ، له سلم يصعد إلى الباب بعدة درجات ، صعدها عم عرندس فصعدنا وراءه . على الضوء العليل لاحظت وجود أكثر من منزل محندق مبنى بالحجارة أيضا ؛ حوالي ثلاثة منازل من طابقين لها شرفات كمساكن علية القوم .

همس هليل في أُذْني :

- دهذه المساكن بناها عم عرندس مثل لوكاندات في الجبل يستأجرها المطاريد الجدد والمبعدون الأسباب مؤقته وكبار الهاربين من ظرف طارىء ومن يريدون الاختفاء التام الاسترداد الدماغ والتخطيط لعمل !!. يدفعون لعم عرندس أغلى الاثمان ليس لقوته بل لجدعنته معهم إذ هو يكون أستر واحد عليهم أخبث حارس يخادع الجن نفسه !! إحذر أن تسستهزىء به وإالا فإن قرصته مسممة الا نجاة منها !! أما إن صافيته فإنه يقدم لك المعجزات ! عمره الآن مائة عام ولكنه يبدو في الستين فحسب ! وقد واد في الجبل وام يكن بينه وبين الحكومة أية خصومة لكنه عشق الجبل فعاش فيه بمزاجه لمزاجه يكسب منه الذهب !! والأنه ابن الجبل فإنه الا يخاف ولا ينكسر !! له أملاك كبيرة في صدفا والفنايم وله – إمسك دماغك – إبن من كبار المحامين في الإسكندرية !! وابن آخر يعيش الآن في اندن كاستاذ

لعلم الآثار في إحدى أكبر الجامعات الإنجليزية ويتاجر في الآثار التي يعده بها أبوه !! » .

كان عم عرندس قد سبقنا إلى الدخول ليجهز المكان فيما بقينا هليل وأنا في الشرفة ننظر في الفراغ المظلم ونميز بين السور العالى المصنوع من الأعواد والأعشاب والفروع وصخور الجبل ، وبين ظلال الهضاب العاليــــة البعيدة جداً . لا يظهر من البناء الداخلي أي شيء إذ أن عم عرندس الخبيث الناصح اختار هذا المكان بين لسانين متجاورين من ألسنة الجبل ، كل لسان عبارة عن هضبة كبيرة مديبة الرأس كلما ارتفعت لأعلى ، فيدت تعريشة عم عرندس جزءاً من اللسانين يملأ الفراغ بينهما . مال هليل على أذنى هامسا كأنه يخلص ضميره من عب شعل:

- دعلى فكرة يابو العم ! ليكن في معلومك أننى است واداً داعراً كما يظهر الك منى الليلة !! الحكاية وما فيها أننى عرفت عم عرندس منذ مدة طويلة لأنه اشترى أرضا زراعية مجاورة لأرضنا وهو يستعين بالله وبي على إفلاحها !! شخصيتى تعجبه يتصورنى ملاكاً من السماء ! وهو صاحبى ويعزمنى عزومات كثيرة كهذه كلها أنس ومحبة !! عرفنى بكل سكان هذه البلدة كبرتنى في أنظارهم فأحبونى كلها وأعطونى الأمان وكلهم ينتظر منى أن أطلب منه أي خدمة لكن الله الفنى عن خدماتهم يابو العم فلست أنوى قتل أحد أو الغدر بأحد ! كفانا الله شر الحرام والإفتراء !! » .

- مخشوا يارجال! » ،

قال عم عرندس مناديا من الداخل ، وإذا به قد أنار مصباحا في الردهة ، وأخر في حجرة على اليمين في المدخل ، ويجوار هذه الحجرة حجرة أخرى مغلقة . في المقابل حجرتان بينهما ممر تقح منه رائحة الكنيف زاعقة . في الحجرة

المضاحة ثلاث كتبات أسيوطى ؛ أما الأرض تعفروشة بحصير ملون نظيف . شلتات الكتبر مرصوصة على الأرض تتحلق المنقد الكبير والجوزة وحجارتها الكثيرة مع كومة من باكوات المعسل . جلسنا فوق الشلت . في الحال شرع هليل ينظف الحجارة ويحشوها بالمعسل . وكان عم عرندس قد اختفى برهة طويلة جدا حتى انتهى هليل من تعسيل كل الحجارة ثم أخرج من جيبه كلكيعة حشيش كبيرة راح يقتطع منها ويكسو المعسل بعباءات من القطيفة الخضراء . ما كاد يعتدل أخذا سمت الانتظار حتى دخل الرجل حاملا طاسة كبيرة ملائة بالخشب المشتعل؛ دلقها في المنقد . من خلفه دخل غلام أمرد يحمل صينية عليها عدة الشاى وطبقاً به تشكيلة من الفواكه المنادرة . قلت لنفسى : هذه إنن هي الفواكه المقصودة ؟! هليل الملعون قرأ ما دار في رأسي فانفجز ضاحكا :

 - دهذه هي العينة فحسب يابجم! أما القواكه الحقيقية فإنها آتية لا ريب فنها بعد مجيء الدماغ!! » .

ثم مال على عم عرندس قحدثه همسا بلهجة ذات معنى واضع في ملامح وجهيهما . ثم علا صوت هليل مشيرا برأسه نحوى :

- «دماغه لا تجيء بسهولة ياعم عرندس! خُش عليه بنية خالصة يكرمك الله!
 هات داغه! ».

نظر الهلف نحوى نظرته العاهرة اللطبقة :

- «سنَّجيء بداغك الليلة ياحلو! أوقعت بنفسك في يد من لا يرحم! وقعت أم رماك الهوى ؟! » .

في أقل من لمع البصر يابوي كان الرجل الهلف قد وضع بوصة الجوزة في فمى : «شد يا بطل». قلت : «ليلتك فل»، وشددت الحجر كله في نفس واحد على شفطتين ونفختين ، فارتفعت راية النار فوق الحجر . فإن هي إلا لمحة حتى انشال

الحجر من قوق البُخْش ووضع مكانه حجر جديد ، والحجر السابق ينحنى على الحجر من قوق البُخْش ووضع مكانه حجر جديد على الحدد ، ويد عرندس ممسكة بالجوزة وبالماشة وأصابع بمناه تقرفط قوق نار الحجر حشيشا كالحمص ينزل برداً وسلاما على النار يصنع مهرجانا من سحائب الدخان الشهى...

بعدها بقليل نسبت أننا في أمعاء الجبل ، اسنا فحسب بين فكي التمساح بل داخل معدته ، تلك هي الصورة التي عبرت رأسي لتتبخر مع الدخان ، ثم بدأت الأمنوات والحركة تكثر خارج القاعة تصنع صخبا حلوا ينضبع بالأمان الحميم يحجر بين دماغي والسطل المبكرة ، برهة صغيرة ويدأت أشعر كما أو كنت في مندرة داريًا بِل إنني سمعت اسمى يتريد ؛ فأحسست أن البراح والمر المتاخمين لهذه القيللا التي نجلس في قاعة منها ، والتي تشبه عشش رأس البر ؛ هذا البراح وهذا المر قد احتشدا يحركة مستمرة ومتزايدة بشكل مريب ياخال ، حم غيل لى أنني وقعت في كمين وأن البلدة كلها شرعت تنقلب لتتفرج علينا قبل أن تمس كنا الحكومة في تجريسة كبرى يابوي . المسيبة ياخال أنني سمعت بالني أد لواتا تقتحم علينا القاعة من بعض الشبابيك . ومن الردمة أمام القاعة ميزت منوت هذه العبارة : «ولد أبو ضب» كيف ؟! ولد أبو ضب ؟ معقولة ؟! » . ثم تزايدت الخطوا ، والحركة في حيوية . دخلت على الأصوات أصوات جديدة أنساء وفتيات نوات رنات وجلجلة ، مم أصوات أنية يتم غسلها ، وطيور يتم ذبحها . قلت لعلها علامات السطل قد هيأت لي كل ذلك فجعلت أنظر حوالًيّ قائلًا:

- وهناك زيطة وزمبليطة أم تراها في رأسي أنا ؟!ه .
 - قال عم عرندس :
- دأنت عندنا است قليلا يا .. ابن شهبندر التجار !» ،

صدمتنى العبارة الأخيرة شعرت أن فيها تعريضا بشخصى فتشككت في الأمر فنظرت لهلال:

- «تسمع هذه الزيطة طبعا ياهليل ؟! » ،

قال وهو يسحب نفس البخان:

- «طبعا ! عم عرندس يقول لك إنك لست قليلا عندهم! » ،

قال عم عرندس بجدية مفاجئة :

- «قد زارنا النبي ياابن شهبندر التجار ؟! » .

يعرّض بي ثانية ، طوحت ذلك خلف ظهرى ؛ قلت :

«لكن يظهر أن البلدة كلها تتجمع حول الدار وتردد اسمى ! فكيف ذلك
 يابوي ؟ من أين جاء كل هؤلاء ؟! » .

صاح عم عرندس مشوحاً نحوى بكفه الكبيرة وذراعه الطويلة وكمه الواسم:

 - ووه يابوى ! كيف أنت ؟! الجبل كله انقاب وجاء يتفرج عليك ! أقصد جاء يكرمك ويشوف مزاجك !! لا أعرف كيف وصل الخبر إلى كل هؤلاء ؟! ».

وانجعص هليل قائلا في افتتان:

- «الأخبار في الجبل تصل أسرع! هنا سرعة البرق التي يقولون عنها! لكن أنت السبب ياعم عرندس! أنت الذي أذعت الخبر!! » .

عم عرندس ضرب الماشة فوق البلاطة صائحا:

- «الخبر أشاع نفسه بنفسه !! أتستهزىء يابوى بمثل هذا الخبر حين يسمعه الجبل بأذنيه ؟ حسن أبو على ولد أبو ضب! إبن شهبندر التجار كله في الجبل الليلة ؟ لابد أن يرقص الجبل كله طبعا !! ليلتك فل يإذن الله ! ولم !» .

قلت لنفسى : هذا الرجل مُيَّاس أو مجنون يريد أن يسرح بدماغى حتى يميِّله قبل الأوان :

- «ما حكاية شهينس هذه ؟! a .

كانت بوصة الجوزة قد استقرت بين شفتيه . راح يشفط وعيناه اللوزيتان كالبلبتين تدوران في محجريهما تتسجان أفكارا عجيبة يرد بها . لكن هسيسا مكتفا انبثق من الباب فجأة سبقته عيون كثيرة تنظر متاصصة تتهامس قائلة : «نعم هو ! هو بعينه ! الجالس في الوسط !» . وإذا بامرأة فارعة كالنخلة كحورية البحر داخلة ترفل في بذلة رقص كاسية مشغولة كلها بالترتر الأصفر على أبيض ، طويلة الرقبة طويلة الشعر تنساب جدائلها فوق ظهرها مستوية فوق عجيزتها النافرة ..

مساء الخير . هكذا قالت برقة الحوريات ؛ ثم سلمت على هليل باعتباره في مواجهة الداخل ؛ فسلم عليها بيديه شاملاً إياها بنظرة سريعة ، قال كأنه يهم باكلها : أهلا وسهلا ، لكنه ما لبث حتى خفض بصره واعتدل جالسا في أدب . أقبلت نحوى ياخال ، في كثير من الشوق والرغبة والإمتنان فاتحة نراعيها صائحة: «هو !» ؛ وعم عرندس من خلفها يؤيد في تفاخر : «بل خياله يافكيهة !» . أرتمت على صدرى قبلتني في خدي . ارتبكت لبرهة طويلة ؛ لكنني ما لبثت حتى ضغطتها على صدرى بقوة وقبلتها على خديها وفي شفتيها . إنحطت بجوارى وفخذها كله مستريح على فخذى . قلت : يادار ما دخلك شر ، واستبحت لنفسى الضغط بصدرى كله على فخذها بكل قوتي فيما أنا مضطر للميل نحو بوصة الجوزة لأشرب الحجر ؛ فإذا هي تتعوج مع حركتي فتضغط صدرها على ظهرى بنفس القوة حتى صار منظرنا أنتيكة . وسرعان ما تلقفت هي بوصة الجوزة وانبرت من مسندها تشد النفس ولا أرجل الحشاشين وصدرها ينتفض فوق طهرى ياخال . وحين اعتدانا كان الدخان الكثيف يتصاعد من كلينا مختلطا متداخلا نشوانا ..

لمِظتِئذِ بأَخَالَ بدأت أصدق أن الشِغلة جد في جد ، وقلت : لا مفر من أن أصدق الفرية المزعومة بأتنى شهيندر التجار بذات نفسه . ما أن بدأت خياشيم العبد لله تستشعر نكهة هذه النتاية الطابية كالقشدة حتى غزا القاعة هسيس محوط بشخللة ورنين الأساور الذهبية ؛ ثم هيت علينا طلائم من العطر الشهي المشر للقشعريرة في الدماغ . يخلت نتاية كالليؤة تضاطت بجوارها فكيهة . هي الأخرى ترتدى بذلة رقص واسعة الذيل مشغولة بالترتر البنفسجي . غزال باخال ، لا بالطويلة ولا بالقصيرة ، إلى النحافة أميل ؛ لكن تدبيها بارزان كأرنبين متكورين وبطنها من تحتهما مشدودة كحك الطبلة المرتفعة قابلا بصبعد إليها البصير عن ساقان مبرومتان لهما تحت الثباب الشفافة ظلال وخيالات كعمدان معلد الكربك تظنها عشرات السيقان المتحاضنة المتجاورة بينهما فراغات تقول لك افرش ونم في أي منها على ما تهوى . أما الوجه فسيحان الله مثل كون العسل يابوي وفي لون الشهد بعينين واسعتين كيحيرتين بتوسطهما قاربان والرموش الطوبلة مجاديف ينعكس خيالها على الخدين الشاطئين . أما شعرها فجديلة واحدة من الحرير البني اللون ملفوفة تحت المنديل الحريري في لون الفل. كانت ظلال ساقيها تمتد إلى بُعد خلفي ينتصب فوقها ظهر مخروطي مقسوم بالطول . قلت ياسبحان الله ؛ إمنعني يارب كل مدخراتي عندك من القوة التي تنوى أن توزعها على حياتي ؛ أعطنيها كلها اللية فحسب ؛ قوني هذه الليلة فحسب وأنلني بعض غرضي فكل الفضائح أحتملها إلا هذه اللبلة بمكن أن أموت فيها ..

قالت وهي تقترب مني : «أين هو ؟ أين الحبيب الغالى ؟!» . عرفت مكاني من فكيهة الملتصقة بي ، فتبخترت نحوى : ثم هوت على وجهى تقبلني تدفن رأسي في صدرها وكتفي في بطنها التي لها ملمس العجين الخمران . قلت للحياء : لا يصبح أن يمر على فمي كوز العسل فلا أنوق منه وأو لحسة . أمسكت برأس الغزال

ياخال طويته على يمناى فانطوى الجسد كله متكورا على حجرى . فما صدقت اللبؤة أن اقتريت شفتاى من شفتيها حتى فركت وفركت إلى أن دخلت بكاملها في صدرى ويطنى حتى بللت نفسى وتراخيت عنها قليلا قليلا فيما يشبه الندم والسخط الغامض . لكننى سرعان ما قلت : الحمد لله أن سابت الشهوة الآن فنفست عن نفسها حتى تكون متزنة رصينة عند الشغل الجد . رفعت وجهى عنها ، فاصطدمت عينى بعينى الرجل الهلف عم عرندس وهو يحدثنى بخبث أهتم لئيم حاد السخرية :

«أعجبتك بديعة ! سحرتك بديعة ! لبؤتى وأعرفها طبعا ! الوحيدة التي أتت بداغي فاحذرها إبدأ بها وحلى بالفكه !! » .

جملت أنظر إلى فكيهة كالمعتذر لها عن نسياني إياها لكن الهسيس ارتفع من جديد ؛ وتبعه موكب حافل من أصوات طروبة متداخلة مختلطة كأصوات التجريب والشد والتسخين : طبلة على سلامية على رق على مزمار . وإذا بالغازية داخلة وقد انضبطت الأنغام فجأة وإنتظمها المزمار البلدى رائق المزاج حاد النبرة والإيقاع . وإذا بفرقة المزمار تأخذ لنفسها مكانا مقوساً كشق القمر في مدخل القاعة ، والغازية قد جعلت من القاعة ملعبا فسيحا أخذت تطويه رائحة غادية لاففة حول نفسها على أطراف أصابع قدميها كالماشية فوق الأشواك : جسدها كله يهتز يرتج يرتجف ، يناكح الربح من كل اتجاه ؛ يعرض كل قطعة فيه لغم شهواني خرافي سوف يلقمه يشبع فيه مصمصة وقزقزة . أحلى غازية رأيتها في حياتي يابوي ؛ مهرة عالية الجبهة تزرى بستات مصر المحروسة ؛ على شفتيها بسمة فيها من البراعة أضعاف ما في العينين الكحولتين من عهر أبدي ياخال ..

انبرينا جميعا نصفق للغازية في ابتهاج لا مثيل له . انعوج عم عرندس ببوصة الجوزة قائلا :

– «حُد لك نفس ياديا أنصاف !! » ،

وكانت أنصاف لحظتها مسطوحة تميل برأسها وجذعها كله إلى الوراء حتى النطوت فارتقع ما بين ساقيها إلى أعلى مثل قبة طاجن اللبن . سلط عم عرندس بوصة الجوزة في هذه القبة ، صائحا : شد ، فانفجرنا ضاحكين ؛ وبرمت أنصاف جسدها بحرفنة ومرونة حتى جاء دماغها مطرح البوصة بالضبط ، وجدائل شعرها تكنس الأرض كنيل الثوب . مطت شفتيها ، احتوت بهما بوصة الجوزة شدت نفساً ارتقعت له راية النار فوق الحجر ؛ فصفقنا جميعا صائحين : «قشطة» ؛ وزغرد المزمار مع السلامية طربا وهاصت الدربكة . ففي لمح البصر برمت أنصاف وزغرد المزمار مع السلامية طربا وهاصت الدربكة . ففي لمح البصر برمت أنصاف ما من بد ، وصرت أتعلمل في جلستي ؛ فقال عم عرندس وهو يثقبني بنظراته ما من بد ، وصرت أتعلمل في جلستي ؛ فقال عم عرندس وهو يثقبني بنظراته مشيرا إلى أنصاف برقصة من شفتيه :

- «هذا هو الطرشي عندنا !! نقدمه قبل الأكل !» .

وأشار إلى كل من فكيهة وبديعة عند العبارة الأخيرة . تغابيت قائلا : «يعنى ماذا ؟! »، فطوقنى عم عرندس بشواط عينيه وقال مشيراً إلى فرقة المزيكاتية :

- «أهل الضرب والنقر سيحرثون دماغهم بحجرين!!» .

عندنذ كانت أنصاف قد انحنت على وجهها ومشت على أربع كالمهرة ، عجيزتها مرتفعة منقسمة منتفضة تتقابل مع وقع نقرات الطبلة التي تسللت خفيفة ناعمة يصاحبها المزمار في نشيج شجى مهييج للعواطف . تلاصقت الانفام بالحركات ياخال . أنصاف مقبلة نحوى كاللبؤة المترحشة عيناها تنذرانني بالويل الجميل إن تخاذلت عنها . فإذا بي ياخال متأهبا لاستقبالها وإذا بي قد صرت الجميل أن تحت الإبطين . ويقوة رشيقة تطوحني المهرة – لا أدرى كيف – فوق ظهرها راكبا ، وخصل من شعرها لجام في يدى . استدارت زاحفة على أربع ،

متقافرة متراقصة . راحت المزيكة تزفنا حتى خرجت هي بي من القاعة في سرعة خاطفة كالرمح . عبرت الردهة ، برأسها نطحت باب القاعة المواجهة فانفتح عن سرير بعمدان طويلة من الخشب الشين التحفة تبينت من أول نظرة أنه مسروق من مقابر الفراعنة بنقوشه وبقة صنعه وجمال شكله . سرير ملوكي يابوي . رمتني المهرة فوقه ، فانخفضت بي الحشية ثم ارتفعت في الحال . ثم إنها رمت بنفسها إلى جواري ، فكأن الملكة حتشبسوت نفسها تحتويني ياخال . ضعت في حضنها ياخال لم أعرف بأي جزء فيه أبدأ متعتى . ولقد أحست هي بحيرتي وضياعي في عاخال لم أعرف بأي جزء فيه أبدأ متعتى . ولقد أحست هي بحيرتي وضياعي في مذا المعنون المطبق فبدأت تسلمني نفسها قطعة فقطعة تقول ذقها على مهلك حتى تشبع . صرت كالذي يتقلى على النار ياخال . وأخيرا قمت ياخال ؛ تحلف اليمين تقول ثورا هائجا من ثيران أسبانيا . ما كل هذا ياخال ؟ هاأنذا أعرف المرأة لأول مرة في حياتي . لم أكن أظن أنني سأتجح في شيء مما استمتعت به ما لم تكن هي بنفسها قد أرشدتني إليه ؛ وارتفع صوت الحرمان في صدري يقول : إلهط هي بنفسها قد أرشدتني إليه ؛ وارتفع صوت الحرمان في صدري يقول : إلهط يابن أبي ضب يامفجوع .

تغريسق

لم أدر كم من الوقت مضى ياخال ؛ لكن خيل لى أن دهراً بحاله قد انقضى ، وعصراً برمته قد اندحر ولن يعيده الله ثانية يابوى . نعم يابوى إننى أكون هلقا إن لم أعش فى هذا النعيم على طول ما يعطيني الله من عمر مديد بإننه تعالى ..

أفقت على نفسى بعد غيبوبة طويلة فإذا أنا في حلم لذيذ ياخال: وجدتنى عارياً في سرير الملك والدنيا بحالها ترقد عارية في حضنى بكل جبالها وهضايها ووديانها السحيقة ورخامها المرمرى ، تحيطنا ناموسية من الحرير البنبه ، ذات أضلاع وياب كباب الخيمة ذى أربطة من الحرير المجدول يمكن ربطها من الدلخل وجمع أطراف الناموسية تحت الحشية فكننا في هودج في الجنة الموجودة ...

لقحتى صوت أنصاف يهدر في أذتي:

- «هل انسطت باخولي الجنينة باحسن ؟! » .

قلت فيما أقضم خرجة طائبة :

- «ما أظن المرء يشيع من النعمة !! » .

فلاذت بحضنى ، ريضت فيه تبخ صهداً شهيا كصهد مرق الضان . مر بذهنى خاطر سخيف يابوى ، فهتفت فجأة كأنى أدوس بقدم خشنة صلبة ملوثة فوق البساط الحرير :

 - «لو كنت شهبندر التجار بحق وحقيق فلن أقدر على مكافأتكم على هذه السعادة!!».

مررت أصابعها حول أذني ، قالت :

- «أو كنت شهبندر التجار بحق وحقيق ما عبرناك ولا جنتا لحد عندك !! ولا جننا ألك بالطبل والزمر !!» .

مخى لف يابوى . طار ذهنى فى الشنات مغادرا سرير الثلك إلى مناهات بعيدة غير مفهومة . غرضه يابوى أن أفهم : لماذا إنن يحتفلون بى كل هذا الاحتفال الكبير إن لم يكونوا فى انتظار أن أوسع عليهم بنقودى الكتيرة بعد أن أنحل هليل فى روعهم أننى من أثرياء التجار ؟! بكل ما أستطيعه من رقة قفت التصاف :

- وتفطون هذا إذن من أجل سواد عيوني ؟! أم عيون هليل ؟! يه .

قالت وهي تغمرني بقبلاتها:

- وطبعا ياحسن من أجل سواد عيونك ! هل هناك أحسن منك عنينا ؟! ».

قات باسما في ضعف :

- «حتى أو اتضح لكم أنني رجل على باب الله ؟! a .

إنفجرت ضاحكة في جذل وطِلْرب:

- «كلنا على باب الله ياخولي الجنينة لكن الناس مقامات ومقاسات!! » .

قلت في يأس بعد أن أعيتني الميل:

- «صارحيني بنمتك ياحلوة ! ما سر احتفالكم بي هكذا كأني الملك فاروق في زمانه ؟! » .

بحلقت في وجهي صائحة :

- ديالك من رجل طيب! أنت متواضع والله يحب المتواضعين ومن أحبه الله
 تواضع فأحبه الناس!! ».

قلت وقد حمكت النكتة:

- «إياك أن تكوني من الإخوان الهاربين من سجن ولد الفرطوس !!» .

ضحکت حتی دمعت عیناها :

- مرضاؤك من رضاء الزعيمة !! ألست الأخ الشقيق للزعيمة ؟! كيف يكون الأغ الشقيق للزعيمة ضيفًا على الجبل ولا يحتفل به الجبل ؟! إن الجبل إذا لم يفعل معك الواجب يكون عييا في حق الزعيمة لا يحتمله الجبل ولا يرضاه !! خبر وجودك في الجيل في مصيف عم عرندس طار إلى كل مكان في الجيل ووصل إلى الزعيمة بمجرد ومنواك أنت ومناحبك !! عيون الجيل من حراس الزعيمة رصدوكما من فوق الهضاب العالية ومن بين عيدان القصب !! كان اصطيادكما وشبكا لولا أن الذي كشف حقيقتكما هي الزعيمة نفسها !! كانت تمضى متنكرة تتفقد الأماكن التي تحبها والناس الذبن تحن إليهم! تشم نسمة الدنيا ثم تعود الى محرابها كما تسميه !! إنها كما تعلم من أهل الخطوة تذهب إلى أي مكان في لمع البصر خبيرة بالإنسلال كالريع بين أعواد القصب والذرة والأشجار تجري بجنبها كالحربة مائلة برأسها كي تشق الربح ولا تصطدم به فلا يكون لجربها صنوت ولا لوقع قدميها على الأرض حفيف !! مرنة الجسد بسم الله ما شاء الله تتكور حتى تصير قطة صغيرة تسلك من ماسورة ضبيقة تفلت من فراغات الأبواب والشبابيك تتسلق قمم الجبل تسقط مدحرجة نفسها كلعب الأطفال تتجف الصخور النائثة بذراعيها وساقيها ببراعة وقن !! هذه الجنية الحبيبة اخترعت بين مسالك الجبل تخاريم لم تكن مطروقة من قبل لكن أحداً لا يستطيع السير فيها سواها وحدها وقد جريها غيرها فدقت أعناقهم وتمزقت جثثهم فأكلتها الغربان فقال الجميع إن الله حق ولم يجربوها ثانية فيقيت هي وحدها ملكة أهل الخطوة في الجِبل !! أقرب مشوار عند غيرها مدته ساعتان من الزمان وأكبر وأطول مشوار عندها مدته نصف ساعة مهما طال !! لهم حق يسمونها فراشة الجبل إذ هي لا تلف حول الهضاب والمرتفعات إنما تمر من فوقها كالفراشة! بهذه الموهبة وغيرها من مواهبها المتعددة حق الأختك أن تصبح زعيمة الجبل وأمه الرعوم

واتضم أن الجبل طول عمره كان في احتياج لها كأم بل كان في انتظارها !! ياما سارعت هي بنقل الأخبار والتحنيرات قبل حلول الكوارث بوقت كاف !! وياما جاءت للناس بالدواء النادر من تحتّ طقاطيق الأرض في زمن قصير !! وياما طاردها الأشرار فزاغت منهم كما تزوغ السطية في جحرها بكل نعومة واطمئنان!! وياما وجنوها فوق روسهم فجأة لإنقاذهم من شر يحيق بهم أو خطر يحدق بمراقدهم !! بقيت وفية للمرحوم خرابة تقيم نكراه في كل عام تقدم الحاضرين لحم النبيحة تقول : إنه يوم عيدى أنا يوم أخذت بثاره في العال من قاتله المتجبر!! ومنذ داست قدمها أرض الجبل حتى اليوم وهي تعامل الجميع بكل عدل تنتصف للمظلوم تحسن المحتاج تصلى الفرض بفرضه !! أتخن مخ في الجبل لابد أن يميل ويلين إذا هي حدثته لخمس دقائق فقط يخرج من عندها زاهداً في كل شيء متنازلاً عن كل كبرياء معترفا لها بالأمومة والشفافية ويُعد النظر !! إنها تحكم الجبل على طريقة شيخ الطريقة وهي فعلا تقيم ليالي الذكر والحضرة فى أوقات كثيرة ولا أحد يدرى متى ولا كيف تعلمت الكلام الثمين لدرجة أنها حينما تحضر موك أحد أعمامها كعبد الرحيم القنائي أو الشاذلي أو البدوي تتكلم مع المشايخ المتبحرين فكأنها قرأت جميع كتب النئيا والآخرة !! موكبها يرحل قبلها بوقت ليجدها مع ذلك في المكان الذي اختاروه لنصب خدمتهم !! ليكن في معلومك أن الفرقة التي رقصتني الليلة جزء من الفرقة التي تصاحب الزعيمة في موالدها !! فُتُك في الكلام باخواى الجنينة إن الزعيمة حين رأتكما وعرفتكما من طريقة مشيتك طارت إلى سرايتها في الجبل فأرسلت ثلاثة من العفاريت الأشقياء من خدمها الذين ورثتهم عن خرابة أمرتهم أن يتفقدوا آثاركما في مصايف عم عرندس لينذروه بالمحاكمة إن تعرض لكم بسوء !! للزعيمة قضاة علماء تعشقتهم في رحالتها وتعشقوها فباعوا الدنيا وجاءوا يقيمون في خلوة الجبل تحت ظلها

لا يكفون عن ذكر الله وقراءة القرآن والأوراد لا يطلبون من أمور الدنيا شيئا سوي النجاح في هداية وحوش الجيل وإن الزعيمة لتقدم لهم الطعام والشراب والكساء والبواء تعتبى وجودهم بركة جلت بالجبل وهم في الحق أتقياء أنقياء يحاون أموراً كثيرة كانت تحتاج لحكومة شديدة القيضة يعرفون الله في كل شيء إلا في حكمهم على من جاء يقصد الجبل بسوء لكنهم والحق يقال عندهم بصيرة نبرة يميزون بها بين المظلوم والمختوع والمنسوس والغلبان والأونطجي والخبيث والمكار واللئيم إنهم لا يحكمون بالإعدام إلا على من يستحقه بالفعل ياما كشفوا عن حقيقة ناس استحقوا العفق فعننوهم خدماً وفلادين وبنائين حتى عمروا رأس الجبل جعلوا منه جنة فيحاء !! من حسن حظى أنني أقوم بخدمتهم في خلوتهم من غسل الثياب إلى الطبخ والكنس أتفرج عليهم وهم يتكلمون حتى تعلمت الكلام وعرفت مالم أعرفه في المدرسة فأتا بنت ناس طبيين علموني في المدارس في أسبوط وكنت سأدخل الجامعة أولا أن ضبحك على مدرس شرير أوقعني في غرامه فسلمته شرفي لكنه سافر إلى بلد بعيد واختفى فاختفيت أنا الأخرى وأتى بي أحدهم إلى الجبل وحتى الآن لم يعرف أهلي عن أخباري أي شيء بل نسوا شكلي لدرجة أني في الأسواق ألتقى ببعضهم فلا يعرفني !! هل كنت تتمنور أن أحداً يقيم الصلاة في الجبل ؟! الحرية مم ذلك متروكة للجميع فكل واحد يفعل ما يحلو له فكل شيء - كما يقولُ شيخ منهم - يمكن فرضه بالقوة إلا الإيمان والتقوى !! من يريد أن يغضب الله فننبه على جنبه وحده !! بات الناس في اطمئنان فالشر كله كان ينشأ بين أشرار الجبل خوفا من الخيانة والغير! أكبر حاجة عملتها الزعيمة أنها كرُّهت الجميع في الخيانة والقدر قبات الكل في روقان بال! بات الكل بحرس الكل وكل وإحد في الجبل هو الجبل بحاله !! أي طريد جديد لا يكون في أمان إلا إذا جاء وقابل الزعيمة واختبرته فإما جعلته من جلاسها وإما أمرت له بالعلاج النفسي في مسجد الجبل وحدائقه حتى تنكسر شوكته وإما حكمت عليه بالإعدام إن تيقنت من فساده التما !! على فكرة ! منذ أن راق بال المطاريد كثرت في الجبل الأقراح والليالي الملاح ! من زواج المهور لحضرة نكر لحضور ضيف عزيز ! المزيكة تصدح ليليا في جميع أنحاء الجبل !! تجيء الركائب من خيول وحمير وجمال لتنقلني وفرقتي كل ليلة إلى نجع في الجبل أو سراية من سراياته التي يملكها أعيان الجبل من قدامي المطاريد الأغنياء الذين كبروا في السن فتنازلوا عن الزعامة لمن قتلت رأس الحكومة في عقر دارها !! مساء الخير ياأنس! أنت نورتنا !! ».

هكذا أنهت أنصاف كلامها وهى تداعب نقنى . أما أنا فكنت سبحت فى ملكوت الله ياخال ؛ لم أعد أعرف من أنا صرت كفرخ الحمام يلف يحلق يدور من الجبل إلى البلدة إلى مصر محير كيف أحط فى أى مكان . أين تراه يكون عشى الأصلى ياخال ؟ أيكون لى كل هذه المحسوبية وأبقى ولداً متشرداً هجاماً فى مصر يسرق الكحل من العين ؟! ..

ت سمعنا طرقا خفيفا على الباب . رفعت رأسى ، رأيت بديعة تدخل علينا في ريع هدومها تشوح بيديها مستعجلة في شبق :

- «ستخلصين على الرجل بالبؤة! خل في عينيك حصوة ملح واتركي شيئا منه لنا !! قومي ياعاهرة!! » .

وسحبت أنصاف من حضنى فيما هى متشبثة به فقفزت بديعة إلى السرير من خلفى ؛ طوقتنى بشدة وجعلت تشدنى . ثم دخلت فكيهة هى الأخرى متحررة من هدومها فأزاحت أنصاف بقوة واحتلت مكانها . برهة صغيرة ودخل عم عرندس يهتف فى وسط القاعة :

 حيلك أيتها العاهرة أنت وهي ! تعالوا كلكم الآن فالعشاء جاهز ! هيا ياابن شهيندر التجار !! » . ضحكت من أعماقي يابوي . ذكرت له قرج أم شهبندر التجار الكبير ؛ فأعاد ذكره خلفي مصحوباً بألف زرطة . هجم على ماداً كفه في ضحكة ماجنة ؛ فصافحته واستندت على قبضته قافزا عن السرير الملوكي الذي ودعني بأثاً قصيرة وغاية في الرقة والإثارة يابوي .

أربع نى الأرض

الطبلية الكبيرة توسطت القاعة . بجوارها طبلية أخرى . فوقهما صينيتان نحاسيتان كبيرتان ؛ عليهما فضلة خيرك هضاب من اللحم المشوى والمسلوق والمحمر ، وأكوام من الحمام المحشو بالفريك ، وصدور الدجاج والديوك الرومى وأملباق الثريد والسلطات والمخللات . هجمنا على الأكل ؛ الكل يفصم ويرمى أمامى ، ومحسوبك يطوح في فمه . فلما امتلات ويقيت الصواني حافلة بالخيرات جيء بالفاكهة والمهلبية . ثم رفعت الأطباق وجيء بالشاى الثقيل . طرأت على القعدة وجوه جديدة توات خدمة الرص والتكريس والتوليع ، وظهرت كلاليم المشيش من كل ناحية . غمزني عم عرندس بكلكيعة كبيرة خضراء:

- دما رأيك في هذه الحشيشة ؟! » ·

عجنتها في يدي فاسترحت المسها فقات : طبية ، فهمس :

- وزرع يدي وقطف يدي ومنتع يدي !! » .
 - والله يتون عليك ! » ،
- «وأنت ماشي خذ ما تشاء من الكيف لك! » ·
 - «تشكر ياعم! » ،

وزع على كل الجالسين . وكان الزمار قد راح يقسم على المزمار ، تسنده الطبلة والسلامية ، واستطال نفس الأرغول في زفرات خشنة خشوبة تحرث في الأعصاب والمشاعر جداول من نغم عميق . سرعان ما قامت النسوان الثلاثة فتحزمن وغطسن في بحر الرقص يقطن الأفاعيل ..

لاحظت أن صاحبى هليل معتكر المزاج بعض الشيء ؛ فانزعجت ياخال ؛ خفت أن يقل عقله فيطلب منا الانصراف ، أو تركبه غزالة الدروشة فينتبه إلى أن ما نقعله رجس من عمل الشيطان فينكد علينا ، فنويت الخسرته إن فعل . ملت على أذنه :

- «مالك يابو العم ؟! طلبت لى السعادة والرضا فما بالك يركبك الهم ؟! كلهن تحت أمرك لو أحببت!! » .

شوح في فروغ بال:

- وأنت تعرف أن ليس لى فى الحرام ! إنما أنا زعلان لأن ما أردته أنا لم يحدث كما أردت !! » .

خفت أن يشتت مخي :

- «وما الذي أردته أن يحدث يابو العم ؟! » .

مال على أنني باسما:

- «كان عشمى أنْ ترى الخوخة بالذات وتشبع منها إنها أحلى وأمتع منهن - حميعا ! » .

ذكرني بموضوع الخوخة يابوي :

«أه! نعم! ولكن يابو العم خوخة ماذا الآن بعد هذا التفاح والقشدة!؟».

بدا كاليائس ؛ شوح في ولولة :

- «فماذا أو رأيت الخوخة ؟ تقع من طواك في الحال !! » .

بحثت عن عم عرندس لأساله عن السر في عدم مجيء هذه الخوخة فلم أجده . تذكرت أننى لاحظت انصرافه ومجيئه عدة مرات . سلمت أننى لهليل وعيني لبحر الرقص المتلاطم باللذة والشهوة الطافحة . كنت أحاول النفاذ إلى ما تحت ثياب كل راقصة . إلا أن موضوع الخوخة وغيابها شغلني ؛ فالبنى آدم منا طماع خصوصا في هذه الشغلة .. فجأة دخل عم عرندس يتحاشى الاصطدام بالراقصات المتلويات تحت قمصان من الحرير الأطلس الأحمر اللامع وشراشيب الشيلان الملتفة حول خصورهن متطوح بين السيقان . كان عم عرندس متدلى الأننين في حرج وخجل كالمضروب على وجهه بالصرمة القديمة . توجست من منظره ؛ حؤلت إليه كل اهتمامى ؛ فلما جلس قرب وجهه منى ومن هليل قائلا في أسف :

- «البنت الفوخة بنت الكاب أتعبتنى! تصور أننى بعثت بمن أتى بها غصبا عنها؟ لقد عنبتنى! كل مرة أخرج إليها أهددها بأن الضيف الذى عندى يقدر أن يحرقها! لم أقل لها من هو! وهى غشيمة لا تعرف من أخبار الجبل شيئا كثيرا! كل ما طلع عليها قولها إنها قد انخطبت بالأمس أواحد يعيش فى مصر وإنها كفت عن اللبط وفاءً للكلمة التى أعطتها لخطيبها!! بنت الكلب تطلع لنا فى مطلوع جديد تتصور أننا سنصدقها! إننى أصدق أن الكثيرين يمكن أن يخطبوها حتى مع علمهم بسيرها البطال! أما أنها تمنع نفسها عن السير البطال لمجرد أز شابا ابن ناس خطبها بالأمس فهذا لا أصدقه لكنى تعبت معها وهى تهدينى بالصوات

ثم اكتست عيناه ثوبا من الحزن الشفيف الأليم . شعرت أنه يوشك أن يبكى الشدة ورطته بين أن يوضح لى موقفه من إرغامها على المجيء وبين أن ينيع سراً لا ينبغي أن يذاع . وإذا به يقترب منى حتى يلاصقنى متربعاً فامسا في أننى بصوت أليم يقطع نياط القلوب :

- داللهم ابعد الشرعن بناتنا !! هذه البنت لها ظروف صعيبة !! مات أبوها ليفتدى نذلاً كان يحرسه ! النذل نذل لم يرع للمرحوم حرمة ثم يتق الله في عرضه وأولاده ترك البنية نهبا الأولاده الصبيان يعبثون بها فلا يردعهم !! خرقها أصفر الأولاد مع أنه المتعلم الوحيد فيهم بكل أسف !! أجهضوها !! قصوا لسانها !

كافأها المفترى الأب بأن تزوجها هو سترة على ابنه زواجها عرفيا !! المسكينة لا تعرف العرفي من الرسمي لكن الله انتقع لها بالعجل فالراد الذي خرقها بعد أن أصبح ضابطا في الجيش قتله اليهود في السويس نزلت على أبيه النقطة والعياذ بالله كسُّحته ! شهر واحد ثم اتكل على الله وبقى ولداه الكبيران كل منهما يريد أن يرث البنت كمارية والبنت تصون وتقول انها زوجة أينهم على سنة الله ورسوله لكن نسوان الدار تكفلن بطردها ليلا !! وكنت أمشى في شوارع البلدة ليلتها حين شفتها تتلكم في الظلام متتكرة في زي نفر أجرى من طائفة المعمار يحمل مسرة خلقاته !! كشفتها من طراوة مشيتها ضيفت عليها الخناق فبكت ! حكت لي ما حكت ! حيَّت بها إلى هنا فضاتها بعض الوقت ثم منجبتها إلى الزعيمة فوق الجبل حكيت لها حكايتها من طقطق لسلامو عليكم فبعثتني بها الزعيمة إلى ناس طيبين لهم مهابة المال وعزوة الولاد فشغلوها عندهم خادمة للأطفال وزربية المواشي !! بصراحة أنا المحقوق في أمر هذه البنية أنا الذي مبلتها مرة لتبيت مع شيطان من مهربي الساخيط رآها عندي قطار عقله ودقع لي مائة جنيه ولها خمسين مع قرع من الكهرمان الأصلى الأثرى وإولا أننا خدرناها بالحشيش والأقيون ما رضبيت أن تقك عظامها !! هذه البنت بون كل البنات أشعر أنني ظلمتها وأنني أنذل من الذي غدر بها فعذبه الله عاجلاً!! وأشعر الآن أنني لو ضغطت عليها فريما تموت وتجيء لنا بمصبية !! » .

ثم ضحك ضحكة هزيلة مكتومة كأنه يريد أن يقول بها : إنس هذه المأساة الفارضة وعد إلى ساعة الحظ التي نحن فيها . وجدتني أقول :

- «هذه بنت طبية وجدعة فلا تضغط عليها! دعها في حالها يابو العم!
 ساعدها على التوبة!».

استراح عم عرندس لهذا القول كأنني خلصته من ورملة ، وشعرت والله ياخال

أنه ميال لترك البنت في حالها ، فشعرت أننى قد أحبه ذات يوم . الدور والباقى على هليل الذي بدا كاسف البال كأنك داقت فوقه برميلا من المياه الباردة ، كأن خطته كلها فشلت ، فشوجت له قائلا :

- دخلاص ياهليل كل شيء نصيب وأنا مبسوط كل الانبساط فماذا يقلقك ياأخي؟! ه.

صار هلیل پردد کاته پیتهل:

- «الحمد لله كل شيء تصيب!! » .

ثم أضاف بعد هنيهة :

- «ومادامت الخوخة قد صدقت في وعدها وحفظت شرف خطيبها واحترمته
 في غيبته واحترمت كلامها معه فإننى متبرع لها بمائة جنيه تنفق في فرحها!».

قال عم عرندس متهللا:

- «كلك نظر ياهليل! على كل حال سأجعلها تجى، لتجلس معنا فحسب! هى ليس عندها مانع من الجلوس معنا لزوم الفرفشة أما أمور الدب والضرب في المليان فلا! والحمد لله أن أمامنا سكك مفتوحة على البهلى!! ».

وأشار إلى الراقصات . ولم يتم كلامه ، إذ أن فكيهة فعلت مثل أنصاف وزحفت نحوى على أربع ثم اختطفتنى من مكانى بنفس القوة والسرعة والرشاقة . فإذا بى بعد برهة ملقى على السرير الملوكى في الفرفة المقابلة ، وفكيهة تعريني من خلقاتى وتشخلعنى على نغمات المزيكة وأنا ضارب في سقف النشوة . ما كدت انتهى حتى قفزت علينا بديعة لكننى صرت خرقة بالية . صارت تداعبنى حتى دبت في الروح من جديد فقمت كالمفجوع كالمجنون . مزقتها ياخال ، أسلت الدماء من وجهها عضا وخريشة وكل ذلك من الملل أو من الشبع است أدرى ..

نزات عن السرير أجرجر ركبي . فما أن دخلت القاعة الأخرى متجها إلى

قعدتى السابقة حتى رأيتها يابوى فتسمرت في مكانى . تخيلت أن شللا أصابنى يابوى ، فانهمرت الدموع من عينى . أما عين هليل فقد جعلت ترقينى بنظرة حادة جدا وغامضة بما لا أعرف إن كانت شماتة أم إشفاقا يابوى . ثم إننى دققت النظر فيها لاتلكد أن الأمر حقيقة وليست من التهيؤات . إلا أن الحقيقة كانت صادمة ، فالتى أمامى هي بعينها «حنة» ، حبيبة قلبي حنة ، التي خطبتها من نفسها بالأمس . وأخذت الأرض تميد بي ياخال .

ياطسه

أدركت الآن قحسب ما الذي قصده هليل بارتكاب هذه المغامرة الفريدة على يريد أن يثبت لى - عملياً - أن حنة ليست جديرة بأن أنزوجها إذ هي تمشى في الطريق البطال ، وكان من المكن ألا أصدقه لو قال لى ذلك وكنت على وشك أن أركب رأسي وأجلب لهم العلل المدي الحياة بهذه الزيجلة . فإذا به من حيث لا يقصد يثبت لى ولنفسه أنها بنت تستأهل السلامة وأنها كفيلة بأن تصون شرف زوجها وتحمى عرضها . المشكلة الآن ليست فيها بل في هذه المفاجأت التي دهمتني بخصوص الزعيمة : سعدية ولد أبي ضب تصبح زعيمة في الجبل ، وعرافة يطلبها علية القوم من مجلس قيادة الثورة ؛ فيما أنا سواح كحيان في بالاد

أفقت على هليل يسندنى من ناحية وعم عرندس من الناحية الأخرى خشية وقوعى وأنا أحاول الجلوس . كانت نظرة حنة قد تسمرت على وجهى فى اندهاش وفزع ، لا تنى تريد مأخوذة : «هو أنت ؟! هو أنت ؟! هو أنت ؟! ه وأنا الآخر أريد نفس العبارة . وإذا بها تتخرط فى البكاء ، فما كان منى إلا أن انهمرت موهى غزيرة كالسيل فيما أريد :

- «سامحيني ياحنة! سامحيني ياحنة! أنا مازلت عند وعدى!! ».

ظم ترد ، إنما تسللت خارجة وهي تنتفض من البكاء . جزعت ياخال ، فطمأنني عم عرندس:

- وإطمئن فهي تحت يدي في أي وقت تشاء المهم أن الزعيمة بعثت الآن تريد

أن تراك !! الركائب جاهزة بعد أن تستحم وتستريح لك سساعتين ! أقد مستحداً وسيكون هليل مساح فكن مستعداً وسيكون هليل معنا !! ».

لم أعط منطقا ياخال . مسحت دموعى وتبسمت درءاً الكدر المفاجىء ، فتبسموا جميعا وقالوا في نفس واحد :

~ «كل شيء قسمه وتصيب !! » ،

فما وجدت قدرة على النظر في وجه أحد ، وأهم شيء شغلني آنئذ هو أن أقرم لأرتمى فوق السرير فأستغرق في نوم عميق لا أفيق منه مطلقا ، لكنني ما كدت أشرع في النهوض حتى دهمنا صوت صراخ ملتاع ؛ وأضاءت الردهـة بنور ساطع صار يقترب ؛ وإذا يشجرة من اللهب المخضوضي في توهج تعير باب القاعة في اندفاع مذهل ممارخ ، وممون باب الشارع ينفتح . قمنا فرعين ، عبرنا الردمة إلى الشارع . كانت رائحة احتراق اللحم البشري زاعقة خانقة ، في الشارع كانت شجرة اللهب تواصل الجرى بعشرات الألسنة المدبية وصرخاتها تمزق جوف الظلام تتداح في أعالي الجبل؛ ونحن جميعا نجري وراعها بأقمني ما فينا من سرعة ؛ والألسنة اللهبية المتدة تسود شيئا فضيئا تحت عباءة من الدخان الأسود رأيناها على البعد ترتمي فوق الأرض هامدة فتباطأت خطواتنا في يأس مرير ثم توقفنا ذاهلين عاجزين . كان هليل قبالتي منكس الرأس صدره يعلق ويهبط ، هما دريت إلا وذراعي ترتفع ثم تهوي على صدغه بضربة تقطر حقداً وسخطا ، ثم ارتميت على الأرض فانقطعت صلتي بكل شيء .

لعيب

الشمس كانت متبرجة على أتم زينتها يابوي في ملاقاة صبحها الفتى . قد صبغت وجهها وخبودها باللون الوردي . كانت تخادعنا حتى لا نراها وهي تنفرد به تتعشقه إذ هي تزحف نحو جبهة الضوء شبئًا فشبئًا فتحتوبها خلف السحاب ، ثم تسقط به خلف هامات الجيل ، تقبِّل الضوء ويقبلها ، تشمنه بالضحى اللاهب ، فيشحنها بذكريات الأمس البعيد ، وجين انتهت تعالنا من اللف حول الكثير من الهامات العالية ، وصعود القليل من الهضياب القرمية كان الصبيح قد شب عن الطوق ، فالتقيناه مبيا فتيا على مشارف أعلى هضبة في الجبل ، هضبة مخبفة وساحرة باخال تحلف اليمين أنك لو كنت جنياً أمك من المريخ وأبوك من الشلال ما استطعت الوصول إليها وحدك بغير دليل تربى هنا منذ الطفولة فأصبح يعرف الفرق بين الشيء وشبيهه ، والاسم وسميه . ذلك ياخال أن هذه الهضبة قد مرربنا في الطريق بعشرات منها ؛ وإنك أثناء سيرك بجوارها لا تعرف إن كنت تتقدم أم تتأخر ؛ لا تعرف إن كنت تمشى بجوار نفس الهضبة أم هضبة أخرى ، والشمس أحيانا في وجهك وبعد دقائق فوقك أو خلف ظهرك أو على يمينك أو شمالك وأحيانا لا وجود لها في السماء المرئية لك بين شقين مرتفعين يفصلهما طريق ، إنك ياخال تمشى في مواجهة الشمس ساعة أو أكثر وفجأة ترى الشمس قد صارت وراء ظهرك قبل الأوان . حقيقة الأمر ياخال أنك حودت أثناء السير دون أن تدرى عائدا إلى الخلف ، والتحويد يتم ببطء على امتداد طويل ؛ حتى لتظل تظن أنك تمشى في خط مستقيم . ونفس الهضية ربما كانت على يمينك فإذا اهي فجأة قد صارت على

يسارك . ولى أن طائراً أراد أن يقطع مشوارنا ذاك الذي نقطعه في أكثر من ساعتين فقد لا يستغرق بضم دقائق ..

ركض الركائب يدوخ الراكب؛ والطريق دواره كما للبحر أيضا ياخال . هضاب ثم هضاب ، تعشى فوقها ياخال وأنت متخيل أنك تعشى بجوارها ؛ تصعدها وأنت متخيل أنك حاورتها فتركتها خلفك ، إذ أنك كلما اعتليت قمة طالعتك من فوقها قمة أخرى لهضبة كالتي تطالعك وأنت ماش في سفح الجبل على السواء . أما المشى فوق الهضبة فإنك لن تشعر به . هذه الهضاب لابد أن تكون مسكونة من الأزل ياخال ؛ فلا يقوى على ضرب هذه الصخور واختراقها سوى الفراعين الاتوياء ياخال ، يشقون الحجر بالحجر والسماء بسماء مثلها ؛ ولد فتوات بابوى ..

راوغتنا الشمس كثيرا ، وتسلطت على أقفيتنا حتى شوتها . كنا كأننا نجترى ، على سلمها الطزونى فثلف حولها نبتعد عنها مرة ونقترب منها مرات . وكانت كأنها تتوارى لتأخذنا من الخلف على حين غره ..

ضؤل خيالنا تماما صار بطشة ظلال تحت أقدامنا . خطو البغال قد ثقل إلى أقصى حد ، رقابها صارت قرب صدورنا من فرط الصعود . نزل عم عرندس عن بغلته وجعل يسحبها ماشيا أمامها على رجليه ناظرا إلى أنا وهليل فترجلنا وفعلنا ...

بعد خطوات طويلة اخضر لون الشمس فقلنا إنه اخضرار اللهب هي أوج استعاله ؛ فمن عجب ياخال أن الأخضر الرطيب كامن في الأحمر الملتهب الأوار . الله وكيل ياخال ، سبحانه جلت قدرته : أن تكون النار هي نفسها الماء الذي يطفىء لهيبها كما سمعت عمى الشيخ ذات يوم وهو يشرح لجلاسه بردة البوصيرى : الماء في النار ، والزرع في الماء ، والشيطان في الإنسان ؛ حقا ما

عفريت إلا بنى أدم صدقتى يابوى . كل شيء في كل شيء ولا يفهم معنى الأفكار والخلق وحكمة الله إلا من عاش في مثل هذا الجبل . شيئان فقط لا يجتمعان في هذه الدنيا في كيان واحد : الله والشيطان ؛ فسبحانك اللهم جات قدرتك ؛ اللهم اغفر لي ما ارتكبته الليلة المنصرمة من ننوب ..

المسافة بين اللون الأخضر وقرص الشمس أخذت تتسع ؛ وأخذ قرص الشمس يرفع صدره عن الخط الرمادى الفامق يبتعد ثم يبتعد – الخط الرمادى المقوس المنبعج بدأ ينفصل بدوره عن اللون الأخضر يلتحق بموكب الشمس فى السماء . ثم بدأ خط من الخضرة الرمادية الكثيفة يمتد أمامنا طالعاً علينا من بئر الأفق . سرعان ما أخذ يتدملج يغلظ يفقد تناسقه . فإذا بنا أمام سور مزروع حول أسلاك شائكة يمتد فى جميع الجهات امتدادات لا نهاية لها ؛ بداخله غابات شديدة الكثافة ياخال . جزورين وكافور وصفصاف وتوت وجميز وفواكه من كل الألوان ؛ جميع أنواع الروائح من زهور وورود وثمرات تسطع فى الأفق ؛ الكون كله زكى جميع أنواع الروائح من زهور وورود وثمرات تسطع فى الأفق ؛ الكون كله زكى ألالرائحة ياخال . ولكن ، من ياترى ذلك القلب العظيم الذى يسكن هذه الجنة ؟! ...

توقفنا برهة نلتقط أنفاسنا التى تركناها فى سفوح الطريق فصرنا نتساند على البغال وينتظر فى السفوح خلفنا فنحس كأن أنفاسنا تشدنا قبل أن نشدها . للعجيب أننا لم نر من تحتنا أرضاً يمكن أن نتهاوى فوقها إذا وقعنا ؛ لم يكن أمامنا سوى صخور ناتئة كحراشيف الجبل تزداد رقاعها اتساعا كلما تسافلت ..

مشينا بحزاء السور المزروع الذى كان على يدنا اليسرى ولم يكن يظهر لنا أننا فوق هضبة ؛ إنما نحن – رغم كل هذا العلو الذى صعدناه – لا نزال فى سفح من السفوح ؛ فها هى ذى هضاب كثيرة تبدو قممها الهائلة من جميع النواحى على امتداد مسافات هائلة ؛ وكان الطريق يتسع على يميننا شيئا فشيئا إلى أن أنقرض من جانينا تماما وحلت محله أرض رملية عريضة مترامية الأطراف

تحوطها الهضاب من ثلاث جهات ، وبدا كما أو أن قرص الشمس قد حصرنا في ركن ظليل من هذه الجنة فعزلنا عن كل ما يربطنا في الأسافل ، وهنا نطق هليل بعد صمت طويل:

- «او كنت أعلم بوجود هذه الجنة اصرت من كبار المطاريد!! » ·

وقال عم عرندس :

- «ليس كل مطرود في الجنة ياهليل !! » .

وقال ولد من الأتباع لا اسم له :

- درحم الله خرابة ! هو الذي استوبان هذه المدينة وعَمَّرها وكانت في الأصل يحتلها جماعة من العربان الهلالية ذوو الأظافر الطويلة واللحى الخشنة !! كانوا من أقدم عتاة المطاريد والتائهين ومجانين الجبل !! لم يتركوا مكانا في الجبل إلا وذهبوا إليه عريدوا فيه !! وأصل الحكاية أنهم كانوا يصاحبون القبط يضحكون عليهم بغرض الحماية فعرفهم القبط على مخارز الجبل فلما جاءوا إلى هذه السقيفة وجدوا أشجاراً مزروعة من قديم الأزل ومن تحتها دير صغير محندق يعيش فيه بعض الرهبان العجائز يقيمون الصلوات!! » .

وافق عم عرندس على كلام الواد وقال إن هذا الدير موجود وسوف نراه لكته تحول إلى مسجد صغير على القد بمثابة خلوة تقضى فيها الزعيمة معظم لياليها مع قضاتها ومشايخها الزاهدين . فقال الواد الذي من الأتباع :

- دالعربان الجبابرة هدموا سقفه ولم يقدروا على هدم الجدران !! ناس شغلتهم الهــدم أما نحن المصربون أبا عن جد فشغلتنا البناء هكذا قال لهم خرابة !! ولما سكن هنا كان العربان يخزنون في الدير سرقاتهم وهم الذين قتلوا الرهبان الثلاثة واحدا بعد الآخر بحثا عن كنز ظنوا أن الرهبان يحرسونه لكنهم لم يجدوا شيئا !! وفي ليلة نام فيه خرابة فجاءه في المنام هاتف على هيئة تمثال

رمسيس قال له : قم ونظف هذا الكان فإنه أأمن مكان في البلاد كلها لأن روحة إله الخير جات بجثته التي جمعتها من كل مكان وزعها فيه أخوه إله الشر فدفنتها هنا ويقيت بجوارها تبكي وتصلى حتى فاضت من دموعها مياه صنعت نهر النيل وغطت كل الهضاب وجرفت المرأة الوفية الطبية وحملت جثتها الغريقة إلى الإسكندرية أنعم الخبر في الوجه البحري كله لأن الجثة ذابت في الماء فمعلت اربنها أحمر كالقفار!! فقام خرابة من رقته فنظف المكان وجعل منه قعدته ومسكنه فجاءه الهاتف مرة ثانية في ليلة جمعة وقال له : قم واحفر الأرض ألم تر الأشجار من حواك باخرابة ؟ قال : بلي ! قال : ألم تعرف أنه حيث وجدت الأشجار توجد المياه؟ قال : بلي ! قال : قم واحفر الأرض من تحت رجليك تجد المد فاسق هذه الأشجار واعلم أن كل شجرة من هذه مدفون تحتها رجل نكر الله وسبِّح بحمده !! عنها وقام خرابة فجاء بالرجال فظلوا يفحتون في الرمل أسابيم وأشهر والعربان يرمونه بكل جنون !! خرابة طول عمره عفريت عرف من سهولة الرمل تحت قدميه أن الأرض الصلبة لاتزال بعيدة جدا فصمم على أن يلامسها حتى وجدوا تحت ثلاثة أمتار من الرمل أرضا مربعة من الرخام مجوفة من أطرافها الأربعة تجويفات تتسم لقبضة بد كبيرة لتقبض على بد موصولة متينة !! سرعان ما وسعوا حول هذه الرخامية العريضة وكان الرمل أشبه بعجينة الفخار والمياه تنزحول الرخامة !! ي

قاطعه عم عرندس مكملا بلذة :

- دجبار طول عمرك ياخرابة ! ما فعله لا يجرق على فعله أحد ! جاء بسبية من الحديد بثلاث قوائم كسبية الجزار بالضبط ! كميزان القبانى ! في أعلاها بكرة من الحديد مجوفة وممثلثة بتكويرات حبل تخين مجدول من أربع أطراف من ليف النخيل ! ربط كل طرف في قبضة تجويف من تجويفات الرخامة ربطا محكما !

وأمسك بطرف الحبل حوالى خمسين رجلا عنيا صاروا يشتون! ورجال آخرون بأسلحة الكريكات يغززون الرخامة في مرقدها يفصلون شفتها عن شفة الأرض! هيلا هـــوب! هيلا هوب! الهمة يارجـال! ما كادت شفة الرخامة تنفصل عن شفة الأرض من إحدى الجهات حتى أسرع فريق من الرجال بوضع شجرة كافور مقطوعة! صاروا يرفعون طرف الشجرة حتى انتصبت الرخامة واقفة على سيفها فقلبوها على ظهرها! أنا على فكرة شاركت في رفع هذه الرخامة شاهدت البئر من تحتها كنت أول من ذاق طعم مياهه فاستحليته كمياه النيل بل أشد حلوة! كان مبنيا بالحجارة وقام خرابة ببناء قبة فوقه لها أبواب وشبابيك في كل شباك دلو مربوط بحبل متين! وابنتي قناة موصولة ممدودة في أعماق المنطقة حتى آخرها كما ابنتي لنفسه السراية المجاورة لجدران الدير وجاءت الزعيمة فبنت

البغال تمهات وحدها يابوى . بدأت نقط بيضاء تلمع فى بحر الفضرة الواسع، برزت فى بيضتين كبيرتين متجاورتين بين الأشجار فاستطعت أن أميز فيهما قبة البئر السبيل وقبة المسجد الخلوة ؛ ومن خلفهما سراية مشرقة مثل سرايات البئر السبيل وقبة المسجد الخلوة ؛ ومن خلفهما سراية مشرقة مثل سرايات البئوشات . ثم إن الوجوه السمراء الملوحة بدأت تكثر حوالينا داخل جلابيير من البيسة الزرقاء يتفصصوننا بابتسامات بلهاء ويهزرون مع عم عرندس بكلام قبيح جارح وهو يلعب لهم حواجبه سخرية منهم وهزءاً بهم . فما أن وصلنا إلى باب حديدى متين أعلى من قامة الرجل الفلق حتى جويهنا بعاصفة عنيفة من نباح حديدى متين أعلى من قامة الرجل الفلق حتى جويهنا بعاصفة عنيفة من نباح الكلاب لا ندرى هل ترحب بنا أم تنذر بافتراسنا . انبرى أكثر من هلف يسكت الكلاب فلا تسكت ؛ صوت تعربها على الجنازير يصلصل بشدة يصنع ضجيجا مخيفا مثيرا للأعصاب ..

الباب الحديدي مغلق لكن كله عيون مفتوحة ، كل عين تطل منها فوهـــة بندقية

أو قوهة عين حارسة . لم تكن نقترب من الباب إنما كان هو الذي يستدير ببستانه ليواجهنا . شرفة السراية تبدو كان السراية التقت بها وجاءت تواجهنا بباب مشغول بالنحاس . فإذا بهذا الباب ينفتح بدرفتيه فيطل من داخله بستان ضخم زاهي الألوان ياخال ، تكاد ألوانه الزاعقة الكثيرة تصبح في طرب بهيج . برهة وجيزة ثم ظهرت الملكة نفرتيتي بحجمها المحندق ومشيتها الملوكية . ما أن لفظها الباب حتى انفلق من تلقاء نفسه . حاجة تهوس يابوي . أما الملكة فإنها تهادت نحو سور الشرفة المسقوفة ، في خفر وجلال تلف رأسها بطرحة بيضاء كالفل بدت كالتاج المزين بخصلات من شعرها المتكور في دوائر مرفقة ببعضها بالطرحة بيبابيس على هيئة ورود وزهور وأوسمة وجعارين من ثمين المقتنيات التي استورثها خرابة من بطن الجبل عن أجداده الفراعين : عقود من الذهب مطعمة بالدر والياقوت ترصع معصميها وهي عاقدة ذراعيها فوق مدرها كوقفة العذراء بنفس الوداعة ..

بدت لى الملكة ياخال على عاية من الوثوق والإطمئنان تملك فى يديها أسرار النيل وخط سير الكواكب وفى خزائنها دفاتر تحوى خرائط محطات الشمس دقيقة بدقيقة وخريطة المياه بقعة ببقعة وجدول الحياة المقبلة لحظة بلحظة ، أمال يابوى حاجة تهوس والله يابوى ، أهذه الملكة بجلالة قدرها ، المطلة من شرفة من داخل شرفة من قصرها هى أختى سعدية أرملة خرابة ؟! حتى لو حظيت بلقب فراشة الجبل أو زعيمة الجبل من أين جاءت بمثل هذه البذلة الوقور التى ترتديها من قطعية واحدة ملفوفة حول الجسد بحرفنة فائقة لا تعريه ولا تخفى معالمه الأساسية البارزة بكل وضوح ؛ تاشة داكنة اللون تستقبل ألوان الطيف بلمعة مزدهية كالمرأة يظهر يظهر من ئها الجسد مضاعف القسمات مضاعف الجمال طاغى

السحر ياخال . وللخلق الله ، لابد أن تكون هذه البذلة أيضنا من مستورثات خرابة من طول عسه في الأرض فكل الأرض المسيدية مقابر كالضمير الففل تحوى الكنور ..

قد جاك أيتها الملكة من بات مقتونا بكل هذا الذى يخرج من بطن أرض الصعيد يحكى ما يشبي له الولدان من حكايا . بمثلها بات الحاج أحمد خوار الدين السني حاكما على البر كله تأتمر الحكومة بأمره وهى تدرك أنه محض نصاب ضلالي لا ذمة له ولا دين . نهارك قل أبيض يافراشة الجبل يازعيمته . السوف تكونين المسبب في نجاحى ؛ لا أنوى نجاحا يجعلني مثل الحاج أحمد نوار الدين السنى بل أرغب في أن أحكم الحاج السنى بذات نفسه فيصبح من بين خدمى ..

تحلف اليمين يابوى أن الله ركب لى جناحين فى الخفاء طرت بهما فكلما اقتريت من الباب الحديدى ازدادت هى التصاقا بسور الشرفة تكاد ترمى نفسها نحوى لولا ما يفصلنا من سور وزرع وقنوات وأسلاك . كانت البسمة على شفتيها تهتف : حسن ! حسن ! إن هى إلا برهة حتى انفكت الجنازير عن الباب الحديد فانفتح مزيقا ، فظهر عديد من الرجال يحوطون الكلاب يعلقون البنادق فى أكتافهم. تركنا البغال لمن تولاها ؛ إندفعت أجرى فوق ممر من الزاط الملون صاعداً سلما مواجها ، ارتمينا ، الملكة وأنا ، فوق بعضنا ؛ فوقعنا سويا على الأرض ننهمر فى بكاء حار عميق تتخلله ضحكات نزقة يتبختر صوتها فى طيات صوت الذهب واليواقيت .

أكسيسل

باشوات من يابوى؟ ملوك من؟ هذه هى القصور وإلا فلا. البهو طويل واسع. على الجانبين أبواب كثيرة مشغولة بالنحاس الأصغر اللامع على هيئة عقود كبرواز صفحة المصحف الشريف لكته ملى، بالنقوش الفرعونية التى تحكى قصصا يمكن تتيعها منظرا منظرا المقابض من عاج وفضة الأرض مفروشة بسجاد شين ملون السقف مشغول بالزخرفة الملونة كأبسطة منقوشة لتوها أثرى يابوى من الذي قام بشغل هذا السقف وهذه الأبواب وهذه الثريات المتدلية كأفرع الزهور وعراجين البلع الكها من البللور في وسطها مصابيح بالورية كبيرة تضاء بالشموع اهنة والكراسي والمقاعد والمناضد ذات الأرجل المشغولة المرسومة على بالشموع المنة وأشكال حيوانات وزواحف وطيور جارحة ؛ إن رجل الكرسي وحدها تساوى ألوف الجنيهات من كترة ما فيها من شغل وتطعيم . فوق المناضد جميع المعادن والأحجار الأصيلة . هذا البهو وحده متحف يابوى ؛ وإن ما سرقته أنا من مقبرة الحاج أحمد نوار الدين السنى لا يجيء شيئا بالنسبة اركن واحد من هذه الأركان المتخفة ..

الملكة جعلت ترقبني يابوي ، تكتم ضحكها من كثرة توقفي عند كل خطوة للنظر المنبهر في هذه الأشياء . قلت لها :

- «من أين جاءتك كل هذه الثروات ياأخت السعد ؟! » ،

انفجرت ضاحكة:

- ولا ثروات ولا دياولو !! إنها هنا أكثر من رمال المحراء يلعب بها الأولاد ويتقانفون بها عند العراك ويبيعونها بكلمة : شاطر ياولد !! لو لم تكن الحكومة تضبطها وتحاكم حائزها لأعطيتك منها أجولة !! على كل حال إنها تنفعني أشترى بها أتذن شارب في الحكومة من صغيرها لكبيرها !! ».

قلبى راح يرقص ياخال ؛ لكن الانقباض حل بصدرى بمجرد نكرها كلمة الحكومة ؛ فإن هذه الكلمة اللعينة تصيبنى بحكة الهرش فى دماغى وأجنابى . قالت الملكة باسمة :

- مماذا دهاك يا أبا على ؟! » .

اغتصبت بسمة مرة الطعم :

لكن من الذي وضع لكم كل هذه الرسوم والزخارف في هذا السقف ؟! هل
 جئتم بناس من مصر ؟! » .

ضحكت الملكة في صفاء كأنها لم تضحك منذ عمر طويل قالت وهي تغمزني في كتفي:

- «المرحوم هو الذي فعل كل ذلك ألف رحمة ونور تنزل عليه !! كان جباراً قويا ورجلا ! كان خسارة في الموت ولو لم آخذ بثاره لحظة قتله لبقيت طول عمري في مستشفى المجانين !! المكومة لا تستنذل إلا في اللحظة التي يجب أن تكون فيها محترمة وإنسانة ! لحظة وقوع الأصيل بين يديها ! إنها تخاف ولا تختشي !!

أه ياحسن لو تعرف الدمامل الوارمة في قلبي من الحكومة ! لقد ضربت رأسها في الحائط حتى تتمكن من القبض على الفارس الذي قتل ذلك الحكمدار ولم تعرف حتى الآن أنني ذلك الفارس !! نجاني الله لحسن معاملتي لجميع سكان الجبل ولأن الحكومة لا يمكن أن تجد لنفسها مرشداً من أهل الجبل !! وسأبقى ساكنة في هذه الحكومة !! » .

- والزمن لا أمان له ! ي .
- «سعدیة التی تبحث عنها الحکومة لتحقق معها باعتبارها روحة ثانیة لخرابة
 قد تفیدهم فی شیء ماتت یاحسن وطلعت لها شهادة وفاة وتم دفن جثمانها فی مقبرة العائلة ألم تعلم بهذا یاحسن ؟! » .
 - «لا والله فكيف حدث ؟! » .
- دما أكثر من يمتن في الجبل من نساء ليس لهن في الأصل شهادة ميلاد !! تخيرت واحدة منهن أعطيتها اسمى وصفاتى !! ماتت في هجمة للحكومة على سفح الجبل !! الحكومة وجدت من مصلحتها أن تقتنع فاقتنعت !! » .
 - يالك من جبارة! » .
 - «لست جبارة ! إنما أعرف كيف أشغل مخى عند اللزوم !! » .

ارتفعت حواجبى من الدهشة ؛ تطف اليمين يابوى أن شعر حواجبى رقص .
تيقنت لحظتئذ أننى أمام واحدة أخرى لم يسبق لى معرفتها من قبل . نعم يابوى
هذه ليست أختى سعدية بل هى شخص أخر لم نكن نفهمه ، ولا هى نفسها كانت
تعرف نفسها من قبل ياخال ..

رأيتني أقف أمامها كالتلميذ المؤدب . أخذت أشوح بيدى متلعثما :

- «ولكن! كيف ياأخت السعد؟ كيف يعنى تعيشين وحدك في هذا المنفى؟
 وكنف تتصلين بالحياة؟! ».

وه ياخال من هذا البريق الذي لمع في عينيها والذي كنت أجرى من أمامه هاريا لولا أنها كانت ممسكة بكتفي بقيضتها القوية ، وتضغط قائلة :

- «تجيئنى كل الجرائد هنا !! والراديو والتليفزيون يشتفلان بالبطارية السائلة كما أننا نولد الكهرباء هنا !! قرأت وسمعت ورأيت مقتل جميع أعدائى بأسمائهم وصورهم !! الواحد منهم كان يجد نفسه فجأة تحت عجلات لورى أو مصر با برصاصتين وسط قرح من أقراح أسرته أو مستدرجا القيض على عصابة أو صفقة حشيش وهمية قما أكثر الطرق التى يمكن أن تتخلص بها من أعدائك ياحسن بأرخص التكاليف !! لكننى بعد الإنتقام ممن حكموا على بالترمل في عز الصبا وعلى أولاد زوجى باليتم في عز الصغر قنعت بذلك ونثرت عمرى لعبادة الله وعمل الخير !! ألم تعلم بأتنى طلعت الحجاز ؟ نعم طلعت باسمى الذى يعرفنى به الجميع : الشيخة سعادة ! هناك قرأت الفنجان للأمراء والمشايخ صدفة أول الأمر ثم ذاعت شهرتى لأننى كنت أجيد قراءة شخصيات الناس وأنسبها للفنجان !! وفي الدير القديم هنا وجدت كتبا كثيرة في السحر وحساب النجوم وتقسير بعض المشايخ والفقهاء الذين جئت بهم يعيشون معى هنا فأصبحت بفضلها ويفضلهم شخصا آخر !! » .

القشعريرة ركبتني بإخال ؛ لم أعد قادراً على التحرك من مكانى ؛ لم أعد أعرف إن كنت مسحورا بأختى الملكة ، أم بسحر هذا القصر المسحور . شعرت بأصابع للملكة وهي تداعب ذقني التي تعلقت بالسقف :

- «هذا القصر كله كان مدفونا تحت الرمال ويقول أحد أصدقائى الفقهاء إنه كان في الأصل مقبرة أحد الملوك القدامي! أما هذا البستان فكان صغيرا ووسعه غرابة وأحاطه بهذا السور!! من حسن المغل أنه ليلة دخلتي أطلعني على سر هذه الكراسي بأنها من الذهب!! » .

على سبيل المزاح قلت لها:

- «أما فكرت في الزواج ياأخت ؟! » .

المرقرقة الدموع في عينيها:

- «لم أجد من يملأ مكان خرابة في قلبي !! فطمت روحي !! لم أعد أشعر

برغبة في حضن الرجال بعد ما زهدت في كل المباهج !! كلما هاجت عواطفي نحو وجل ظهر خرابة ووقف بيننا ! إني ان أخونه أبدأ لأنه سيظل يعيش معى طول عمري ! ولكن قضك من هذا وتعال نتفدى ! أين هايل ؟! » .

تذكرته فتلفت مذعوراً ؛ مضبت خارجاً أبحث عنه وهي من ورائي ، إستندت على سور الشرقة وسط مظاهرة الكلاب وباديت : يا هليل ، وكان هو قد سرح مع عم عرندس يتفرج على أشجار البستان وزهوره ليتركني مع أختى نفضفض مالأسرار على راحتنا . ها هو ذا أت برقل في خلقاته التي علاها الغبار فصيار ينقضه عنها بضرب نقيبه على كتفيه وصدره ، استقبلته الملكة بحرارة شديدة وخُجل أشد . مضت بنا في الشرفة الجانبية فإذا هي ممتدة بحزاء القصر تلف حوله ساير داير ، والأشجار المتنوعة ترمى بأقرعها وأوراقها وظلالها على طول الشرفة صانعة تندة إضافية يتمنى المرء البقاء تحتها مدى الحياة متفرجا على حمدم أنواع الحبوانات الأليفة والطبور وهي ترتع فوق العشب والحشائش وفي البحيرات والقنوات المصنوعة في الأرض بهندسة وحرفنة . دخلنا إلى البهو من باب جانبي في الخلف ، عبر ممر مفروش بالسجاد في أركانه مناضد عليها تحف ومساخيط . من البهو عبرنا إلى قاعة كبيرة فيها ترابيزة مائدة برخامة بيضاوية الشكل وأرجل مخروطية مشغولة بالنحاس والفضة وقعداتها من الخبزران الشبيكة. هناك بوريه ضخم بعرض الحائط فوقه رخامة ومرأة ضاعفت من عددنا أظهرتنا كمدعوين في حفل كبير تقيمه الملكة . سحبت الكرسي لأجلس عليه متوقعا ثقله فإذا هن في خفة الهواء . ثم إن العبيد أخذوا يتوافدون علينا بالأطباق التي لم أر لها مثيلا في الأسواق . بعد ذلك جيء بالشاي الأخضر - عشنا وشفنا - ثم خراطيش كاملة من علب السجائر المكن من أشهر الأصناف . لا ، لا باخال ، است أصدق أنني في الجبل ؛ فكما أن أختى سعدية حلت محلها هذه الملكة فإن الجبل مو الآخر صبار قصرا من قصور ألف ليلة وليلة ،،

ألمت لنا الملكة إلى أن كل شيء هنا وفير إذ أن الزيارات ترد إليها كل يوم من كل مكان حاملة ما ليس يعرفه الناس في البلدان ، فكل زائر لمعشوق له في الجبل يحرص دائما على نادر الأشياء وعزيز الأصناف وثمين الهدايا . ألمت كذلك إلى أن ماكينات المياه ومواتير توليد الكهرباء تملأ الجبل داخل أبار محفورة لها خصيصا في أعماق الأرض ومغطاة بأعطية ثقيلة متحركة لينكتم فيها صوت المواتير تمتصها بطن الجبل فلا يشعر بها . حاجة تهوس يابوي ..

طاف بنا صوت الملكة :

- «تشوفا مزاجكما الآن أم تتمددا قليلا ؟! » .

في صبيحة واحدة خرج صوبتي وصوت هليل:

- «نشوف مزاجنا بالطبع !» .

أشارت بيديها النحيفتين الجميلتين أن قوما ، فقمنا ، فمشت أمامنا تتبختر كالأوزة ، خرجنا من قاعة المائدة عبرنا البهو إلى المر الذى دخلنا منه ثم هبطنا سلما في نهايته ؛ مشينا فوق الحصباء نحو بناية ملحقة بالقصر محندقة ومخفية بين الأشجار ، قلت : «قصر آخر ؟! » ، قالت :

- « هذا هو القصر الحقيقى ! ما كنا فيه مندرة الاستقبال الزوار . أما هذا القصر فهو المريض ! المسكن ! متى ما دخله مخلوق لا يستطيع أحد أن يهتدى إليه !!

اقشعر بدني:

- «كسبنا صلاة النبي! » ،

ضحك هليل فضحكت هى الأخرى ، مضت تصعد بضع سلمات ؛ فتحت بوابة قصيرة القامة كبوابات السراديب والحانات القديمة ؛ قالت : «بسم الله الرحمن الرحيم ! تفضلوا ! » . ثم تناوات عصا طويلة من جوار الباب رفعتها دفعت بها السقف دفعة واحدة فانزاحت عن السقف طارة خشبية مشغولة بنقوش تقوم على أربع أسياخ من الحديد تبيت في مجار لها . تدفق ضوء الشمس ؛ فإذا نحن في مربع ضيق كالمربعات التي تسبق قاعات الأضرحة غير أنه مغروش بالسجاد الفخم وبه مقاعد من الرخام مثبتة في الحوائط ، وفي المواجهة باب بدرفتين من النحاس المبطن بخشب البندق . دفعته برفق فانفتح عن طاقة من النعيم : باحة عريضة جدا بها أسرة تشبه الكراسي ، وكراسي تشبه الأسرة ، كلها غارقة في الناموسيات والملاءات والستائر ذات اللون السماوي بدرجاته المختلفة . هنا باخال كبس علينا النوم فجأة ؛ فابتسمت الملكة وهي ترانا نتنقل من سرير إلى سرير على سبيل التجريب إلى أن استقر كل منا على سرير وغاص في غيبوية رائعة ، ثم سحبت الباب خلفها برفق وخرجت . وحينما عادت لتوقظنا كنا نظن أن خمس دقائق فقط مرت ؛ ولذلك أصابنا الذهول عندما أنباتنا الملكة أن ظهر اليوم التالي قد أتي وأن الغداء في انتظارنا .

كان في نيتى أن أبقى بجوارها في هذه الجنة لأصبح من رجالها بدلاً من الأغراب؛ لكنها غمزتني بنظرة دافئة:

«لا تتعجل الأمور! وجودك بجوارى خطر علينا كلينا! ووجودك فى مصر
 خير لنا معا! فامض على بركة الله تصحبك دعواتى! وأما فكرة الزواج فدعك
 منها الآن! دعنى أخطط لمستقبلك كما أهوى!!».

وفى طريق عودتنا من الجبل كنت كمن قام برحلة إلى دولة أخرى على شمال السماء حقنتنى بدم جديد فكأننى قد صرت أنا الآخر شخصا جديدا كل الجدة ياخال.

ذمة ودين يابوى أننى لا أستطيع وصف حبى لصاحبى هليل - إنه العقل الذى يفكر لى وبدير أمورى دون أو جهة ؛ حويط غويط كنهر النيل - فى اليوم التالى لعودتنا من الجبل سائته على سبيل المزاح :

- « ألم يعرف الحب طريقه إلى قلبك يا هليل ؟! »

وكنت لا أزال متأثرا بموت حبيبتي التي أحرقت نفسها لما عرفت أنني رأيتها في وضع غير مستور ، ولكن هليل ظهر عليه كأنه لم يسمع سؤالي ، فأعدته عليه :

- « ألم تعرف الحب أبدا يا هليل ؟! »

فاضاء وجهه بإشراقة تاصعة ؛ وشملته رجفة كأثى ضبطته في حالة عرى • ثم راح يهمهم كأنه يكلم نفسه :

- « عرفته يا بو العم إن حبى هو الحب المستحيل! إنهم فلست أرضى بأقل منه لكن الحبيب يسجن قلبه فى مكان بعيد لا يعرفه أحد!! لا أظن أن فى الدنيا حبا كحبى يابو العم! حبكم هذا لعب عبال أما حبى فهو الحب الحقيقى! وهو يشاغبنى يابو العم! كلما تخيلته قريبا إبتعد! كلما اقترب اختفى!! » .

وزفر زفرة حارة ، عاجلته :

« وهل أنا أعرف حبيبك يا هليل ؟ ! هل هو من البلد أم من مكان بعيد؟!
 ولاذا لم تكلمني فيه من قبل مادمت هكذا محروقا ؟ ! » .

فيشم لى نظرة حرت فى فهمها يا خال ؛ نظرة خيل لى أنها تتهمنى بالغباء ، كأنها تقول لى : ألم تره يا أعمى ؟! ألم تشحر به ؟: ، ســـرح فـــى الجبل ،

سالته:

- « وهل يعرف أنك تحبه ؟! »

إزدادت رجفته وارتبك - شوح بدراعيه :

- « دعنا الآن من أمور الحب والغرام بابو العم وتعال نتكلم في المفيد !!» -

قلت بشئ كثير من الغضب الدفين:

« دعني يا هليل! لم يعد يهمني شئ بعد الذي حدث بسببك!! نتب هذه
 البنت في رقبتك يا هليل!! » -

قال بحدية غريبة :

- « إذن فمنى لله ؟ لقد أردت أن أنقذك من الوحل قبل أن تجلب لنا العار ! ولكن الله أراد ما أراد ! فلا تحملنى الذنب ! لا تكن أنت وضميرى وقلبى على يا يو العم !! كفانى ما أنا قبه يابوالعم !! » .

وأخلد إلى صمت مهموم ، فأيقنت أنه متاثر جدا . كانت شمس الضحى تفرش نفسها فوق البلدة فنزعت عنها كل الأغطية وألبستها ملاءة من لهب ، نظرت في ساعتى ؛ قلت إن الوقت يسمح لى يجمع خلقاتي والتوجه إلى محطة صدفا للحاق بقطار الظهيرة ، فإذا بهليل يلوح بأصعه علامة النفي :

- « لا ! لا سفر اليوم يابو العم ! ورامنا شغل كثير !! » -
 - « شغل ماذل ؟! » -
 - « لا تستعمل! » —

واستأنف صمته ؛ فمضينا نحو دارهم نتطوح من شدة الرهق ..

أنهى هليل صلاة المغرب وتربع بجوارى يتمتم بختام الصلاة ويمسح وجهه بكفيه . ثم سحب من حيب الصديرى دفترا مطوياً من دفاتر التلاميذ يطل منه فلم كوبيا ، فتحه على صفحة مرشقة بنفس أشبه بنبش الفراخ ، صار يحسب مستخدما أصابع بدبه ، أخبرا قال :

- « شف يا بو العم! قلوسك عندى كبرت! كبرت! ربنا بارك قيها قأصبح القرش الواحد مائه!! » .
- « الحمد لله ! البركة فيك يا هليل أنت مبروك من يومك ولكن ما الداعي لأن تقول هذا الآن ؟ هل صدر منى شئ ؟ سألتك عن الحساب ؟! » ،
- « لا يا بو العم! الملكة ربنا يحميها رسمت لنا مشروعا! أصل الحكاية أننى كنت أتعشم من مشوار الجبل أن نتكلم في هذا المشروع لكن موت البنت حرقا عطلني عن الكالم تشاء مت!! الموضوع وما فيه أن الملكة دائما تسألني عن أحوالك فأحكى لها ما يطمئنها فأومنتني أن أستغل هذه المكاسب في مشروع لم يكن يخطر لي على بال!! شف يا بو العم! أعوذ بالله من قولة أنا وأنت والملكة سنكون شركاء في عملية مريحة: الملكة سندخل باسم أولاد خرابة! المشروع هو ماكينة للطحين! نعم يا بو العم! البلد كلها والكفور من حولها تذهب مشوارا في سفو طويل لكي تطحن قمحها فلماذا لا يطحنوه في بلدتهم بنفس الأجر؟! أولاد خرابة نصيبهم في الشركة قطعة أرض شرقى البلد ليس منها أي منفعة لهم فهي قريبة من الجرن وتقام فيها قمائم الطوب بالمجان! سنبني فوقها داراً للماكينة! من الأمرطي الذي سيشغلها فموجود والملكة تعرفه!! مع ماكينة الطحين ماكينة الطحين ماكينة الطحين ماكينة الطحين ماكينة الطحين ماكينة
 - -« زين والله زين !! كلام كالعسل !! » -
- « الحمد لله ! يبقى المشروع الذى تم بالفعل وهو يخصنا وحدنا !! تصرفت فيه من تلقاء نفسى : اشتريت ماكينة للرى وماكينة لدرس القمح وتذريته !! موعد وصولهما بقى عليه يومان !! سنسافر ومعنا الأسطى حامد العقدة إلى مصر لشراء ماكينتى الطحين وضرب الأرز !! » .
- « الله يفتح عليك يا هليل! أنا باق معك إلى ما تشاء!! ليس ورائى عيال

- تبكي في مصر ! على بركة الله ! قم بنا الآن نحتقل بهذه الأخبار الطبية !! » .
 - و ما شبعت من الاحتفالات يابو العم ؟! ٢
 - « نفسي انفتحت !! » •
 - « رينا لا يجعلنا صدادين النفوس المفتوحة! قم بنا يا بو العم!! » -
 - « عد بنا إلى الجبل !! » -
- = « لا يابو العم! كله إلا الجبل! ما كل مره تسلم الجرة!! مرواح الجبل شغلانه طويلة معقدة دعك منها الآن!! ولا تنسى أن الملكة ترسم لك مستقبلا مزهزهاً وأوصنتى أن أشكمك حتى لا تجعل صورتك مهزوزة في نظر الناس! أنت من الآن من علية القوم المحترمين في البلد فكن هكذا فعلا!! سنحتفل في وسط دارنا هذه! كل شيّ موجود والحمد اله!! » -

خيراً ما أراد . المشنا هواء وسط الدار المنعش فرسمنا دارا اللماكينة على الأرض بخطوط الأصابع فوق التراب : هذه حجرة العدة لابد أن تكون مستطيلة هكذا لأن سيرا جلاياً طوله عدة أمتار سوف يلتف على مجموعة من التروس والطارات المتجاورة فبدوران الطارة الكبيرة تدور تروس جوانية ، ويدوران هذه التروس تدور أخرى ملتحمة دورانا عكسيا ، وهكذا تمضى مجموعة الطارات والتروس من أول الحجرة إلى آخرها حيث يوجد القادوس فوق قاعدة خشبية تبنى له تلتحم بسقف حجرة العدة حيث يقف أصحاب الحبوب الجارى طحنها ليدلقوا في القادوس حبوبهم ، رسمنا قعدة الأسطى ، وغرفة استقبال الزبائن بحيث تكون كبيرة ، حددنا موضع الميزان الطبلية ، ومن الذي سيشرف على وزن الحبوب قبل طحنها لتحديد سعر الطحين إذ لابد أن يعرف القراءة والكتابة حتى بدون الوزن والسعر في قصاصة ورق يتسلمها صاحب الطحين ليسلمها للأسطى فيرشقها في مادون سلك معقوف بجواره ، وفي نهاية اليوم تتم مراجعة هذه القصاصات على مادون

نفي النقير فنعرف بطنا مهنا قررنا في صبحة واجدة أن يكون والد هليل هو النهر المسئول عن شنول الملكينة من الألف الياء ، وأن يتدرب أخى حسين تحت يهيه بعد خروجه كل يوهمن المؤسسة - أما ماكينة الري وماكينة الدراس فيتولاهما هليل ينفسه ، وأن تبنى لهساحظيرة ملصقة بدار الطحين - حتى الضفير الذي سيتولى حراسة ماكينة الري أثناء شغلها ، والأسطى الذي سيتولى ماكينة الدراس اخترناهما في نفس القعدة المباركة بل وحدهنا أجر كل واحد يقوم بعطل بمن غيهم هليل وأبوه --

في الصبياح توجه كل منا في طريق ، واحد اشراء الناوب والآخر لاكتراء البنائين ، لم نضيع تقيقة واحدة ، ويوم جاء مهندس التركيب وعماله لتركيب الماكينة كان يوم عيد على البلدة كلها : المزمار البلدى زف لللكينة من أول دخلة البلد إلى أن تم التركيب ثم استكملت السهرة في الجرن أسلمها على ضوء الكلوبات ، انطلق التادى في بلاد الناحية كلها ينادى على خدمات أبى ضب وشركاه ، فطريت اذلك غاية الطرب يابوى ،

على حس هذه الدهائية يابوى مكتت فى البلغة حوالى ثلاثة أشهر أرقب نجاح شغل ماكينتى الري والاراس ، وشموخ مبنى هار الطحين ، واللاهنة الكبيرة يعرض الباب مكتوب عليها : أبو ضب وشركاه ...

يوم سفرى من الصميد هذه المرة كنت بالفعل وجها من وجوه علية القوم حين يسافر: تحف بى الركائب من كل ناحية ، الأعيرة التابهة تزغرد حول رأسى تعية وترفييا - سبقنى إلى المحطة من قطع تذكرة القطار - ظلت ذراعى تلوح من شباك القطار مسافة طويلة فوق حشد من المودعين - لحظتذاك يا خال نقت حالاية أن تكون من وجوه القوم ، أن تكون ذا عزوة وسلطة - لحظتذاك يا خال قررت أن أسعنى في هذه الطريق حتى نهايتها بكل نفس ذائقة العسلاية - سوف ان يبعدنى عن هذه الطريق عائق مهما كان صعبا - أمال يا بوى ، العز حلو يا خال
- اللى تعرف ديته اقتله ، الآن فحسب فهمت معنى هذا المثل: فكل شئ وكل
شخص فى الدنيا له سعر وثمن عليه أن تدفعه لتبلغ ما تريد ، والعقبة الوحيدة
أمامك هى قلة المفهومية فحسب ، والمفهومية هى أن تعرف السعر المناسب للرجل
المناسب فى الموقع المناسب ، الثمن الكفء للعمل الكبير - إعرف هذا وحده جيدا ،
واتكل على الله يا بوى .

كسويسي

استوى القطار على سكته يشق أرضا زراعية معظمها فاحل جاف . فلما استويت بدورى قاعدا على الكرسى فوجئت بتننى محاط بمئات من الناس فكاننى كنت نسيت أنى في قطار . وقعت نظرتى عليه قاعدا على الكرسى المواجه لى ، ملأتى شعور بالزهو يا خال إذ أننى راكب في الدرجة الأولى . تغرست في الرجل فإذا هو الآخر يتفرس في الخذت أفكر أين رأيته يا بوى ؟ أين رأيته يا بوى ؟ ثم أننى ميلت عليه وعلية السجائر تسبقني إلهه :

- « مرحبا ! إياك أن تكون صعيديا مثلنا ! » -

ابتسم في مودة عن أسنان ذهبية ؛ تناول السيجارة شاكرا :

- « منذ مدة طويلة لم نرك ! » -

منحت في الحال:

-« الحاج قدري ؟ ويا مرحبا يا مرحبا ! »

ضحك لأنى تذكرته بعد وقت طويل ، ضحكت أنا الآخر ؟ فالحاج قدرى أشهر من نار على علم فى حى الجمالية ، له دكان كبير فى خان الخليلى يمتلئ معرضه بالمشغولات الذهبية والتحف الثمينة ، يتاجر فى العاديات كما تقول لافته دكانه يعنى يتاجر فى الوم الواحد مئات من السياح والح المخصمة ؛ وبكانه الكبير يستقبل فى اليوم الواحد مئات من السياح جالوا له خصيصا بصحبة المرشدين السياحيين - هو الآخر يسافر لهم بين حين وحين ، ويراسلونه ويراسلهم ، ويعتبر من أغنى أغنباء خان الخليلى ومصر كلها ، ويما أننى أضبطه الآن فى قطار الصعيد فقد تأكدت أن هذه

العاديات هى الاسم الذى يخفى وراءه كلمة الآثار ؛ ولابد أن مشواره اليوم كان لمقابلة بعض مهربى الآثار فى بلاد الصعيد وما أكثرهم - قال مبتسما وهو يضع السيجارة فى مبسم ذهبى :

- د أظن أن اسمك حسن ! »
- « خدامك ومحسوبك حسن أبو ضب ! » .
- -- « جاسنا معا كثيرا عند الحاج أحمد نوار الدين السني ! »
 - « وجاسنا أكثر في قعدة المطار في فاطمة النبوية ! »
 - « بالضبط ! هل أنت من صدفا ؟! » -
 - « أنا من كوم سعيد ! هل أنت قادم من سوهاج ؟! »
 - « كيف عرفت ؟! »
- « توقعت ! فأهل العرابة لهم أصدقاء كثيرون في القاهرة كلهم لا يتخيرون
 - عتك !!»
 - -« الله يكرمك ! » «
 - « أَنَا أَيضًا أَعرف رجالًا كَثَيرِينَ مِنَ العرابة ! »
 - « ربنا يجعلنا من بركاتك! نظرة!! »-
 - « أنت تأمر !! »
 - « للذا لا تزورني في الدكان ؟! »
 - « ذلك في بالى ! كل شيّ بأوان ! »
 - « عندك شئ ينفعنا ؟! » -
 - « عندى الكثير فضلة خيرك! »
 - -« خش علینا یا رجل!!»
- « لا تؤاخلنى! أنت وأنا أولاد أصل! يعنى لا نعسرف إلا الأصليل ابن

الأصيل!! الفسيس لا أحمله إلا أعرفه ولا أقربه!! كل ما عندى أصيل في أصيل!! التقليد لا !! » -

- « القراسة أن تعرف القرق بين الأصيل والخميس! لأن هذا يشبه ذاك
 الخالق الناطق!! » .
- « كثرة الحزن تعلم البكاء يا ابا الحاج! وهذه شغلتي وشغلة أهلى وأجدادى
 من قديم الأزل! تستطيع أن تريني ما نشاء لأفرزه أك!! » .
- « أنا في انتظارك في الدكان يوم الأحد القادم! أنا لا أشتغل يوم الأحد لكني أفتح المكتب من الشارع الخلقي وأجلس فيه طول النهار لمقابلة أمثالك من الضعيوف المهمين! لا تصمل هم شئ! القهوة تحت المكتب مباشرة تطلع لنا الحجارة وكل المشاريب كما نهوى وكل شئ موجود!! »

ثم دس يده في جيب السترة الداخلي فأخرج علبة سجائر نهبية ، ثم ظهر عليه أنه تذكر شيئا ، فأعادها وأخرى علبة ورقية فتصها فإذا هي ماؤنة بسجائر محشوة بالحشيش ، أشعل لي وله بالقداحة الذهبية ؛ ورفع أصابعه الطويلة الملاتة بالخواتم الذهبية الغليظة فسحب الأنفاس المتلاحقة ، وكانت البذلة الفخمة التي يرتديها – رغم اتساقها على جسده – غير لائقة عليه بالمرة ؛ فملامح وجهه وشاريه الضخم وأسنانه وخواتمه الذهبية وتطجينه في الكلام كل ذلك يشي بجلباب بلدى ولباس بحجر ودكة بشراريب، ضحكت فابتسم ظنا منه أن تعميرته سرها باتم إلى هذا الحد السريع .

حسرننية

تلقنانى الحاج أحمد نوار الدين السنى عند البوابة بترحاب شديد ، فتح لى أحضانه :

و إزيك يا عكروت! جئت في وقتك! ابن حلال والله طول عمرك يا عكروت!
 تعال!!» ...

وقادني إلى البهو قالمر فالحجرة العلوية وهولايني يردد:

- « ياه ! غير معقول والله ! أن يطلب الواحد شخصا فيراه في الحال ! كنت ساغنطر للبحث عن ولد من الملاعين الذين كبروا هذه الأيام ربنا أعطاهم ! الله بسهل لعبيده لكن الواجب واجب !! أين كنت يا ولد يا عكروت كل هذه الغيبة ؟ في الصعيد ؟! »

قلت : نعم ، قال :

- « الصعيد كله سيكرن عندنا في أول الشهر ! هل تذكر ستك الشيخة سعادة التي أوصنتى بك خيرا ؟ عزمناها على المشاء بطلب من شخصية كبيرة جدا عضو بمجلس قيادة الثورة ومستشيخ ويموت في أمثال الشيخة سعادة !! أول الشهر لابد أن تكون معنا خل بالك ! إزيك يا ولد يا عكروت ؟! محمد بك أبو شناف ينتظرك تصور أنه سأل عنك ؟! رجل فيه الخير والله !! هيا !! إخلع هدمك هذه والبس ليس الشغل !! لابد أن تتكفل الليلة بمحمد بك أبو شناف تعدل رأسه على الآخر ! خش خش !! »

فعلا يابوى ؛ محمد بك أبو شناف ابتهج لما رآنى ، لا أدرى لماذا بالضبط! صاح بصوت جهورى ورجه باش :

- « أهلا يابوي على ! عاش من شافك !! »

ومد بده الطوبلة نحوى فتلقفتها مسلما بحرارة :

– « أهلا سعادة البيه ! واحشني ! » –

كان يرتدى جلبابا من الحرير السكروته الأبيض ، تحته صديرى من نفس القماشة ، عصاه الأبنوس مركونة بجواره - لاحظت وجود طبلية صغيرة مشغولة بالأرابيسك موضوعة أمامه ، فوقها عدد من القطع الأثرية الفاتنة ، إرتبك قليلا حينما رأنى أحدق فيها ، حاول أن يثقبني بنظرة تكشف له عن أعماقي ، فأسدلت الستار على عيني مدعيا العبط على الهبالة ، ومضيت أستحضر المدة ؛ فإذا بالحاج السني يلحقني بها قادما من المطبخ . دخل على محمد بك ومكثت أنا في وقفتي أعيد ترتيب قطع العدة لأقوم بتنظيفها وتعسيل الحجارة فإذا بي أسمع هذا الحواريا خال :

قال الحاج:

« هل ستسافر أنت بنفسك يا سعادة البيه أم أن سمسارا سيأتى ليأخذ البضاعة من هنا ؟! »

فقال محمد بك :

— ربما أسافر بنفسى ! ولكن اطمئن من هذه الناحية !! فسواء ساقرت أو لم أسافر فعندى الأشخاص النين يقدرون قيمة هذه الأشياء عن خبرة ودراية ! إلا أن وجهة نظرى أن ما يأخذه السمسار نحن أولى به ! ليس هناك أى مشكلة ! لو عندك أضعاف هذه القطع هاتها ولا يهمك !! وأمامك طريقان للإطمئنان : إما أن تبيع لى من هنا وتقبض حقك في الحال وفي هذه الحالة تقبض بالعملة المحلية !! وإما أن تتركني أسافر الأتصرف هناك بأسعار أعلى وعملة صعبة وفي هذه الحالة آخذ نسبة خمسين في المائة وأقبضك بعد العودة من السفر !! »

قال الحاج السني :

- « صدراحة ربنا ! أنا أفضل البكاء على رأس الميت ! فهذه القطع ليست ملكى وإلى كانت ملكى فما بين الخيرين حساب !! أما وهي ملك ناس غيرى وما أنا إلا وسيط ينكل عيشا من ورائها فأنا ملزم أمامهم برد البضاعة أو دفع ثمنها دون أجل !! فمعذرة إكرامي لك سيكون في أمرين : السعر المستريح أستغنى فيه عن عمولتى ! وضمان أصالة البضاعة !! إنها قطع أصلية مائة في المائة تأخذها وأنت مغمض العينين !! لن أذكرك بأننى خبير يعتد برأيه ! إنما القطع نفسها تقول أنا أصيلة واست في حاجة لخبير !! » «

قال محمد بك :

- « ليكن ! يا دار ما دخلك شر انتفق إذن على الأسعار الآن ! أعطيك ما معى وأبعث في طلب الباقي من البيت ! وربما استدعى الآن صاحب مال يدفع ويشيل ! أليس يهمك دفع الحق فحسب ؟ إذن فستريحك تماما !! » -

قال الحاج السني :

- « أفادك الله ! عدًاك العيب ! شف يا سيدى ! هذا تمثال لرمسيس الثائر من المرمر الحر ! ثمنه لك أنت وحدك وحتى لا تفاصلنى : مائة وخمسة وسبعون ألف جنيه ! أنت تبيعه بضعف ذلك وأنت مستريح بالعملة الصعبة !! هذه تسعيرة معروفة لا تنقص مليما واحداً ! التمثال نفسه إذا كان من الذهب الخالص فيضاف إلى هذا المبلغ قيمة الذهب بالميزان ! وإذا كان من الفضة ينقص نصف المضاف ! وإذا كان من البرونز نيقص ثلاثة أرباع المضاف ! فإذا كان من الحجر أو الجم] أو الفيروز فإنه يبقى على سعره الأول !! وهذا رأس نفرتيتي من الذهب الضالص

ثمنه مائتا ألف الدودك!! وهذا العجل أبيس من الرخام ثمنه مائة ألف !! وهذا عقد من الفيروز المطمم باللؤاؤ ثمنه ثلاثمائة ألف ! صندوقه وحده تحفة لا تقدر بمال ! الواضح أنه عقد ملكى ! لأن كل حبة من حباته — على دفتها — محفور عليها وجه آلهة الخير !! على فكرة ! كنت أنوى ادخاره لابنتى لكنى خشيت أن ينكشف أمره فنروح في سين وجيم ! أنظر إلى ما فيه من أبهة وفخامة وفن ! شئ يجبر العقل !! لو كنت منك لاحتفظت به أزوجي فأنت بمالك من حصانة تستطيع أن تحمى صدر زوجك !! » .

قال محمد بك:

- « سنري ! سنري ! ساتصرف ! »
- « عندى أزوج سعادتك أسورة من نفس النوع مع حلق وخاتمين!! » -
 - « هاتها فوراً !! »
- « هي ليست تحت يدي الآن ! سأطلبها من أصحابها حينما أقبضهم فلوسهم !! » .
- « يبقى شئ : هذه الأسعار أليس من المكن هزها قليلا حتى يكون لنا من ورائها نصيب ؟! »
- « وشرف امرأتى ! وينتى التى أتمناها من ربنا ! وحياة محمد بك وعشرتنا الطويلة ! وحق صلاتى وصومى وحجى والقرآن المجيد هذه هى تقديرات أصحاب الشئن بالمليم وأنا سنفرج من المولد بلا حمص !! لا تنس أن المبالغ توزع على كتائب من البشر لا حصر لها كلهم شارك فى إيجادها وتهريبها وحراستها وما إلى ذلك ! لكن المصلحة واحدة ! أصحابها جهلة أغبياء لا يتحاورون إلا بالرصاص خصوصا فى هذه المسائل ! وهم أوعى منك ومنى ومن كل الخبراء ! إنهم جبابرة ! والمؤكد أنهم الأن يراقبون خط سير البضاعة دون أن نراهم !! ولو شعروا أن فى

الأمر مكيدة مديرة فإن أي خارج من هنا سيلقى حتفه في الحال !! ربنا يكفينا شرهم !! » -

دخلت عليهم بالعدة فوق الصينية ، وضعتها في الركن المتاد . لم التفت اليهما، أذن من طين وأذن من عجين ، السرعة كانت الحجارة مرصوصة وجاهزة. انتبه محمد بك أبو شناف فتحسس المكان حواليه ثم رمى لى بقطعة حشيش تزيد عن ربع أوقية من صنف لم أر منله في حياتي ؛ فغطيت المعل كله بتعميراته عريضة . ثم دارت الجوزة بالصلاة على النبي .

محمد بك أبو شناف يا خال كمن يشرب في آخر زاده ، شربه يحرق دمى يا خال ، فأنا المسك بالجوزة أقعى أمامه لتكون البوصة في مستوى شفتيه ؛ على أن ابقى هكذا طويلة لا أتحرك ريتما يشرب هو على أقل من مهله ، يشد شدة ، ثم يطقطق ثم يشد شدتين سريعتين يخرج الدخان على أثرهما مندفقا بغزارة من منخريه ، بعدها يتلمظ قليلا وينفخ في البوصة كما ينفخ العامل في الميكروفون عند تجريبه ثم يبدأ في الشد الهادي ، السحب ، الذي يزداد قوة وسرعة شيئا فشيئا لينتهى بالسحبة الأخيرة التي يشتعل منها الحجر فترتفع راية النار ، فأصبح أنا على سبيل التحية : قشطة ، عندها يترك البوصة واضعا كفه على فمه وأنفه يعتقل بهما اندفاع الدخان ليرده من جديد إلى منخريه ليستمتع بوجوده فيها أطول مدة ممكنة ، حاجة تهوس يا بوي ، .

ها هو ذا ينكس رأسه مندمجا في تفكير عميق ؛ أحيانا يسحب القلم الذهبي من جيب الصديري ويروح يدون أرقاما وعمليات حسابية في نوتة ملحقة بمحفظة جلدية أنيقة جدا ؛ وأحيانا يعيد التقليب في القطع الأثرية فيما يراقبه الحاج أحمد نوار الدين السنى من تحت لتحت بعينيه الضيقتين اللتين تشعان بالشقاوة والمرح والثقة المطلقة بالنفس، وها أنذا أيضا دماغي نضرب تقلب فتتراس لي

أفكار جرئية ترتفع راية اشتعالها في رأس : هل يأتي يوم يكون فيه محمد بك أبو شناف هذا من زبائني ؟ وهِل أستطع أن أسع له يقلوس كسرة كهذه ؟ لم لا يا بوي ؟ والعملية كلها قلب جامد وشخصية ملء هيومها ، ولي في الحاج السني مثل بحتذي با يوي فهو بمنظره هذا أو عرضناه في سوق الجمعة بثلاثة مليمات فان نجد من يشتريه ، ومع ذلك فها هو ذا يعيش في قصير لا يملكه رئيس البلاد ، ويجالس أكابر القوم ، وينطق الأرقام بجرأة ويساطة كانه يقول : تشرب شاي ؟ ولا يبدو عليه أنه يفعل شبينًا غير طبيعي . شف با خال ، الثقة بالنفس أولا هي السكة التي بمشيها الناس نحق الثقة فيك ، هذا ما تعملته الليلة با خال وبحب من الآن أن أتدرب على ذلك ، نعم ، كيف اذن سنكون معلما وحاجا وعضوا في البرلمان باذن الله إذا لم تكن شخصيتي نفسها على قدُّ الثوب الذي سترتديه ؟ والله لأفعلن ، الحاج أحمد نوار الدين السني ليس أجدع منى في شيرً ، ولا حتى هذا المحمد بك أبو شناف فإن كان متعلما في المدارس فالعقل لا تبنيه المدارس وأكبر شهادة هي المأخوذة من كلية الحياة الدنيا يا خال . إن عالم الخريشة الذي التحقت به في سن المدرسة يمنحني الأوسمة مادام اللصوص والبلطجية والفتوات هم السائدون ، ليس في هذه المدينة شيخ يسمي الأصل با يوي ؛ أصلك وقتك ، فالناس هنا لا يهمها معرفة ابن من أنت ولا من أي أصول عريقه تنحير ، إنما يهمها ماذا أنت الآن ماذا تملك ماذا تلبس ماذا تأكل كيف تسكن كيف تركب إلخ إلخ ، وأنا بحكم دراستي في الشارع وفي السجن وفي العراء عرفت جيدا كيف يمكن أن يحترمك الناس يشليون الأرض من تحتك على روسهم: سأتقمش كعمدة أمريكا نفسه ، سأعطى البقشيش كلما تيسر ، سأعطف على الناس ، سأضع على لساني كل طيب من القول ، صحيح أن هذا ليس سهلا يا بوي ، والإنسان لا يكون ما يريد بمجرد ما يريد ، لا يا خال ، الشغلة يلزمها تدريب وأسوف أتدرب فماذا ورائي ؟ ... وكأى فلاح قرارى دس محمد بك أبو شناف أصابعه فى جيب الصديرى فسحب ساعة الجيب الشبوكة فى كتينة ذهبية فى لون غطاء الساعة المنقوش . فضغط على المفتاح فارتفع الغطاء فنظر فى الساعة ثم قال : أعطنى التليفون ، فى ركن الغرفة سماعة تليفون معلقة على مسمار ، ترعها الحاج وضغط على زر فيها فسمعنا صوت الحرارة عاليا ؛ قدمها إلى محمد بك الذى تسلمها وراح يضغط على أزرارها الملمومة فى مربع صغير ، سمعنا صوت الجرس يرن عند الطرف الأخر ، قطعه صوت امرأة حالة طرية النبرات : هاللو .. و ... ه .. قال محمد بك:

- « مساء الفير يا مدام ! »
 - إنتعش صنوتها:
 - « أهلا يا محمد بك! »-
 - و إديني الأستاذ! •
- بعد برهة جاء صورت رجالي ممروض:
- « أهلا محمد بك ! يا المفاجأة السعيدة ! »
 - صناح قيه :
- « تعال حالا ومعلك فلوس كبيرة! أمامنا لقملة عيش طريه وحلسوة بإذن
 الله!!».
 - -- « عبلة مبعنة ؟! »
 - « عملة أصبعب !! هاها ها ،، ي !! »
 - « يعنى دفتر الشيكات ينفع ؟! »
 - ~ « في أقل القليل !! »
 - نتكلم من أي مكان ؟! »
 - -« من القمرة في مصر عتيقة أنت تعرفها طبعا !! »-

- و جميل! حالا سنكون عندك! من كورنيش المعادى ربع ساعة بالكتير! عندك شرب؟! »
 - « عندي كل شي لكن أو عندك الأحسن هاته!! »
 - د موافق! إلى اللقاء!»

أغلق محمد بك الزر ، فجاء صوت الحرارة ، فضغط على الأزرار :

- « مساء الخير يا حاج! تعال حالا في مصر عتيقة ومعك فلوس كبيرة جدا!
 إلى لقاء! » .

ومكالمة ثالثة:

- « مساء الخير يا معلم! تعال حالا في القمرة في مصر عتيقة ومعك
 الشنطة، فاهم طبعا يعنى أيه الشنطة ؟! إلى اللقاء! » .

وهكذا أنهى عدة مكالمات ؛ ثم تفكر قليلا ، ثم سلم السماعة للحاج السنى الذي أعادها إلى مكانها ثم نهض واقفا :

« دقیقة واحدة أشوف أخبار العشاء ! سأوصى الطباخ بزیادة الكمیة ! تشرب شیئا فاتحا للشهیة ؟! عندی شمبانیا قدیمة وعندی نبیذ قبرصی وعندی وبسكی بلاك أندهوایت وعندی كورفوازیه !! »

انتشى محمد بك مقدما:

- « نبدأ بالشميانيا قبل الأكل!! »-

أوماً الحاج برأسه ومضى ، نزل السلم إلى الطابق التحتى مباشرة حيث المطبخ والطباخ والسفرجية ، أخذت أنا أعيد تنظيف الحجارة وتحصيتها وتغسيلها ، وراح محمد بك يعيد التطرفي القطع الأثرية ثم راح يوزعها على جيوبه ، وعندما أمسك بتمثال رمسيس المرمري وجنتني أندفع مشيرا إليه هامسا :

- « على فكرة يا أستاذ! أستطيع أن أتيك بأخيه الذهبي وينفس السعر!

مائة وخمسة وسبعون ألف جنيه !! »

جحظت عيناه يا خال ؛ ظل مجلقا في وجهى دقائق طويلة لا ينطق ؛ ثم قرب وجهه منى هامسا :

- ~« من زين ؟! »
- من العرابة القبلية ! نفس الناس الذين يوردون للحاج نوار الدين السنى !
 إنهم أقاربي شق الكلوة ! ولى عندهم خاطر كبير !! »
- و إذن فهذا السعر مبالغ فيه ! أظنت أنى سأقبل هذه الأسعار ؟! الحاج يتكلم كما يحل له ولكن ساعة الحساب لن يقبض منى سوى السعر المناسب ! أنا لست غشيما كما يتصور !! » .
- « عدم المؤاخذة يا أستاذ ! السعر الذي باع به الحاج نوار الدين مستريح وان تجده أبدا وهو أن ينزل عنه مليما واحداً لأن الاتفاق تم أمامي والحاج صادق إلا في شيّ واحد هو أنه لن يستفيد ! فعمواته سيأخذها ولكن بصراحة ستكون قليلة لأن ناس العرابة القبلية يعتقدون أنه سيضيف عمولة أخرى فوق السعر المتفق عليه لكنه لم يضف وهذا يدل على أنه يريد أن يخدمك ويجعلك تستفيد أنت بهذه العمولة التي كان سيضيفها عليك ! لقد باع لك بتراب الفلوس ! إنني أعرف كيف يحاسبه أقاربي ! لعلم سيادتك يا أستاذ أقاربي ليسوا محتاجين له ! إن الخواجات التقال يذهبون إليهم لحد دورهم يدفعون وينصرفون بكل ثقة واطمئنان والبضاعة تصل إليهم بعد ذلك في العناوين المذكورة اقاربي يا سعادة البيه لا يغلبهم غالب ! ألم تعلم يا سعادة البيه أن لي أولاد عم تعلموا تعليما اجنبيا عاليا وأصبحوا الآن يشتغلون في المتاحف العالمية الكبيرة والجامعات وأنهم أكبر وسطاء بين أقاربي والزباذن ؟! إنهم يبيعون للحاج نوار الدين كرامة للنسب !

- « أعرف ! كل شئ معروف ! ولكن إن كانوا أقاريك يحبونك حقا فإنك تستطيع أن تخدمني في السعر ! »
 - « أنا غلطان ! إنس ما قلته لك ! » -
 - « أتعرف مع من تتكلم يا حسن ؟! »
- « يا سعادة البيه إننى أعرف ولهذا أردت أن أكسب صداقتك بهذه التضمة الكبرة ! »
 - د اللذا لا تحاول ١٤ ه .
 - « لا أستطيع فتح فمي ! »
 - « وكيف يتم البيع ؟! »
- « شال الممام حط الحمام! تعطيني الفلوس أسافر بها وأعسود
 لك بالتبثال!» .
 - « يتون معاينه ؟! » -
- « معاينة ماذا يا سعادة البيه ؟ أنت لا تستطيع أن تعاين الشمس أو القمر
 لتتأكد إن كانت شمسا وإن كان قمراً !!» .
- « ولكن ! مبلغ كهذا ! من أدرانى ؟ ربما حدث لك حادث ! ربما وقعت فى للمديدة ! من يضمن لى رد المبلغ ؟ من يضمن لى أن اسمى يظل بعيدا عن الواغش ؟! ».
- « قبل كل شئ يا سعادة البيه إنها ثقة وأمانة ! حكاية أن يحدث لى حادث موت فإنه يكون قضاءً وقدرا وفي هذه الحالة أعطيك ورقة بإمضائي بأنني تسلمت هذه الأمانة لتوصيلها لسين من الناس !! أما أن أقع في المصيدة فهذا لا يكون أبدا حين ولو كنت مراقبا من الحكومة !! إن تضليل الحكومة شغلتنا وفننا الذي ننكل من ورائه عيشا !! كل ما أنبهك إليه هو أن الحاج نوار الدين السني لا يجب

أن يعرف بهذا الكلام وإلا أفسد كل شئ! وعلى فكرة! أنا مبسوط والحمد لله وأسكن في شقة في عمارة على النيل في مواجهة كويرى الملك الصالح! وعائلتي ضخمة جدا وأنوى أن أرشح نفسى في الانتخابات القادمة عن دائرة بلدتنا! وعندى فضلة خيرك ماكينة الطحين وماكينة للري وماكينة للدراس وأملك سراية في الملك! » .

ابتسم ، ربت على كتفى ، صار فكه السفلى يروح ويجئ كبندول الساعة . خفت منه يا خال واعنت أب الذين خلفونى لانسحابى من اسانى ، رأيت فى لمعان عينيه قاطع طريق يقتل القتيل ويمشى فى جنازته ؛ خيل لى أن نهايتى والعياذ بالله ستكرن على يديه ؛ لكن صوتا لعله صوت أمى نبع فى صدرى ! لا تتكل من هذه الحركات فهى صنعة متقنة ! تشجع يا ابن أمك وامكر به متاما يمكر بك لا تضعف لأن ضعفك قوة له وهو إن يتكك إلا إذا تتكد من ضعفك قكن أقرى منه تتكله وتذكر دائما أنه إيس إلها ولا وحشا مقترسا ! ..

من خلال سحبه للأنفاس قال :

- و إطمئن من هذه الناحية فأنا أعرفك وأحبك! ثم إننى شخص تو حيثية ولا
 أحد يستطيم النصب على مهما كانت قوته!! إننى أنظر إلى أبعد! » .
 - « خلاص يا سعادة البيه ! نصرف النظر عن الموضوع !! » .
- « لا !! فرصة كهذه لا أفوتها بسهولة ! إسمع ! الحل الأمثل أن أرسل معك أخى ومعه نفر واحد فقط هو الخبير المثمن وستكون الفلوس مع أخى سيريها لك قبل السفر لتطمئن ! ستركب معه سيارته معززا مكرما لحد باب الدار ! تسلمه التمثال يسلمك الفلوس ويعود بك إن أردت !! ما رأيك ؟! » -
 - « ومتى تفعل ذلك يا بو العم ؟! » ،
 - و بكرة ! خير البر عاجله ! ه ـ

- « عدم المُؤاخذة يا استاذ! أخ سعادتك يجب أن يلبس الجلباب البلدى مثلى وكذلك الرجل الخبير!! كما أننا لا يجب أن نركب سيارة ملاكى بل لابد أن نروح وجعى في تاكسى!! » .
 - -- « وما الحكمة ؟! » .
- « الملاكي ستفضحنا ! ولبس الأفندية سيلم علينا الواغش ! وافقني على ما أقول لكي يتم المشوار في أمان الله !! » .
 - « ليكن ! نحن نحب البلدي على كل حال !! •

وهكذا كلم أخاه في الهاتف طالبا منه المجئ بجلباب بلدى مصطحبا معه زاهى بك بجلباب بلدى أيضا وأن يأتى معه بالقلوس التى تركها عنده أول أمس ـ سمعنا صدوت خطوات الحاج أحمد نوار الدين السنى على السلم الخشبي

فأمسكنا عن الكلام ، لكن الخطوات تبعتها خطوات كثيرة جعلت السلم يئن ويتوجع ، دخل الحاج ومعه ثلاثة من المدعوين التقاهم عند البوابة وهو يتمم على الخفير في سرادق البضائع ..

دخلوا علينا فتملكنى الذهول يا خال ، كان من بينهم الحاج قدرى الذى التفيته في قطار الصعيد ، واتضح لى أن اسمه الحقيقى الحاج دهب وشهرته قدرى ، أخننى بالحضن والسلامات الحارة مما جعل محمد بك يحدجنى ينظره منفحصة كثه يتعرف على حقيقتى لكن شيئا من الاطمئنان ظهر في عينيه ، بعد دقائق معدودة حضرت صورة من محمد بك أبو شناف واكنها أضاًل حجما يقليل ، عرفت أن اسمه حازم وأننى رأيته من قبل في مكان ما لست أذكره - معه شخص نصفه رجل ونصفه أنثى ، شعره طويل مرسل على قفاه كالمرأة ؛ خدوده حمراء وكذلك شفتاه لكنه قوى البنية مع ذلك غليظ الصوت يكثر من الكلمات الأجنبية ومن الغمز وترقيص الحواجب - ارتفعت الفاغة : سلامات وصيحات ونكات قديمة لا

مناسبة لها في الظاهر - والحاج أحمد نوار الدين السني يعبر عن احتجاجه في صورة عكسة بقوله :

- د براحتكم! البيت بيتكم!! ه.

ثم نزع غطاء زجاجة الشمبانيا ففارت فاعتقل فورتها في فوهة الكوب ثم طوح بما في الكوب في فعه مكشرا ثم وضع الزجاجة ويقية الزجاجات أمام محمد بك ، وصفق بيديه تصفيقة خاطفة فدخل خادم يحمل صينية عليها كنوس كثيرة وضعها وانصرف - دارت الكئوس حتى نفدت الزجاجات - بعد ذلك مباشرة دخل السفرجية فنصبوا المائدة الأرضية واشتغل الأكل كنتهم جميعا كانوا جياعا منذ أعوام - غسلوا أيديهم وهم جلوس في أماكتهم بواسطة الطشت والابريق - عاد التحشيش مرة أخرى يا بوى - أدمفتهم مصفحة يا خال ، قلاع تضرب فيها المدافع والقنابل فلا تتزعزع - ولولا أن حازم راح يساعدني بما له من خبرة واضحة لاصابني الكساح يا بوى -.

الشاهد يا خال ؛ لمع الخبث في عيني الحاج نوار الدين فنظر في ساعته وخبط على ركسه قائلا :

- و إسمحوا لي أن أقوم لاتوضاً واستعد لصلاة الفجر!! ه

وكان واضحا يا بوى أنه يريد الإنصراف فحسب ليترك لحمد بك ورجاله فرصة التفاوض فى البيع والشراء على راحتهم - هذا ما نطقت به نظرته الأعبانية الصبيانية الشقية - إنه يفهم شخصياتهم جميعا حق الفهم يا بوى وعلى الأخص محمد بك أبو شناف ولهذا يتعمد أن يتيح له فرصة هبرة كبيرة من هذه الفتة ، على سبيل الرشوة ، فلابد إذن أنه يستفيد فوائد أخرى كثيرة من وراء علاقته محمد بك أبو شناف ورجاله ؛ أنهم على الأقل حوائط تصد عنه الرياح - علاقته محمد بك أبو شناف ورجاله ؛ أنهم على الأقل حوائط تصد عنه الرياح -

الرجل الذى شرب الشمبانيا لتوه متعللا بأنها ليست من الخمر مضى يستعد لصلاة الفجر حاضرا فى جامع عمرو ، هو أول من يذهب وآخر من ينصرف : وهو كذلك نجم من نجوم المسجد العمروى وعضو بمجلس إدارته وأكبر المتبرعين لترميمه وتجديد فرشه .

توقف عند ألباب بقامته المحنية قليلا:

- « أبعث لكم بأي شيّ ؟! » .
 - « شكراً ! » .

فرحتى بالبقاء خابت يا بوى ؛ فست ؛ فقد دار الحوار كله بلغة لا أفهم منها حرفا واحدا ؛ أغلب ظنى أنها الفرنسية ، صدرت كالأطرش فى الزفة ، تحلف اليمين كانتى ثور الله فى برسيمه ، غلى الدم فى عروقى ، جانى صوت مجهول يدى فى صدرى قائلا : من لم يتعلم الكلام بالانجليزى أو الفرنساوى يبقى طول عمره حمارا ، ندمت لأننى على كثرة معاشرتى لأكثر من ترجمان ولد عمى لم أتعلم منهم كلام الفواجات ؛ قال الصوت المجهول فى صدرى : إن كنت تروم أن تكون بنى آدم يا ولد أبى ضب فمن غد نتعلم الكلام الإنجليزى مهما كان الثمن فلريما جاعك سفرية فتستطيع التكلم مع خلق الله - الله وكيل يا بوى ؛ تحلف اليمين أننى رغم جهلى التام بكل ما يقولون تابعت الكلام بشغف كأننى أفهم ، معركة ما تابع قيلما أجنبيا وأفهم موضوعه بالفهلوة . كانت فرجة يا بوى ، معركة حامية بالانجليزى أو لعله الفرنساوى ؛ لم يكن ينقصهم إلا الإنقضاض على بعضهم ونهش لحوم بعضهم ، واكن العجيب أن ذلك يحدث فيما هم يضحكون يتبادلون الأكف على سبيل التحية ..

عدم فهمى للغة الكلام جعلنى أركز على حركة الأيدى وملامح الوجوه . الحاج قدرى تناول التمثال المرمرى وعرضه للضوء ناظرا فيه بعدسة كعدسة الساعاتي يغرزها بين الحاجب والوجنة ، فبدا التمثال في نظرى أنا غاية في الجمال يا خاله وه يا يوى وه ، بحق الله من هذا الذي حدد هذه الملامح فوق كتلة من المرمر حتى جملها تكاد نتطق ؛ كيف رسم الإنفعال على الوجه والأبهة الملوكية في وقفة رمسيس الجامعة بين الكبرياء والتواضع بين الإلوهية والبشرية بين الضيال والواقع، بحق جلال الله يا خال هذا لا يقدر بثمن ، مجرد النظر في تمثال كهذا يعلمك معنى الجمال يزرع في قلبك الحب لمصر ولأهلها القدامي ..

دار التمثال على الجالسين واحدا واحدا مثل قنديل من ألوان الصفاء الوردى بجميع درجاته . كل من أمسكه ود أن يبقيه في يديه أطول مدة ممكنة ، لولا أن يد الأخر تمتد لتقتنصه . تحلف اليمين يا بوى أنه كان المحضور ملكى مهيب لدرجة أننا جميعا انكمشنا في حضرته . فلما ظهر العقد الفيروزى المنقوش قامت قيامة الجميع وكادوا يقطعون سلسلته من شدة الجذب والتقليب : أبل إن الأفندى الذي نصفه رجل ونصفه أنثى لم يتورع عن إحاطة عنقه به على سبيل التجريب ؛ فلما استوت حباته على صدره إنتفض أحليلي في الحال تهيجا عليه لأن العقد نفي نصف الرجل وضاعف حجم الأنثى فيه بصورة زاعقة يا خال! من ظهر العجل أبيس وطائر أبو قردان ؛ ما كل هذه الرقة يا خال ؟ لا يمكن أن يكون صائع هذا أبيس وطائر أبو قردان ؛ ما كل هذه الرقة يا خال ؟ لا يمكن أن يكون صائع هذا بشراً مثلنا؛ صدق ولد عمى حين قالوا عنها ؛ المساخيط ، إذ هي في نظرهم مخلوقات غضب عليها الله كما يقولون لشدة افترائها عليه فسخطها هكذا ؛ نزع منها الروح فجمدها كل حسب معدنه الأصلى في الحياة ، الحجر حجر والذهب ذهب والطين طين ---

قامت الخناقة يا بوى ، بالعربى هذه المرة ، بل البلدى والصعيدى والحوارجى الساج قدرى مصمم على أخذ التمثال والعقد معا كما اتفقوا في مبدأ الكلام ؛ لقد اشترى قبل أن يرى ووافق على الأسعار بغير فصال فلا أقل من احترام

الاتفاق - وحاج آخر أصغراوى الوجه والعينين كالثعبان من الواضع أنه زير ملآن بالفلوس، يهتف بصوت متحشرج مكتوم متلكل الأحرف بأن لديه زبوناً مهماً جدا وعزيزاً عليه جدا بطلب هاتين القطعتين على وجه التحديد وأنه لهذا طلب من محمد بك أن يبحث له عنهما لدى معارفه فهما إذن في الأصل باسمه ومن تصييه ، أما مسألة السعر فإنه لن يدقق بل لا يهمه مضاعفة المبلغ في سبيل أن يظل رجلا في أعين علمائه عملائه الأوروبيين الذين يثقون في كلمته ..

انجعص محمد بك أبو شناف ماتفتا إليه ، وأفتى بأنه يعرف سماسرة المتاحف هؤلاء وأنهم في نظرة أولاد قحبة لأنهم الرابحون في النهاية - ثم حسم المعركة بأن خير الحاج قدرى بين التمثال والمقد فاختار التمثال ، بل بادر بلغه في منديله الحريرى وبسه في جيب سترته الداخلي - في حين مد الحاج الآخر يده في كثير من الغضب المكبوت والكابة فسحب المقد ووضعه بإهمال في سيالته ، وبدا أنه غير راض على الإطلاق - وكانت نظرات محمد بك أبو شناف تحوم حول الحقيبة الجلاية تحت كرع الحاج الأصفراوى - وبحركة تمثيلية ، وكانه يدخر له هدية أنقح من التمثال ، أخرج رأس نفرتيتي صار يلوح بها في وجهه كأب يختبر فرحة ابنه بلعبة جديدة - بالفعل إنفردت أسارير الحاج الأصفراوى وابتسم واختطفها في الحال كالطفل المنبهر وبسها في جبيه الداخلي فحدجه الحاج قدرى بنظرة معاتبة ثم أردف:

« حلال عليك ! شف كيف أنى لم أزعل الآن رغم أنى بالفعل كنت أتمنى هذه
 القطعة بالذات لكثرة الطلب عليها !! » .

في خبث مُتقن هتف محمد بك :

- « نحن فيها! خذها واعطه التمثال!! »

مناح الماج قدري :

- « ما داخل جيبي لا يخرج منه ثانية عدم المؤاخذة !! » -
- « خـالاص ! كل واحد حالل عليه ما أخـــذه !! رينا يجعل سوقها أحلى منها !!» .

أما الرجل الثالث ، وكان أفنديا غاية في الإتزان والصحت والرقة فإنه ركن العجل أبيس وطائر أبى قردان في حجره في شكل غير بارز علامة أنهما من نصيبه ولا مجال لعرضهما على أحد أو مشاركته في شئ منها - بل إنه كان أول من افتتح المنظر البديع يا خال ، كان يحمل كيسا من الفاكهة وضعه بجواره تصورت أنه يحترى على تقاح أمريكي - سحبه وفتحه فإذا هو مائن برزم الفلوس يا خال ، ورق بنكنوت أخضر وأحمر مؤستك في باكوات . عد لمحمد بك مائتي باكو ، فلوس مضغوطة حتى ليبدو الباكو كأنه علبة من ورق الكوتشينه ، إنتظر محمد بك برهة ثم قال :

- دماهذا ؟! أنت لم تأت على النصف بعد !!»

أشار له الأفندى بأصابعه أن أنتظر ؛ ثم سحب دفتر الشيكات من جيب سترته، وحرر شيكا برقم واحد أمامه أصفار كثيرة ، سلمه لمحمد بك - حاوات التقاط الرقم قلم أتمكن لأن محمد بك طواه بسرعة ووضعه في جيب الصديرى ، ثم جاء الدور على الحاج قدرى ، الذي أخرج هو الآخر دفتر الشيكات وحرد شيكا برقم لم أميز على البعد إن كان تسعة أو ستة لكن الأصفار هي الأخرى كانت كثيرة ، نظر فيه محمد بك ثم أعاده إليه بنظرة تأتيب فيها شئ من الوقاحة كأنها تكاد تشخر قائلة : « جرى إيه يا روح أمك ؟! ، فابتسم الحاج قدرى ومط بوزه كالمغلوب على أمره ثم سحب الشيك فمزقه وكتب شيكا آخر قبله بشفتيه وقدمه لحمد بك :

- « مالي بركة إلا أنت!! » »

طواه محمد بك وهو يرشقه بنظرة ولد صايع مخريش:

- و طب يا روح أمك ! تشكر ! رينا بيارك على كل حال !! ٥٠٠

ثم اتجه بكليته إلى الحاج الأصفراوى الذي كان قد سحب الحقيبة وفتحها مضى شت يا بوى ؛ تحلف اليمين أن دماغى تشعشت : من أين تأتى كل هذه الألوف ؟! في البلد كل هذه الأموال يا خال وهناك ناس لا تلقى اللشى ويقولون دولة إشتراكية ؟! يظهر أنها إشتراكية في النهب والسرقة يا بوى - فلوس إلحاج الأصفراوى جديدة لم تلمسها يد من قبل ، أيكون هو الذي يطبعها بالكميات التي يشاء ؟ غير مؤستكة لكنها مرصوصة في باكوات محزمة بأحزمة ورقية عريضة عليها أختام وأرقام - خذ عندك يا بوى : الله واحد ، ماله من ثان ، العدد ثلاثة ، عليها أربعمائة خمسمائة ستمائة ، ثم خلت الحقيبة ومع ذلك نزع منها دفتر الشيكات وحرر شيكا قدمه لمحمد بك في لهجة مشوية بالإعتذار والرجاء :

 - « عقوا ! هذا الشيك يستحق السداد أول الشهر القادم يعنى بعد ثمانية أيام فقط ! ومن يدرى ! ريما يسبهل رينا قبل موعد الشيك فآخذه وأعطيك المبلغ !!
 كله على الله ! كله سينصرف بعون الله !! » .

قال محمد بك وقد لمعت صلعته الشبيهة بقطعة جرانيت رمادية اللون :

- « أعرني هذه المقيية بعد إنتك !! » ،
 - « هي لك ! حلال عليك !! » -

محمد بك إنهمك في رص البواكي في الحقيبة حتى امتلأت عن آخرها ، فداس على الغطاء بقوة حتى وصل السان الكالون إلى مستقرة المحفور ، ثم حرك تروس الأرقام حتى ساواها ببعضها ثم عاد فلخبطها ثم سلم الحقيبة إلى أخيه حازم مصحوبة بغمزة من عينيه ، فنهض حازم مستأثنا ، ومضى يهبط السلم الخشبي بسرعة - عند ذاك اعتدل محمد بك في قعدته ؛ رفع إحدى ركبته أسند فوقها

نراعیه ، وبینه الآخری مسع وجهه بیرقبته وصلعته بمندیل حریری معطر ، ثم تنفس کانه انتهی من معرکة حربیة خرج منها ظافرا :

- « یا .. ه !! کل ما کان فی رأســـی طار ! طیــرتوه ! أفقت الآن تماما !!
 أین حســــن ؟! شف شــــخلك یا أبا علی ! روقنا قبل أن ننصــــرف أنعــرف كيف نتصرف !!».
 کیف نتصرف !!».

ثم أضاف بلهجة ذات معنى :

- « معك حشيش أم تراه نقد ؟! »

شعرت أنه يشجعنى على القول بأنه نقد ، مع أن نصف الكمية لازال معى ، فهرزت رأسى مؤيدا فكرة النقاد ، فنظر إلى الحاج الأصفراوى نظرة ذات معنى ، فقدم هذا قطعة وقدم الحاج قدرى قطعة ، أحييت النار ، دور والثانى ، تناهت إلى أسماعنا الخطوات فعرفنا أن صلاة القجر قد انتهت ، لكن الداخل كان حازم ؛ فتلقاه محمد بك بسرعة : « سلمت الأمانة لأصحابها ؟! » ؛ فقال وهو يخلم حذات ليتربع : « حصل !» ، بعده بقليل أقبل الحاج أحمد نوار الدين السنى يت تم بختام الصلاة في جدية بالغة ، وقف بالباب مستردا نظراته الصبيانية الشقية المردة

-« صباحين وحته! »-

ردوا جميعا:

– « قشطة عليه ! »

فظل واقفا كأنه يستعجل قيامهم ، بل همار يوحى إليهم بذلك :

- « كله تمام ؟ أي طلبات تنقصكم ؟! »

عند ذاك نظروا جميعا في ساعاتهم وقال الصاح الأصغراوي : و نهار كم سعيد ! » ، ونهض واقفا ، فسلم عليه محمد بك قائلا : تلفن لي غدا في العاشرة مساء في النمرة الثالثة . ثم سلم على الجميع مودعا ، وقال لحازم : إسبقتي انت إلى تحت . من الواضح أنهم جميعا يعرفون مسالك القصر وممراته ، خاصة أن الماج السنى أغلق جميع الأبواب بالمفاتيح فيما عدا الأبواب التى تقود السائر من تلقاء نفسها إلى الطابق الأرضى فالبوابة الخارجية دون أن يخترق بهو المدخل المافل بالتحف فوق المناضد . جلس الحاج السنى بجوار محمد بك وفى عينيه توق شديد للحساب . قال بلهجة مدببة ذات معنى :

- د اتعشینا ۱۶ »
- « اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال! »
- قدم للحاج قصاصة ورق دون فيها بعض الأرقام :
- « الحسبة كانت هكذا فيما أظن ؟! أمامك عدد القطع وأمام كل قطعة حسابها ! وأمامك الحسبة مجموعة جاهزة !! »

بنظرة سريعة مدرية استوعب الماج السنى المسبة كلها ومع ذلك قال بلهجة دافئة:

- « أحسب وراء ك؟ والله عيب !! »

قدم له محمد بك الشيكات وأحدا وراء الآخر:

- « بكم هذا ؟ »
 - « بكذا » -
- « ویکم هذا ؟ »
 - « یکذا » -
- « فيكون المجموع ؟ »
 - « کذا ۽
 - د ویکم هذا ؟»
 - « بکذا »

وأن فيصبح لى فى نمتك ثلاثمائة جنيه زيادة تردها لى عندما تصرف الشبكات! سأظهر هالك فهى محررة لحامله!».

واستدرك:

- د إعط المئات الثلاث لحسن بقشيشا! حقه! من حضر القسمة فليقتسم!!»
 كدت أستسلم للفرح لكن الله ألهمني فرفعت يدى هاتفا في إياء وشمم:
- « لا ! تشكر يا سعادة البيه على كل حال ! ولكن البقشيش بالنسبة لى لا !
 أذا لم أفعل شيئا ! مستورة والحمد لله !
 - « إذن فخذ المبلغ وتصدق به !! لكن لا ترد كلمتي وتكسفني !! »
 - « عفوا يا سعادة البيه ما قصدت شيئًا!! » -

وكان الحاج السنى يراقبنى بابتسامة مرتعشة ماكرة فيما تلعب يده فى سيالته . ثم خرجت يده برزمة الفلوس مطوية ، وتقدم منى وبسها في سيالتي :

- « أنت الفيسر والبركة ! وضعت لك فسوق هسدية محمد بك مسائة جنيه من عنسدى !! » -

وقال محمد بك :

- « عن إذنك آخذ حسن معي سأكلفه بمشوار!! »
 - « كلنا ملكك يا سعادة البيه ! »

ومضى خلفنا حتى الباب الخارجى ؛ وظل واقفا يتمتم والمسبحة تساقط حباتها في يده حتى سخن محمد بك سيارته وانطلقت بنا إلى منشية البكرى حيث مسكن حازم - وكانت الشمس تحاول أن تشرق ولكن الضباب الكثيف يكتم أنفاسها بشبورة خانقة ، والناس تمشى في الشوارع الطافحة بالمجارى لاهتة شاردة كثيبة ، وتتراص على محطات الأتوبيس ، والسيارات تمرق من أمامهم لتهيل عليهم الغبار والأوحال .

بمسره

السيارة التى استدعاها حازم بالهاتف من موقف سيارات الصعيد حملتنا ثلاثتنا فقط: حازم ورفيقه المشعراتي في الكنبة الخلفية ، وأنا بجوار السائق: مسدسان بارزان في جيبي صديري كل من حازم ورفيقه ؛ مما أشعرني بالأمان والخوف معا يا خال ، لا أدرى كيف - وعندما فتح حازم حقيبة الأمس المستعارة من الحاج الأصفراوي وأوراني رزم الفلوس الحمراء والخضراء شعرت بضرورة وجود السلاح معنا يا بوي .

الله وكيل يا خال ؛ القلق لم يفارقنى طوال الطريق على الرغم من أن حازم أغرقنا بالسجائر الأجنبية المحشوة بالحشيش ، والأفيون ، والشاى والقهوة من إبريقين مقفلين قبل لى إنه اختراع حديث يجعل الإبريق يحتفظ للشاى بسخونته كما نزلت من فوق النار ، أو ببرويته كما خرج من الثلاجة . حاجة تهوس يا بوى الرفيق المشعرانى – زاهى يك فيما أظن – لم يكف عن التنكيت والضحك طوال الطريق ؛ نكت سياسية جريئة تسخر من عبد الناصر ، ونكت قبيحة عارية . كل نلك ويماغى في البر الثانى من الوادى : كيف ستتصرف يا ابن أبى ضب في هذه الشغلة ؟ لا مجال بالطبع لأن تتراجع لكن عليك أن تكون حصيفا كما نبه عليك صوت أبيك ، عيناى ذابتا على الطريق يا خال ؛ أمعنت النظر في كل سيارة حازتنا أو عبرت بجوارنا أو خيل لى أنها تعاكسنا . أنا ربك والحق أشم رائحة الشرطة مهما تخفت في أزياء وتنكرت في هيئات ؛ أساس الخسة يابوى أن الشرطة مهما تخفت في أزياء وتنكرت في هيئات ؛ أساس الخسة يابوى أن السلطة مفرية فضاحة لمن يعشقها إذ هو دائما أبدا يحب أن يشعر بأنه فوقك السلطة مفرية فضاحة لمن يعشقها إذ هو دائما أبدا يحب أن يشعر بأنه فوقك

مميز عنك ؛ شعوره بالسلطة أقوى من شعوره بالواجب يا خال ، أقوى من قدرته على التخفي ...

السكة أمان ؛ ولم يظهر لى شئ يؤيد قلقي ، وصلنا إلى أسبوط بسلامة الله يابوي ، قلت : بس ! هذه فرصتي لأتملك زمام الأمان في السكة :

~ د متشكرين يا أسطى ! مع السلامة أنت ! »

قاطعتي جازم باحتجاج حاد المبوت :

- « لماذا ؟! اتفقنا معه من الباب للباب وحاسيناه !!»

صحت فيه باحتجاج أكثر حدة :

 « لو سه حت يابو العم! دعنى أتصرف كما يتسرا عى لى !! فالمهمة مهمتى! إن الأسطى أن يستطيع توصيلنا للمكان المطلوب وسط طرق ضيقة ومزراع وعرة!! »

لحظتها صباح السائق :

« نعم ! لم أكن أعرف هذا عند الاتفاق! إعملوا معروف! السيارة لا تحتمل
 الطرق اللولبية غير المرصوفة!! » -

« معك حق يا بو العم! سيارتك هذه رقيقة مثلك ونحن لا ينفعنا إلا سيارة
 صعيدية خشنة !! فاتكل على الله أنت!! » .

وملت على حازم موضحا:

« هذه سيارة بنمر قاهرية ومنظرها يثير الريبة حوانا يجعل الناس يخافون
 منا خاصة أن منظركما غريب على البلد!! »

بينى وبينك يا خال كنت أشك في السائق أتصوره من بين الشرطة لقرب الشبه بينه وبينهم - قلما أبدى خوفه الشديد على سيارته لمحت وراء خوفه خوفا أكبر عل حياته يعكس استرابه من المشوار كله ، قداخلنى كثير من الأمان - صحبتهما إلى سوق أسيوط لنجاس على إحدى مقاهيه بعض الوقت - تلقيت السلام الحار في خل خطوة ؛ مئات التحيات والشايات انهمرت علينا من كل من رأنا حتى انكمش رفيقاى بعض الشئ - أرسلت صبيا في طلب سيارة من الموقف القريب ؛ تصادف أن سائق السيارة يعرفنى ؛ بالحضن يا بو على ؛ أهلا يابو العم ، بنا إلى الفنايم ...

عندما صرنا في مدخل البلد توقفنا عند عشة تبيع الشاى والقهوة ، طلبت السائق ما شاء من المشاريب وأعطيته حسابه وجزءا من حساب العودة على أن ينتظرنا بقية النهار بالبلغ الذي يطلبه كي يعيدنا إلى أسبوط ...

كانت الفكرة قد عششت في رأسي يا خال ، رأيت أن أدخل الرعب في قلب رفيقي حتى يتسنى لي أن أكون مسيطرا على الشغلة - لففت بهما حول البلاة بهدف التضليل ثم توجهت بهما إلى مقهى المغارة في الجبل ، تلك التي دخلتها ذات يوم صدفة وكنت على وشك الضياع فيها لولا ستر الله ، ما أن دخلنا من باب المفارة حتى التقانا صاحب الكشك في الحال المقام فوق المدخل ليخفيه بداخله عرفني صاحب الكشك فوجه لي واضيوفي تحية مناسبة - رفيقاي تصورا أننا دخلنا الكشك لنشترى السجائر أو نشرب الشاى ؛ فكانت المفاجأة صادمة حينما أشرت إليهما أن يتبعاني - هبطت بهما منحدراً خادعا يظن من يجتازه أنه يؤدى به إلى الطريق الزراعي ثم يفاجأ بأن الإنحدار فيه لا نهاية له ؛ ثم تبدأ السماء في الاختفاء شيئا فشيئا إلى أن تختفي تماما في القبو المظلم ثم داخل النفق الطويل...

بدأ الرعب يعتريهما فعلا يا خال ، من خطوة لأخرى يسائني أحدهما في استرابة وإضحة :

- « إلى أين نذهب ؟! » -

فأرد عليه بخشوبة مبطنة بالرقة :

- و لا تخف مادمت معي !! ه

إلى أن صرنا في قلب المقهى ، فاستقبلت فيها استقبالاً حافلاً يابوى كائنى من كبار الزوار بل كاننى صاحب بيت ، أتخن شنب كان يجرى ليخدمنا ، جاء الشاى نو الرائحة النفاذة ؛ جاءت الجوزة والحجارة ؛ وكانت بقايا حشيش الأمس وأنبوية زيته في جيبى ؛ فملأت الحجارة ؛ شريت معهما بعض الأنفاس ؛ ناديت للواقف وراء النصبة فجاء يهرول وكان عملاقا يخيل إليك أنه ضلع من الجبل دبت فيه الحياة ، سلم على ضيفى ؛ قات له إنهما من أقاربنا في مصر ، فأعاد السلام عليهما بحرارة أشد قائلا :

- « إن شاء الله القداء عندنا ! جئتم في موعده وإن تخرجوا من هنا قبل القداء !! ما الذي تحبون أكله ؟ رومي ؟ بط ؟ حمام ؟ خرفان ؟ جديان ؟ كل هذا موجود عندنا وإن نشتريه !! » ...

استحسنت الفكرة التي لم تخطر لي على بال ، قات :

- « جهز الغداء الذي يعجبك أنت! وهذا الرجلان في عهدتك وحمايتك حتى أعود! سأمكث حوالي نصف ساعة!! » .

بأصبعه أشار الرجل الجبل إلى عينيه:

- -« تحب أن نبعث معك حرسا ؟! »
 - بر لا ! الجارس فق الله ! »
 - « ربما احتجت لمن يعاونك !! »
 - « الشغلة يسيطة ! »
 - « طالم قوق ؟! »
 - « نازل تحت !! » -

-« بألف سلامه ! إنكل! »

إستثانت من ضيفي فأننا لى بنظرة فيها من الإكبار والرهبة والخوف المزوج بشجاعة مدعاة خرقاء ما هز قلبي بالفرح والتفاؤل . فقلت عائدا إلى البلدة .

من فوري توجهت إلى داري ففتحتها كالمتسلل . أزحت ملة السرير . بسن الكوريك أزحت التراب عن غطاء البئر ثم أخرجت ما فيه فإذا بقلبي برتعد خوفا وقرها معا: الثروة كانت أكبر مما قدرت ، وه با يوي ، كل هذه الأنتبكات والتماثيل عندي ؟ حمداً لله - انقضت بدي على التمثال الذهبي ، شملني الرعب المزوج بالندم الكبير ٬ كان التمثال أكبر من تمثال المرمر بحوالي خمس قراريط فضلا عن أنه أثقل بكثير بابوي ، مززته في يدي ففزرت أنه بزيد على الكيلو جرام بكثير ؛ ثم ما هذا الشغل يابوي ؟ تمثال المرمر كان واقفا فحسب أما هذا فواقف في مدخل بواية المعبد الكبير رعلي كل من يمينه ويساره حارس بحرية مرسومين على صدغى البوابة أما هو فمجسد بكامل وجها وظهراً في فراغ البوابة ، وه يا بوي ، أجننت يا ولد أبي ضب لكي تفرط في هذه التحقة الثمينة ما ابن المرة ؟! صحيح أن الفلوس كبيرة لكنني كنت أتمنى أن أحتفظ بها وبالتمثال معا، أو على الأقل يعود التمثال إلى مرقده حتى يجئ عدله . أوشكت أن أفعل يابوي ، لكنني بصراحة خفت من بطش محمد بك أبو شناف ؛ عزيت نفسي بأنه ريما صار لي نصيرا في السنقيل؛ يجب أن أضحى كما يفعل الحاج أحمد نوار الدين السني -وهكذا لففت التمثال في منديل دسسته في جبيي ؛ أغلقت البدر أهلت عليه التراب دلقت عليه قدرا من الماء دست فوقه حتى يططته أعدت ملة السرير إلى مكانها وخرجت إلى الشارع العمومي ...

اتخذت طريقي إلى دار هليل فإذا به يلتقيني في الطريق حيث كان في طريقه إلى داري بمجرد سماعه خبر وصولي ومعي ضيوف ، في كلمات قليلة أحطته علما بمقيقة الشغلة من طقطق لسلام عليكم ؛ فعقمتي برفق نحو داره أيغير ثيابه وراتي بمسدسه - بعد دقائق كنا في مقهى المغارة ...

وجدنا التحشيش قائما على قدم وساق ، الصبيان الضخام استقباوا هليل بما يليق به من الحب والترحيب ، تناثرت عليه عبارة مساء النجف على المعلم من كل ناحية ، قال الرجل الجبل وهو يقدم لى نصف كوب من الأقيون البلدى الذاب في الشاى :

- « خير وصواك طلع إلى فوق !! »
 - هتفت مستاءً :
- « لماذا ؟ لم يكن هناك داع يا بو العم !! » -
- « كان الفير سيصل بنا أو بغيرنا فليصل بنا من باب أولى فنحن لا نستطيع كتمان خبر كهذا فكل من يدخل الجبل يصل خبره في الحال قبل أن يجلس يا ولد عمى !! ولابد أن نعرف إن كان علينا أن ترحب به أم نظرده أم نتاريه !! الأصول أصول يا ولد عمى لا تزعل منها !! » -

ثم استدرك وهو يتناول الكوب منى :

- « هات صحابك وتعسال! عندنا قاعة لكبار الزوار يجب أن تشرفوها! دعوا هذا المكان للركش والواغش ريما كنتم تصبون التحدث مع بعضمكم في شيء مهم!!»

أشار إلينا فتبعناه ؛ مضينا في القبو الواسع المستطيل مشواراً يقرب من نصف كيلو متر ؛ ثم حوبنا في كوعة حادة بارزة كجدار يعترض الطريق ، بعد الحودة مباشرة حودة أخرى أكثر حدة وبروزا ، تليها عطفة تؤدى إلى تجويف سرعان ما أفضى بنا إلى تجويف أعمق على مساحة كبيرة مربعة مليئة بمقاعد حجرية كالمساطب الملتصفة بالجدران وبعض مقاعد صغيرة من القش ، ما أن

جاســنا حتى تبين انا أننا في حجرة مربعة لا باب لها تحيط بنا الجدران من جميع الجهات ...

جئ بدكة خشبية كبيرة امتدت أمامنا كمائدة ؛ صار الصبيان الخناشير يبزغون فجأة من أضلاع القاعة حاملين الأطباق والأناجر والسلطانيات ، رائحة الطعام الدسم فاحت حملتها نسائم لا ندرى من أين تهب ، وليمة كبرى يا خال ، كُلْ يا بو العم وهات معك من يأكل ، قال الرجل الجبل أنه سيعطينا قيمة ساعتين نتمدد فيهما للراحة حتى نهضم الطعام ويعدهما يجئ بنفسه ليعطينا حبسة العصاري ..

الضوء النهاري كان منسريا من أماكن مجهولة . هذا بالنسبة للفشيم يابوي ؛ أما بالنسبة لمفريش صايع مثلى اعتاد النظر والتنقيق في كل خطوة فإنني لاحظت أن هذه القاعة محفورة في الجبل بطريقة لولبية لتضليل الغريب من ناحية ولإدخال الضوء من ناحية أخرى جاعلا في كوعة من الكوعات مسقط ضوء مفتوح على السماء في قلب هضبة عالية . حاجة تهوس يا بوي . ومن الواضح يا خال أن هذه الحجرة المغارة تصفى مشاعر الجالسيين فيها وتهدئ نفسه تمنع عنه القلق ، طوحت بصبرى على القاعدين معى فخيل لى أنهم جميعها من الملائكة الأطهار الأبرار

تململ هليل في قعدته :

- « نتكلم في الشغل يابو المم ؟! ،

انتبه الضيفان فاعتدلا في شيء من التحفز ، قال حازم بفتور أقلقني :

- د جئت بالأمانة ؟! »

أشرت إلى هليل :

- « جئت أك بالمعلم نفسه صاحب الأمانة!! »

-د أهلا وسهلا! تشرقنا !! ء

قمد هليل يده في جيب الصديرى ، سحبها بالمنديل الملقوف ؛ فك المنديل عن التمثال الذهبى أمسكه من قاعدته السفلية رافعا إياه في الهواء . أصابنا الذهول يابوى ؛ الأقواه مفتوحة عن أخرها ، المشعراني زاهي بك تناول التمثال بكثير من التقديس كأنه يمسك مصحفا ؛ صار يقلب ، يمعن النظر في كل ملصح ، ينظر بالعدسة الكيرة ، أخيرا سلمه لحازم مع كلمة وإحدة :

- « تمام ! مائة في المائة !! »

نظر حازم إلى هليل:

- « على كم يا معلم ؟! »

في معلمنية ثقيلة يحسد عليها قال هليل :

- « مائتا ألف من أجل خاطر حسن وضيوقه !! »

قال الشعراني :

- د الاتفاق لم يكن هكذا !! » .

قال هليل :

- « شف يابو العم ! ما كنت أندوى إظهار هذا التمثال بالدات لكنه حسن سامحه الله دائما مسحوب من أسانه ! لهذه التحفة زيائنها يجيئون لعد عندها !!»

اعتدل حازم كأنه سيواجه حوتا ضخما:

- « يا معلم! لقد اتفق حسن مع ناس في مراكز كبيرة في البلد! وما أنا إلا
 واسطة خير أسلم المبلغ وأتسلم التمثال!! » .

صاح هلیل فی احتجاج دقیقی متقن :

- « والله عال! بعتم واشتريتم ومناحب البضاعة كالأطرش في الزفة!!

المشكلة يابو العم أن حسن نسى شكل التمثال فاتقق معكم على تمثال أصغر من هذا !! و

قلت كأنتى أخلص نمتى:

- « لم أبع ولم أشتر! أنا عرضت قحسب يابق العم!! والرجل الطيب الذي تكلمت معه عرض أن ينفع الآن خمسة وسبعين ألقا وبعد أيام قليلة ينفع مثلهما فقلت له سنحكم صاحب الشأن فأرس معى هذين الرجلين الكريمين لإظهار الجدية في الكلام إن وافقت يدفعان وإن لم تفافق يا دار مادخلك شر!! فماذا قلت ؟! »

- د قلت لا إله إلا الله ! ه

ونكس رأسه في الأرض مفكرا ، أراد حازم أن يأخذ خطوة عملية لإظهار الجدية : فتح الحقيبة ، أفرغ ما فيها عد خمسا وسبعين باكو ملفوفة بأحزمة البنك ، كومها أمام هليل قائلا في أربحية :

 « هذه هى الفاوس خذها وخذ التمثال! نحن نشترى رجالًا! ومجرد مقابلتكم لنا تساوى فى نظرنا أموال الدنيا كلها!!

ثم إن أخى – وحسن يقول لك – رجل يشترى ا رجل بمعنى الكلمة وصاحب صاحبه وينقع فى الزنقة ربنا لا يوقعك ولا يوقعنا فى أى زنقة !! ولا يصبح أن أقول لك عنه أكثر من هذا وسائرك لمفك النظيف معرفة من يكون أخى بالضبط !! » -

« أنت في نظرى لا تقل عن أخيك ولا يرضيني أن أقصر رقبتك أمامه! أنت أيضا لا تقصر رقبتك أمامه! أنت أيضا لا تقصر رقبتي! قات إن أخاك رجل ولا كل الرجال! جميل يابو العم! هذا تمثال غير الذي تصوره حسن ولا يمكن التقريط فيه إلا بسعر يساويه! سآخذ مائة وخمسة وسبعين ألقا الآن ويبقى خمسة وعشرون آخذها بعد عشرين يوما! خذ التمثال لتربه لأضك حتى مقتنع!! » .

- « معى الآن هذا المبلغ فقط! صنفتى! » -

- و إذن فأخوك يسلم لحسن مبلغ المائة أو يعود حسن بالتمثال! مع العلم بأننى واثق فيك وفي أخيك وواثق أكثر في نفسى فما ضاع لى حق أبداً وإن يضيع مإذن الله!! ».

واستدرك ناظر الى نظرة ذات معنى:

- و سيمعت ما قلته با حسن ؟! » -
 - د سمعت يا بوي ! ه ،
 - قاتجه بيمبره لحازم:

« شف يابو العم! التمثال أمانة معك سأسلمه لك أنت لا لمسن! وعلى
 قدر ثقتي هذه فيك أتعشم أن تعاملني بمثلها! فاهمني يابو العم؟! » .

هن حازم رأسه في امتنان ؛ ويسرعة تناول التمثال فلفه في منديل ثم نسه في جيب المديري ، فقمت أنا بإعادة رص البواكي في المقيبة وسلمتها لهليل - طرح المشعراني علينا طرحة سجائر ملفومة ، وإذ مال ليشعل لنا بالقداحة فوجئنا بالرجل الجبل يدخل بالعدة ليسقينا حبسة العصاري ..

عند خروجنا اقتادنا الرجل الجبل من سكة بعيدة تخترق أحشاء سفح الجبل وسط فوهات مخيفة وكتل مائلة وأحجار تتعانق فوق فراغات عطريق شديد الوعورة يا خال ملئ ببقايا جثث ألمية أكلتها الثمالب والثعابين والغربان والكلاب المنته والفئران الضالة وكنا نتقافز في مشينا لنتخطى الثعابين والحيات والكلاب الميته والفئران الجبلية الضخمة ، وأكوام قمامة ، وإطارات سيارات وهياكل سيارات محترقة وبراجات بخارية متكسرة ، وقبعات وطرابيش شائطة وأسمال بالية ، صرنا نصعد فوق مدق ترابى محقوف بكتل الصخور الناتئة المدبنة ، صعودا بدا أنه لا نهاية حتى تصبب العرق من جباهنا ، وقرص الشمس الأحمر المخنوق يصير على مرمى حجر من رءوسنا تارة ويختفي تارات ، إلى أن فوجئنا به قابعا في السفح مرمى حجر من رءوسنا تارة ويختفي تارات ، إلى أن فوجئنا به قابعا في السفح

البعيد وسط يحيرة من الدماء ، وكتا قد صربا نهبط نحوه تكاد تنكفئ من سرعة الهبوط ؛ فإذا بصفحة النيل أمامنا قد احتوى قرص الشمس ، وإذا بالطريق الزراعى أمامنا ، عندئذ سلم علينا الرجل الجبل مودعاً وواصل سيره حول الجبل ليدخل من كشك السجائر فيما واصلنا نحن إلى مدخل البلد من ناحية دارنا ، سلم هليل علينا ومضى بالحقيبة تحت إبطه إلى داره ، ومضيت بالضبتين إلى كشك الشياى حيث ينتظرنا السيائق ، الذي وجدناه في حال من الرضيا متريما على المصطبة وقد اختفى به كثيرون من عائلة خرابة فقدموا له الغداء والحجرين المعتبرين ، ولد عتره يابوى ، صمم أن يوصلنا إلى القاهرة و . . طريق السلامة ما عيل . .

وصلنا إلى القناطر الخبرية في الذامينة من مساء اليوم التالي بعد أن استرجنا في شقتي على نبل النبل ثم نهبنا إلى شقة حازم في منشحة البكري حيث أجرى اتمالاته وعرف المكان الذي يجب أن نتجه إليه فركبنا سيارته فاتجهت بنا إلى منطقة نائية بحزاء القناطر بعيدة عن العمران بمسافة طويلة ؛ هي عبارة عن غاية كثيفة من الأشجار المنسقة كأنها خارجة من محل الكوافس، والتحيل الملكي ذي الجريد الناعم - الطريق إليها ممهد بإتقان وممتد إلى داخلها يقول للسمارة وإصلى سيرك م صارات أشجار الفاكهة تحف بنا من الجانيين ، وثمة لمبات كهربية حمراء كعناقيد العنب تتدلى بين الأقرع الكثيفة ، على مبعدة قمييرة ظهريات القبلا كقطب من الضوء ، بأن مسيح بالمديد الصلب المتقول اللامع على شكل درايزينات وشبكات ومصدات ، يتم الصعود إليها بخمس درجات ، ورغم أن المكان يحيطه الهدوء التام ، ولا صوب إلا نقيق الضفادع ، فإن المرء يحس أن هذا الهدوء ليس خالصا يا خال ؛ فتمة نفس ثقيل الوطء يا خال ، ثمة حرس رهيب يتفشى في أحشاء الفابة وحواليها يرصد حركة كل نملة داخلة أو خارجة ومن الواضح أن المه علماً بكل من سيأتي ولديه أيضا تعليمات بعدم الكشف عن نفسه إلا عند اللزوم ، وهذا ما قد حدث في الحال يا بوي ، ما أن وقفت السيارة ونزلنا منها حتى ظهر من تحت الأرض أفندى محترم في غاية الرقة والأدب؛ ألقى علينا التحية ثم أشار إلى السائق أن يتبعه ، فمضى حازم بالسيارة خلفه على نفس الطريق المهد العريض وقد كشفت أضواء السيارة عن الأفندى السائر أمامها فظهر المسدس متدليا فوق إليته اليسرى - مالبث حتى توقف وأشار لحازم بنراعه على حودة غير مرئية لنا تقود السيارة إلى طريق الخروج من جانب آخر ، ثم اختفى - عاد حازم ليتقدمنا صاعدا الدرج - ضغط على زر فى الحائط ، فسد معنا وشيشا صادرا غن جهاز يشبه الراديو الترانزستور مثبت على صدغ الباب ، ثم انطلق صوت فيه خشونة وتوعد : « من بالباب ؟ » - رد حازم فى الحال : « أنا حازم أبر شناف ومعى صديقان ! » . فانفت الباب من تلقاء نفسه بحدكة آلية ذات صوت كأنه يدور فوق تروس ساقية من سواقى الفيوم ---

بخلنا فلم نجد في استقبالنا أحدا . ردمة كبيرة جدا ملئية بالأبسطة المأبنة الناعمة اللامعة على الأرض وفوق الحوائط بين براويز اوحات ومرايا ، تحف ثمينة موضوعة على أرفف وطقاطيق عالية ، نجف كثير يتدلى من السقف كعراجين البلح الأهمر والأصفر والأسمر والأبيض والأخضير ، أشكال وألوان من الكراسي والقاعد والكنب والشلت والبغات متناثرة في مجاميع متآلفة تفصل بينها ممرات ومناضد صغيرة عليها تحف تضاء بالكهرباء . تهنا في الردهة يا خال ، صرنا نتخابط يمينا وشمالا ، لكن صوبًا رن في قلب الردعة صائحا من أعلى : إطلع يا حازم ، فقنفنا بأبصارنا إلى أعلى فإذا بأفارين ذهبية لشرفات ويلكونات تلف حول الردهة ، وكانت أعيننا قد ألقت الضو الخافت فتيين لنا في الركن البعيد سلم ماثل بدرابزين خشبي مشغول بالأرابيسك ودرجه مفروش بالسجاد . اخترقنا المقاعد إليه ، في نهايته كان في استقبالنا رجل أسود كالنين يظهرون في الأفلام في قصور الباشوات يرتدون جلابيب مقصبة ، اقتابنا عبر ممر عريض مستطبل مفروش بالسجاد ، موسيقي أجنبية خافتة الأنفام تزفنا منطلقة من كل خطوة ، في أخر المر غرفة بدت مفتوحة كالمعب فيها أسرة ساحرة مفروشة بالحراير ، وبواليب وخزنات ومرايا ومقاعد كالممير النجدة ، من شدة اتساعها وارتفاع جبراتها بدت كاتها بلا سقف ، تعتد حتى مشارف البصد بلونها الأبيض المزدان بظلال لبنية ونقوش زرقاء وحمراء خافتة ، ولها أبواب عديدة لونها أبيض ؛ شيش وزجاج وشبك سلكى - لم نميـز الأبواب من الشبابيك إذ أن الأرض المغطاة بالخشب الباركيه تعتد تحت الأبواب المواجهة لنا على البعد ، وفي العمق البعيد سماء متلألثة مترجرجة تخترقها أشرعة عملاقة وقزمية - صرنا نقترب منها فنميز فيها صفحة النهر المداح ملتحقا بالسماء ؛ وكلما اقترينا ابتعدت الأشرعة - عبرنا الباب الثاني فإذا بنا في شرفة ملحقة بالحجرة لا تقل عنها اتساعا مسقوفة بشرفة مثلها ، مفتوحة كهذه على شاطئ النهر نصف سورها عواميد حديدية منداخلة في أشكال زخرفية - حاجة تهوس يابوي ...

محمد بك أبو شناف ملقى فى كرسى خيزرانى كالأرجوحة بقاعدة دائرية تسمح لظهره بالتراجع حتى يلامس الأرش - كان مضطجعا وبجواره ترابيزة عليها زجاجة وكأس ، وعلى ترابيزة شقيقة مجموعة أطباق فيها جنز وأوز وفسدق - ترابيزة ثالثة صغيرة عليها طاسة نحاسية يرتص فوقها ما يقرب من عشرين غليونا مما يسمى بالبايب - دفع ساقيه إلى الأمام قليلا وكان يرتدى عنامة فوقها روب - اعتدل به الكرسى - وضع الكأس وأبقى على الغليون بين أسنانه صائحا من فم مقفل:

- و سيم ولا ضيم ؟ ! حمدا لله على السلامة أولا !! » -

قال حازم وهو يلقى بنفسه على كرسى مماثل:

- د سيع طبعا ! ه -

جلس المشعراني وجلست . سحب حازم المنديل وفكه عن التمثال . انتفض محمد بك فاتحا فمه من شدة الذهول والرهبة :

- فيا سلامينا مندا بيدمُ !!»

واختطفه ، صار يقلب فيه ، يقريه وبيعده :

- « شيّ يفوق الوصف! سأحقد على من يقتنيه!! »

عاجله حارّم :

- « واكن البيع ليس تهائيا مع الأسف!! »

فرحت بقوله إذ يطرق المديد وهو ساخن ، بدت على محمد بك صدمة من نوع صدمات قطاع الطرق الذين يدعون الأصول وتشى ملامحهم ونبرات صوتهم بأنهم مدريون على اختراقها ، نظرته يابوى قالت ببريقها الجهنمى إنه بيع نهاش وأن تستطيع قوة في الأرض إلغاءه ، لكنه سرعان ما تسسريل بإهاب الحكماء المسالين :

- « ما المشكلة ؟! أن يكون هناك مشكلة !! »

بكل وضوح وحيدة قال حازم:

- « هذا مختلف عن التمثال الذي وصفه حسن! لقد وصف من الذاكرة!!
صاحب التمثال لم يقبل بأقل من مائتين: مائة مقدما والمائة الثانية في ظرف
عشرين يوما! وأنا تعهدت له عهد رجال أن التمثال أمانة عندي حتى يأخذ هو
حقه كاملا! فإن وافقت حضرتك على هذا المبلغ فإن حسن يجب أن يأخذ الأن
خمسة وعشرين ألفا ليعود بها! أو يأخذ التمثال ويرد المبلغ!! » .

نظر فيه محمد بك متمعنا باستغراب ودهشة كاته يريد أن يقول له: أنت معى أم معهم ؟! لكنه استبدل هذه العبارة بقوله:

- « وأنت ! ما رأيك في هذا الكلام ؟ وما رأى الخبير ؟! »

بلهجة ذات معنى قال حازم :

- « ما رأيته ولسته أن الرجل كبير الشخصية وقوى جداً وليس من السهل
 ولا من الحكمة مما طلته فهو واثق من نفسه إلى حد الجنون لكنها ثقة في

محلها!! وقد عالمنا باحترام وشجاعة وشهامة ولما كلمته عن حضرتك كان مستعداً لد الفلوس وهو على ثقة بأنها ستعود إليه كاملة ثم إننى وعدته ويهمنى كما يهم حضرتك طبعا أن أكون عند وعدى !! بصراحة لقد أحببته واحترمته وقررت أن أكسبه صديقا إلى الأبد وأنت أيضا لو شفته ستقريه منك !! هذا ما حدث ولك الرأى في النهاية !! »

زام محمد بك في تفكير عميق ثم نظر إلى المشعراني فهز المشعراني رأسه في تأييد لمازم ، وأضاف :

• تحقة لا مثيل لها في العالم كله! لا يقدر على ثمنها إلا دولة!! وهي
خسارة في البهدلة بصراحة وحضرتك تفهم ما أعنى!! ».

تتاول محمد بك رشفة من الكأس ثم أشعل الغليون بولاعة ثم جنب عدة أنفاس متلاحقة - وضع التمثال بجوار الزجاجة فأشاع في المكان كله بهجة ذهبية ذات أبهة وأنس - أخيرا قال محمد بك :

- د ماش! أنا أيضا سأشترى هذا الرجل سأنفذ له كلامه فهو لا يجب أن يكن أرجل منا ونحن فعلا يجب أن نحتفظ به! خلاص يا حسن! الليل وآخره!
 قوموا شوفوا لنا حجرا نشريه قبل أن يطبق هذا البايب اللعين على صدرى!! » .

تقدمنى حازم فى نفس الشرفة التى نجلس فيها ، كانت الأشرعة فى مواجهتنا على مرمى رصاصة كما بدا لى ؛ لكن الشرفة انكسرت فجأة إلى اليسار ثم امتحت إلى الأمام فكتنا ذاهبون مباشرة إلى الأشرعة التى بدت كأنها فى متناول اليد ؛ لكتنا بينا أن الأشرعة لا تزال بعيدة وأنها تبدو قريبة لأن الثيلا مبنية على أرض منخفضة عن سطح النهر بمقدار الطابق الأرضى كله رغم ارتفاعه ، أخيرا صارت الشرفة فوق سطح الماء فيما كانت الأشرعة فى العمق البعيد لاتساع صارت الشرفة فوق سطح الماء فيما كانت الإشرعة فى العمق البعيد لاتساع النهر. هذا الجناح من الشرفة كان متكامل الجدران لكنها جدران من الزجاج

والألونيوم وهو زجاج ترى منه كل ما فى الخارج دون أن يراك من بالخارج ؟ أخبرنى حازم بذلك لما رأنى متحرجا من أن يرانا من هم على ظهر هذه السفن . حاجة تهوس يا بوى ..

القعدة كانت متكاملة يا خال تقول للخرمان إجلس وإنس الدنيا كلها في هذه الجنة - حشايا ومساند أرضية ، حصائر ملونة في أركان متعددة ، طبليات من خشب مصدف ، في أحد الأركان ثلاث جوزات في قلب دلو كبير ملئ بهضاب ثلج وماء ؛ بوتاجاز صغير يشبه الكلوب ، براريد وأكواب فوق صوائي من الفضة ، شكارة ملائة بفحم من شجر البرتقال أشار إليها حازم قائلا :

- « شوف شغلك يا حسن ! هذا فحم يشتعل بعود كبريت !! »

قامت العقدة يابوى لا ينقصها سوى الشاريين ، نظرت حوالى فلم أجد أحداً فبدا الجو موحشا بعض الشي وخيل لى أن مخلوقات غربية ستنط من النهر لتنقض على أ : تراسى لى فى كل ركن شبح غامض الهوية - وكانت الستائر المتراحة تهزز وتثير صلصلة وخشخشة وهسيسا يختلط بهدير الموج الذى يبدو مع ذلك ساكنا تماما ؛ وثمة غناء حزين يقطع القلب يابوى كان الهواء يلعب به يطوحه هنا وهناك ، قمت مشيت نحو الأشرعة ؛ كانت كأنها معى فى الشرفة ، خيل لى أنى يجب أن أفعل شيئا ؛ مضيت إلى الداخل كى أنادى عليهم ، التقانى حازم مهرولا لمنعى من مبارحة المكان ، غمزنى بقطعة حشيش كبيرة كالرشوة المفضوحة ،

 « شف مزاجك وحدك حتى نجئ فأمامنا دقائق ريما تطول !! إسرح مع نفسك ومع الجو هنا ولا تقلق إن تأخرنا عليك !! » . بقيت وحتى متربعا تحت الشباك أدخن الحجر تلو الحجر حتى تعبت ، صرت أتسلى بغناء صعيدى أت من السفن ، وبمنظر السيارات رائحة جائية بأضوائها الشبيهة برياح مرئية تكنس الأرض - سئمت يا خال ، شعرت بالجوع ، تخنت وجهى وقمت ؛ مضيت على أطراف أصابعى نحو الداخل ، عبر الحوائط الزجاجية الداخلية المتقابلة رأيتهم منهمكين فيما يشبه العراك الصامت وقد تحلقوا الترابيزة الزجاجية الكبيرة : محمد بك وحازم وزاهى المشعراني و ... الحاج الأصغراوي عجبت كيف جاء دون أن أشعر به . أخذت أقترب على أطراف أصابعي ، إرتعت يا خال ، كانت رزم الفلوس مكومة على الترابيزة كهرم سقارة المدرج ؛ البنك الأهلى أو بنك مصر لا أظنهما يحتكمان على مثل هذه الكمية من الفلوس . تدهورت رأسي يابوي : كيف يمكن لإنسان واحد – مثلي ومثلك يابوي – أن يمتلك كل هذه الأموال ؟! كيف استطاع أن يحملها ويمشي بها ؟! وإذا كان لشخص أن يدفع كل هذه الأموال في بيعة واحدة فما الذي يمكن أن يقبضه بعد بيعها وماذا يكون رأسماله ومن يكون ذلك المشتري يا خال ؟! .

أخيرا هب محمد بك واقفا ، صار يلم هذه الرزم ويرمى بها فى شكارة من شكائر البريد . نهضوا جميعا واقفين فاستدرت فى الحال عائدا إلى مقر القعدة وركبى تهتز برعشة شملتنى من شال العمة إلى أصابع قدمى - استأنفت قعدتى أمام النار لكننى جعلت وجهى تجاههم - رأيت أشباحهم تتحرك - مضى حازم أمام الحاج الأصفراوى فى المر الذى جئنا منه ، ثم سلم عليه وعاد - رأيت محمد أفندى يضع جهازا صغيرا فى جيبه ويعطى آخر مثله للمشعرانى ثم يمسك بلفة من ورق الجرائد منفوخة ثم يقبل نحوى فيلحق به المشعرانى وحازم - اقترب منى محمد بك بابتسامة عريضة :

« شف یا حسن یا إبنی نحن اسنا أقل رجولة من قریبك هذا! سنقسم
 البلد نصفین فلا نظلم قریبك ولا نظلم أنفسنا! ستأخذ الآن خمسا وسبعین ألفا

مرة واحدة ولا يبقى لكما عنزى أى شئ!! هذا هو العدل والإنصاف وأتعشم أن تقلح في إقناع قريبك بأن يشترينا هذه المرة ويكسب منا في المرة القادمة!! أليس كذاك؟!».

وضحك ؛ فرقص قلبي من الفرح لهذه الشروة التي هبطت على من حيث لا أحتسب ، سللت صوتي من جراب صدىء :

« يا سعادة البيه الصعيد كله ملكك! نحن جدعان ونشترى الرجال بأغلى
 من المال! وقريبي أرجل منى! هات البلغ يا سعادة البيه ودع الباقى لى!! » ـ

ربت على كتفي بيد:

- « حازم سيومىلك به إلى بيتك ! »

وناولني اللفة فاحتضنتها بقوة ، ووجدتني أقول دون أدرى – لكي أسبك الشفاة:

- « بهذا أكون طِلعت من المولد بلا حمص ! باع البياع واشترى صاحب المال وضاع السمسار في البلموطي !! » .

ضحك بصوت مجلجل ، التفت إلى حازم :

- « أعطه ألفين يا حازم ! وحلال عليه ما سيأخذه من قريبه !! » -

أوماً حازم برأسه بحركة : نحن مع بعضنا لآخر الليل ؛ فهززت رأسى أن : وماله ، ثم دخلت بالبوصة على محمد بك ؛ فأمسكها واقفا وراح يعزف على ماء الجوزة لحنا طروبا بعث النشوة في رأسى يا خال ، ثم إنه جلس متربعا على شلثة فوق حصير ملون ، وحينما وقفت لتفيير ماء الجوزة لمحت على البعد في الضدق الخافت حازما يفتح شنطه السيارة ويضع فيها الشكارة ويغلقها ثم يكلم الأقندى الواقف في الحديقة قائلا : دعها هنا قريبة من أعيننا ؛ ثم يرتد عائدا ، دخلت بالبوصة على محمد بك ووجدتني أقول له على سبيل المزاح :

- معلى فكرة يا سعادة البيه ! نفسى ومنى عينى أن أدخل الإنتخابات المسجحنوا في البرلان !!» .

ضحك حتى أبعد البوصة عنه ماسحا عينيه بمنسل:

- وماله! وهل تطن من في البرلان أحسن منك؟! رشع نفسك يا رجل
 واتكل على الله! ».
 - « هل كل واحد يمكن أن يرشع نفسه ؟! »
- إلا أصحاب السوابق بالطبع! وحمتى هذه يمكن أن تطهما أنت وشطارتك!! ».
 - « وكيف يرشح الإنسان نفسه يابوي ؟! »
- « يذهب إلى البرلمان ويمالا استمارة الترشيح وينتظر أياما حتى يبلغوه على عنوانه إن كان ترشيحه مقبولا أم لا !! قإذا كان مقبولا تذهب إلى دائرتك وتقوم بالدعاية اللازمة لنفسك !! » .
 - د دعاية كيف يا بو العم ه .
- « يعنى تجتمع بالناس وبقول لهم ساقعل لكم كذا وكذا من الخدمات !
 ويجئ يوم الانتخابات فيتوجه المواطنون إلى اللجان للإدلاء بأصواتهم ! ويتم الفرز
 وتظهر النتيجة !! » .
 - « زين يا بوي زين !! هل يمكن أن تخدمني في هذه الاستمارة ؟! » -
 - ضحك ، أشار لعازم :
- « حازم يساعدك إن شاء الله صينما تنوى عندما يجبن موعد الانتخابات!!».
 - و وهل للانتخابات مواسم يابوي كالزراعة ؟! ه
 - . ضحك حتى نفذ وقاره :

- « طبعا ! حينما يجيّ موعدها سأقول اك !! »

رن منوت كشقشقة العصفور ، سحب محمد بك الجهار من جيبه ، رفع غطاءه فضوعف حجمه : آلو .. هو تليفون إذن بغير ساك ولا دياولو ، أخذ يردد :

- « نعم! أيوه! وماله! هاتها وتعال! وحسن بك أيضا؟ ماشى! سنؤجل
 العشاء حتى تحضروا بسلام! »

وطوى الجهاز ووضعه في جيبه:

« مفاجأة يا حسن! الشيخة سعادة آتية بعد قليل مع الحاج أحمد نوار
 الدين السنى وحسن بك! » .

— « معقوله ؟! »

- « حسن بك هذا ليس أنت بالطبع ! إنه منديق لنا من أعضاء مجلس قيادة الثورة ! »

ثم أخذ يصفق كفا على كف ، استطرد مندهشا ومعجبا في نفس الوقت :

- « العالم جُن !! تصوروا أن بعض أعضاء السفارة الأمريكية هم الذين دعوا الشيخة سعادة هذه المرة للتعرف عليها والتبرك بها عن طريق صديقنا حسن بك؟! رجل أعمال سعودى يعمل بالسياسة نقل لهم أخبارها بأنها ساحرة تجيد قرامة الطالع السياسي للأشخاص والدول !! يعني تشوف بخت دولة مثلا !! ها ها ها !! عندها تنبؤات خطيرة بالنسبة للعالم كله ولكبار الساسيين والزعماء !! قيل إن معها كتاب سحر فرعون تجيد تفنيط أوراقه وتوزيعها على الأيام والشهور والأبراج لتضرج بنتائج يقولون إنها صادقة ومهمة !! تنبأت لرجل الأعمال السعودي بأشياء حدثت بحذافيرها !! وزميلنا حسن بك يحلف أنها ترى كل ما في دماغه ودماغ غيره ويتحدث عنها مع كل أعضاء مجلس قيادة الثورة !! حسن بك رسل من أتي بها من أسيوط كما يقعل دائما ! ذهب معها السفارة الأمريكية

شافت شغلها هناك ثم دعاها لقضاء بقية السهرة هنا !! العاج نوار الدين يقول الآن إن الأمريكيين فتنوا بها وأكرموها كرما زائدا خاصة أنها لا تتقاضى أى أجر وهذا ما يزيد الثقة فيها باعتبارها ليست محترفة تتكسب !! ليلتنا فل إن شاء الله !! إرفع زجاجة الخمر يا حازم واخفها فى أى مكان حتى لا يصدع حسن بك رء وسنا بالحرام والحلال !! »

سحب الجهاز الثاني من جيبه - ضغط على زر ، تصاعد الوشيش بصوت عال ، أصوات طشطشة وغلبان ومواتير خلاطات زاعقة ، جاء صوت رجل :

- « الشيف تحت أمر سعادتك !! »
- « مساء الخبر يا شيف ! ما أخبار العشاء ؟ ! »
 - « تحت الطلب يا أفندم! »
 - « زاد عدد الضيوف ثلاثة ! وريما أكثر !! »
 - د الخبر كثير بإذن الله! -
 - « سنطلبك بعد قليل! شكرا! »
 - ووضع الجهاز أمامه :
- د هذه ليلة المفاجآت السارة! إسقنا يا حسن طاقما سريعا قبل مجئ الضيوف!! ».

ورحت أسقيه بأعصاب مضطربة من الفرح يابوي ء

أوراق السر الأعظم

ما أظن يا خال أنني سأدم شبيها بأذني سعينة التي حققت ما نشبه المجزات . حقيقة الأمر يا خال أنني لم أكن عرفتها على حقيقتها أثناء الطفولة ؛ فطفواتي كانت شريدة شقية ، أبعدتني عن الدار معداً طويلة با خال نسبت فمها أشياء ولم أفطن لأشياء . فمما كنت نسبته مثلا بابوي أن أختى سعبية هذه سجدة العظ من يومها تستقطب الحب من القلوب المتصخرة فهي الوحيدة التي اصطفاها عمى الفقيه الكبير أثناء طفراتها لكي يعلمها الكتابة والقراءة - رغم أنه ضوير — غيرا من كتاب القرية وميرستها ، ولكي تخيمه — في نفس الوقت — أثناء انشغاله في الدرس لربديه وطلابه وطلاب الفتوى . كل الكتب كانت في رأسه فحين يجئ من يطلب إليه الفتوى طلب من سعدية أن تأتى بالكتاب الخامس على اليمين من الصف الثالث للرف المجاور الباب ، ثم يأمرها بأن تفتح صفحة كذا وبقرأ من بداية السطر السابع مثلا ، فتفعل بلهجتها الركيكة المتعثرة ولكن تلويحة العصبا القاسبة تجعل ذهنها صباحيا بتجنب الغطأ في نطق الحروف وتشكيلها قدر الإمكان وهو لايني يصحح لها ، وبعد قرامتها فقرة أو فقرتين ربما صفحة أو صفحتين يطلب كتابا أخر فيستمع منه إلا صفحة أو مسخفحتين ، وقد تنوخ البنت بن عشرة مجلدات رائحة عائدة بها مقلبة صفحاتها لكي يتمكن هو في النهابة من إصدار فتوى مكونة من خمسة أسطر وريما أقل ، ولما كان جميع أبناء عائلة أبي ضب قد فاتهم قطار التعليم فإن جميم كتب عمى الكبير قد اندفنت في بواليبها العتيقة حتى شاطت أوراقها وأوشك أبناء عمومتي على تبديدها إهمالاً وبعزقة لولاً

بقية من تقديس موروث الورق المكتوب إكراماً لضاطر القرآن الكريم ؛ إلى أن أنقزتها أختى سعدية فأخذتها كلها إلى الجبل استجلابا للبركة والفال الطيب .

طب ما قواك يا خال أننى أتنكر الآن لعظات طيبة ؛ إذ تحكى لنا سعدية فى الليل كل ما سمعته من عمها الكبير وضبوفه وحول ماذا دارت معارك اليوم بينهم وبينه . والله يابوى كانت تتكلم مثلهم بالنحوى القصيح وهى بنت ست سنوات . وفي صباها كانت من اللماضة ومروبة اللسان على درجة كبيرة ...

يالها من امرأة قوية جبارة - تصور يا خال أن رمش عينها لم يطرف هين رأتني في القعدة ؟ كل ما هناك أنها هزت رأسها قائلة كأنها تخاطب شخصا رأته من قبل مرة واحدة عابرة :

- « كيف حالك ؟ طيب ؟ الحمد لله ! » -

ثم انصرفت عنى بوجهها الذى انسدات فوقه الطرحة الحريرية البيضاء الشفافة . كان فى صحبتها الحاج أحمد نوار الدين السنى ، وذلك المدعو حسن بك عضو مجلس قيادة الثورة نو اللحية السكسوكة ، تناولنا العشاء الدسم فى حضسورها بشراهة بون أن تنفتح لها شهية ؛ إنما اكتفت بتصرتين أخرجتهما من حقيبة يدها الشبيهة بالصندوق السحرى قائلة إن هذا هو غذاؤها على الدوام ، احتراماً لها أمر محمد بك أبو شناف بإيقاف وإبعاد الشرب بجميع أنواعه جالسا أمامها كالتلميذ المنتب هو وحسن بك والجميع فى حالة ترقب لكل كلمة تخرج من فيها ..

الأضواء يا خال كانت خافتة ، هادئة ، والهواء الطرى يربت على أكتافنا بيد حريرية حانية ، صوت آذان الفجر ارتفع كأن المدنية قد تفجرت فجأة بصوت الله أكبر ترجعه مئات المآذن بمكبرات الصوت في جميع الأنصاء . نهضت الشيخة سعادة لصبلة الفجر ، فاقتادها الحاج أحمد نوار الدين السني إلى ركن بعيد

جداً في آخر الغرفة الواسعة ، وعاد فأمَّ الصلاة بمحمد بك وحسن بك وحازم والمشعراني الذي ظهر أنه انضم على سبيل المجاملة المصلين فحسب - وجدت نفسى في وضع بايخ يابوي ، فقمت - غفر الله لي - وانضممت إلى الصف بغير وضوء ، موحيا للجميع بأننى على وضوئي وجاهز للصلاة في أية لحظة ، لكتنى ما أن فعلت حتى فوجئت بالشيخة سعادة كالقضا المستعجل ترتب على كتفى بخشونة قائلة بحدة :

- « أنت ! عيب عليك ! إذهب وتوضَّما !! »

ثم قعلت نفس القعل مع المشعراني وحازم ؛ لكنها سلطت عينبها على المشعراني بنظرة غاضبة حارقة ؛ فارتبك حتى ارتعش ، فقالت له :

- د أما أنت فعليك أن تستحم قبل الوضوء !! ،

حاول أن يفتح قمه لينطق في احتجاج مرسوم على وجهه إلا أنها صفعته بنظرة آمرة بالسكوت مؤنبة ، ثم أمسكت بطوق ثوبها وهزته متأقفة متشممة . فلما رأته مصرا على غبائه قالت له بصريح العبارة :

« ألا تشم رائحتك ؟! كيف تمشى هكذا ؟! من يخطف المتعة الحرام خطفا
 كاللص فيجرى والنجس عالق بجسده لا يصبح أن يخطف الصلاة !! لقد أفسذت صلاة هذين الرجلين الفاضلين !! » .

ثم هتفت برفق في أذن الإمام :

و إن الله مع الصابرين! أقم الصلاة من أولها يا مولانا واسبقها بركمتين الإستغفار!!».

ففى الحال سلم الإمام واقفا ذات اليمين وذات اليسار ، ثم بصنوت عال نوى المسلاة ركعتين للاستغفار ، فتبعه كل من حسن بك ومحمد بك - أما ثلاثيتنا فقد وقفنا غارقين في البلل ؛ فيما عادت هي إلى مقر صلاتها - دون أدى تردد مضمنا

خلف حازم كالتلاميذ الأشقياء إلى دورة المياه كى نتوضاً . لم يجرق أى منا على التبجح فى وجهها والإدعاء بأنه متوضئ ؛ وهنف المشعراني وهو يخلع ثيابه على باب الحمام في غير حياء :

- « هذه الشيخة نافذة البصر ومن يشكك فيها أخرق عينيه !! » .

وقال إن هذا الحمام تاريخي بالنسبة له لأنه لن يكف عن التطهر بعد ذلك مطلقا .

على الضوء الخافت يا خال خرج الكتاب المقصص الأوراق من حقيبة يد الشيخة سعادة محاطا بهالة من الرهبة والتقديس - العيون كلها عمودية عليه - كان عبارة عن رزمة من ورق البردى الأثرى متساوية الأحجام طولا وعرضا ؛ تقريبا في حجم كف اليد الكبيرة ، مربوط بشريط حريرى أحمر - نزعت الشيخة سعادة هذا الرباط ، قلبت في الأوراق بحركة من يفتط ورق الكوتشينه ، الورق كلمه ملئ بالرسوم والتقوش ، بعضها أشكال زخرفية ملولية تتخللها شرط تشبه الأرقام ، ورسوم لوجود وسيوف وأنية وبوائر حاجة تهوس يابوى - .

راحت ترص الورق على الأرض في كومتين - فصلت كل كومة عن الأخرى ، فإذا بمجموعة كثيرة الورق والأخرى أقل بكثير - محسويك ~ لا أدرى لم ~ كان يعد الورق وهي ترمى به ، فعرفت أن الكومة الكبيرة عددها ست وخمسون ورقة ، تقريبا كمدد ورق الكوتشيئة الجديدة ؛ أما الكومة الصغيرة فكان عددها الثنتين وعشرين ورقة ، ورسومها تختلف عن رسوم المجموعة الكبيرة - فمجموع الورق كله ثمان وسبعون ورقة بالتمام يا خال -

صاح الشعرائي وقد اقشعر صوته :

حازم! هل تذكر؟! رأينا مثل هذا الورق في النمسا!! يوم زرنا العراف النمساوي ليكشف لنا عن حظنا في ذلك المشوار المقد المؤلم إياه وكنا متشائمين!

نفس هذه الرسوم ولكن على ورق حديث بمطابع حديثة وعليها أرقام لاتينية !! • -ظهر على حازم ومحمد بك كثير من الحرج ، وغمغم حازم :

- « نعم ! بيدو هذا ! أظن ! » -

قالت الشبخة سعادة :

« هذا كتاب التاروت المسرى ! ورثته عن أجدادى واكن الذى كشفه لى
 وعلمنى قرامته هو أستاذى العراف المغربى المسين بن عزيزة لعلكم سمعتم به !!»
 هتف حسن مك :

- « أنا قابلته شخصيا عند الملك الحسن ! تكلمت معه ! هو رجل مبسروك وجهبذ من جهابذة قراحة الكف والفنجان في العالم فكيف عرفته يا ستنا الشيفة؟!» .

قالت الشيخة سعادة :

- و أنا قابلته في العجاز عند أحد الأمراء وقام بيننا الود في العال حصل التصال روحي عاجل! دعوته إلى مصر ليزيدني من علمه وحينما أوراني نسخة مقادة من هذا الكتاب مطبوعة حديثا تذكرت ما عندى وجئت به من صندوق عمى فكاد يغمى على الشيخ من شدة المفاجآة قال إنه الأصل المبارك الذي لم ينزع عنه سحره القديم إذ هو مرسوم باليد!! فما كاد يفك لي رموزه حتى صرت بعون الله كانني مؤلفته ومع ذلك فكل يوم أتعلم منه شيئا جديدا!! لقد ألفه أجدادي المصريون ليحفظوا فيه سر ما توصلوا إليه من تقدن وعلم وحضارة لكي يحافظ عليها أحفادهم!! » .

أمسكت بالمجموعة الكبيرة اوحت بها:

- « هذا ما تقول به هذه الأوراق وهي المسماة بأوراق السر الأصغر !! » -منظرها يا خال ، وهي تتكلم عن الأوراق شارحة كل ما يتعلق بها بفصاحة وطلاقة لم يكن غربيا على يا خال ، لم يدهشنى على الإطلاق يا خال ؛ فالمنظر مالوف لى تماما يا خال ؛ ومن زار معابد الفراعنة فى الصعيد فلابد أنه شاهد الكثيرين من أمثال الشيخة سعادة ، تضم وفود السياح رجالا وسيدات من المثلفين المتعلمين تعليما عالميا ؛ ومع ذلك يتلققهم فلاح صعيدى لم يدخل أى مدرسة لا يعرف القراءة ولا الكتابة لكنه يشرح لهم معانى النقوش وصور الحوائط صبورة صبورة نقشا فى حدوثة متسلسلة مليئة بالمعلومات الثمينة المبهرة والاحداث التاريخية الكبيرة ؛ فيستمع إليه المتعلمون دارسو التاريخ فى الكتب فلا يجرؤ أحدهم أن يتفلفس عليه قائلا كيف علمت هذا لأن الجميع يعلم أن هذا يجرؤ أحدهم أن يتفلفس عليه قائلا كيف علمت هذا لأن الجميع يعلم أن هذا المرشد الصعيدى الأمى قد حفظ هذه النقوش عن رواده الأوائل من أساتذة التاريخ وأضاف إلى ما تعلمه ما أنشأه خياله استكمالا وتصوراً ، فلماذا أفلح فى التاريخ وأضاف إلى ما تعلمه ما أنشأه خياله استكمالا وتصوراً ، فلماذا أفلح فى هذا يابوى ؟ لأنه عشق هذه النقوش عشقه لما تتطوى عليه من وقائع وحواديت هذا يابوى ؟ لأنه عشق هذه النقوش عشقه لما تتطوى عليه من وقائع وحواديت الورة وحت بها :

« أما هذه الورقات فاسمها أوراق السر الأعظم!! أثبت فيها أجدادى ما سيقع في الحياة وفي البلاد على امتداد واحد وعشرين قرنا من الزمان تبدأ بميلاد المسيح يعنى ألفين ومائة سنة! مضى منها ألف وتسعمايه وواحد وتسعون في السنين المائتة وما سيحدث في السنين المشر الباقية مثبوت في هذه الورقات!! » .

بعينين ضبيقتين سألها الحاج أحمد نوار الدين:

- « وأكن ما معنى التاروت باستنا الشيخة ؟! »

بسرعة أجابت :

- « يعنى الطريق المسرى بالقرعونية يا مولانا !! »

- « أقادك الله !! » -

ثم انكمش يستمم في شغف ؛ واستدركت الشيخة سعادة :

~ د بعضهم يقول إنها الطريق الملكي !! »

نظرات حسن بك تتسع ، تعتريه حالة من التحفز المتوبّر ، حالة من يريد أن يعرف كل شئ دفعة واحدة وفي الحال ، إذابه يابوي يطرقع بأصبعيه صائحا :

« حلو! حلو! مهمتك الليلة ياسبتنا الشيخة أن تكشفى لنا نبوءة أوراق
 السر الأعظم هذه! نحن في عرضك! نريد أن نعرف ماذا سيجرى لبلدنا في
 السنين القادمة!! »

رمقه محمد بك أبو شناف بنظرة فيها من الاستغراب والدهشة قدر ما فيها من فضول لمعرفة ما ستتنبأ به الشيخة سعادة - وحينما تقابلت نظرته مع نظرة حسن بك ظهر كانها متواطئان على شئ خفى مشترك بينهما ، ثم اتجها بالنظر إلى الشيخة سعادة فى شغف واضح واهتمام كبير مغلف بالمرح - قالت الشيخة سعادة :

- « تريد أن تعرف السر الأعظم؟! » .

كانت لهجتها تعكس السؤال والجواب معا ، كانها تريد أن تقول له : أنت تريد ذلك وأنا أيضًا أريده ، ثم أمسكت بالمجموعة الصغيرة فأعادت النظر في أوراقها واطمأنت إلى ترتيبها ثم وضعت الرزمة مقلوبة على وجهها .

الممرج

تمهات برهة طويلة يا خال ، قلبت خلالها نظرتها الثاقبة في جميع وجوهنا ، ثم رفعت الورقة الأولى وقلبتها على ظهرها أمامنا ، فاذا هي رسمانة تكاد تكون صورة طبق الأصل من ورقة الكوتشيئة المسماة بالحوكر لولا اختلافات طفيفة جدا يا خال ، ربما اختلاف بد الرسام الحديث الذي شذب خطوطه من ظلال خطوط الرسام القديم: رجل كالبلياتشو، يقف فاتحا صدره العريض مادا إحدى قدميه إلى الأمام في حركة شبه راقصة ، الفخذان مفتولان مكتنزان بعضل رشيق وكذلك الساقان فكل سباق ملفوفة بما بشيه الجورب الواصل إلى الركبة تتدل منه شراريب ، كل ساق بلون مختلف عن الآخر . في قدميه حذاء أشبه بحذاء الأطفال كل فردة مختلفة اللون عن الأخرى أما جسده القوى فملفوف بما يشبه العباءة مشغولة عند الصدر بالقصب والكلفة في شريحة متعرجة تمتد من أسفل العنق إلى أسفل البطن ، جانبها الأيمن أزرق ، وكذلك جانبها الأيسر أما المساحة التي تغطى البطن فما بين الأميفر والزيتي ، حتى الياقة التي تحيط بالعنق ينقاسمها اللونان الأزرق والزيتي ، ذراعاه أيضا كذلك ، على رأسه غطاء أشيه بكلبوش صوفي ذي أذنين طويلتين مائلتين على أذنيه تبدو كل منهما في ميلها كرأس حصان صغير ، اليمني زيتية اللون واليسري زرقاء ، بقوة ظاهرة يمسك بيسراه عميا من عمين الشرطة لكنها مغلولة إلى عنقه ؛ في حين فرد كف يعناه رافعا أصبعه السبابة كمن بتشهد . على شفتيه ابتسامة عابثة لا مبالية ، وفي عينيه نظرة مرسلة إلى بعيد في تفحص وإن أوحت بأنها تعرف كل شئ سلفا.

قالت الشيخة سعادة مشيرة إلى الورقة :

- «المهرج! الورقة الزائدة! غير المحسوبة لا رقم لها إذ هي موجوبة في البدء قبل الترقيم! تطفو دائما فوق الأعداد! رغم أنها لا رقم لها بين الورق فإنها محسوبة فيه يحلو للكثيرين اللعب بها بل هي ورقة الحظ!! في يمناه العصا رمز لقوة الردع والتأديب! وفي أصبع يسراه النذير والتحذير والوعيد!! أصبع يسراه

كأنه يقول أنا ربكم الأعلى والعصا في بمناه تقول هذه قوتي فاتبعوني لهذا فهور مهرج وهكذا كان الفرعون قبل أن يتعرف قلب أحد أحفاده على الواحد الأحد القهار!! ورغم أن الله قد أصبح ساطعا في السماء وفي الأرض ووسعت رحمته كل شئ وبيده الملك لا اله إلا هو فإن هذه الصورة بقيت في الحساب وإن كانت يلا رقم يقيت رغم الحساب من قبل الحساب وفوق الحساب بقيت لأن ابن أدم جبلته الطغيان والتهريج! بقى كورقة يلعب بها أولئك الذين فطرت قلوبهم على القسوة والتأله الكاذب في معاملة خلق الله كما تلعب بها الزمن صائع كل الأوراق !! اندساس ورقة المهرج بين الورق أمر وارد على النوام واندساس المهرج نفسه في لحظة تاريخية فاصلة لعبة خسيسة من لعب الزمن الخسيس لكنها واردة بل هي في كثير من الأحيان مرتقبة !! ظله بيقي زاحُهَا أمام كل طاغبة ما يقي الطاغية طاغويًا متسلطًا متسلطنا !! إنه ظل البكتاتون وجهه الأخر قريئه النقيض!! أرى في الأفق ظل المهرج يفشو وهذا إيذان بقرب نهاية الطاغية !! الطاغوت نفسه إذا استمر سادرا في غيه ريما انقلب إلى مهرج خطير ! ولقد امتهنت كرامة النيل ، ألقى فيه بالروث ، ركبه الكفرة الفجرة وبلك علامة الانهيار إلى حضيض الحضيض والأفظع منه أن يتخلى الطاغية باختياره عن العبء صراحة أو من وراء ستار وهذا يعني أنه صائر إلى رحيل حقيقي مفاجئ!! كل الشواهد تشير بعين قوية إلى قرب رجيل الطاغوت واعتلاء المهرج سرير السلطنة وحينئذ تموت البلاد ميتتها الأولى فالبلاد لا تموت بنكسة أو هزيمة إنما تبدأ الموت حينما ينزوي المسئول ويظهر المهرج وقد ظهر المهرج بالفعل في الإذاعة واضعا شنبه في المصيدة وفي الشوارع ظهر الفيل في المنديل والفلة في الفائلة والبغل في الإبريق وكل ذلك يعتلي غداً سرير السلطنة يصبح التهريج سيد الأخلاق يرقص السكاري فوق بركان الغضب المضغوط تحت طقاطيق الأرض فاللهم لا نسأك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!» .

ألقت بالورقة مقلوبة وتناولت ورقة أخرى .

الساحر

لوحت بالورقة في وجوهنا كي نراها جيدا ، الرسم نفس المنظر الذي نراه دائما للساهر يا خال ، أو الحاوى ، هو أقرب إلى الحاوى يا خال ، بل هو الحاوى بكل حذافيره ، رجل ممسك بالعصا السحرية القصيرة ، أبواته موضوعة فوق منضدة صغيرة أمامه : أربع كور ، علبة مستطيلة ، بوقان ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة رقم واحد : الساحر ! أول ورقة محسوبة في أوراق السر الأعظم البالغ عددها اثنتان وعشرون ورقة !! الساحر قديم قدم الأزل كانت له في العصور القديمة مكانة مرموقة في قصر الفرعون وقصور السادة النجب ، وقد تطور شأن كل الأشياء فأصبح سلاحا من أسلحة العصر الناجعة في التأثير على الناس!! الساحر بأبواقه وألاعيبه السحرية المبهرة أصبح ذا شأن عظيم في عصرنا أمسحت له شاشة فضية في كل دار كل فندق كل كوخ كل مخيم أسوف يلعب في السنوات القليلة القادمة أخطر أدواره على الإطلاق بنيع أنباء انتصارات السلطان الكاذبة يضلل الناس يخفى عنهم عوراتهم العارية يلهيهم عنها ينسيهم أنفسهم يجتث جذورهم من الأرض يستأصل شأفتهم يحولهم إلى قطيع من الدهماء البلهاء المخدرين لا حول لهم ولا قوة ليستمر زبانية الجحيم سادرين في غيهم تباع الأرض من تحت أقدامهم بالجملة والقطاعي لكل من هب ودب فلا يعترض أحد ولا يأبه أحد كالحمير تلقى إليها بالشعير فتأكل وتتبعك أينما ذهبت بها يصبح شغل الناس الشاغل هو استمرار الجلوس أمام الساحر الذي يبث في أفندتهم كل ما تبغيه القوى الشريرة بفعله - بفعلها - يطرأ على البلاد رواج كاذب تكثر الدراهم في الأيدي وتنعدم في الحال قيمتها يعز القوت يرخص الأدمى تتدهور الكرامة يتاجر الناس في شرفهم في أعراضهم في دينهم في تاريخ بلادهم تأكل الأم من

فرج ابنتها يموت الشرفاء والوطنيون كمدا وقهراً يرتم اللصوص والقوادون في جميع الأروقة يعم الفساد يضرب في نخاع السقف يدب السوس في أوصال الأسس المتينة الراسخة يزازلها ، والساحر يعرض على الناس كل صنوف الفسق والفجور بنريعة التنبيه والتسلية وهو في الواقع يكرس لها تكريساً !! المستفيدون من انتشار الفساد يكثرون ومعفرو جباههم تحت أقدام أثرياء النفط يكثر عددهم تحت راية الدين والدين منهم براء !! يضيع الفقراء كل الضياع تنمحي صورة الوطن من الأنهان من القلوب المرهقة !! التلاميذ في المدارس يتعلمون العهر مبكرا لا يقوى المعلم على منافسة الساحر الجبار لا يصبح ثمة من معلم يصبح مبكرا لا يقوى المعلم على منافسة الساحر الجبار لا يصبح ثمة من معلم يصبح الساحر نفسه بصندوقه السحرى الصغير ملاذاً يصبح أفيونا إدمانا ترياقا أسود وحينئذ تموت مصر مينتها الثانية ، فاللهم لا نسائك رد القضاء بل نسائك اللطف

ألقت بالورقة مقلوبة فوق زميلتها ، وأمسكت بالورقة التالية لها .

الكاهن

مرسوم عليها صورة سيدة تمسك هي الأخرى بالعصا يا خال ، لكن العصا أطول من قامتها يا خال كالحربة ، الأرض من تحتها ضيقة يا خال ، لونها فاتح . تشير المرأة بيدها اليمني إلى الأمام ؛ ثمة طاووس واقف تحت قدميها ككلب حراسة ، حاجة تهوس يابوي ، يمضى الطاووس بجوارها في نفس الإتجاه ، المرأة ترتدي ثوبا أحمر اللون بغير كمين فهي إذن عاربة الذراعين يابوي وفي خصرها حزام أزرق اللون ، أما لون وجهها وعنقها وساقيها فلون السمن البلدي يا خال ، تغطى رأسها – فوق شعرها المرتب حتى عنقها – طاقية تشبه التاج وما هي بتاج ، لونه أخضر بغرة صفراء ، ساقها اليمني غاربة واليسرى نصف مغطاة بما يشبه بقايا جورب . يدها اليمني تشير إلى الأرض ، المرآة جميلة

يابوى، يحلو لك أن تقبلها في جيدها وعنقها وسمانة ساقها اليسرى التي انحسر عنها الثوب ، قالت الشيخة سعادة وهي تنقل بصرها بين الورقة وعيوننا الشاخصة :

- «الورقة رقم اثنين! ورقة الكاهن الأعظم هذه السيدة الممسكة مهذه العصا الطويلة كالحربة هي الأم والزوج والعشيقة والأخت والابنة هي أيضا ذلك الطاووس الذي بحازي قدمتها !! حسدها كما ترون بتقجر بالأنوبَّة الطاغبة الرزينة السهتانة تلك هي مؤهلات الكيد العظيم إذ هي الفتئة والردع في أن ، بها صارت رمزاً للكهانة للفجور في أن معا وذلك تبعا للمناخ الحاكم ففي عصير التهريج والفتنة يظهر وجهها الفاجر نئمو الطاووس هتي بطاول قامتها إذ المهرج دائما أبدا سعيد الحظ ولهذا فورقته في لعبة الورق تسمى بالمحظوظ!! ولأنه يعتلي الأربكة عقب فترة من الشدة والقهر فإنه يحظى بالهتاف والتأبيد حتى ممن لا يحبونه ولا بحترمونه! لا غرابة فإنه يترك لهم الحبل على الغارب! وغدا أو بعد غد تنفتح كل المنافذ على كل المنافذ تسيح الأشياء في الأشياء يمارس الجميع الجنون في اذة فائقة تمبير حرائر الوطن عاهرات تتحكم المرأة الطاويس في رقاب الرجال تمسك دفة الأمور من وراء ظل المهرج باسمه تبيح كل شئ تبيع كل شئ تطول العصا الحربة في يدها تصل إلى أبعد مكان في قلب العباد تلك هي سنة الضلال والإنحراف! لقد خلقت حواء من الضلع الأعوج في أدم كما تقول الأمثال فاعوجاجها منسوب لابن ادم وهي لا تطفى وتتجبر إلا في عصر يخلو من الرجال الحقيقيين يخلو من المعنى الكبير لكنها إن شعرت بالمعنى الكبير حولها مع ندرة الرجال في نفس الوقت صارت أعتى وأشجع من بعض الرجال قدمت ما لا يقدرون عليه إلا أن حساب النجوم والأفلاك يشير مع مرسوم الورق إلى أننا مقبلون على أيام بلا معنى فلا مجال بالطبع لأي معنى والمهرج فوق يمسخ

لوجوده نفسه كل المعانى كل القيم كل الرجال كل الشجعان فاللهم لا نسالك رد القضاء بل نسائك اللطف فيه!!» .

ورمت بالورقة وسط ذهول مطبق من الجميع.

الملكة

الصورة لامرأة أخرى يابوى لكتها من طراز آخر تبدو كالملكة يا خال بل هى ملكة على رأسها تاج ، قد جلست على كرسى العرش ممسكة بيمناها عصا الصولجان، تشير بأصبع يسراها إلى أعلى كأنها تقول إن الله واحد ، رشيقة نحيلة الجسد يا خال لكن صدرها محدد تحديداً مثيرا بل إن بقعة سرتها بارزة تحت قميص أحمر ، فتحة صدره مشغولة بكلفة صفراء ، يلتف حول جيدها عقد من طابقين من فصوص لعلها من اللؤلق ، للقميص كمان كاسيان حتى المعصم ، الكم الأيمن أحمر والأيسر أصفر على أخضر ، من حول الخصر النحيل ينساب ثوب سخى كثوب الزفاف ، تتداخل طياته في موجات . ما فوق الردفين المكتنزتين والفخذين يتداخل اللون الأخضر مع اللون الأصفر شاملاً مسند الكرسي الأيمن ، وما فوق الركبتين حتى الأرض يتداخل الأزرق الغامق مع الأزرق الفاتح . منظر وما فوق الركبتين حتى الأرض يتداخل الأزرق الغامق مع الأزرق الفاتح . منظر في غاية الجمال يابوى ، لا تقل لى الملكة نازلي ولا فريدة ولا نور ولا ناريمان ولا في غاية الجمال يابوى ، ولا حتى ملكة الإنجليز يابوى ، الاحتى ملكة الإنجليز يابوى ، ولا حتى ملكة الإنجليز يابوى ، عاجة تهوس يابوى . قالت الشيخة سعادة وهي تجابهنا بابتسامة مشرقة فياضة بالذكاء اللامم في عينيها :

- «الورقة الثالثة: الملكة! ترون الحكمة والحشمة على سمتها وإذا لن يكون العصر عصرها إنما هو عصر الملكة الزائفة التي تمتطى ظهر المهرج يصبح الناس جميعا من تحتها حميرا وحمارين!! الملكة الأصيلة جبلتها العفاف والملكة الزائفة لا يرقم الزائفة لا يرقم

لها !! الملكة الأصيلة تحنو على شعبها والملكة الزائفة تمتص دمه !! الملكة الأصيلة لبست ذات يوم عدة الحرب خاضت بحار النار أوقعت بالقياصرة في شر أعمالهم والملكة الزائفة عما قريب تخوض أنهار المال توقع بالسماسرة الجبابرة في شر أعمالها هي !! الملكة الأصيلة مفطورة على العطاء والملكة الزائفة سوف تستلب الكحل من العيون !! كل الملكات لسن بقديسات هذا شئ بديهي معروف ولكن ملكة أصيلة لديها بعض الإنحراف خير ألف مرة من ملكة زائفة تتظاهر بفعل الخير والتقوى والصلاح فالملكة الأصيلة لديها من الروادع والتقاليد ما يحكمها أما الملكة الزائفة فليست محكومة بشئ سوى اهتبال الفرصة المتاحة للثراء واستعباد خلق الله وقانا الله وإياكم شر ما تخبئه لنا الأيام المقبلة من مفارية!!» ..

ورمت بالورقة فكأنها نزعت من دماغي قطعة من ظلام المخ رمت بها إلى بعيد، ذمة ودين يابوي إن هذه المرأة فيها سر إلهي .

الجلك

الصورة كما هو واضح يابوى صورة ملك أو إمبراطور يجلس على كرسى العرش آخر أبهة يابوى ، مرتديا التاج فوق رأسه ، ممسكا بيمناه الصولجان ، وبيسراه ما يشبه الدرع ، أظنه الدرع يا خال ، أشبه بالذى أراه فى تصويرة أبى زيد الهلالى وهو راكب على الحصان ممسكا بالسيف وبهذا الشئ الحديدى الذى يتقى به الضربات ، لون التاج أزرق على أصفر على أسود على أحمر ، وعلى كتفيه وشاح أحمر اللون على الذراعين بشريط أزرق فاتح على الذراع الأيمن . جزء من ظهر الوشاح أسود اللون يغطى الجنب الأيسر للملك أما بطنه كلها فعارية ، وبقية الجسد ملفوفة بثوب أزرق فضفاض تمتد ذيوله على الأرض وينحسر عن الفخنين من فوق الركبتين حيث يتضح أن الركبتين ملفوفتان بلغاف

يشبه جورب النساء أصغر اللون فاتح . أما الصولجان فلونه بين الأصفر والأخضر في خطوط طواية وهو عبارة عن عصا تشبه الشمعة في أعلاما بقايا شعلة لم تنطقي ونها أحمر . وأما الدرع فلونه كريمي ، قالت الشيخة سعادة :

-- «الورقة الرابعة : الامتراطور!! عقدتنا الأزلية تختلط بدمنا منذ الأزل!! أزلنا الملكية لكنتا لم تلغ الملك إنما غيرنا أسمه قحسب! ذهب الملك فجاء الامبراطور بسعى لتوسيع ملكه ليشمل أمة محمد !! عيب المصرى منا أنه إذا اعتلى الأريكة صار امبراطوراً في الحال ويُسِي كِل شِيُّ امام ذلك الكرسي اللعين مغير النفوس والأحوال !! من بليس ثوب الاميراطور وتجلس على كرسية ممينكا بالمبولجان لا بكون امتراطوراً صحيحاً حتى لو امتلك الجيوش والأموال والأنصار والحاشية والأبهة إنما الاميراطور الحق هو ما ترونه في هذه المبورة يمسك المبولجان سد ودرع الحرب باليد الأخرى: الحكم والمسئولية الشرع والقوة!! يقول الدرع في الصورة إن الامتراطور في حالة تأهب مستمر لأن ينزل المتدان ينفسه بخوض الحرب بفاعا عن امير اطوريته حتى ولو مات في سيبلها فالموت هنا شهادة وبطولة واستمرار للتألق والقوة أما من ليس ثياب الإمبراطور فقد أمسك الصولجان بيديه الاثنتين والصولجان وحده ليس يحميه ! بريد أكل الحلاوة يغبر نار! يأكل الحلاوة والنار للمخاليق فسيحان الملك الأعلى فمن يجعل من نفسه امبراطورا وهواليس بإمبراطور حقيقي شرعي يكون قدحمل نفسه مسئولية جسيمة سوف ينوء بحملها لا محالة كمن يحمل قرية مثقوبة تخر على دماغه!! بقول حساب النجوم وحسبات الحياة وكل الحسابات إن القرية خرت كل مائها على دماغ الإمبراطور الزائف فأصبح ميلولاً وصبر الناس قد فاض مع مياه هذه القرية المثقوية!! لقد مات حلم الامبراطور وتدهورت أركاته فمات الإمبراطور بالتبعية وهو الأن يجرى ويتنطط من حلاوة الروح وإن هي إلا ساعات ويلفظ بقية أنفاسه بفعل فاعل أو من تلقاء نفسه! تقول الحسامات أبضيا أن الناس لن تحتمل عهدين متشابهين فلا نفس الكلام ينفع ولا نفس الخطب تلهب الحماسة !! تشير الشواهد إلى أن القادم الجديد ، وإن جنح إلى الترفيه ورخى الحبال وفتح المنافذ سوف يختار صورة جديدة للإمبراطور الذي بكونه سوف يغير شكله فحسب سيكون امبراطورا من بين الشعب وباسم شعبي خالص لكنه سبكون أشدُّ صلفا وغطرسة وتشدداً من أي امبراطور حقيقي لكي يقنم نفسه أولاً بأنه على مقاس الكرسم, وأن أحداً من رعاياه أن يستهزئ به أو يستهيفه سيجد نفسه مضطرا لإطلاق بديه في البلاد قتلا وسحنا وتشريدا وتنكيلا ، سيطيح بكل من يظنه خصما له فمن الصعب على المهرج أن يتصرف كإمبراطور حقيقي بملك صفة العفو عند المقدرة والقدرة على رُجِر الصغار وردع الكبار بحسن السلوك ومثالبته سيظل دائما أبدا في حاجة لتأكيد امبراطوريته يتلذذ بطعمها قدر الإمكان ولسوف يذوق حازرة الكرسي بالطبع فيصير مستعدا للتنازل عن كل شئ والتفاضي عن كثير من الأمور في سبيل أن يظل امبراطوراً حتى لو استعان مقوة الشيطان !! في عهده تموت كل الأشياء الجميلة الزهر والنهر ونسمة الدنيا !! يذهب من كان حكم باسم الفقراء يخلفه من يحكم باسم الأغنياء لكن من يظلم الفقراء لا يكسب هذه سنة الحياة ولا أحد يملك لسنة الحياة تبديلا !! ما طار طير وارتقع إلا كما طار وقع واسوف يقصف ظلمه عمره لكن كرسي الإمبراطور أبدا لا يبطل سحرة فاللهم لا تسالك رد القضاء بل تسالك اللطف فيه!!» .

ورمت بالورقة كأنها تستعيذ بالله من شرها يا خال.

الحكيم

الصورة مألوفة لى يابوى ، إذ هى قريبة الشبه من تصويرة رأيتها كثيرا فى كتب التلاميذ وفى المجلات يقولون إنها لأمير الشعراء أحمد شوقى ، غير أن هذا الرجل عاري الصدر والتراعين بارز العضلات كالمصارع ، يسند رأسه على يده اليسرى كشوقى بك بالضبط يابوى ، ويندمج فى التفكير ، مطلق اللحية ، ولحيته مدببة بشعبتين ، وعلى رأسه طاقية فى أعلاها مثلثات زرقاء وصفراء ، يجلس على صخرة من صخود الجيل ، نصفه الأعلى مفطى بشال كبير أزرق اللون فى أطرافه شراريب صفراء ، يمسك بيمناه عصا برأسين متقابلتين ، كأنها تريد أن تقول : سكة الحكمة سالكة من الناحيتين ، أمامه نسر رابض تحت قدميه كما لو كان هذا الرجل يشتغل مدربا لهذا النسر يابوى ، وهاهوذا قد أمره بالقعود تحت قدميه صاغرا ففعل ، ولابد أنه دربه على الرقص وعجين الفلاحة أيضا ، النسر لابة أحمر على أصغر على أخضر غامق كلون صخرة الجبل ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة الخامسة: الحكيم! روح مصر الباقية ما بقى الدهر! لا يسخرنُ أحدكم من عيال مصر النين يقواون: نحن الذين دهنا الهواء بالدوكو ونحن الذين عبثنا الشمس فى زجاجات فهذا القول فيه من الصحة نصيب كبير!! هاكم هذا الحكيم المصرى الذى فعل ما لا يستطيع فعله أحد! فللإنسان أن يدرب القرد أو الفيل أو الأسد أو حتى التمساح لكن أن يدرب طائرا يخترق الفضاء فهذا هو الفيل أو الأسد أو حتى التمساح لكن أن يدرب طائرا يخترق الفضاء فهذا هو المستحيل سيما وإن كان هذا المائر نسراً ، ولكن هاهوذا النسر يقعد بين قدمى الحكيم المصرى لم يدربه بالقوة ولا الحكيم المصرى لم يدربه بالقوة ولا بالسحر ولا بالفهلوة إنما دربه بالحكمة وهاهى ذى عصا الحكمة فى يمينه برأسين إن ذهبت هنا رأت وإن ذهبت هناك رأت يعنى عصا الحكمة صائبة أينما اتجهت أماما أو خلفا يمينا أو شمالاً شرقا أو غرباً!! ذلك هو صبر المصريين على البلاء ، الصبر الذى يظنه الأغبياء تبلداً واستسلاما للعبودية! الصبر الذى بنى الأهرامات وامتطى النيل وشيد للعبادة بيوتا ذات عمد راسخة! الصبر الذى

نقش على الحجر الصوان قصة الخلق والحياة قبل الموت وبعده ! الصبر الذي حنط الأجساد بعد صعود أرواحها إلى بارئها! هو صبير من الحكمة وحكمة من الصبر فإن رأيتم المصري يمشي لاهيا خلي البال غير معنى يمن بركبه من يمص دمه من يستعيده فاعلموا أنكم مخطئون إن تصورتموه هكذا لأنه في الواقع يعرف كل شيخ بدرك كل شيخ إلا أنه حكيم طويل البال حيلته الصبير على الزرع حتى بنمو وعلى الأرز حتى يستوى !! كم فنيت أمم وبادت شعوب ودالت بول إلا مصر بقيت منذ بدء الخليقة وتبقى حتى برث الله الأرض ومن عليها بفضل هذا الحكيم الشارد في ملكوت الله مصبكا بعصا الحكمة يدرب بها النسور الجوارح وما أظن حكامه أشد بأسا من النسور! لقد صبر عليهم وروَّضهم حتى فنوا جميعا وبقى هو !! يقول لى الورق إن البلاد في قابل السنين تجتاحها الرياح الهوج من كل ناحية من الداخل ومن الخارج تقلب أعاليها في أسافلها ترفع الخسيس تخسف الأصيل تشعل النار في الأخضر واليابس فكأن القيامة قامت فأذهلت كل مرضع عن رضيعها فجرت الأرض بالحمم وإن ينقذها في النهاية سوى حكمة هذا الحكيم الذي نصت عليه وسجلته خطوط الأولين في هذا الورق فاللهم لا نسبالك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه !!»

ورمت بالورقة كأنها تنفض يدها من ذنب تبرأت منه .

العاشق

الصورة واضحة يا خال: هذا عاشق ومعشوقته يقفان معا في خلوة . فتى وفتاة أجمل من بعضهما والله يابوى ، يقفان متجاورين متقابلين في أن معا ، يمناها في يمناه ، يسراها على صدره ويسراه علي ظهرها ، هي ترتدى فستانا أزرق فوقه بطانة حمراء كالمعطف مفتوحة يبدو من الفتحة قميص حريرى رقيق أصفر اللون يبرز صدرها في كرتين متجاورتين ، شعرها مصفف إلى الوراء كالوشاح الأسود أما الفتى يابوى فيرتدى ثوبا يشبه الفستان أزرق اللون على كتفيه ظلال حمراء ، يصل إلى ما فوق الركبتين حيث يبرز من تحته سروال حابك على الكاحلين ، في قدميه حذاء أحمر اللون كالسروال ، فوق رأسيهما يابوى ، يحلق ذلك الطفل نو الجناحين أنت تعرفه يابوى فلابد أنك شاهدته كثيرا مرسوما على دائر ناموسية السرير يمسك بيديه نبلة يسدد منها سمها في اتجاه رأسيهما وإذ هما في هذه الخلوة يا خال يتسلل نحوهما رجل خنيس ينضح شكله باللؤم والخسة والتآمر ، شكله غير مريح يا خال ، بلا رقبة ، رأسه مغروسة في كتفيه الضيقتين عليه طاقية كطاقية الخفراء مكبوسة فيه ، يرتدى ثوبا أحمر اللون كالدم بكورنيش أزرق ، فوقه عباءة برتقالية اللون تخفى نراعيه فلا يبين منهما سوى بكورنيش أزرق ، فوقه عباءة برتقالية اللون تخفى نراعيه فلا يبين منهما سوى بنو الفتى والفتاة في توعد ولوم وتهديد ، ويظهر يا خال والله أعلم أنه أب الفتاة خو المفتى والفتاة في قوعد ولوم وتهديد ، ويظهر يا خال والله أعلم أنه أب الفتاة جاء يضبطها في هذه الخلوة المحرجة ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة السادسة : العاشق ! العشق مكتوب علينا وهذه نعمة من نعم الله لا يمن بها إلا على عباده الصنالحين الاتقياء ! قلوبنا والحمد لله مفطورة على الحب والحب هو باب الحياة وهو الماء الذي يرويها يجعلها تورق تخضر تثمر تعطى !! لكن الله تعالت حكمته ابتلانا دون خلقه جميعا بالعزول لابد من عازل يبعثر القلوب يشتت الحبيبين يفرق بينهما كغراب البين إن لم يكن أبا أو عما أو خالاً أو أخا أو أما أو ابن عم أو ابن خال فحاسد حاقد محروم من الحب غصبا عنه يا ولداه أما أو ابن عم أو ابن خال فحاسد حاقد محروم من الحب غصبا عنه يا ولداه يطلب أن يسرى المرمان على غيره إشفاء لمرض في قلبه !! من تراه يكون يطلب أن يسرى الحرمان على غيره إشفاء لمرض في قلبه !! من تراه يكون مسئولاً عن تجريم الحب وتحريمه في بلادنا !! أي شيطان أسود القلب أصاب نفوسنا بالعطب حتى أصبحنا نقف لكل حبيبين بالمرصاد !! أغلب اليقين أنه جاء من القبائل وخرافة الانساب التي ظن الرجال الواهمون أنهم قادرون على حصار

الأرجام حفظا لها مع أنه لا حافظ الأنساب والأرجام سوى الأرحام نفسها إذ هي محبولة على الإنغلاق من تلقائها دون غير المرغوب غير الحدير غير الشرعي فما بالك بعد الرغى والتربية المنجيجة والثقة في الأنثى باعتبارها أصل الجناة ؟! يقول الورق إن العزول الذي ابتلينا به قد تجدد هذه الأبام في عزول أكبر لا قبل لعاشق باحتماله : فمن ذا الذي يستسلم اليوم للحب – حتى ولو كان مباجأ – وهو يعلم أن لا جيوى منه ولا نهاية لطريقه المحفوف بالصعاب والأشواك ؟! من ذا الذي يجرؤ على المضي في طريق الحب الصادق النية وهو لا يدري أين بييت ليله ولا أين توجد لقمته ؟! هج الشياب وطفش إلى بلاد المال يطلب مسكناً ومركبة وهدمة ولقمة فلئن أفاضت عليه بلاد المال فتاتها الكثير نقلته إلى دنيا غير الدنيا أنسته الحبيب الأصيل وضعت نصب عينيه تطلعا جديدأ إمرأة سلعة لا حبيبة ولا قريبة !! وغداً برحل كل الشبان لا يبقى في البلاد سوى العجائز والأرامل والعوائس الجميلات المائسات البائسات لا يبقى على المداود إلا شر البقر!! تتعب البلاد في الخلفة والتربية لكي ينتفع غيرنا بفاذات أكبادنا!! وقديما قيل لجما أين وطنك يا جما ؟ قال هو مؤخرة بقرتي !! فلا يغرنكم إذن قول القائلين من المغتربين وراء المال إن الومان ساكن في قلوبهم أبد الدهر مهما غاب عنهم بل كلما غاب عنهم !! لا ! ربما كانوا صادقين لكن الأصدق منهم تجارب الزمن القائلة بأن البعيد عن العين بعيد عن القلب يعني أن بلاد المال شاء هؤلاء أو أوائك أم أبوا استأصلت شأفتهم من أرض الوطن فلئن عابوا إليه في خريف العمر متخمين منعمين في رغد من العيش فإنهم محض سكان لا مواطنين!! لكل قاعدة استثناء بالطبع لكن المرئى لنا دائما أن من يكسب المال من بلاد أخرى ومن طرق سهلة أو ملتوبة أو غير مشروعة فإن المال دائما يباعد بين قلوبهم وقلوب حتى نويهم فما بالك ببني وطنهم!! حيننذ تمون مصر ميتتها الثالثة فاللهم لا سَبَالِكَ رِدِ القَصَاءِ بِلِ يُسِأَلِكُ اللَّطَفِ فِيهِ!!» .

ورمت بالورقة في هدوء وحنو كأنها مستمرة في مناخ العشق وينفس الهدوء تناولت الورقة التالية .

العربة

الورقة يا خال مقسومة إلى نصفين بالعرض . النصف الأعلى مبروز بما يشبه ستارة المسرح المفتوحة ، وقد وقف في وسطها – كأنما على خشبة المسرح يا خال – رجل يشبه القائد قوى البدن مفتول العضل على صدره رسم يشبه الدرعين فوق الثديين من الواضح أنهما جزء من تفصيلة البدلة التي يرتديها وهي أشبه ببدلة نابليون بالضبط كما أتذكرها في كتب التلامذة وعلى كتفيه نجمتان كل نجمة عبارة عن دائرة صفراء اللون ببرواز دائرى أزرق كلون الكمين . يتوسط الدائرة شكل دقيق يشبه الهرم . أما البدلة فأعلاها أزرق اللون وأسفلها أحمر فأتح ، ومن تحت شكل الدرعين الصغيرين اللذين هما جزء من القماشة ينحدر مثلث أصفر اللون بداخله رقوش مزرقة ، يغطى منطقة السرة كلها ، شعره كشعر الأنثى منسدل على كتفيه لكنه يلبس فوق شعره هذا طاقية تشبه الطاقية الورقية التي منسدل على كتفيه لكنه يلبس فوق شعره هذا طاقية تشبه الطاقية الورقية التي تناع للأطفال في الموالد . حافتها العليا على شكل مثلثات متجاورة . ذراعه الأيمن مثنى ويده على خاصرته أما ذراعه الأيسر فيمسك بعصا صغيرة شكلها يشبه ريشة الكتابة وسنها يبدر من بعيد كأنه شعلة ، ولونها أحمر فاتح على وجهه يشمره وإصرار فيما أطلق عينيه بالنظر إلى بعيد . حاجة تهوس يابوى . . .

أما نصف الورقة التحتى يا خال فتحتله عربة يجرها جوادان عفيان كل منهما يمضى فى وجهة مختلفة ، أى والله يا خال ، حيث يجنح الجواد الأيمن إلى الجهة اليمنى ، ويجنح الأيسر إلى الجهة اليسرى ، غير أنهما ليسا منطلقين إنما يمشيان فحسب فى خطو منتظم متناسق ، كل منهما يعد القدم اليمنى فيما انكسرت لها اليسرى . الجوادان لونهما أصفر أما العربة فلونها أزرق ومقعدها أحمر فاتح . فبدت الصورة يا خال وكانما القائد واقف فى شرفة قصره يرقب العربة التى صارت تحت بصره تماما ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة السابعة - العربة! ها أنتم ترون القائد الحكيم واقفا في شرفة القصر وقد انزاحت عنها وعنه الستار يمد بصره إلى بعيد يكاد يعانق ببصره حبود الوطن برقب من قد تسول له نفسه الاقتراب من حرمة الحبود المحمية ! ذلك واجب لابد منه إذا ما قام وطن فلابد لكل وطن من قائد ولابد لكل قائد من هذا الواحب وإلا ما كان قائدا !! بعضا الحكمة هذه بوجه هذه العربة إلى حيث يفتدي الوطن!! في الصورة عربة واحدة لكنها بحركة الجوادين مهيأة للسير في هذا الإتحاه وذاك معا !! حكمة الأولين أتت بورقة العربة بعد ورقة العاشق مناشرة في الترتيب لأن الأمور هكذا مرتبة: الوطن موطن العاشق وعشقه ا عشق العاشق للمعشوق هو أغنية المواطن للوطن حرارة العشق هي نار القتال في سبيل الوطن قلب العاشق ومنزله العامر !! العربة عند أهلنا القدامي لم يكن لها إلا وظيفة الجرى إلى الدفاع لكننا يا ألف حسرة لم نقرأ هذا الورق فجاحًا قائد غير حكيم توفرت له العربات بكل أنواعها إلا عربة الحكمة لم تتوافر له فأوكل بالمهمة أهل العز والرفاهية الذين أرادوا اغتصاب كل شيئ ظنوا الدفاع عن الوطن نزهة يعودوا منها بمغنم شخصي ظنوا الدفاع عن الوطن يعنى الدفاع عن الإمبراطور فقط وحماية حياته وحده فكلهم مجند للبحث عن أعدائه يؤلفون له الأعداء من صنع خيالهم وفي هذا السبيل يقضون على كل من لا يروق لهم أو لا ينضوى تحت لوائهم حتى صبار الأمن بعني أمنهم الشخصبي والجميع تبعا لذلك أعداء لهم فأوقعهم الله في وحل شرورهم لكن العبو حصد فلذات أكبادنا ونور عيوننا وعتادنا وأرضنا وسماعًا !! ولقد يجئ غداً من يستفيد من الدرس المؤلم فيرد الوطن بعض هيبته المفقودة لكن الواقع ينذرنا بأن القريبين من الكرسي ليسوا من خيرة الرجال وإن كانوا ملء هدومهم ومراكزهم وملء السمع والبصر هكذا شفناهم عرفناهم لسعت ظهورنا أسواطهم حواونا إلى عبيد أذلاء فرقوا بين المرء وبنيه بالرغب بالخوف جعلوا من العراء مخبرا على أمه! انقسم المراء على نفسه أضعفوا الناس قتلوا فيهم روح المحية روح العشق لوطن ملأوا الهواء بالأكاذب وهذا ليس من شيمة الرجال !! غداً بنزاح الكابوس فينطلق المارد الحييس لا ليصنع مجدا بل لنعب من الجباة بغني للفوضي وهو معزور إلا أن هذا هو ما يرجوه أشياه الرجال الذين يتأهيون البوم الوثوب على الكرسي فمما بوافق هواهم أن يلهو الجميم في العبِّ من الحياة بأثر رجعي لينصرفوا هم إلى تثبيت ملكهم بإرضاء القرى الأجنبية فبقاؤهم على الكرسي مرهون برضاء القوي مناجبة المصلحة في خير بالادنا !! بقول الورق: أفيقوا أبها القوم واقربوا هذا الرمز لتعرفوا أن كرامتكم مرهونة بكرامة هذه البلاد التي تأويكم وتستر أعراضكم وترويكم بنيلها وتدفئكم بشمسها وأن كرامة هذه البلاد مرهونة ببقائها قوبة ذات بأس وهيبة وأن هذه الفترة مشروطة بقائد ممسك بعصا الحكمة وعرية حرب تجرها خيول عفية !! يقول الورق هذا من عصور طويلة مضت لكننا قد حيل بيننا وبين الأصول فباتت أقدامنا على سلم النزول هابطة فاللهم لا نسبالك رد القضباء بل نسألك اللطف فيه!!» .

إستقرت الورقة فوق زميلاتها .

العدالة

فى الصورة ياخال إمرأة ذات صدر ماذن بثديين متخمين بالأمومة يابوى ، يشعر المرء أمامهما بالطفولة ياخال ، لكنها عمياء يابوى ، وملامح وجهها فى غاية البراءة يابوى ، تضع على رأسها طاقية صفراء اللون بظلال مزرقة تشبه شكل الهرم ، وخصلات من شعرها نافرة فى فوضى متسقة ، ترتدى ما نسميه اليوم بالبلوزة؛ نصف كم زرقاء اللون على كتفيها شارتان صفراوتان برقرش مزرقة، أما لون بشرتها وساعنيها فلون الزيت الفرنساوى تقريبا يابوى ، من تحت الإبط الأيمن – مع استدارة الخصر ومن منبت الثديين المتكورين تحت الثرب تنساب ملاءة حمراء اللون تلف بقية جسدها ، تماما كبنت البلد المصرية القديمة يا خال حينما تترك الملاءة اللف تنزلق عن كتفيها في إهمال لتبرز كنوزها المستورة ، لكن ساقها اليمنى بارزة من الملاءة ، ملفوفة في جورب يميل إلى الزرقة ، وفي قدميها حذاء أصفر اللون ، أما ساقها اليسرى بقدمها فمختفية تحت الملاءة يابوي ، تمسك بيدها اليمنى سيفا مرفوعا إلى أعلى ، وبيدها اليسرى ميزاناً معتدل الكفتين ..

قالت الشيخة سعادة :

- والورقة الثامنة: العدالة !! السيف في يمناها وفي يسراها الميزان متوازن الكفتين: القوة والعدل ! فلا عدل بغير قوة تسنده تفرضه ، لكنها كما ترون عبيا ! يقول ما بيني وبين الورق إن عماء العدالة يأتي حينما يرغمها الإمبراطور على العمل لحسابه الشخصي تحكم بما يراه هو على من يعاديهم هو بالحق أو بالباطل !! ولقد تحققت نبوءة الورق منذ سنوات قليلة يوم هجم البلطجية المدعومون بقوة الإمبراطور على كبير القضاء مشرع القوانين فضربوه فوق منصة الحكم ضربا مبرحاً أهانوه أهدروا كرامته دهوروا كل هيبة القضاء إنتقت العدالة أصيبت بالعمي ومن غد يسوء الأمر أكثر فأكثر فالمحظوظ الذي سيرث العدالة مفقوا العينين جاهزة سوف يلوى عنق الميزان يحرف سيف القوة ليصبح مسلطا على رقبة العدالة ذاتها فتتفتح السجون تبتلع الصالح مع الطالح العاطل مع الباطل تحتجز اللصوص سارقي الصفار سارقي طعام يومهم لتخلو الساحة لكبار اللصوص سارقي الاقوات والمصائر والأحلام والأفراح والدول يتوه في

المعمعة كل الأبرياء ينمحى صوت الحق تموت روح المقاومة وحينئذ تموت مصر مينتها الرابعة لكن يبقى في الجسد ذبالة نبض يغذيها زيت من عرق الفلاحين والصنايعيه وصغار الموظفين الشرفاء يبقى الأمل معقودا على قلة من حاملي ميزان العدالة ممن جرى في عروقهم سر مصر ذات الأرواح السبع فاللهم لا نسالك رد القضاء بل نسالك اللطف فه !!».

ورمت بالورقة في شئ كاليأس يا خال ، وأمسكت بالورقة التالية ولوحت بها في وجوهنا بتمهل يعطينا جميعا فرصة تأملها .

النامك

صورة رجل عجوز كحكوح . شكله يا بوى أقرب اشكل قسيس ، يرتدى جبة مقفولة تلف جسده من رقبته إلى قدميه ، لها زنط مثل القرطاس يمكن لبسه في الرأس لكنه مطروح على كتفيه أما الرأس فعارية ، صلعاء من الوسط كجزيرة بيضاء تحيط بها دائرة من الشعر تغزر في مؤخرة الرأس تخف فوق الجبهة فكأنه يلف حول رأسه حبلا أسود ، الوجه مشطوف بفك مستطيل يختفى تحت لحية منسقة قصيرة الشعر ، أنفه دقيق وفي مستوى الجبهة بالضبط لا بروز له ، عيناه ضيقتان كليلتان تدققان بوهن في البعيد ، يده اليمني ممدودة بفانوس منير ، ويده اليسرى تتكئ على عصا ، الجبة لونها بنى فاتح والعصا زرقاء اللون وكذلك الفانوس ..

قالت الشيخة سعادة

- «الورقة التاسعة: الناسك!! يمر على البلاد خريف كخريف عمر هذا الرجل الفاقد الهدف في شيخوخته الحائرة تنحني قامة الوطن!! ها أنتم ترون أنه لا إشارة لليل أو الظلام في الصورة بل إن الفراغ المحيط به كله أبيض فيما المصباح بشعل مع ذلك فالمصباح إذن إشارة إلى ظلام طغى على نهاره حجب

- 171 -

عن يصيره كل مربِّي !! شيءٌ كهذا سوف تحدث للبلاد في قابل السنين حيث تكثر الأموال في البعض وتنعدم في أيدى الكثيرين فمن يكثر المال في أياديهم ويصبح لا عمل لهم سوى الإتفاق تفقد الحياة معناها ومن ينعدم المال في أيادهم ويصبح لا عمل لهم سوى البحث عنها بغير طائل تفقد الحياة معناها عندهم أبضا فما أسرع ما يشعر هؤلاء وأولئك بخريف الحياة بغضب الله إذ يصبب البلاد بمن يتحكم في مقدراتها دون قدرة على بعث الربيع والخصوبة فيها!! يلجأ الناس إلى التنسك في ظلام اليصيرة فكأن التعبد مصباح يستهدون بنوره العلبل نحو الهدانة تصبح العبادة هدفا وجندا في الجناة لأنهم جميعا بالإهدف وما هكذا أرادت لهم السماء العادلة فقد أمرنا الله بعبادة كأنها العمل وعمل كأنه العبادة!! يجئ على الناس يوم لا يجدون فيه ما يفعلونه يحولهم الساحر ذو الشاشات الفضية إلى نسخة متكررة من كائن لا حضور له ولا أثر يشعر الناس بالضياع التام!! ولما كان الانسان مجبولاً على أن يفعل شيئًا يحقق به ذاته فلسوف تتجه الأغلبية العظمي إلى الإغراق في العبادة لا بدائم من قوة الإيمان بل لمجرد تحقيق الذات على نحو من الأنجاء !! في غد بخرج دين الله عن هدفه السامي عن طريقه الفعال يصبح ميدانا للصراع لاستجلاب القوة لاستدرار المال باسم الله يتقاتل المسلمون بعم الخراب وسط برك من الدم ومستنقعات من الجيف وحينئذ تموت مصر ميتتها الخامسة في خريف أجرد بلا ملامح بحيل الوطن إلى عجوز كليل البصر محنى القامة يتوكأ على عصا يبحث في ضوء مصباح شاحب عن حقيقة ضائعة وهدف مغقود فاللهم لا نسالك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!» .

ووضعت الورقة بهدوء، متجاهلة امتعاض محمد بك أبو شناف ، وانذهال الحاج أحمد نوار الدين السنى ، ووام حسن بك بما يسمع .

عجلة المظ

عجلة كعجلة العربة الكارو بالضبط يا بوى ، منصوبة بين قائمين من الغشب لهما جنور ضاربة في الأرض متشعبة كجنور الشجر ، للعجلة يد معقوبة ، يمسك بها – بكتا يديه – رجل أشبه بالملاك الطائر البرئ يا خال ، عارى الجسد إلا من ازار أزرق اللون يلتف حول سوأته ، وقد نبت له فوق ظهره جناحان أشبه بغروة شعر الخروف يا بوى ، وهاهوذا منهمك بكل قوته في تدوير العجلة ذات الإطار الأسود ؛ وقد ركب فوق إطار العجلة فتاة ممسكة بشاب مذعور هابط مع دوران العجلة ، يده اليمني متشبئة بيد الفتاة ، ويده اليسرى طليقة في الهواء ممسكة بقبعة تكاد تطير في أسفل العجلة – قريبا من الهاوية يا خال – رجل ساقط برأسه في الهاوية قدمه متشبئة بالعجلة ، ومن فوقه هيكل رجل آخر ألقي به دوران العجلة إلى الفراغ فتشبث بهذا الفراغ الساقط تحته . حاجة تهوس يا

قالت الشيخة سعادة :

- « الورقة العاشرة : عجلة الحظ !! هذه هى الحياة كما ترون دنيا دوارة كما الكرة الأرضية من يكون فى القمة يصير بعد قليل فى الهاوية يوم لك ويوم عليك الكرة الأرضية من يكون فى القمة يصير بعد قليل في الهاوية يوم لك بعد حين لكن أحداً لا يتعظ !! من يرى نشوة الراكب فوق القمة وزهوه وفرحه تصدمه رؤية المتهاوى فى القاع مدحوراً تعيساً !! يقول الورق إننا يجب أن ننتبه إلى هذه الحقيقة هذا المصير حتى لا يستخف الطرب من فوق القمة فيطغى ويتجبر عليه دائما أن يتذكر أن الركوب على القمة إنما هى برهة من الزمن لحظة خاطفة مهما طالت لعلها الوهم بعينه أما الحقيقة فهى السقوط إلى الهاوية حيث ينتظرنا في طالت لعلها الوهم بعينه أما الحقيقة فهى السقوط إلى الهاوية حيث ينتظرنا في القبر ما ينتظرنا من عذاب ألهم لا ينجو منه إلا من ظل دائما أبدا يتذكر المصير

النهائى يحسب حسابه بالعمل الصالح فاالهم لا نسأك رد القضاء بل نسأك اللمك فيه!!» .

وضمت الورقة إلى أخواتها.

القوة

الصدورة لأسد هصدور كما يقال يا بوى ، شكله مخيف ، يكاد يشبه الحصان فى حجمه وقوته يا خال ، فى وضع هجوم ، ذيله طويل مرتفع لأعلى ومقوس كملامة الاستفهام ، وهناك رجل يماثله فى القوة ، مبروم العضلات عارى الجسد إلا من غلالة تحيط خصره القوى ، وفى وضع صراع مع الأسد . لا يا بوى هو ليس كمحمد الحلو فى السيرك القومى ، فمحمد الحلو مدرب للأسود بالفعل والأونطة من بعيد لبعيد وفى وجود من يقفون قريبا منه فى استعداد لضرب الأسد بالنار أو بالسيف إذا قل عقله وهجم على مدربه ، أما هذا الرجل يابوى فإنه ينخذ الأسد بالباط جسدا لجسد قوة لقوة ، وقد أمسك بذراع الأسد وثناها على فخذه يكاد يقطمها قطم الخيارة ، والأسد رافع رأسه فاتح فمه يجأر بالصراخ ، شعر رقبته الكثيف مهوش متهدل مما يدل على أن الأسد حالته كرب والله يابوى ...

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة الحادية عشرة: القوة !! هذه الورقة يوجهها التاروت المصرى لكل متجبر متسلط على الشعب المصرى لكل مزهو بقوته المتخوذة من قوة الكرسى أو المال أو العزوة !! يقول الورق ، هذا هو الشعب المصرى فاحذروه ثم احذروه لا تغرنكم القوة التى منحت لكم فإنه في الأصل صاحبها مانحها لكم فإياكم إياكم أن تغتروابها تقلبوها عليه فلو كان الواحد منكم أسدا كهذا الأسد فلياكم يكذا الفارس الجبار يستطيع أن يلوي نراعه هكذا يكسرها فوق فخذه يسلبه قوته يجعله غذاء لأمثاله من الوحوش الضارية الشاردة إن المصرى الذي

أنشأ هذه الأهرامات وهذه المساجد وهذه الكنائس وهذه الفدادين الزراعية وركب فوق النيل أمسك بلجامه لقادر على ردع كل متغطرس مزهو بقوته !! يقول الورق إن هذا الأسد هو كل قوة غاشمة والرجل القوى كل قوى الجماعة تختزنها مضغوطة مقهورة لتصبها في واحد يفيض به كيل الهوان الجماعي وما دام الورق قد أثبت هذه الصورة على هذا المرسوم فلابد أن شيئًا من هذا سوف يحدث في السنين القليلة القادمة فاللهم لا نسائك رد القضاء بل نسائك اللطف فيه!!».

وفيما كانت ترمى بالورقة يا خال ،لاحظت أن ابتسامة شبه ساخرة قد انطبعت على وجه محمد بك أبو شناف إلا أنها كانت ترتعش بالخوف يا بوى لا أدرى أمن رهبة الكلام أم من ذنب ينتوى فعله عما قريب ، صار ينظر لحسن بك من تحت لتحت كأنه يتهمه بالتآمر عليه ؛ وكانت نظرة حسن بك التى رد بها عليه يا خال كأنها تقول له : إصبر فإن الله مم الصابرين ..

المشنوق

حاجة تهوس يا بوى : خشبة المشنقة ممدودة على جذعى نخلتين طويلتين ، والعشب الأخضر يملأ الأرض . رجل معلق فى حبل المشنقة لا من رأسه يا خال بل من إحدى قدميه ، تماما كالذبيحة يا بوى فى سبيه الجزار ؛ رأسه غاطس فى العشب ، قدمه اليمنى مربوطة مكسكرة فى خشبة المشنقة . أما قدمه اليسرى فسائبه ، ويظهر يا خال أنها مقطوعة حتى الساق ، حيث لا يظهر منها سوى الفخذ . يرتدى لباسا مكونا من قطعتين : قميص أخضر اللون على صدره كلفة صفراء مشرشرة كالزقزاق ، وسروال أحمر اللون ، ياقة القميص حمراء حابكة حول رقبته ، الرأس واضح أنه ميت مغلق العينين شعره الغزير – الأحمر اللون

قالت الشيخة سعادة :

- الورقة الثانية عشرة: المشنوق!! هكذا تكون شخصية المواطن المصرى الحق في القريب العاجل كما يحدث دائما حين تتفتح البلاد لكل مغامر أفاق مصاص دم من نفاية العالم وهذا ما يتنبأ به الورق للسنين القلبلة القادمة يأتي للبلاد حجافل للنصب والسلب وسط زفة هائلة يقيمها المنتفعون يباركها الجباع الواهمون بصبح ابن البلد معلقا كالذبيحة في مشنقة من نخيل بلاده الذي جف وقوق عشبها الطرى الأخضر المرتوى بعرق الذبيحة وحدها !! أموال النفط سوف تعيث فسادا في البلاد تصل إلى أبدى التجار الجشعين إلى السماسرة الوكلاء أهل الخور المستعدين لبيع كل شئ تعز السلم تذهب إلى القادرين على ثمنها تصبح المواطن المسكين مستباح الجسد والكل يثرى على حسابه !! المثل الشعبي المصري ماكذب حين قال: كل واحد معلق من عرقويه! هذه الصورة ترجمة لهذا المثل كما أن المثل في الأصل ترجمة لها ومعناه أن كل واحد من الشعب يصبح مسئولا عن نفسه حين تنفض الحكومة يدها من جميع مسئولياتها تجاهه تتركه غذاء للغربان وأكلة لحوم البشر تبقى سادرة في غيها ناسية أنها يبونه إن تستطيم العيش في رفاهيتها فالمتكثون في الأرض لا يقدرون على صنع رفاهيتهم لوحدهم ما لم يكن هناك من يهيأها لهم ومن هنا فالحكمة الكامنة وراء هذه الورقة على هذا المرسوم تقول إنه على الباغي تدور الدواير ولابد أن يجئ الدور على المنكئين فيها ليعلقوا من عرقوبهم هكذا تأكلهم طيور جارحة تجذبها من بعيد رائحة الجيف فاللهم لا نسبالك رد القضياء بل نسالك اللطف فيه!!» .

وسقطت الورقة من يدها نون إرادة منها ، فيما نكس محمد بك أبو شناف رأسه في الأرض شاحبا متفكرا ، في حين راحت نظرات الحاج أحمد نوار الدين السنى تتقافز بينه وبين حسن بك في أشعة من الشقاوة وحب الاستطلاع الجارف وإن بدا ذلك في صورة مرح جميل كمرح الأطفال الغفل الأبرياء .

الموت

هيكل عظمى كامل لجسد أدمى ، نفس الجمجمة التي نرى رسمها دائما يا خال كعلامة على الموت ، وهكذا بقية الهيكل العظمى بالرقبة والقفص الصدرى والذراعين والإليتين والفخنين والساقين ، مجرد عظام كالعصى الناشفة لكن اليد اليمنى ممسكة بما يشبه المنجل ، هو شكل بين المنجل والمنقرة إذ أن يده الخشبية طويلة كيد المقشة طول قامة الرجل ، لون الهيكل العظمى أحمر ، وكذلك لون بد المنجل ، أما سلاحه فلونه أزرق . الهيكل العظمى واقف منفرج الساقين جدا ، والأرض من تحته حمراء كلها تلال ، لكن منظر الهرم واضح بين ساقيه يمتد خياله الأحمر اللون خلفه كجدار أقل احمرارا ، المدهش يا خال أن رقم الورقة ثلاثة عشر وأنا أعرف يا خال أن الكثيرين من كل أنحاء العالم يتشاعون من هذا الرقم ؛ أفيكون هذا التشاؤم راجعا لهذه الورقة يا بوى ؟ أنا شخصيا أظن ذلك يا خال فهذه الورقة قديمة جدا يا خال ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة الثالثة عشرة: الموت !! من هذه الورقة ارتبط هذا الرقم بالتشاؤم يقول مرسوم هذه الورقة هاكم منجل الموت يترصدكم ليحصدكم جميعا لا يفرق بين أمير وخفير بين ملك ورعية يقول انتبهوا دائما يعنى اعملوا لاخرتكم كأنكم تموتون غدا واعملوا لدنياكم كأنكم تعيشون أبدا كما هتف بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم !! أجدادنا لم يهابوا الموت لكنهم احترموه كحقيقة مائلة وضعوه في حسابهم كمصير محتوم لا مفر منه !! لم يكن في نظرهم نذيراً بالفناء بل كان منفذاً إلى الخلود حيث تبدأ الحياة الثانية التي لا تنتهى ولا تفنى جعلوا من مقابرهم كما يقول شيخي المغربي معلمي قصوراً متينة البنيان عامرة بكل نفيس جليل الشأن كي تكون ملائمة لاستقراره في الحياة الأخرى الحقيقية كانوا بفطرة جليل الشأن كي تكون ملائمة لاستقراره في الحياة الأخرى الحقيقية كانوا بفطرة

الله على علم بأن الموت ليس نهاية كل الحياة وأن الإنسان لم يخلق عبثا ولن يضيع سدى أو يذهب هباء إنما لا بد له من مثول محقق أمام محكمة إلهية حيث يوضيع قلبه بكل حسناته في كفة الميزان وتوضيع أعماله السيئة المنافية للخير والأخلاق في الكفة الأخرى فإن رجحت كفة القلب السليم استئف الإنسان حياته في ظل الخلود وإن رجحت كفة السوء ألقى به في نار جهنم !! لكن اعلموا أنه ليس لهذا فحسب رسم التاروت هذه الصورة إنما أراد أن يقول لنا شيئا أخر أشدً وأنكى :

إن الحياة على ظهر الأرض ستكون مهددة بالفناء التام في السنوات العشر القادمة سيفنيها بنو الانسان سيتحقق قوله سبحانه وتعالى: يخربون بيوتهم بيُديهم وإنسان هذه الأيام على ظهر الكرة الأرضية يخترع الأسلحة الفتاكة التي تحول الأرض بكل ما عليها إلى هشيم تذروه الرياح واقد أدرك أجدادنا القدامي منذ وقت مبكر خطورة ما تسمونه اليوم بالتقدم العلمي القائم على اللعب بالنار والتدخل في نظام الكون!! لقد أنبائي معلمي عن القنبلة المسماة بالذرية التي ألقيت على اليابان فدمرتها والتي أصبحت الآن كالكرة يلعب بها الأمريكان والوس فرسم أجدادنا هذه الصورة على هذا النحو كي تصبح وازعاً على الفعل الصحيح المناسب يعني أن نستعد بشئ يبطل مفعول الدمار الذي ينشره زبانية الشر من بني الإنسان فاللهم لا نسائك رد القضاء بل نسائك اللطف فيه!!» ..

وكان الاقتناع والانبهار واضحين على وجوه الجميع خاصة وجه حسن بك الذي راح يتمتم بكلمات مبهمة أغلب الظن يا خال أنها آيات قرآنية .

الاعتدال

ملاك جميل الصورة يا خال ، بجناحين كبيرين كجناحي نسر عفي ، لونهما أخضر زرعي مشوب بالأصفر الفاتح ، يرتدي الملاك قميصا أحمر اللون بنصف كم ، فوق جيبة زرقاء اللون ، وقد أمسك في يده اليسرى آنية أشبه بإبريق من الفخار ، وأمسك باليد اليمنى إبريق من الفخار أيضا كما يظهر يا بوى ، وقد رفعه وراح يصب في الإبريق سائلا أبيض كاللبن الحليب يا خال ، وأغلب الظن أنه لبن على الأرض تلال في لون الطمى المحروق وثمة ما يشبه قصرية الذرع ترتفع منها أغصان مخضوضرة مورقة .

قالت الشيخة سعادة

- « الورقة الرابعة عشرة : الاعتدال !! لعلها كما ترون واضحة وضوح الشمس ومعناها ساطع كالقمر ؛ الملان بكب على القاضي ! بهذا وجده تحدث الاعتبال!! هذا الملاك نور الحناجين الأخضرين الممسك بالابريقين هورطيف من عند الله سيحانه وتعالى بشير إلى أن هذه هي حكمته مقواته عدالته : الملآن بمب في الفاضي لكي بحدث التوازن فتورق الفروع وتخضر الأغصان وبأتي التمر فتستمر الحياة !! تلك هي كلمة السر التي حفظها لنا أجدادنا في كتاب التاروت كي نعرف سر اردهار الحياة واستمرارها راهرة مشرقة كانوا على علم بأننا مقبلون على زمن صعب يستأسد فيه الشطار يستأثرون بكل شئ فيكثر عدد المحرومين مما يهدد أمن الحياة بالدمار بثورة يشعلها المحرومون في الأخضر والبابس تهون عليهم كل الأشياء الثمينة والمنابع الخصيبة طالما أنهم محرومون من خيرها !! عدالة التوزيم ليست كل ما تقوله الصورة بل تقول بالاعتدال أيضا وفي كل شيئ في الحياة كما قال ديننا الحنيف لا تجعل بدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا إنما أراد الله كما أثبتت هذه الصورة المشعة أن يكون الإنسان لا بخيلا ولا مبذرا وهذا ما كان يقصده سيدنا يوسف

الصديق عندما أنباً فرعون بحقيقة الرؤيا وهي أن يدخر من خير السنوات السمان لينفق منه في جفاف السنوات العجاف فأصبحت مثلا يحتذى ويلتزم به أجدادنا يحرصون على تبليغه لنا كي نبقي على ما بنوه !! وإنها لحكمة عميقة أن يجئ ترتيب هذه الورقة بعد ورقة الموت فكأنها الجواب على النذير نسأل الله أن ينير قلوبنا كي نواجه بهذه الورقة زمننا الصعب هذا الذي تنبئ الأيام الحاضرة عن أهوال وأهوال يضبؤها لنا في جوفه المعتم الكثيب فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك لا اللطف فيه !!».

وألقت بالورقة وسط همهمة جهيرة تصيح في ورع يارب عفوك ورضاك .

الشيطان

الصورة بشعة يا بوى ، تقول بالفم المليان أنا الشيطان ، نفس الصورة التى رسمتها الحواديت القديمة وأظهرتها أفلام السينما ، هكذا تراءت لخيال جميع الرسامين : رجل عارى الجسد تماما يا بوى ، لونه أحمر قاتم و أصابع يديه ورجليه حوافر كحوافر الحيوانات الجارحة مدببة معقوفة كالخطاطيف يا خال ، وله ذيل طويل مبروم كنيل البقرة يتقوس فوق مؤخرته ويلتف على فخذه الأيسر ممتدا فوق إحليله منتهيا بشرابة من الشعر كشرابة الخرج يقترب شكلها من شكل الحوافر فكأنها يد ثالثة تحت يديه . أنفه معقوفا يا خال كأنف اليهود وعلى وجهه مسحة من الخسة والنذالة والخبث الناعم الأريب ، وشعر واقف كالريش المدبب كالخطاطيف المعقوفة كالحوافر . أمايده اليسرى فقد أمسكت بشوكة مستطيلة كحربة بشعبتين مدببتين كالحافر ، بينما امتدت بده اليمنى في الهواء مع امتداد فخذه اليمنى بساقها المتكسرة كأنها أوقفت الخطو فجأة ، وقد جلست

أمام ركبته اليمنى إمرأة تستند بعرفقيها على فخذيها واضعة يديها على عينيها في خوف وفرع من منظره ، مرتدية بلوزة حمراء اللون فاتحة الحمرة وجيبة زرقاء فاتحة الزرقة وتغطى رأسها بطاقية صفراء فاتحة الصفرة ؛ أما وجهها فمختف تماما يا خال ، ومن الواضح يا خال أنها ست بيت وأم أولاد ممن نراهن في الأسواق يتسوقن الخضار والأوطة لغداء أولادهن وأزواجهن الموظفين الغلابة ، من خلف ذيل الشيطان ترتفع شواشى نباتات خضراء خشنة صحراوية شائكة كاظافر الشيطان ، حاجة تهوس با بوى ..

قالت الشيخة سعادة :

- والورقة الخامسة عشرة: الشيطان!! فصل جديد يكمل الفصول السابقة فمن شبع الموت إلى ملاك الاعتدال إلى الشيطان تتصل حلقات الحكمة واضحة جلية فلكى نتقى الموت الزوال الاضمحلال الفناء علينا أن نقتدى بفعل ملاك الاعتدال وإلا فالشيطان واقف بالمركساد!! وقد علمنا من قراءة الأوراق الفائتة أن زمنا صعيبا معتم الجوف يخبئ لنا المحن والصعاب والعثرات قد بات في أعتابنا بالفعل إذن فالمناخ قد بات ملائما لذيوع الشيطان ولابد أنكم يا أسيادى قد رأيتم في المرسوم كيف أنه قد ركز خطوه واهتمامه نحو امرأة مهيضة مسكينة حائرة مذعورة فما قصد الورق يا ترى ؟! قصده واضح لكل ذى عينين تمر على البلاد محنة الرواج الكاذب تكره البسطاء في عيشهم البسيط تجعلهم هدفا سهلا للمغريات إذ يدخل الملوك إلى البلاد وهم إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة !! هم ملوك بأموالهم قحصب وما أموالهم بأموالهم إنما اغترفوها من أملها أذلة !! هم ملوك بأموالهم قحصب وما أموالهم بأموالهم إنما اغترفوها من المتخفى بأعماق أفئدتهم بث فيهم قوة جبروته فاستأثروا وابكل شئ وحدهم المتخفى بأعماق أفئدتهم بث فيهم قوة جبروته فاستأثروا وابكل شئ وحدهم ساقهم زهوهم إلى أعشاش الطيور الآمنة !! يجئ هؤلاء إلى أرض الحضارات

بنسائها الفاتنات يحلمون بارتشاف رحيقهن لا يهمهم أن هذه الأرض كنانة الله في أرضه ولا أنها أنفقت دم قلبها وفلنات أكبادها لتدفع عنهم الأعداء حتى أضناها الفقر وهدها العوز إنما همهم اهتبال الفرصة بالوثوب على الضحية وهي ساخنة بنار الحرمان فاقدة المقاومة بضغط الحاجة والعوز !! تمر على البلاد محنة تضربها في الصميم ينفرد فيها الشيطان بالمرأة يسلط عليها قوته السحرية يوسوس لها يغريها بالسقوط في الخطيئة مقابل ما بات أمنية لكافة المحرومين المرهقين: لقمة طرية وثوبا زاهيا ومسكنا عامراً وسيارة مجنحة !! تتموين البلاد محنة تكون المرأة فيها هي الخاسرة والضحية الأولى وبسقوطها تتدهور كل الأبنية إنها الوعاء الذي إن تلوث تحدرت الأجيال نحو المستنقع الأسن ببذرة حرام تملأ الأرض جوراً وانحطاطا يعكر الرجس مياه النيل وحينئذ تموت عن نفسها غواية الشيطان المتربص بها لا محالة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وكان الجميع قد وضعوا خدودهم على أكفهم كأن صورة المحنة قد تجسدت في أنظارهم شاخصة دامفة .

الهعند

بناء كبير ضخم مرتفع الجدران ، عليه مهابة واضحة يا خال ، مبنى هو بالحجارة المخروطة من صخور الجبل خرطات متساوية منسقة ، مثل بناء جميع المعابد التى رأيتها في الصعيد يا خال ، والتى قامت بينى وبينها علاقة ود حميمة يا بوى لدرجة أنى إذا دخلتها شعرت بالرجفة والرهبة . تماثله في البناء مساجد كثيرة في القاهرة : مسجد قابتياي ، مسجد عمرو ، مدرسة برقوق ، جامع قانون، الجامع الأزهر ، الجامع الأنور ، وكالة الغوري ، والظاهر با خال أن الذين بنوا هذه البنايات كانوا يقلبون معايد القراعية الصبعيدية ، للبناء الذي في الصورة باب مغلق بضلفتين من الخشب الثمين مدهون بلون بني غامق ، أما الجدران فلونها زيتي غامق وفيها بعض نوافذ اونها أحمر قاني الحمرة ، البناء شبه متصدع يا خال ، فتمة أصداغ من أضلاعه العليا سابت وانكفأت منهارة ، ويعض قطم صغيرة من حجارته تتاثرت متطايرة في الهواء كسرب من عصافير مهيضة يا خال . يوجد رجل منكفئ على وجهه منحدراً نحو الهاوية رأسه في أتجاه الأرض وقدماه إلى أعلى ومن الواضح أنه وقع من فوق سطح المعبد أثناء تصدعه وانهيار واجهته ، يلبس قميصا أزرق وسروالاً أحمر ، يوجد كذلك رجل أخر قد وصل إلى الهاوية بالفعل مجندلاً على الأرض تناثرت حوله بعض قطع من الخشب والحجارة، يرتدي قميصا أحمر وسروالاً أصفر ، الظاهر ما خال أن نفراً من المارقين قد اعتماموا بهذا البناء وتبادلوا الحرب مع من بالخارج فتعرض المبئى لهجوم عنيف زازله وصدعه ..

قالت الشيخة سعادة :

« الورقة السادسة عشرة : المعبد !! من أراده بسوء قصف الله عمره في الحال ! النبوءة في المرسوم واضحة : ستجئ أيام كثيبة تختلط فيها الأمور نتيجة لعماء البصيرة لا يعرف فيها المرء صديقه من عدوه يكثر وكلاء الله على الأرض بغير مسوغ أو قرينة يمتلئ المعبد بالدهماء من الجهلة نوى النفوس المعتمة يريدون اتخاذه قلعة يستمدون منها الحصانة يعتلون منبرها وهامتها المقدسة

لفرض أنفسهم على مقدرات البلاد والعودة بها إلى عصور الجاهلية الأولى يتخذون من أنفسهم حكاما وخلفاء بغير سند حاملين في ذلك راية الدين متذرعين بما أصبح يعم البلاد من فساد وضلال واسوف يقضى الله في أمرهم بقضائه العدل حيث يسلطهم في البداية على أهل الفساد والضلال حتى يؤرقوا مضاجعهم يزعزعوا الأرض من تحتهم ثم يسلط عليهم زلازله الطبيعية وبراكينه وصواعقه فيقضى عليهم ذلك أن هؤلاء وأولئك أبعد ما يكونوا عن الورع والتقوى ويكون الله قد سلط أبدانا على أبدان لحكمة بالغة ولكن يبقى المعبد شامخا رغم تصدعه إلى أن يهيئ الله له من يعمره على أساس من النور والخير والمحبة الصافية وتكون مصر قد ماتت مينتها السادسة فاللهم لا نسائك رد القضاء بل نسائك اللطف فيه!!».

وكان الجبيع قد نكسوا رعسهم في الأرض وانشدت جلود وجوههم فصارت الوجوه مسحاء يا يوي .

النجم

ملاك آخريا بوى ، ولكن بدون أجنحة . شكله أقرب إلى الفتاة إن لم يكن فتاة، شعره منسدل الخصل حتى الكتفين العاربين ، وقد التف بإزار أحمر اللون غطى الجانب الأيسر من الصدر والبطن تاركا الذراعين عاربين وكذلك الجانب الأكبر من الصدر حتى الذراع الأيمن متحرر من الإزار ، ركبته اليسرى ممدودة من خلال ما يشبه ملاءة زرقاء اللون فاتحة تفطى نصفه السفلى ، والساق ممتدة تصنع مع الركبة زاوية حادة حيث استقرت القدم الرقيقة الحافية على شاطئ البحر . في يده اليسرى قلة فخارية حمراء ، وفي يده اليمنى إناء يشبه الكوب

أصفر اللون ! أماله الملاك وجعل يدلق ما قيه من سائل أزرق اللون في البحر . وهذا شئ غريب يا خال ، فحيث نتوقع أنه يغترف بالكوب من البحر ليملأ القلة إذا هو يقعل العكس كما يظهر في الصورة يا خال ، وإلا فما فائدة أن يكون الكوب في يمناه والقلة في يراه ! المهم يا خال أن السماء من فوق رأسه مباشرة مرصعة بسبعة نجوم ، ثلاثة حمراء اللون في أعلى تشكل هيكل مثلث متساوى الضلعين المتقابلين ، وأربعة نجوم أخرى صفراء اللون ، اثنان منها في منتصف الفراغين بين الضلعين المتقابلين ، واثنان في أسفل تحت النجمتين الحمراوتين ، ورأس الملاك بينهما ، واحدة أمام جبهته والأخرى خلف شعر رأسه ، حاجة تهوس يا بوى ، مع ملاحظة أن السائل المندلق من الكوب في البحر رغم تماثله في الزرقة والإزار والملاءة وأرض الشاطئ الصفراء تماما يا خال ، ولذا فقد صنع السائل والمندلق دواء تعاما يا خال ، ولذا فقد صنع السائل المندلق دواء تعوس يا بوي ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة السابعة عشرة: النجم!! يجئ يوم يعلو فيه النجم فيعم الفيضان يرجع إلى سابق عهده الأول لكنه يكون ملوثا شنيعا قسد ألقيت فيه الجثث والجيف والسسموم الصفسراء قسادمة مسن المنبع الأعلسى ذلك الذي كسان فيما مضى وقبل خصى النيل بالسسد يخلط المسساء بعسرق الأرض السسوداء!! فيضسان المسساء ولو كان ملوثا خير من جفسافه وهاهنسا يهسوى النجم بفكرة ملائكية ملهمة علسى هسذا المرسسوم في الورقة ترينا ضرورة وضع مطهر في الماء ينقيه من كل السموم وأول دواء علينا اتباعه هو

قتل الداء المستشرى فينا نحن أبناء هذه الأيام · نوقف اعتداعا السافر المتواصل على النيل وإنه لعدوان يصيب أرضنا وأبداننا بالأمراض المستعصية ومهما يكن من أمر فإن هذه الورقة كما يقول معلمي هي رقة الأمل والرخاء والنجاح ولكن أي رخاء وأي نجاح إنما هو مرهون برفع أيدينا الآثمة عن نهر النيل وعن كل ما يجرى في البلاد من مياه فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك الله فه !!»

إنضمت الورقة إلى زميلاتها.

القبر

الورقة مقسومة إلى نصغين بالعرض ، بينهما شريط أبيض ضيق . فى النصف العلوى يلتصق القمر بسقف الورقة ؛ هو أشبه بالميدالية مرسوم عليها وجه شاب طغولى الملامح ذكى العينين مضموم الشفتين ينظر فى البعيد ، ويظهر يا خال أن القمر يبدو هكذا دائما لمن ينظر إليه من بعيد : وجه إنسان بملامح وتقاطيع ناطقة ..

على يسار القمر يا بوى شرفة قصر منيف ، وعلى يمينه شجرة مورقة لون جذعها بنى غامق وأوراقها خضراء بالطبع ، والأرض فى لون الطحينة ، تكتنفها بعض نباتات شوكية. فى شرفة القصر فتاة يظهر نصفها الأعلى ، مرتدية ثوبا منزليا بسيطا ، بنفسجى اللون ، فوقه مريلة بيضاء ، وقد عقصت شعرها ، ومدت يدها اليمنى فى دعوة وترحيب ، تحت الشجرة يجلس شاب يرتدى قميصا أزرق اللون على سروال أحمر غامق ، وغطاء رأس أحمر ، وقد أمسك بالة موسيقية تشبه ألة البزق وآلة السمسمية ، راح يعزف عليها وهو فى حالة من الطرب والنشوة ؛ والأنفام خارجة على هيئة خطوط ونقط رفيعة جدا تشكل مويجات متدافعة فى بطء كبقايا دخان السيجارة ..

في النصف السفلي يا خال مساحة زرقاء فاتحة تشبه نسيج الخيش ، وتبدو كاتها حوض من أحواض أسماك الزينة ، يحدها من اليمين ومن اليسار ضلعان تخينان من اللونين الأحمر والأصغر في وسطها تماما شكل شبح أحمر قان ، لرجل متصلب يرفع ذراعيه إلى أعلى كأنه يلعب رياضة الصباح ، لكننا لو نزعنا نراعيه يصير شكله شكل فانوس من فوانيس رمضان ، تحت كل نراع من نراعيه حشرة حمراء اللون لكنها غامضة الجنسية لا نعرف إن كانت سمكة بذيل أو سلحفاة أو خنفساء ، هذه الورقة با خال من أشد الأوراق غموضا ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة الثامنة عشرة : القمر !! يفسرها معلمي نقلا عن علماء التاروت وما أكثرهم في العالم بأنها ورقة الفضيحة والخطأ والوهم!! بمر على البلاد زمن تتكشف فيه كل الخفايا يصبح ما كان يسمى بالمستور غربا كاملا يصبح العري سمة عنواناً على العصر تفقد كل الأشياء جلالها تضيع من كل الكلمات معانيها تغترب مفردات الشرف والأخلاق والكرامة والسؤيد والوطنية والأمانة والأدب والواحب والتضحية والإيثار والعوالة والإنسانية والرحمة تصبح كل هذه الكلمات سبئة السمعة مثاراً السخرية والهزء والرثاء يتساوى الجميم في قلة القيمة تنعدم الروادع تضمحل الوزعة تبخل النفوس في ليل حالك ثقيل الوطء مدلهما بيحث فيه كل صائد عن فريسة شاردة وهنا ينزل القمر بنوره الفضى الفاضح يخترق أعماق البرك والمستنقعات ببررٌ ما في جوفها من حشرات وجيف وسموم!! ما القمر هذا إلا إنسان حقيقي مستنير أغاب اليقين أنه عقل الأمة التي يقيت في أرضها الخصيبة روجها السابعة التي لا تمون مطلقا فهذه الأرض المباركة التي أنجيت الأبطال والفاتحين والمتنبئين والمقرئين والمتقنين والكاتبين والمثالين والنقاشين والبنائين والزارعين الحارثين الحاصدين تحتفظ في باطنها في ضميرها الحي بكل بذرة طيبة لا تلبث حتى تطل برأسها بمجرد ما تتهيأ لها الظروف المناسبة !!
ومثلما يكتمل البدر في منتصف الليل منتصف الشهر ومثلما يبزغ الفجر من ذيل
عباءة الظلام القاتم يبزغ عقل الأمة من جديد حينما تشتد الحلكة وتنبهم الأعماق
فإذا الظلام قد أخذ يتبدد من النفوس بفعل ما يشعه العقل الجديد القديم البازغ
من الكمون فتحدث الإفاقة ببدأ الإنسان في ازدراء نفسه وبلك بداية القومة التي لا
يعلم إلا الله مدى ما تحتويه من مخاطر وأسرار فاللهم لا نسائك رد القضاء بل
نسائك اللطف فيه !!»

راحت النظرات تتابع يد الشيخة سعادة وهي تضع الورقة بحنو كامرأة تتحسس كتاكيتها يا خال .

الشهس

الدائرة كاملة هذه المرة با خال ، وليست ملتصقة بأى سقف ، بل هى معلقة في الفضاء ، تندلع منها أشعة حادة صغراء مخضوضرة ؛ فهى الشمس إذن يا خال ، لكن الدائرة عبارة عن شكل كالجنيه النهب محفور فيه وجه رجل مثل وجه القمر لكنه أصفر ذهبى بعينين خضراوتين ، والإخضرار يظلل جانب وجهه الايسر، وهو مفتوح العينين بنظرة واثقة تستطلع الأفق البعيد ، تكاد تبتسم ابتسامة منشرحة . الأرض من تحتها في لون القمع بتلال متناثرة ، فوق هذه الأرض يا خال - بين شجيرات خضراء منسقة - يجلس فتى وفتاة كأنهما مكونا من قطعتين ، قميص أصغر فاتح يكسو صدره وتراعيه حتى الخصر ، بقية الثوب البنفسجي اللون غامق ؛ وقد جلس منجعصا واضعا ساقا على ساق . أما الفتاة فقد انعطفت عليه ، بقميصها الأحمر المحتشم ، وجزء من الجانب الأيمن لصدرها ملتصق بكتفه الأيسر ، كل منهما على ركبتيه كتاب مفتوح ، منظرهما يا

خال أشبه بزميلين في الجامعة اختليا في منعطف من حقل بعيد بذريعة المذاكرة واندمجا في حوار حميم ، حاجة تهوس يا برى ..

قالت الشيخة سعادة :

. - «الورقة التاسعة عشرة: الشمس!! تلك هي التي لا تغرب عن أرض الكنانة وإن طال احتجابها خلف سحب الجهالة والطغيان والغزوات!! يجي زمن تحتجب فيه الشمس خلف الأبراج العالية خلف مظاهر سغه كذابة من طبقات تأكل السحت والمال الحرام وتنشر على البلاد ظلام جهلها تغسل أمخاخ الشباب الضائع الهفتان تجعله أداة للتخريب وسفك الدماء الزكية لكن القمر العاقل الذي يضيء النفوس بعد ظلامها يكون نذيراً تباشير صحو ندى عفي سرعان ما تسطع الشمس من ورائه على العرايا البائسين تلهب عقولهم تميت فيهم الخور وجراثيم النكوص تريهم الأشياء على حقيقتها تتمزق أستار الأوهام تسقط حواجز الرهبة بينهم وبين السفاحين القتلة يبدأ الزحف الشامل في فضاء الحرية نحو إرادة الله التي خلقتهم في الأصل أحراراً فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!».

ترقرقت موجات القلق في وجوه الجميع.

المعاكمة

صورة مروعة يا خال: ملاك من السماء بجناحين صفراوين ، لونه طحينى ، يقعد متربعا فوق كتل من السحاب الثقيل في لون جسده ، قد أمسك ببوق طويل راح ينفخ فيه ، وفي الأرض أربعة أشخاص: رجلان وامرأتان ، الرجلان عاريان تماما ، والمرأتان إحداهما خرجت من هدومها والثانية متشبثة بإزار أزرق اللون يدارى سوأتها ، الفزع والروع واضحان عليهم من حركة أياديهم ووجوههم نقهم أنهم في حالة صراخ واستعاثة ، أرجلهم مغروزة في الأرض يا خال ، والأرض في

لون أجسادهم النحاسية ، مما يوحى للرائى بأنهم كانوا مدقونين فى المقابر وأنهم لبوا نداء البوق فبعثوا إلى الحياة من جديد فرموا بالأكفان ، وانبثقوا من باطن الأرض كالسكارى التائهين الفزعين من ملاقاة يوم الحساب حاجة تهوس يا بوى ، لابد يا خال أن هذه الصورة ترسم يوم الفزع الأكبر ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة العشرون: المحاكمة!! تلك هي القومة! قومة الموتى من الأحياء الذين بثت فيهم الشمس حرارتها وشققت لهم الأرض فنهضوا خارجين من شقوقها متلهفين على الإمساك بمن كان السبب في دفنهم أحياء كي يقتصوا منه!! ن علماء التاروت في العالم حين عرفوا أن هذه الورقة اسمها المحاكمة وأنها تعنى الحساب العسير فرقوا بينها وبين الحساب الإلهي النهائي وذلك من واقع المرسوم في الصورة فها هي ذي إحدى النساء ترفع نراعها اليمني صائحة فيمن حولها بحركة تنبيه وتوجيه فلابد أنها تقول لهم ابحثوا عن المسئول عما جرى لنا وها هم الآخرون حولها يتبادلون المشورة سيما وأن الأمر قادم إليهم بإلهام من السماء عبر البوق الملائكي الصائح فيهم أن انهضوا حرروا أنفسكم من الموات من القهر من الذل من عوامل الفناء حاسبوا من ظلمكم أهانكم امتص دماحكم فلكم في القصاص حياة يا أولى الألباب ولابد أن المحاكمة ستكون شاملة فضوء القمر وحرارة الشمس يقرزان من بينهم الأصفياء الأنقياء المهتدين القادرين على حقن الدماء فاللهم لا نسأك رد القضاء بل نسأك اللطف فيه !!» ..

وكنا جميعا قد أرهقنا يا خال ، فأخذنا نرمق الورقة الأخيرة في استرخاء اند .

العالم

رجل عارى الجسد يا خال ، يمسك بيديه وشاحا أو ربما شالاً مبروما كشال العمامة الصعيدية ، يتلواب عند طرفيه وفي الوسط يغطى سوأة الرجل ، فكأن

الرجل ممسك بتعيان كبير مذعور ، يقف الرجل وسط طوق من الزهور والوروي بيضاوي الشكل ، نفس الطوق الذي نراه عند بائعي الزهور في أيامنا هذه ، في أسفله عقد شريط حريري أحمر مربوط بعقدة وشنيطة ، فوق الطوق يا خال ، على الزهور وأوراق الورد ، يقف ثلاثة من الطبور الجميلة كأنها جزء من فكرة الطوق ، الطائر الأوسط بجناحين أصفرين كبيرين مغروبين ، لكن شكل الطائر ذي اللهن التحاسي أشبه بالنسر وما هو بنسر ، أما الطائران الآخران عن يمبنه وعن بساره فرأسهما أحمر وريشهما أصفر مخضوضر ، وكلاهما واقف في وداعة مضموم الجناحين في تطامن وسلام لاوياً عنقه في اتجاه الطائر الأوسط. الطائران ربما كانا حمامتين أو قبرتين ، وأما الرأس السفلي للطوق فمستقر بين رأسين لحيوانين شكلهما غامض وواضح معاء على اليسار رأس لأسد كثيف الشعر يظهر جزء من ظهره خلف شعره ، وجهه وجه إنسان تكاد نظرة عينيه القويتين بما فيهما من إنسانية تدفعانك لأن تمد يدك لكي تسلم عليه ، أما على اليمين فوجه ثور عفي بقرنين مديبين معقوفين ، وجزء كبير من جسده ظاهر في الصورة لصق بطن الأسد ، الثور غير مذعور من الأسد يا خال ، وإن كان منظره يوجي بأنه في حالة تهيج جنسي ، ويظهر يا خال أنه رأى في المساحة غير المرئية بقرة أنثى أهاجته ، لكن سبحان من جمع الأسد مع الثور في مثل هذا الود المسالم يا خال ، حاجة تهوس يا بوي ..

قالت الشيخة سعادة :

- «الورقة الأخيرة: العالم!! تلك هي ورقة الاكتمال كما وصفها علماء التاروت !! التحقق الكامل والنجاح المستمر بالعمل الخلاق الدوب هكذا كان حلم أجدادنا الوردى: أن يصل العالم إلى هذه الدرجة من الأمن والسلام والتوافق حيث يعيش الإنسان مطوقا بالزهور والورود محاطا بالطيور الغناء تضمحل العداوات حتى بين الأعداء الألداء من الوجوش المفترسة والحيوانات الأليفة وهكذا مكون كتاب التاروت الذي منه نشأ تعبير: إفتح لي الكتاب يعني اقرأ لي طالعي قد كشف لنا سر استمرار الحياة زاهرة متحضرة مورقة على الأرض يسودها الوثام والسلام ليس بين البشر فحسب إنما بينهم وبين جميم ما في الكون من مخلوقات يتم التكامل بينهم كما يتم التحقق لهم!! كلمة السر هي العلاقة الخفية بين الورق في ترتيبه من ورقة إلى التي تلبها كل ورقة تحمل مرسوما لمعنى وكل معنى برشد إلى ما ينبغي عمله كي تستمر الحضارة صاعدة طالعة من أرض مصر الطبية كي يظل المصريون حملة لواء السلام والوبّام إلى العالم أجمع !! إنكم لا شك تعامون حقيقة الرسم بالنسبة للمصرى القيم فقد كان لا ترسم إلا ما ينتوي فعله فمتي رسمه صار حقيقة نافذة !! أنبأني معلمي أن جدى القديم كان قبل خروجه للصيد برسم نفسه وهو يصطاد شيئا محدداً هو على وجه التحديد الشئ الذي طلبته نفسه فإن طلبت لحم الغزال رسم نفسه في كيفية الإيقاع بالغزال فكأنه ينفذ خطة الصيد نقشا وتلوينا على الجائط ثم إذا به قبل خروجه للصيد يضع القبر على النار ثقة مطلقة في أنه عائد بالغزال لا مجالة قبل غليان الماء في القدر فهو إذ يرسم العالم هكذا إذن معناه أنه ليس يرسم حلمه الأكبر فحسب بل يضعه موضع التنفيذ يحيله إلى حقيقة واجبة النفاذ يلتزم بها !! اللهم أعنا جميعاً على الخلاص من كافة المعوقات . ضم في قلوينا بلسم الشفاء وفي عقولنا مشعل الهداية وفي ألسنتنا ذكر الواحد القهار إنك أنت السميم العليم يا مذل يا معز يا وأهب النعم! أمين يا رب العالمين !!ه ..

رجنا نتنفس هاتفين في صبحة واحدة أثيارب ، فيما راحت الشيخة سعادة تطوى أوراقها ، تلفها بالشريط الحريرى ، تعيدها إلى محفظتها الجلدية ، ثم اعتدات في جاستها تجفف عرقها ، ثم طلبت كوبا من البنسون .

لنت

أنا والله يا بوى ما كان مرادى أن أتزوج بعد ما حدث فى تلك الليلة التى احترقت في تلك الليلة التى احترقت فيها من هزت قلبى فى طلعة الشباب ، فى الأول كانت رغبتى فى الزواج منها وعداً قطعته على نفسى لكنها حينما أشعلت النار فى نفسها انزرع حبها فى قلبى ، لقد أحرقت نفسها خجلا منى لما رأيتها فى وضع سيئ ..

إلا أن بركات الشيخة سعادة تدخلت في الأمر يا خال ، والنصيب غلاب ما في ذلك شك ، فالعبد في تفكير والرب في تنبير . الشيخة سعادة ذات السر الباتع كانت تنترى لى أمراً ، هكذا أوعز الله لها بذلك ، وخيراً ما فعل ، وهل كنت أحلم بمثل هذه الزيجة يا برى ؟

في ليلة استراحة القناطر فكرت – من هبلي – أنني يمكن أن أعود إلى الصعيد بصحبة الشيخة سعادة في مواصلة سهلة ميسورة أبهة ، لكن الشيخة سعادة ما أن أنهت مهمتها ونهضت واقفة ، وكان الضحى العالى يغمر القناطر الخيرية بشمس خضراء حانية – حتى نهض الجميع ، فمشينا بصحبتها إلى الطابق الأرضى ، حيث كان في انتظارنا سائق وحارسان ، فإذا بالشيخة سعادة تلف يدها في طرف الطرحة وتسلم علينا واحداً واحداً بسرعة ، ثم تمرق من الباب إلى السيارة السوداء الواقفة أمام الباب مباشرة ، حيث فتح لها السائق الباب كأنها الأميرة المتوجة . فلما ركبت أغلق الباب وفتح باب القيادة وبخل ، وفي لمح البصر رجعت السيارة بظهرها قليلا ثم زحفت كالبرق ثم ما لبثت حتى اختفت كالفكرة الخاطفة ، توقفت أنا مبلولا يا بوى ، سلم علينا محمد بك أبو شناف وصعد لينام ، أما حازم فتقدمنا نحو سيارته حيث ركب المشعراني بجواره وركبت أنا والحاج السني في المقعد الخلفي ، وقفل عائدا بنا إلى مصر عتيقة ... وكب ض اللحاق بالشيخة سعادة . لقد أصبحت مفتونا بها با بوي كأنها فكرت في اللحاق بالشيخة سعادة . لقد أصبحت مفتونا بها با بوي كأنها

سيدة لم يسبق لى معرفتها من قبل وها أنذا لا أريد أن أفارق محضرها إلى الأبد، لكننى كنت مرهقا يا خال ، معى فلوس كبيرة لا يجب أن أسافر بها فى طريق الصعيد إلا نهاراً وعينى فى وسط رأسى ، صعدت إلى شقتى لانام ..

نمت أربعا وعشرين ساعة متواصلة يا بوى ، نوما عميقا كالموت ؛ ادرجة أننى عندما صحوت ظللت ممدداً فى السرير أكثر من ربع ساعة أحاول أن أتذكر من أنا وأين كنت قبل النوم وكيف جئت الى السرير ، فلما صارت المسائل تتضح أمامى شيئا فشيئا شعرت بسعادة عمرى ما شعرت بها يا بوى . اشتقت الشيخة سعادة فى الحال ، معلمتى وأميرتى ومصباح طريقى ، اشتقت أيضا إلى هليل ، قلت لنفسى إن العبلغ الذى زاد هو من حقه سأعطيه له . قمت فأخذت حماما ساخناً كؤلاد الناس الطيبين ثم لبست ثيابى ، حشرت فى جيب الصديرى برمتين كبيرتين من الفلوس ، نزلت يا خال نفسى مفتوحة للشراء ، شراء أى شئ وكل شئ . خرمت فى وسط المدينة بجرأة كبيرة ، جلست على أكثر من مقهى وفى أكثر من حانة ، شربت أرقى أنواع الخمور ، اقتحمت المحلات فابتعت كسوات كثيرة من الأصواف والأتيال والحراير والأحذية والجوارب والفائلات كسوات كثيرة من الأصواف والأتيال والحراير والأحذية والجوارب والفائلات

حلف هليل ألا يتخذ مليما واحداً جزاء خدمته لى ، فهو – كما قال – ليس يعمل سمسارا على آخر الزمن ، يكفيه ما جنت به من هدايا له ولأبيه ، فحلفت له مائة يمين أن هذا المبلغ جاء على اسمه من عند الله وأننى لن يتبعنى منه مليم واحد فهو رزقه ، ثم أزحت المبلغ نحوه بقوة ، فتدفقت صفائح الدم فى وجهه الشفاف وقال إن المصلحة واحدة على كل حال وإن الله قد بارك فى ماكينة الطحين وماكينة المياه وفى زريبة المواشى لدرجة أنه لم يعد يعرف كيف يشغل كل هذه الفلوس ، ثم إذا به يصيح فجأة وقد طلعت الشمس فى خديه من فرط الفرح:

- « أخنتنا في دوكة ! أنت ابن حال وأملك دعت الد في ليلة قدر ولهذا تجئ دائما في وقتك يا بو العم ! ... قبل دخولك علينا كنت سالبس الأسافر إليك الأجيء بك !»

~ حضرا إن شاء الله اله

- «ستتزوج يا عم !! ضاعت منك الجميلة فأتاك الله بالقمر يابو العم! قمر ماذا يا بو العم؟ القمر والشمس والنجوم وكل الكواكب في كفة وعروسك وحدها في كفة!

معها الشهادة الإعدادية ومنعها أهلها من الخروج بناتا !! أختك هذه داهية !! انتقتها لك بالملقاط ! حسب ونسب جمال ومال وكل شئ قلبك يحبه موجود في عروسك يا بو العم !! أهلها أغنى ناس في بلدة الدوير يا بو العم ! جيراننا في الأرض أنت تعرفهم طبعا ! أبوها بهي الدين شحاته الذي كان أبوه عمدة قبل أن نواد ! عمها محام كبير في أسيوط وأخوال البنت من أعيان بلدة الشناينة وأخوال أمها من أولاد إلياس !! أختها الكبرى متزوجة من ابن عمدة الغنايم !! يعنى عزوة كبيرة يابو العم بركة ورثك !!» ..

ركبنى الذهول يا خال . فأنا أعرف هذه العائلة معرفتى لبلدتى ، هم بالقعل ناس طيبون على الآخر يابوى ، نسوانهم سنايير كالحوريات حمر الوجوه كالقشدة بالمربى ، الناس يضربون بهم المثل في الجمال ، قلت لهليل :

- «وهل وافقوا يا هليل ؟!»

تراجع هليل بنقنه على صدره :

- «إه ! إياك تظن نفسك قليل الشأن ! لقد رحبوا يابو العم ورنت الزغاريد في الحال !! من الذي لا يرضي بمصاهرة حاكمة الجبل بجلالة قدرها ؟ قاهرة الحكومة في عقر دارها ! أم اللسان الطو والفعال الأحلى ! أنسيت يابو العم أن خيرها على الجميع ؟ أنسيت أن الجبل بفضلها أصبح نظيفا لا يأوى سوى الرجال الحقيقيين ؟ الجبل اليوم يكاد يكون مسجداً اولا أنها اذكائها تسمح بشئ من الحرية فيه حتى لا تكون مكروهة من أحد خاصة وأنها تعرف الحياة المشئة في الجبل ومدى ما فيها من حرمان !! الجميع يضعون في أعينهم حصوة ملح فيفسق من يحب الفسق في السر على خفيف خفيف !!»

- «لكن منذ متى حدثت هذه الخطوبة يا هليل ؟!»

- «من شهور طويلة والمفاوضات دائرة بين الجبل والدوير! لكن الخبر ذاع بالأمس فحسب عقب عودة الملكة من مشوار مهم حيث مرت على الدوير في طريق عودتها بسيارة حكومية سوداء! فبعثت من أتى بى وبأختك زوج أبى وأختك الثانية وخالتك تفيده وأمك!! نصبنا مؤتمراً كبيرا يا بو العم واتفقنا على كل شئ ورضيت العروس أن تعيش معك في مصر أو في أي مكان يعجبك!! أما وقد بعث بك الله في الوقت الملائم فقداً بإذن الله نذهب معا إلى الدوير لنشمط الغدوة التمام وترى البضاعة عن قرب! وبعد غد تمضى بوفد يضمها هي وأمها وأختها وزج أبى وأبي وأنت إلى أسبوط لنشتري الشبكة على نقاوة عينها!!» ..

- «کلام جد یا هلیل ؟!»

- «إه ؛ قالوا الجمل طلع النخلة ؛ هاك الجمل وهاك النخلة يا بو العم إتاهت
 ولقيناها ؛ تجيد ركوب الخيل ؟!»

– «طبعا!»

- «تركب حصاني وأركب البغلة ونخطف رجلنا إلى الدوير! فركة كعب بينها وبين بلدتنا! نشرب الشاي عند أصهارك! نتفق معهم على الغداء عندهم غدا!»

– «زين والله زين »

ما دريت إلا وأنا فوق الحصان وهليل بجوارى فوق البغلة نركض تحت خيمة

الأصيل الذهبية عبر بلدة أبو حجر في طريقنا إلى بلدة الدوير ، وكان قرص الشمس ينصبهر على مرمى البصر فوق أسطح البيوت فيصنع كل شئ بلون الذهب ، وقد راح الهواء المنعش يصافح صدرى المشدود فيملؤني زهوا وسعادة فتبدو الدنيا كلها في ناظري محض حلم من الأحلام يا خال ..

عقلى طاريا بوى عندما وقع بصرى على وجه العروس وهى تضع أمامنا صنية الشربات وتمضى ، تحلف اليمين يا خال أنها غزال بكل معنى الكلمة ، أنا الأخر وضعت فى الصنية مائة جنيه كاملة تعبيراً عن رضائى ، صممت على الإسراع فى إتمام الزواج قبل أن يرجعوا فى كلامهم ، أكلت عقلى البنية يابوى ، فكلما أعجبها شئ أقول : ماشى ، حتى خرجت هى من عند الصائغ مبرقشة بالذهب فى عنقها وأذنيها ومعصميها وأصابعها وصدرها ..

فى ظرف شهر واحد جهزت دارى فى البلد كدار أكبر عمدة فى الناحية جعلتها سراية بحق ، وانتقلت إلى شقتى فى مصر عتيقة فدهنتها بالزيت فى ألوان زاهية وفرشتها فرشا ملوكيا معتبرا شاورت الحاج السنى فاقتادنى إلى محلات شهيرة متخصصة فى كل ما يشرح القلب من المفروشات ، صارت شقتى قصرا من قصور الباشوات تحت إشراف الحاج السنى واختياراته .

أقيم الفرح يا بوى ، خذ عندك من لعب الخيل بالمزمار إلى لعب الحطب فى ليلة الحنة ، أما ليلة الدخلة فجاء تها فرقة من فرق القاهرة نصبنا لها مسرحا فى الساحة الكبيرة . نبحنا عجلا ويضعة أغنام ، دعوت الشلة الوسخة : بسبوسة ويربش وغزولى وهندى ، والحاج السنى ومحمد بك أبو شناف وحازم والمشعرانى وبعض تجار الأنتيكات من خان الخليلى ، الدعوات كانت مطبوعة بماء الذهب على ورق ثمين ، وتسهيلا لهم استأجرت أتوبيسا سياحيا خاصا وقف فى ميدان التحرير أمام مبنى الاتحاد الاشتراكى ووقف هليل بنفسه أمامه يستقبل القادمين،

باسم الله ما شاء الله حضروا جميعا ما عدا محمد بك أبو شناف أرسل اعتذارا مع حازم ..

تمت الدخلة في سرايتي في البلد وسط دهشة الجميع من مظاهر الثراء التي بانت في الفرح في الصباحية انهالت علينا فلوس كبيرة من أقارب العروس وأقاربي فأهديتها جميعها للعروس تشتري بها مزيدا من الذهب ، مما رفع مقامي في نظرها ونظر أصهاري يا خال ، الأهم من ذلك يا بوي أنني ضمنت قلب البنية فوضعته في جيبي من أول ضمة .

جوكر

النصيب غلاب يا بوى كما قلت الل . كانت نيتى أن أمكث فى البلدة عشرة أيام على الأكثر ثم أعود بعروسى إلى القاهرة كى أفرجها على كل ما تحلم برؤيته ، ولكن الظروف السعيدة شاعت أن أبقى فى البلدة أكثر من شهرين ، فبينما نحن لم نفرغ بعد من البوس والأحضان جاعا الصويت من بلدة العزايزة ينعى موت سالم أبو حبه عين أعيان البلدة وعضو مجلس الأمة عن الدائرة التى تتبعها بلدتنا ، لحظتها يا خال كنا نتأهب للسفر فجرا إلى القاهرة فى سيارة مخصوصة بيتنا عليها وأعطيناها العربون ، لكننى تلقيت مرسالا من الجبل ينبه على بعدم الرحيل ويطلبنى غدا للصعود إلى الجبل ، رقص قلبى يا خال ، تحلف اليمين أننى سمعت طبوله فى صدرى ، كنت على علم بأن الملكة – الشيخة سعادة – سوف تجتمع بى على عجل فى استراحة الجبل السفلية فى نفس المغارة التى جمعت فيها حازم والمشعرانى بهليل يوم بيع تمثال رمسيس الذهبى ، كانت الإجراءات الأمنية يا بوى تتفوق على الإجراءات الخاصة بالرئيس عبد الناصر . كان هليل مرافقا لى على طول الخط ، وفى اجتماع الملكة بنا تلقينا الخطة كاملة منها ، على أن نشرع فى تنفيذها فى الحال ..

الولد هليل - ربنا يعطيه العافية ويطول لى فى عمره - أدار الشغلة جيدا .. ذهب على رأس وفد إلى العزايزة ، وأرسل أباه فى وفد إلى الغنايم ، وبعث بعدد من رجالات الجبل ووجوهه فى وفود إلى الشناينة وأولاد إلياس وأبو حجر وكل بلاد مركز صدفا ، وتكفل أصهارى بإرسال وفود من جانبهم إلى كل البلاد ، أما عائلة خرابة بكل ثقلها فقد انتشر رجالها فى كل مكان ، ثم جاءت الوفود كلها مبسوطة ملانة بالفرح تقول إن جميع رجال الهدائرة يرحبون بترشيحى لمجلس الأمة وأن على أن أتقدم بقلب جامد مطمئن إلى أن جميع أصواتهم فى جيبى من الآن ، حيث أن الناس يا خال قد زهقوا من المرشحين من الباشوات القدامى والجدد الذين يستعلون عليهم بمجرد نجاحهم ، فليجربوا المرشحين المتواضعين من أمثالهم ، بل إن بعض العائلات أخذت المبادرة فى الحال فأقامت سرادقات دعتنى لزيارتها فى بلادها ، لتقفل باب المفاوضات أمام غيرى ، وجاحت تحريات الجبل تفيد بأن من سيرشح نفسه ضدى رجلان اثنان لا حول لهما ولا قوة ، أحدهما مسيحى والآخر مسلم ، يحترفان ترشيح نفسيهما كلما لاحت الفرصة دون أن يحالف أحدهما النجاح مرة واحدة ، وكان هليل يستطيع مفاوضتهما على التنازل لكن الملكة نبهت عليه أن يدعهما وشأنهما ...

ذهبت إلى المحامى عم زوجتى وانتدبته لمساعدتى فى القيام باجراءات الترشيع التي لم أكن أعرف عنها أى شيّ والله يا بوى ، فبكل ترحيب سافر معى إلى القاهرة بنفسه فمكثنا بها نحو أسبوع كامل على نفقتى خلصنا فيه كل الأوراق والمسوغات ، وقمنا بعدة زيارات لجهات أمنية لا أدرى من أمرها شيئا ولكن المحامى العقر الذى اتضح لى أنه شخصية كبيرة فى القاهرة وأنه عضو اللجنة المركزية للإتحاد الإشتراكى على مستوى أسيوط ، أحاطنى علما بأن كل هذه المشاوير ضرورية وأننى يجب من الآن أن أتعرف على جميع شخصيات الحكام فى مصر وخاصة رجال الحزب ورجال الأمن وكل الجهات التي قال لى إن

بدأت الدعاية الانتخابية يا خال بمجرد إعلان قبول ترشيحى الذى سعى وراءه عم زوجتى بجهود طبية ، وأخر ما كنت أتصوره يا بوى أن الجهات المسماة بالأمنية لابد أن تقول رأيها فى المرشح بالقبول أو بالرفض ؛ ولو كنت أعلم ذلك من قبل لتكسرت مجاديفى خوفا من الشهور التى سبق لي أن أمضيتها فى السجن بسبب تهريبى للأسلحة والذخيرة من معسكر الجيش آيام كنت أبيع القهوة

والشاى فيه للعسكر ، إلا أن المحامى العقر وفر على متاعب كبيرة يا بوى ، ما ألذ هذه اللعبة وما أحلاها يا خال ..

هنا العزوة الحقيقية يا بوى والأبهة التى على أصولها ناس يحملونك فوق أكتافهم يهتفون بحياتك وأنت ماض بينهم كالعريس لا تسعك الأرض من الفرحة ، وناس يخطبون أمامك فى الميكرفون بكلام قد لا تفهمه ولكنه نو وقع حلو فى الأننين ، شعرت يا خال ... كأننى مخلوق لهذه الأملة ، وأننى يمكن أن أقتل أى مخلوق تسول له نفسه حرمانى من النجاح فى هذا الطريق ..

أبرقت إلى غزولي ويريش ويسبوسة وهندي فجاءوا المساعدة في الدعاية ، منحت كل واحد منهم مائة جنبه كمصروف بداء وكانت هذه الحركة أكبر إلهام لي من الله يا بوي ، إذا بي يا بوي لم أعرف الولد بريش بالذات على حقيقته ؛ اتضح لى أنه خطيب مفوه يا بوي ، ابن الفرطوس لا أدرى من أين يأتى بكل هذا الكلام الموزون الذي يملأ الدماغ ، وبالنصوي يا بوي ، الواد ابن حرام ، عرف كل ما يحتاجه الناس في بلادنا ، وكل ما يفكرون فيه من مشاكل تؤرقهم وأحلام تؤنسهم، فصار يضرب على أوتارها في كل سرادق نزوره وكل دار تستضيفنا ، يسرع في الحال بالوقوف ليتكلم نيابة عنى قائلا إن سيادة النائب – يعني أنا يا خال - سوف يفعل لكم كذا وكيت : مستشفيات ، مدارس ، سكك حديدية ، مواصلات ، وظائف لكل العاطلين ، شق ترع ومصارف ، ماكينات رى ، إعانات للعاجزين ، تمليك أرض للاستصلاح .. إلخ إلخ .. وكان يتكلم بجدية كبيرة يا خال ، وينفعل مثل خطيب المسجد ، والخلق كلهم تصفقون تهتفون بحياتي ٬ فتخيل لي يا خال أننا جميعا نشارك في تمثيل مسرحية ، وأننا جميعا بمن فينا الجمهور نستحق أكبر جائزة على إتقاننا للأدوار ..

طب ما قواك يا خال إن جدية بربش وانفعاله في الخطب هما اللتان جعلتاني أخذ الأمر بجدية ؟!

نعم يا بوى ، إن اندماج بريش في الخطب كأنه المرشح لا أنا ، كأنه كان ينتظر هذه الفرصة من زمان ، جعلتني أندمج أنا الآخر في النور بعد أن كنت أداري وجهى بكمي موليا نحو الحائط الأضحك من الوضع الذي صرت فيه ، ثم إن بسبوسة هو الآخر كان وإدا جدعا القصي حد ، لم ينادني إلا بسيادة النائب ، ويكلمني باحترام كبير ، يقول لي سيادتك وحضرتك وجنابك ، ويساعدني في الرد على بعض الأسئلة التي كانت تنهال عليَّ من الناخيين ، أما غزولي فكان أشيه بحادم خصوصي معتبر ، هو الذي يقدم لي القهوة ، ويشبعل لي السحائر ، وينقض الغبار عن ثيابي ، ويحمل عنى بعضها إن شعر أنى ضائق ببعضها ، بسرت السجاير الملقوقة بالحشيش سرا عندما نمثلك الخلاء ، وسنة الأقبون ، ومن حين لأخر برش الكولونيا على الأبدى ليخفى في رائحتها النفاذة رائحة الحشيش ، إلى أن ثار في وجهه أحد الصعايدة ثورة لطيفة مازحة طالنا منه منع هذه الرائحة لأنها تفسد على أنوفهم رائحة هذا الحشيش المعتبر. وكان داء السرحان وراء السطل ينتابني كثيرا أثناء الخطب والكلام والترجيب ، فأتصور أننا نقوم بعملية نصب من عملياتنا الحساب الحاج السني . حاجة تهوس با يوي . -

المحامى العقر عم زوجتى لم يستكبر علينا رغم كثرة مشاغله وضيق وقته الشين ، كثيرا ما فوجئت به مقبلا بسيارته الفورد العتيقة ، فيشرب معنا فنجان قهو § في السرادق أو يتعشى ، ويقول كلمتين يشجع بهما الناخبين على انتخابى ، ملمحا في كلامه إلى أن نجاحى سوف يريحه ويريع عنه الكثير من المهمات

الطريف يا خال ، والذي لا يمكن أن أنساه أبدا ، أننى مدين لخطب بربش ، وردود بسبوسة وملاحظاته وتعليقاته في معرفة المهمة الأساسية لعضو البرلمان ،

نعم با يوي ، فحتى لحظة قيامي بالرعابة لم أكن عرفت أي شيءً عن هذه المهمة ، إنما كانت المهمة غامضة في رأسي ، فحد علمي أن عضوية البرلمان هذه رتبة شرفية أو نيشان بأخذه العضو إذا نجح في الانتخاب ، يكون جواز المرور له في كل مكان في الجمهورية يدخله لتخليص مصالح المواطنين ، ولكن خطب يريش وتعليقات غزولي ودروس يستوسة الصريحة ونحن نتأهب للنوم في سرابتي آخر الليل ، كل ذلك فهمت منه أن عضو البرلمان هذا شي كبير يا يوي ، أنه لايد أن يحضر اجتماعات البرامان الدورية حيث بعرض كل عضو مشاكل وأوضاع أهل دائرته مطالبا لهم بكذا وكنت من الخدمات ، ورقع كذا وكنت من المظالم ، وأنه يجب أن يستجوب أي وزير بشاء وحتى رئيس الوزراء نفسه ، وأن بوجه إليه الأسئلة والانتقادات حول مالا يعجبه من أوضاع البلاد كل وزير في دائرة اختصاصه . أما أن يلف العضو على المصالح الحكومية لتخليص مصالح لأهل دائرته ولنفسه فتلك شغلة جانبية أن بفلح فيها إلا إذا أفلح في المهمة الأساسية وبات معروفًا مشهورًا بكثرة استجواباته للوزراء ويحدته وطول لسانه وجرأته في الاستجوابات ، ومن النصائح التي لا أنساها للولد بسبوسة الجدع قوله لي في وقت مبكر إنني بجب أن أبحث لي عن ثلاثة أربعة ولدان من عيال الصحافة أصاحبهم وأنفق عليهم لكي تظل أخباري دائما في الصحف ، وهذا ما حرصت عليه بالفعل يا بوي وعملت على تدبيره ..

وفيما نحن في هذه الزيطة إذا بي أفاجاً يحضور حازم والرجل المشعراتي ، أتى بهما الرجال إلى السرائق في الدوير . أخنته إلى المندرة خلف السرائق ؛ ملت عليه هامسا ، مستقطيا من الحفل روحا معنوية :

~ « تحت أمرك يا حازم بك !»

مال تحوى هو الآخر ، بادائي الهمس :

الأمر وما فيه أن محمد بك مطلوب منه بعض الحلى! أفرع! حلقان!
 أساور! جعارين، وأو أنك كلمت صاحبك المعلم ليبحث له عن رأس نفرتيتي من
 الذهب أو حتى من المرمر فإنه يشكرك ولا ينسى الجميل!!»

قلت النفسى: وه يابوى هذه شبكة ستصطادك يا حسن فخذ بالك ستجيئ الضربة من هنا لتفسد عليك كل هذا الحلم ، ما دار فى دماغى لحظتها أن أهب فيه وأنكر معرفتى بأى شئ مما يتحدث عنه لكننى عجزت عن الاستندال يابوى ، نقصتنى بجاحة المرأة الداعرة ، سيما وأننى لم ألحظ أية وجوه غريبة أو حركة مريبة قلت لنفسى إن اللباقة هى المنقذ الوحيد من هذه الورطة ، ثم فكرت بسرعة فيما عندى من قطع ، فتذكرت أن بها بعض هذه الأشياء التى طلبها أما بقية ما طلب فكله موجود عند الملكة ، ولكن كيف يتأتى لى الآن استحضار شئ من هذا أو ذاك و كيف نفاصل ونساوم وعلي أى مثل تقيس الأسعار سيما وأننى غشيم فى المهنة لم أتودك بعد ، رحت أبحث فى دماغى عن معنى لكلمة اللباقة التى أسمعها كثيرا فى مثل هذه المواقف ، فإذا بى أقول بنبرة اعتذار فيها قدر كبير من الود

- «حازم بك أنت ترى الآن ما نحن فيه من انشغال! طلبك هذا يمكن أن ألبيه عينى ورأسى وإكن بعد أن تنتهى من هذه الشغلة فالبلدة كلها ليس عندها وقت تهرش فيه رأسها » ..

ابتسم بلطف:

- «على فكرة " معى حقيبة مائنة بالغلوس يعنى ما يطلبه المعلم سيأخذه
 وزيادة !!»

إنتصب الخوف في جوفي يا بوى ، فهذا إغراء غير مريح في مثل هذا الظرف الحرج ، قلت بشئ قليل جدا من الحدة ·

- * هذا مستحيل يا حازم بك ! ليس من المعقول ولا من المقبول أن أترك

الناس وأذهب للبحث عن طلب كهذا !! إنك لست تطلب علبة سجاير أتلقفها من على رف الدكان !!»

شوح بحركة مرحة مازحة :

«إن المرشح لن يغضب منك إذا غبت عن مجاملته يوما أو نصف يوم ولا
 شك أنه قد رآنى وعرف أن عندك ضيفاً !!»

شوحت بدوري مبتسما في سخرية:

- «إن المرشح هو أنا يا حازم بك! أنا العريس الذي تريد منه أن يترك عروسه في الكوشة ويهرب!!»

من فرط المفاجأة وقف على حيله يا بوي ، مبهوبتا :

- «أنت المرشح ؟ هذه الدعاية كلها لك إذن ؟!»

ثم انفجر في ضحكة صاعقة :

- «كنت أظنك تمزح يوم حدثتنا في هذا الأمر ذات ليلة !!»

قلت بزهو كبير!

-«لا يا بو العم لم أكن أمزح !!»

قال بأريحية لم أكن أتوقعها:

- «خلاص يا حسن! أقصد يا حسن بك! متى يكون موعد الانتخاب؟!»

- «بعد غد يابو العم! نحن الآن نضرب فوق الحديد وهو ساخن! وبعد
 ساعات معدودة يتحدد مصير العبد لله!!»

تفكر قليلا ثم أشرق وجهه

- «حلو! أنا إذن جئت فى وقتي! شف يا عم! نحن جدعان كالصعايدة بالضبط! نندم الصديق نفديه بروحنا! سأقدم لك خدمة العمر فى مقابل أن تكون جدعاً معى وتأتى لى بطلبى من تحت طقاطيق الأرض!!»

ضحکت :

- «ستبقى إذن لتساعدني في الدعاية ؟!»

أو ماً يرأسه :

- ~ « وأكثر من الدعاية!!» ~
- «ومحمد بك الذي ينتظرك؟!»
- «سأكلمه في التليفون وأبلغه بما حدث! وسوف يرحب طبعا! لن يمانع في أن أبقى هنا يومين أو ثلاثة من أجلك ومن أجل المصلحة!!»
 - «قلت إنك ستساعدني بأكثر من الدعاية ! كيف ؟!»
 - تراجع بذقنه مستنكرا جهلى بإمكانياته ، أضاف :
- «يكفى أن أمر معك على اللجان!! مجرد أن يرانى رؤساء اللجان معك!! لو
 كنت في ذيل القائمة تصبح على رأسها!!»
 - «وه ! وه ! كيف يا بو العم ؟!»
- «سترى ! أنت لم تعرفنا على حقيقتنا بعد يا أبا على !! وهذه فرصة لأريك من نحن !! يجب أن تعرف أننا عائلة كبيرة بمعنى الكلمة وسرها باتم !!»

جعلت أتمعن في وجهه وقد تصدور لسبي عقريتا من الجن في هيئة إنسان رقيق ، قلت أنقسى : خليك مع الكذاب لحدد بساب الدار وشف نهايتها ، لن تخسر شبئا ، قلت له ...

- «وأنا يا حازم بك لن أنسى لك هذه الخدمة مدى الحياة!»
 - بلهجة غاية في العملية علق ·
- « لا تؤاخذنی ! هناك مثل إنجلیزی یجب أن تعرف الکی تتعامل به من الأن خاصة بعد أن تنجح · بزنس إذ بزنس !! ومعناه شغل قصاد شغل ! تكسبنی واکسك !!»
- «فهمت! فهمت تماما يا حازم بك! والآن! ما يساوى مائة سأخلصه لك بعشرة فقط! يعجبك هذا؟!»

رفع دراعه في تنبيه :

- «ليس هذا فحسب يا أبا على !!»
 - -- «أأمرني!» --
- «وأن تأتى لى بالقطع النادرة!! الأندر! الأهم التي لا نتعب في تصريفها

بسهولة! وفي نفس الوقت تستأهل التعب والمغامرة!!»

لحظتند يا خال اطمأن بالى وهدأ بلبالى ، أيقنت بإخلاصه للعمل ، هو شاطر فحسب يريد أن يكون الغالب فلا بأس ، قلت :

 وهو كذلك يا حازم بك! ستكون أغنى واحد فى مصر بإذن الله من ورائى!!»

نهض واقفا وقد ركبته حماسة مفاجئة ·

- «على خيرة الله ! إتفقنا ما أقرب سنترال هنا ؟»

- «سأبعث معك مرسالاً إلى مركز صدقا!»

خرجت فنادیت واحدا من الوادان من أصهاری ، أمرته أن یرکب مع البیك لحد سنترال مرکز صدفا ثم یعود به ..

عندما دخلت السرادق وحدى استوقفنى هليل على جنب ، وكان قلقا بشكل أزعجنى بل زلزلنى يا خال ، قلت له : تشيل طاجن ستك لماذا ؟! صار يكح مسلكا صوبة ، قال بحشرجه قلب واجف :

- «يظهر أن الميزان سينقلب يابو العم! أخشى أن تضيع منا الدائرة!!»
 صحت فذعا:
 - «قال الله ولا قالك! ما الذي جعلك تقول هذا الكلام الماسخ؟!»

قال بجدية غير مربحة :

«أنت مع ضيفك من ساعة لم تسمع الميكرفونات المنافسة لنا !! المهم يا بو العم! أكدت الأخبار أن الرجل المسيحى العضمة الزرقاء تنازل المرشح الثانى وسلمه كل أصواته ! يظهر أنه قبض قرشين ! المرشح الآخر يلف على الدور من صبيحة ربنا يوزع الأموال باليمين وبالشمال ! قرر أن يشترى أصوات الدائرة مهما كلفته ! إنه كما تعرف لص كبير طول عمره ! ولو نجح في الشراء فلن يبقى من الأصوات سوى عائلاتنا في مواجهة سواد الشعب !!» ..

فكأته ضربنى بالصرمة القديمة على وجهى يا بوى . وقفت مبلما يتدفق العرق من جبينى ويجرى في قناة ظهرى . صحوت من الطم ، قلت انفسى : نعم هكذا تكون الأمور صحيحة طبيعية إذ ليس من الطبيعى أن مثلى يتطاول مرة واحدة إلى مثل هذه الأملة . شعرت أن الغضب قد بدأت ناره ترفع ألسنتها في صدرى ، وخيل لي أن شخصيتي الحقيقية : الحرامي حسن أبو ضب ، رد السجون ، قد أوشكت أن تطل من ثيابي القسد كل هذه الصورة البديعة . جاخى صوت لمله موت أبي بحكمته الساخرة : أنت أن تخسر شيئا يا ولد الناس خليك في الحلم لنهايته فعلى الأقل تستمتع الساعات الباقية بارتفاع صبيتك بدلا من أن تنكد على نفسك من الآن . طغى عليه صوت الملكة في صدرى : إثبت في مكانك يا عبيط يا أحمق فهذه كلها أخبار ولا أحد يدرى أبن يتجه سهم النصيب المقدور على الخلق فإن كانت هذه الأخبار صحيحة فإنها تدل على قوتك الواضحة فدع من يلعب فإن كانت هذه الأخبار صحيحة فإنها تدل على قوتك الواضحة فدع من يلعب يخسر كل أوراقه واستمر أنت في اتكالك على الله وحتما لن يخذلك لأنك ريما كنت أفيد للناس من غيرك حتى لو كتت جاهلا وهو متعلم نكرة وهو شهير ..

قلت لهليل:

 ونحن معنا الله يا هليل! نقعل ما نقدر عليه والباقي على الله! والعبرة بالخواتيم كما يقول المثل!!» . `

وسحبته إلى المقعد المخصص له في السرادق ، فرافقني خطوات ثم ارتد شاردا بياشر استطلاعاته وتحرياته ..

تلقفنی بریش بنظرات هلمة ، تطل من عینین مضیقتین کثقبین مفتوحین علی جهنم ، ادرجة أننی هربت منها یا خال ، فرقعت عینی فی عین بسبوسة الواسعتین طویلتی الرموش کیحیرتین من صفاء مریب ، فإذا فیهما نظرات ابتهاج مفعم بالتفاؤل والرضا . أما غزولی فقد نکس رأسه فی حیاء مفتعل وراح یشد

خيطا خفيا مدككا في شفتيه مثل استك السروال ، يشده فتنكمش الشفتان على بعضهما ليصير شدقاه مثل بك الفلوس الحريمي ، ويرخيه فتنفرج الشفتان ببسم شديدة الخبث تنضح بحسد معلن يكاد يفخر به ، قلت في توجس هامس :

- «مالكم يا أولاد الفرطوس ؟ شكلكم ليس طبيعيا !!»

قال بريش في حسد واضبع:

- «لا ! لا أمرك صار ملقتا النقار ! هناك سر !!»

 «لا حول ولا قوة إلا بالله! لا سر ولا حاجة يا بريش! استهدى بالله ولا تسرح بعقلك بعيدا!!»

- «يا ماء من تحت تين !! أنت يطلع منك كل هذا ؟! إنك إنن لمن الأقوياء
 الخطرين !! أنت عضمة ثقيلة !!»

- «إكشف عن غرضك يا بريش !!»

- «كيف وصلت إلى أنور السادات يا عكروت ؟!»

– «أثور السادات ؟!»

وشماني الرعب يا بوى ، أمسكت بطوق جلبابي هزرته :

- «إيش أوصلني أنا الأنور السادات يا بريش ؟! أنا لم أره في حسياتي ولا أستطيع الوصول إليه !!»

- «إطلع من دول يا عكروت !! كيف إذن يرسل بأضيه ليقف بجوارك في الدعاية ؟!»

- دأخره حتة راحدة ؟!»

ثم ضحكت إذ أدركت حقيقة اللبس:

- «هذا الضيف يابق العم اسمه حازم أبق شناف!!»

انفجرت الضحكة الساخرة من ثلاثتهم ، وقال بسبوسة في ابتسامة جميلة

وغمرة أجمل:

- «على كل حال الاسم لا يهم! أبو شناف أبو جلمبو!!»
 - وأوماً غزولي بخبث :
 - دما يضر !! بالعكس ! أبوشناف أحسن !!»
- حتى هندى ، الذي لم يفتح فمه بكلمة منذ وصوله قال في تربقة :
 - «تستغفلنا أم تستغفل نفسك ؟! يا راحل عيب !!»
 - وقال بريش كأنه يخلص ذمته من الله :
- «هذا الذي كان هنا منذ دقائق هو أصغر أخوة أنور السادات النائب الأول ارئيس الجمهورية جمال عبدالناصر!!»
- صحت فيه بقليل من الفضب ، ربما لأستفره ياذال ، للإدلاء بمزيد من المعلومات :
- «من أدراك أنه هو ؟! منجم حضرتك ؟ أم تراك تعرف جميع أبناء الخلق ؟!» نقر بأصبعه على ذراعي في ثقة :
- «إنتى أعرفه جيدا! اشتغلنا معه كثيرا! هو ولا طيب على كل حال و جدع!
 وصاحب صاحبه!!»
 - اغتظت رغم الفرحة الكبيرة يا بوي ، صحت في بريش :
- «يا أبا الحاج! هذا حازم أبو شناف وهو من معارف الحاج أحمد نوار الدين السنى وعن طريقه عرفنى وعرفته! جاضى فى فرحى لكنكم لم تروه لأنه انصرف بعد دقائق!!»
- ضمكوا في نفس واحد ، وركز بريش نظراته الثاقبة في عيني ، نظرات صايع كبير عجوز :
 - «بلاذا جاء الليلة يا تري ؟!»

ارتبكت قليلا ، فانفعلت :

- «كان هنا في مشوار ورأى أن يفوت ويسلم على !! أنت قلت إنه ولد جدع وطيب وخدوم! فلما علم الآن أنتى داخل الانتضابات صمم أن يبقى بجوارى يساعدنى وهو حاليا يتكلم في التليفون!!»

تبادلوا نظرة ذات معنى غامض ، نضحت نفس البسمة على وجوههم ، قال بريش :

- «هنيئا لك يا عم! اقتنعنا الآن أنك عبقرى زمانك أنت لعبتها صبح! وبنفعت اللعبة!»

وقال بسبوسة :

- «النتيجة بانت في الحال !!»

- «كيف يا بسبوسة ؟!»

رد غزولی :

— كل من كانوا هنا ساعة بخوله ذهلوا وقالوا لبعضهم أنور السادات بعث بأخيه لتأييدك وتهديد خصومك !! بعضهم قال بإعجاب وفرح : رئاسة الجمهورية بنفسها تؤيد حسن بك وتقف وراء وهذا المرسال معناه : يا أهل الدائرة هذا الرجل سينجح يعنى سينجح فاجعلوها تجئ من عندكم أحسن !! أنا أراقب الناس من ساعتها وأتنصت عليهم !! كان الواحد منهم يخرج ويعود ومعه عشرة !! ألست تلاحظ أن السرادق ازدهم الآن بشكل غير طبيعى ؟! كل هؤلاء جاء واليتكنوا من الأمر !!»

فعلا يا بوى ، السرادق ازدهم بصورة لم يسبق لها مثيل ، الواقفون أضعاف الجالسين ، والمتجمعون خارج السرادق أضعاف هؤلاء وأولئك ، آخر نظاكه يابوى، كلهم عيونهم هائجة تبحث عن الضيف ، قلت لنفسى : منصورة بإذن الله

يابوي ، أيقنت أنه دعاء الوالدين ويركة الشيخة سعادة..

اقترب بسبوسة منى أكثر ، وأشار بطرف عينه إلى الرجل المشعرانى الذى كنت قد نسيته تماما يا بوى ، وكان جالسا قرب باب السرادق فى حالة من حب الاستطلاع الشغوف بالزحمة . قال بسبوسة :

- «هذا الشاب إبن رأس كبيرة في مجلس قيادة الثورة! من أكابر الضياط الأحرار! لكنه مختف عن الأنظار لا نشاط له!! وأم صاحبنا هذا شبه مطلقة حاليا! المهم أنها تعيش بأولادها منه – وهذا أكبرهم – وحدها في شقتهم القديمة !! أما الرجل الكبير فإنه مزواج مطلاق !! يعيش الآن مع زوجة صغيرة السن في قيلا بعيدة!! حالته على فكرة ميسورة بعني بجد كل طلباته والحمد لله!! فلأنه خائب في مسائل المكسب والاستفادة من المركز لأنه كما يقواون عنه في الأصل رجل مبادئ فإن جمال عبدالناصر بعطف عليه ويرسل له نفقة شهرية كبيرة !! وهو من جانبه كل حين يفزع فزعة يثير بها بعض الزوابع حتى يلهف قرشين كبيرين من الرياسة أو من أي مكان !! الرياسة تداديه تحمد الله أنه ترك لهم شئون السلطنة وابتعد ليعيش حياته!! هم ربك والحق فرحون بهذا فليأخذ ما يشاء طالمًا أنه لا يشاركهم في السلطنة !! أما هذا الواد الداهية – ابنه – فمن أشطر الشطار! له نشاط نولي معروف! يتاجِر في أشياء كثيرة جدا من الخردة إلى الآثار إلى السلاح للقدائيين القلسطينيين ! ويدون رسمال على شرط !! يعتمد على السمسرة والعمولات! يعيش عيشة الأمراء الصعاليك كل يوم في بلد كل ليلة مع أمرأة جديدة لكنه هو الآخر طيب رغم ذلك !! غير شرير بمعنى أصح ! ولهذا يتركونه في حاله ويخلصونه من كل ورطة وورطة !!»

لأننى أحب بسبوسة يا بوى ، وأثق فى كلامه ومعلوماته ، فقد اقتنعت بكل ما قاله بربش ، لأن بسبوسة لم ينفه ، فكرت يا خال فى أن أغير مظهرى وطريقة احتفالى بالضيف تبعا لهذه المعلومات المبهرة ، لكى أرسم الوضع كما ينبغى يا خال . لكن صوت الملكة صاح فى أننى : دع كل شئ يمضى كما هو فلا تتدخل بأى تصرف قد يفسد عليك الطبخة إلالهية ..

رفعت بصرى بعد شرود ، فإذا بهليل على باب السرادق يشير لى أن تعال . السلخت من الشلة الوسخة ذاهبا أتعثر فى الكراسى والأكتاف والمناكب ، وأرد على التحيات البهيجة المنهمرة من كل ناحية . لاحظت بقلب واجف فرحان أن الجميع يقولون لى : يا سعادة البيه ، فجعلت أكتم ضحكتى بقوة خرافية ..

سحبنى هليل إلى بعيد جدا ، إلى قلب الطريق الزراعى على شاطئ الترعة . ضغط بأصابعه على ذراعى في فرح :

- «منا الخيس ؟! البيلاد من حنوانا انقلبت ! الطرقيات تدلسق ناسيا على السراية.!!»
 - دخير ماذا يا هليل ؟!»
- دهناك شائعة جرت فى بلدان العب كله كالحريق: أنور السادات جاء بنفسه إلى السرادق لتأييدك!! أين هو ؟! ناس من الشناينة ومن العزايزة ومن الفنايم وكله أت يسالنى أضحك وأعمل كأننى أعرف ولا أريد أن أتكلم!! لقد زعق لنا نبى من السماء يا بو العم !!»

ضحكت في جزل ، صرت أعض على نواجدي ، أكمل هليل :

- ملاذا تضحك مكذا ؟!ه
- «فعلايا هليل: زعق لنا نبى من السماء! المضحك أنك رأيت الضيف
 وزميله عدة مرات! من يوم الجبل إلى اليوم!!»
- دوه !! نكثة هايلة يا بوالعم ! الولد فعلا يشبه أنور السادات الخالق الناطق!
 نفس الدم نفس الوجه نفس الصلعة نفس العود !! طويل سرح !!»

اندمج في الضحك هو الأخر يا بوى ، صرنا نروح ونجئ على الطريق ، والاتون يهبطون عن الركائب ليسلموا علينا في حرارة ، والسؤال على شفاههم : هل أنور السادات في السرادق ؟ ونكاد نجيبهم بنظراتنا أن : نعم ..

بريش ويسبوسة وغزولى وهندى أصبحوا يبيتون عند هليل . وعندما ظهر حازم والمشعراني أصر أصهارى على استضافتهما فأوعزت إليهم بالا يتقلوا عليهما في الأسئلة ؛ وأخيرا فضلت أن أبقى معهما ، وذهب وقد من نسوان دارنا للمبيت مع العروسة التي فضلت ألا تترك دارها درما الفال السئ في شهر العسل . وفي الليل انفردت بحازم مع كويين من الشاى وحجرين ، ثم سائته مباشرة دون لف أن دوران :

- مقل لي يا بو العم ؛ هل أنت حقا شقيق أنور السادات ؟!»
 - لم تظهر عليه أية مفاجأة يا خال ، قال بسرعة :
 - «لا يكل أسف ! أست شقيقه !!»
 - دعجابب! ولكنك صورة طبق الأصل منه!!!
 - دوما الضرر في ذلك ؟!ه
 - ولاشترز ولا شترار يابق العم! ع
 - دالجميم هنا طبعا تصوروا أننى شقيقه !!ه
 - مطبعا يا يوي !ه
 - «مصلحة ! دعهم يتصورون !!»
 - «ولكتنى نفيت لهم ذلك !»
 - ولا تنف ولا تؤكد ! دع الأمر عائما !!ه
 - مخلاص یا بوی !»

لكنني يا يوى كنت إلى التأييد أميل: التأكيد من خلال النفي، حتى إذا ما جاء

يهم الانتخاب صار العبد لله كالإمبراطور ، يا ربي ، ما كل هذه الواجبات التي فعلتها معى؟ لقد رسمتني بعنايتك مقاحقا إن من ينصره الله لا غالب له . ماكنت أتصور ما يوى أن سيارة ملاكي تثنيه الطائرة بنمر قاهرية سوف تأتيني في اللحظة المناسعة لكي تكون تحت أمرى وإذني أتنقل بها بين اللجان فتضيفي على مظهري أناقة وأبهة ؛ تلك هي سيارة حازم . عند كل لجنة من اللجان ننزل وسط احتفال كبير ، نمر على أعضاء اللجان محرد مرور . كان أصهاري قد عينوا في كل لجنة مندويا عنى من طرفهم يراقب العملية الانتخابية ، كل مندوب مزود بقدر كبير من المال يغدق به على أعضاء اللجنة شايا وقهوة ومرطبات وغداء وسجاير وهدايا غير مرئية ، وقد روعي في اختيارهم أن بكونوا على قدر كبير من الذكاء والتفتح والوعى والفهلوة مم إجادة القراءة والكتابة . هؤلاء با خال لعبوا دورا خطيرا في إرهاب اللجان بصنعة لطافة ، أكبوا إشاعة أن شقيق السادات جاء مندوبا عن أخيه لتدعيم مركز مرشح الثورة الذي هو أنا بل زعموا أنني عضمة كبيرة في التنظيم الطليعي الذي كونه عبدالنامين ليضيرب به الاتجاد الاشتراكي . فما يكاد حازم يظهر في مدخل اللجنة حتى يكون المنبوب قد هيأ اللجنة لاستقباله بحرارة وبريه رئيسها مدى جدية العمل وخلوه من أي ليش ، وكل من لا يعرف القراءة من الناخبين - وما أشد كثرتهم - ملأت له اللجنة بطاقته باسمى تلقائيا حتى لو ذكر لهم شخصا آخر غيري ..

سارت الأمور كما ينبغى يا خال ، تم كل شئ بنجاح وسلام . فما أن أغلقت الصناديق ورحلت إلى لجنة الفرز حتى صحبت حازم إلى منزلى فجلسنا في المندرة نستربح استعدادا لملاقاة لجان القرز . وكنت أثناء تجهيز البيت الزواج قد أجريت تعديلات ، فجعلت من حجرة نومى السابقة مخزنا للأشياء الخصوصية وقتحت في حائطها الداخلى دولايا سحريا يتفرع منه نفقان سريان في قلب

الجدار ، الأسلحة والقطع الأثرية . تسللت إليه لأجهز لحازم بعض القطع المطلوبة، فأرحت فإذا بي أفاجأ برأس نفرتيتي من الذهب الضالص موجودة بين القطع ، ففرحت جدا يا خال ، وقلت فلتكن هذه القطعة وحدها هدية لحازم إن جانى نبأ النجاح . وفعلا يا خال ، تلقيت النبأ كاملا في اليوم التالي ، فارتفعت الطبول والأعلام والزغاريد ، عمت البلاد فرحة صاخبة ، ويدأت الوفود تتدفق علينا للتهنئة ، استدعيت حازم إلى حجرة داخلية ، قلت له إن المعلم قد نفذ له طلبه بخصوص رأس نفرتيتي وبعده بتنفيذ كل طلباته بعد أن نفيق من دوشة التهاني . إنشرح صدر حازم وهو يتقرج على القطعة بفرح عظيم ، قال :

- دكم يطلب المعلم فيها ؟!»

قلت بعد تريد قليل :

- «إنفع ما معك وأنا أكمل الباقي من جيبي !»

قال في شيّ من الخجل والتلعثم:

- دوالله ! صراحة يعنى ! محمد بك أعطاني خمسين ألفا فقط !!»

اعتقات فرحتى الطاغية ورسمت بدلا منها صدمة كبيرة :

- «تعرف ملبعا ثمنها المقيقى !»

بقليل من الخبث المفضوح:

-- مكم تظن أنت ؟!ه

- دمقصول للمعلم بثلاثمائة ألف !!ه

- «ليس خسارة فيها! واكتك تستطيع أن تتفاهم مع محمد بك فيما بعد!!»

- حجّل عنك ! خدها ووصلني ثمنها !»

- «قد القول !»

وفتح الحقيبة بغير تربد ، عد لي خمسين رزمة مؤستكة . وكان من الواضح

أن الحقيبة لا تزال عامرة ، وأنه سيسفح مبلغا رهيبا من وراء هذه الصفقة ، لكننى كنت راضيا تماما . عانقنى بحرارة قال إنه وأخيه تحت أمرى في كل ما أطلب في كل وقت ، ثم انصرف عائدا إلى القاهرة بشبه مظاهرة أوصلته حتى طريق أسبوط . أما أنا فذهبت إلى هليل لأتناول الغداء عنده مع الشلة الوسخة ، فانتابتنى نوية كرم عاتية ، نفحت كل واحد منهم ألف جنيه : مش خسارة فيكم يا أولاد الفرطوس . ثم قات لهم : أنا الآن عضو بالبرلمان وأنتم من الآن رجالي وباتت مصلحتكم عندى فوق كل اعتبار ، ووبعتهم على موعد محدد في القاهرة في شقتى بعد أيام . أما يوم سفرى أنا والعروس يا خال ، فحدث ولاحرج .

شسسايب

جاء ني المعلم شنبويلي يقدم التهنئة المارة الطالعة من قلبه فعلا با خال ، كانت هذه أول مرة ببخل فيها عمارته منذ أن بارجها الى مصر الحبيبة هريا من الغازية الساكنة قبالتي . أهلا وسهلا كيف الأحوال ، كلمة في حيوتة عرفت أنه يعمل الآن في تجارة أراضي البناء ، يشتري القطع بأسعار تافهة نظرا لأنها في أماكن بعيدة عن العمران ، ثم يركنها وينساها واثقا من أن العمران سيمتد إليها إن عاجلا أو أجلا ، وعندما يقترب منها العمران بشرع في بيعها بأسعار خيالية: في الهرم والجيزة والكبت كات ومصير الجييدة والزيتون والوراق . قات والله إنها لشفلة مريحة ومكسب مضمون ، فقال إنه مستعد لإرشادي إلى الأماكن التي تناع فيها الأراضيي. أمهلته شهرا وإحدا حتى أنتهى من تعلم قيادة السيارات. ذلك أن الولد بسبوسة - الله يستره - طلعها في دماغي ، وتكفل بالبحث عن سيارة محترمة ، ثم اصطحبني إلى معرض سيارات يدعى السعودي فتفرجنا على عدد من السيارات المعروضة منها الجديد على الزيرو ومنها النصف عمر ، توقفنا أمام واحدة ماركة شيفروايه ، وهذه كما قال بسبوسة من أشهر وأجود الماركات لا يركيها إلا الناس الأبهة ، الدليل على ذلك أن هذه السيارة بملكها مدير الأمن السابق وهو من عائلة صعيدية ثرية مشهورة ، يبيعها الأنه يريد أن يركب واحدة جديدة ، فالعظماء المهمون دائمًا هكذا يا يوى ، قلت ليسبوسة : هل السيارة جيدة في نظرك يا بسبوسة ؟ قال : تمام التمام على ضمانة المعرض جننا بالبكانيكي فقحصها وشهد لصالحها ، فانتهينا فيها بثلاثة آلاف جنيه لأن السيارة كانت بمالتها لم يمض على إنتاجها سوى عام واحد ، ومزودة بكل

الكماليات وفي حقيبتها ثلاجة تنفع للرحلات الطويلة ، ثم إن لونها أسود . قلت إنها لا ينقصها سوى الراية لكي تصبح ببلوماسية . فضحك بسبوسة قائلا :

- ديبلوماسية إيه وراية إيه يا عبيط ؟! إن حصانتك أقوى بكثير !ه

طلبت منه إيضاحا لهذه الكلمة يا يوى . فلما شرح لى معنى الحصانة التى يتمتع بها عضو مجلس الأمة فردت صدرى من فرح وزهو حتى خيل لى أن البلاد كلها صارت ملكى مسخرة لخدمتى ، وحمدت الله الذى لا يحمد على مكروه سواه. ثم إن بسبوسة تكفل بتعليمى فى ظرف شهر واحد حتى أصبحت كاتى وادت سائقا ..

أول مشوار ركبتها إليه كان إلي منطقة الوراق ومنها إلى أرض اللواء فالهرم ، حيث اشتريت مجموعة من القطع تتراوح مساحاتها بين الماتتين والثلاثمائة وخمسين مترا ، واخترت بسبوسة ليكون مديرا الأعمالي ، إن عمله في الحكومة لا يتطلب منه وقتا طويلا ، فليمكث كل وقته معى ، بمرتب شهرى يساوى مرتبه من الحكومة في عام كامل ، مما جعله يتفاني في خدمتي . ولما كان أشد واحد في الشلة حفظا الأسرار وكتمانا فقد أشركته سرا في العمليات التي تتم بيني وبين حازم والمشعراني ، سيما وأن دائرة هذه العمليات قد اتسعت فأصبحت أتعامل مباشرة – في السر أيضا – مع الحاج قدري والحاج الأصفراوي والمعلم عطاطس وهذا الأخير قبطي من أغنياء الكرة الأرضية ، تقيم أسرته كلها في أمريكا ويعتبر أحد ثلاثة في العالم يتحكمون في سعر الذهب ، فهو أكبر تجاره في مصر والمنطقة العربية كلها ومحلاته منتشرة في جميع أنحاء البلاد يديرها أقاربه في حين يتفرغ هو لتسويق النحاس القديم ومشغولات الذهب والانتيكات وكل ما هو نو طابع أثرى . المعلم عطاطس والحاج قدري والاصفراوي وحازم والمشعراني يعرفون أنني مجرد وسيط فوق العادة ، وأنا لبست الدور جيدا يا خال ، غلا

فصال معى ومن هذا انعدم الفصال من أساسه ، وكل كلمة أسمعها من واحد منهم لا أرد عليها في الحال ، بل أقول : سأكلم المعلم وأرد عليك و هذا الرد يقلق طالب الشراء فيتصور أنني سأتنصل من البيع فيعمل جهده لينهى البيعة على نحد يرضيني . وقد أبرمت اتفاقا مع الملكة أنها تعطيني القطعة بثمن معين نحدده معا ، وأبيعها أنا بالثمن الذي يروق لى ، وجيب بسبوسة هو المخزن الأمين القطع حتى تنتهى المساومات وإن استمرت أياما . ولما رأت الملكة أنني أعطيها أسعارا خيالية كشفت لى ما أذهلني يا بوى : لديها مخزن لا ينضب أبدا مدى الدهر من القطع الاثرية النادرة المتنوعة ، من قطع توضع في الجيب إلى قطع تحتاج للمدوزر يا بوى ، وحتى هذه لم نعدم وسيلة لتفكيكها ونقلها مع الحديد الخردة ... جاء ني بسبوسة ذات يوم يخبرني أن الراقصة الساكنة قبالتي تزوجت أحد شيوخ النفط فابتني لها قصرا في مصر الجديدة ، وترى الآن أن تفاوضني في

بيع الشقة لى . فاشتريتها فى المال ، وسويت الأمر نهائيا مع المعلم شندويلى بأن اشتريت العمارة كلها بثمن بخس . جهزت الشقة كمكتب لى ، ويواسطة بسبوسة تم تركيب خطين تليفونيين فى الشقة والمكتب ، وخط ثالث فى دارى

بالبلدة ..

محب للخير أيضا هذا الواد ، وحبه الشلة الوسخة أكبر من حبه لأى شئ أخر. طلبت منه أن يستثجر لنا شقة صغيرة في حي شعبى آمن نقضى فيها سهراتنا لزوم شرب الحجرين بعيدا عن الواغش على أن تكون لنا وحينا لا يدخلها مخلوق آخر . ففوجئت به يوم كلمته يصطحبني لمعاينتها . كان يعرف ما سئطلبه فيجهزه قبل أن أطلبه . قال لي ونحن نتفرج على الشقة إنني لا يجب أن أتخلى عن الشلة لأنها ستكون يدى اليمني في أي عمل أقوم به ، فإذا كان هو قد أصبح المدير التنفيذي لأعمالي فإن يريش في رأيه يستطيع أن يكون أكثر من

عشرين مديرا في مدير واحد: ينظم شئون الكتب ومواعيدي مع المسئواين ومواعيد الزوار معى ، يكون حلقة الوصل بيني وبين هؤلاء وأواثك ، يستمع إلى أصماب المشاكل والطلبات نيابة عنى . ثم نبهني إلى شي اطيف ، فثمة قرق كبير بين أن أطلب المسئولين بنفسي وأن يطلب ذلك موظف عندي يقول الطرف الآخر: حسن بك مع حضرتك حسن بك يطلب المقابلة ! حسن بك سيكون هنا الساعة كذا .. إلغ ، يستطيع أيضا أن يكون مديرا الدعاية ، يتصل بالصحف يبلغها ويرد عليها نيابة عني يجند المحررين الكتابة عن أعمالي الخيرية التي ليس من المهم أن أقوم بها فعلا . أما غزولي فالفوائد من ورائه لا تحصى ولا تعد ، ابتداء من المشاوير البسيطة إلى المهمات الثقيلة ، فهو متودك ، مدرب على المشي وجمع التحريات ، لديه خبرات كثيرة ، وحسن تصرف ، ولباقة ، وأمانة ، أما الواد

- دغلبتني يا بسبوسة ! وأظنكم جميعا مخاصون لي !!» تسم الوك بسمة متألم مندهش :

- «شف يا صاحبى! تحن عيال جدعان تساوى ثقلنا ذهبا! نحن الذين علمناك التفتيح والشغل المربح! عاشرتنا وعاشرناك على الطوة والمرة ولكن الله أعطاك وكبرت! هنيئا لك يا عم! مهمننا الآن تكبيرك أكثر وأكثر ففي تكبيرك مصلحة لنا! أنت الآن عضو في البرلمان تملك العصانة! ووقوفنا معك الآن لايزيد عن وقوفنا معا في أي عملية قمنا!! كنا نسرق ونهجم ونكسر الدكاكين ضامنين متضامنين لا أحد يفتن على الآخر وإلا فتن على نفسه! لا أحد يفون الآخر وإلا فتن على نفسه! لا أحد يفون الآخر وإلا خان نفسه! تحن الآن وقد غيرنا شكل النشاط وطرقه يصبح العمل هو هو! كل ما هناك أننا أصبحنا نملك الحصانة! اتسعت السكك أمامنا!! أنا وإخواني نعرف اهبة الحكم والسياسة في بلابنا: إنها أربح تجارة في مصر وسرقة نعرف اهبة الحكم والسياسة في بلابنا: إنها أربح تجارة في مصر وسرقة

مشروعة غير أنها تحتاج لكلام وشعارات ويعابات وأونطة زائدة ! كنا بالأمس لمترمنا متغارا يسرقون الأفراد في جنح الظلام سرقات متغيرة أما الأن فقد انضممنا إلى صف الكبار انسرق شعبا باكمله في وضح النهار تحت حماية قانونية ويموافقة المعتدى عليهم !! فإذا كنا لم نختك ونحن صغار في عمل غير شرعي فكيف يمكن أن تخونك وتحن كبار في عمل شرعي أنت رمزه ومدره ؟! لكنني أحب أن أخلص لك النصبح ولابد أن تسمعني وتعي الدرس الذي سأتوله لك جيداً! السياسة ضد الأمانة على خط مستقيم! ضد الشرف ضد الأخلاق ضد البادئ إنها تستخدم هذه الكلمات فحسب لتحكم باسمها ؛ يتذرع السياسي بالأمانة ليصنع ستاراً سميكا يخونها من ورائه !! يرفع راية الشرف لكي تظلله وهو يفقد الشرف في كل لحظة ! يتشدق بالأخلاق والمبادئ كحلة أنبقة يرتديها ليعوض بها غياب الأخلاق والميادئ من نفسه !! هم جميعا هكذا يا صباحيي والجو السياسي نفسه مويوء وأسال بريش يقول لك أسراره التي يعرفها جيداً! جراثيمه قوية لا تصمد أمامها أي مقاومة ! وإذا اتضح لها أن الشخص أمين حقا شريف حقا صاحب خلق ومبادئ حقا فإنها توقعه في مصيبة !! لابد أن يتكاتف عليه الجميع حتى يطعنوه في أمانته في شرقه في أخلاقه في مبادئه ! لأنه نشاذ ببنهم! مرفوض! في عالم السياسة با صباحتي لا مستقبل إلا لغير الأمن غير الشريف منعدم الأخلاق والمبادئ! عليك أن تضم هذه النصيحة حلقًا في أذنيك!! تذكره في كل أحظة في كل كلمة تقولها في كل فعل تفعله عند كل من ستتعامل معهم من الأعضاء والوزراء وغيرهم من أصحاب المناصب !! ولكن ! وأه من لكن هذه على رأى المكاتبين عليك أن تجيد الأونطة السياسية! أن تجيد الكلام في الأمانة والشرف والأخلاق والمبادئ ومصالح الجماهير وحماية تراب الوطن وقدسية الرأي العام إلخ إلخ ! تجيد هذا بقدر ما فيك من قدرة على التاون والتحول المفاجئ من النقيض إلى النقيض!! إدهن نفسك بالعسل! عليك أن تشعر كل واحد بأهمنته! تحدث مع الواحد منهم كانه سيد الكون!! إياك إياك أن تهاجم أحد الوزراء أن الكبراء هجوما عدرانيا يطعن في كفاحه أو في شرفه أو في وطنيته خاصة عند الاستجواب! إبدأ باستجوابك دائما بالاعتراف الوزير بكل الأقضال والمزاما فإن كان عندك اعتراض أو نقد فلتقيمه بصنعة لطافة وفي صيغة مدح على أساس أنه تكاملت أفضاله ولم بيق إلاًّ هذا الغيار القليل الذي يجِب أن ينفضه عن نفسه !! من ناحية أخرى فإنك إذا رأيت أحد الأعضاء يهاجم أحد الوزراء هجوما عنيفا غلا تأخذك الحماسة للمشي وراءه! كن أخر من يتكلم فأن تكلمت فكن محضير خير!! بهذا يحبك الجميم! أعود فأذكرك بأن جميع زملائك من الأعضاء وكذا الحكومة هم جميعا يلعبون نفس اللعبة كلهم يضع مصلحته الشخصية فوق كل اعتبار لكنه بختار بافطة يقف وراحها فلا تتحمق ولا تنفعل لأن المسألة كلها أهيف مما تتصور !! غيرك إذا انفعل على حس المسلحة العامة فاعلم أنه ينفعل بقدر ما بستفيد من وراء الإنفعال !! غدا تعرف قيمة هذه النصائح ! وعلى كل حال مادمنا معك أنا ويريش بالذات فسوف تعرف كل شئ يسهولة ! ورينا معنا جميعا !!»

ربك والحق يا خال ! إنفتح مخى على كلام الولد بسبوسة وشربته . لكن وبق الشيخة سعادة وما تمخض عنه من نبوء ات انتصب في دماغي واقفا ، وصبوت الشيخة يشيلني ويحطني ، فأشعر بوجع في عظامي ولحمى . شيئا فشيئا راح صبوت الشيخة سعادة يواجه صبوت بسبوسة كل منهما يحاول أن يعلو فوق الآخر ليسكته ، إلا أن صبوت بسبوسة كان هو الأعلى يا خال ، ويظهر أنه كان مسنودا على شي في داخلي يؤيده ، نعم ياخال ، وكان لهذا الصبوت منطقه : هذه فرصتك ياولد أبي ضب ان تتكرر بسبهولة إلا كل دهر ، إنهما مئل اختتاق القصر

وكسوف الشعس وأو أنك ضيعتها فننبك على جنبك ، لابد أن تخرج من هذه الفرصة أغنى من المعلم عطاطس ومن الدولة نفسها . توجست من الشيطان الشاطر .. يا خال ، خفت أن يحبكها معى فأضيع في الكازوزة . لست أقصد الشيطان الشاطر الذي يحرضنا في العادة على الفسق ، إنما قصدت الشيطان الأشطر الذي يحرضنا على الصلاح في زمن كله فسق وفجور وظلم وقهر واستبداد . لو كنا في زمن مبدؤه الصلاح والتقوى لكنه معطوب في بعض البقع واستبداد . لو كنا في زمن مبدؤه الصلاح والتقوى لكنه معطوب في بعض البقع لاستطعت أن أقاوم الشيطان الذي يحرض على الفسق . أما في زماننا هذا فإنني يجب أن أقاوم الشيطان الذي قد يغريني بالمسلاح يحرضني علي الإلتزام بالأمانة والشرف والأخلاق والمبادئ وسط قوم لايعترفون بشي من هذا كما قال بسبوسة صادقا . وجدتني أقول له وأنا في غاية الألم :

- «لكتنى يا بسبوسة أحب أن أخدم أهل دائرتى النين وثقوا في وانتخبوني نون غيري من الكبراء !!»

مُنحك يسبوسة:

- والشعب المسرى لا تهمه هذه المسائل!! إنه لم يكتب معك عقدا يحاسبك به في المحكمة !! إنه ينتخب المجاملة أو من الخوف! وتنتهى علاقة الناخبين بالنائب بعد نجاحه !! لم يحدث أن دائرة حاسبت نائبها في نهاية الدورة ! لم نسمع عن ذلك طول عمرنا ! بل أنهم ينتخبونه هو نفسه في دورة جديدة رغم أنه ربما يكون اشتغل ضدهم طوال الدورة السابقة !! شعبنا يا صاحبي طيب وفي حاله ولايهمه من الذي يحكمه لأنه في التهاية يقعل ما يشاء والحكومة هي الأخرى تقعل ما تريد!! في مصر من يركب لا ينزل أبدا إلا إذا مات هو أو نقق البعير من تحته ! تريد!! في عمره لم ينجح في إسقاط أحد عن عرشه !! ثم تعال هنا : الناس انتخبوك في أخر لحظة خوفا وظنا بأن الثورة تؤيدك وتقف وراك! اللجان هي انتخبوك في أخر لحظة خوفا وظنا بأن الثورة تؤيدك وتقف وراك! اللجان هي

التي انتخبتك !! هي صحيح لعبة عبال ومبيقة جاء ت مع العمي طبات وأكن النتيجة أنت حصدتها !! ولعلمك فإن المسائب الكبيرة والأحداث الجليلة تحدث في بلاينا بسبب أمثال هؤلاء العيال الذين لهم أقارب من الحكام !! وعلى كل حال يا صاحبي قلن بمنعك أحد من خدمة أهل الدائرة ! ولكن بصنعة لطاقة ! عن طريق الالتماس المهذب! وبالأجر فثق أن أحدا ان يخدمك أو يخدم أحدا من طرفك إلا بالأجر ! بالفلوس أو بالمُعمة مقابل مُعمة ! وهنا يجِب أن أقدم لك النصيحة أيضًا: لا تقيم خيمة بالجان مهما كانت لا تكلفك شيئًا !! فمجانبة الخيمة تقلل من قيمتها في نظر المخدوم!! تنقاب الآية هنا يا صاحبي! فحيث كل الناس يخلصون أمورهم بالأجر فالا مصداقية ولا شكر لن يخلص بالمجان!! يغان المخدوم أنها كانت سهلة عليك فلا يكون للخدمة أي أثر في نفسه !! إن المخدوم في بلادنا أصبح لا يشعر بطعم الخدمة أو لنتها أو أهميتها إلا إذا اكتوى بنارها ودفع ثمنها غاليا!! قرأت مرة عن شاعر يدعى إبراهيم ناجى مؤلف أغنية الأطلال لأم كلثوم لابد أنك سمعت اسمه ! هو في الأصل طبيب ذهب إليه أحد الفقراء ليكشف عليه في عيادته في شيرا! فكشف الرجل عليه فوجده مصابا بالأنيميا يعني سوء التغذية فشعر يفقر الرجل واحتياجه فلم يثغذ منه أجرا على الكشف بل أعطاه جنيها كاملا من جبيّه مع روشتة كتبها له بيعض القبتامينات المقوبات وقال له : خدّ هذا الجنيه إمسرف به هذه الروشتة وتعال بعد أسبوع لأكشف عليك ثَانية ! فمضى الرجل الغابان ثم جامه بعد أسبوع وكان مهزولا ! فقال له ناجى : ألم تصرف الروشتة ؟ قال : لا ! قال : أعطيتك جنيها لتصرفها به فلماذا لم تَفْعَل؟! قَالَ الرجل بسلامة ثية : ذهبت بالجنيه إلى طبيب آخر جيد !! فتصور ياصاحبي! الرجل الغلبان فقد الثَّقة في الطبيب لأنه تنازل عن أجره وساعده!! هذا هو الشعب المصرى يا صباحتي مع الأسف الشديد : تضريه وتأخذ كراء

يديك ومن يحاول خدمته بالمبادئ والأخلاق والضمير قام في وجهه الفسقة الفجرة وألبوا الشعب المسكين الجاهل ضده فيضريه !!»

الولد لغيط غزلى يا بوى ، طمس صدوت الشيخة سعادة تماما قبدت لى إنسانة طيبة القلب سانجة . لكنى يا بوى سرعان ما قطنت إلى أنها لم تكن تقدم النسيحة بقدر ما كانت تقدم النبوءة لينتفع بها من يشاء . الواقع يا خال أنني مدرت محيرا في أمر الشيخة سعادة ، فأنا على ثقة أنها تحب الوطن والعدل والإنصاف بقدر ما فى نفسها من ورع وتقوى ، فكيف بها هى نفسها تقبل المتاجرة في الأثار ، وتأوى في مملكتها سفاحين وقتلة ومدمنى إجرام ؟! إلا أن صوتا كمس الشيخة سعادة نفسه سرعان ما رد على بكلمات من كلام بسبوسة! إنها فعلا تعيل إلى فعل الخير وتتمنى أن يكون كل شئ على ما يرام لكنها لا تسطيع إلا أن تعامل المجتمع بنفس العملة الرائجة فيه وإلا أصابها العطب والواريا خال ..

موجز القول يابوى أنني نويت أن أوفق بيت صنوتين يزعقان في صنري بقوة : صنوت الشيخة سمادة وصنوت بسبوسة ؛ أن أخدم ما استطعت ، وأن أكسب ود الحكومة منا استطعت ؛ بشرط أن يؤدي هذان السبيلان إلى تكبير مصنالعي ووضعها فوق كل اعتبار .

تسسص

بلدياتى فى القاهرة كثيرون جدا يابوى ، أكثر من عدد التراب فى جميع أحياء القاهرة الفقيرة والفنية على السواء ، بل أكثر من عدد البعوض الذى يملأ ليل الصعيد . فنحن فى الصعيد لا يبارينا في التكاثر سوى مثل هذه الكائنات السريعة الانتشار . وليس فى الصعيد يابوى سوى فقر أو غنى ، ليس ثمة من وسط ياخال ، أنت إما فقير أو غنى . متى ما كبر الولد شد الرحال إلي القاهرة أو الإسكندرية أو أى بلد بعيد ، هذا وإلا فماله الجبل فى نهاية الطراد . ما من بائع سريع يحمل أثواب القماش على ظهره والمتر في يده يجوب بلدان الوجه البعرى إلا وكان صعيديا بارز الصعيدية . ما من عامل من فواعلية البناء الذين أقاموا كل عمائر البلاد إلا وكان صعيديا صرفا ، لا تنى أصواتهم الأسيانة أقاموا كل عمائر البلاد إلا وكان صعيديا صرفا ، لا تنى أصواتهم الأسيانة الشقيانة الزعلانة تن في سمع البلاد كلها أبد الدهر رنينها العذب الشيائة الشيدى : يا وابور الساعة انتشر يا مقبل ع الصعيد ، يا بهية وخبرينى ع اللى الأبدى : يا وابور الساعة انتشر يا مقبل ع الصعيد ، يا بهية وخبرينى ع اللى

آه يا خال مما يصيبنى كلما استمعت إلي هذه الأغنيات ، ينوب قلبى عشقا الصعيدى والمعميد . سمعت بعض التلاميذ وهم يذاكرون ويقولون إن رجلا يونانيا قديما اسمه لا أدرى ماذا .. قال إن مصر هبة النيل .. رأيى يا خال أنه رجل حمار لا يفهم حقيقة الأمر ، خواجة لف مصر لفتين وراح يفتى في بلده عن مصر ، وما هكذا الأمر يا خال ، مصر هبة الصعيدى ، اللهم إلا أن يكون هذا الخواجة يقصد القول بأن النيل صعيدى وهنا يجب أن أصدقه . ها نحن منجعصون متكثون على الأرائك في شرفة قصرى في حضن القطم لا نحمل

للدنيا هما طائلا يقف صعيدى بعربة الغضار تحت باب القصر ، وصعيدى آخر بمربة الفول ، وصعيدى رابع يكنس بمربة النبيب البوتاجاز وصعيدى رابع يكنس الشوارع ، وصعيدى خامس بعد قضيان السكك الحديدية ، يسوق شاحنات النقل، يسهر في قصر رئاسة الجمهورية يحكم مصر والعرب بهز طرابيش العالم أجمة ، فما الذي ننتظر من الصعيدى بعد كل هذا يا بوى ؟! ..

جميع باعة السمك في جميع أنحاء القاهرة يا بوي هم من بلدياتي كما قلت لك من قبل ، من بلدة (كوم اسفحت) المجاورة لبلانتنا ، من متعهد لشيال لبائع سريح. ان قابلك أي سماك في القاهرة فاعرف أنه من كوم اسفحت . أما ولا بلاتي نفسها والنجوع المتاخمة لها فما أكثرهم في سوق الخضار وفي شوارع القاهرة وكل حواريها وفي جبل المقطم يفتتون صخوره بالديناميت يحواونها إلى ثريد . كل هؤلاء وأوائك يا يوى بلزمهم مأوى ، فالقادرون منهم قلة ، معظمهم لا يأبه بالمنظر، ينام في أي مكان ، تحت أي عسراء ، يأكل أي أكل ، يلبس أي لبس ، المهم أن يشتغل والسلام يا بوي ، فيهم جرأة كبيرة ويساطة ، وميل إلى التعشيش ، بنفس طویل جدا یا بوی ، یختار الواحد منهم أی ناصیة أی رکن أی عطفة ، یفرش عليها أقفاص الفاكهة في شكل بسر الناظرين ، يشغل الكلوبات في الليل يؤنس وحشة المواري والأماكن القطوعة ، ينصب خيمة في أي أرض خلاء شرط أن تكون مملوكة للحكومة . في تسعة وتسعين في المائة من هذه الصالات يا بوي ستمر الأيام ويصبح شاغل المكان صاحبه ومالكه . بغلوسه من عرق جبينه يشتريه من تحويشة المليم فوق المليم بصبر أيوب . ما من معاحب محل كشرى أن فول كبير في البلد إلا وكان صعيديا يقف بعربة يد بجوار هذا المحل أو في قلبه ، هي الوقفة يا يوي لا يتحول عنها ، عشر سنوات عشرون ، مائة ، المم لابد أن يجئ اليوم الذي يشتري فيه هذا المكان أو يستولي عليه ..

بلدياتي هؤلاء بابوي كان منهم عدد كبير شغله قريب من المقطم ، لاحظوا مفطرتهم أن الجبل كله فضاء بحتاج لتعمير سفوح تمتد هابطة قليلا لتلتحم بمنصراء المناليك المتاذعة لعن العراسة . منعي على بلعياتي أن يروا هذه المساحات الهائلة تصفر فيها الريم وهم بلا مأرى . هم يدركون أن الطريق إلى مكاتب الحكومة مفروشة بالذل والهوان أو بالمال المسفوح ، ومن لديه المال يضن به على صنف الحكومة ، جنس الحكومة ، في نفس الوقت لا يحتمل الذل والهوان من موظف ، ولا يثق حتى في أي قاض يعوج الطربوش على ناحية ويحكم بأربع سنين في قضايا الدم . وما الداعي لأن يتطوع الصعيدي بنفسه لينبه الحكومة إلى شيرٌ ينتويه . إنه إذا أراد شيئًا فعله في الحال وليحلها بعد ذلك الحالُّال ، ثم إن احتياجه للشئ لا يعطيه فرصة لأن يأخذ الإذن من أحد .. وهكذا يابوي هجموا على فضاء المقطم . منهم من اختار رقعة فسيحة في أحد سفوح الجبل أو متحراء الماليك فحوط عليها يعيدان العطب والبوص والقش وأقام في وسطها كوخا يأوى تحت سقفه ، ومنهم من كان قادرا فابتنى حجرة بالطوب وحوط على الباقي بسور يحتاط مساحة تكفي لبيت صعيدي كبير . لاشئ أسرع من التقليد في بلادنا المسرية يا يوي ، الناس كلهم كحيتة متشربون بصاصون ، ما أن يري الواحد منهم مشروعا ناجحا حتى يأخذ نفس الفكرة وينفذها بحذافيرها ، ريما بجوار صاحبها الأملي بقفا غليظ ووجه كالح ، ذريعته في ذلك أن الله مقسم الأرزاق ولابد أن يرسل لكل واحد رزقه ، وهكذا رأى بقية الصعايدة من بلدياتي إخوانهم قد غنموا هذه القطع من الأرض البراح التي لا صباحب لها ينازعهم فيها، فتواتروا جميعا على سفوح المقطم ومنصراء الماليك ، كل مسب قوته وعزوته واجتهاده وجرأته وذكائه وخبرته ، منهم من حوط على قدان وبناه فعلا ، ومن حوط على ثلاثة أقدنة بنا يعضها وزرع البعض الآخر حديقة . هم يدركون أن

الأرض ملك الحكومة ، وفي اعتقادهم أن يوم الحكومة بعام كامل ، فإلى أن تنتبه الحكومة وتطالبهم بالجلاء وينازعونها وتنازعهم يكون قد حلها الحلال الذي لا يغفل ولا ينام ، يكون الظرف قد تغير وتوافرت الفلوس والإمكانيات المسلومة الحكومة . هم أيضا أنكياء يابوي نكاء حيوانات المسحراء الماكرة القادرة على التنكر والزوغان والهروب في عراء الرمال . لقد فهموا من مجريات الأمور أن البلاد فيها أرمة مساكن تعترف بها الحكومة وتعلن عجزها التام عن حلها ومن ثم فإنها نتغاضى عن ناس حلوا مشكلتهم بأنفسهم وبنوا الأنفسهم في أرض حكومية كان من المفروض أن تبنيها الحكومة لهم ، يعنى لابد أن الأمر سيكون في صالحهم في النهاية يابوي ..

وقد كان يا بوى . اكتسبوا بطول البقاء شرعية البقاء كأمر واقع منذ سنوات طويلة ، فمن يلقى نظرة على هذه الأعشاش يدرك لأول وهلة أن الحياة قائمة هاهنا منذ وقت طويل مضى ، بهذا تشهد الأرض التى رطبتها المياه المتدفقة باستمرار فاختفت بصمة الصحراء ، ويهذا تشهد هذه الأكشاك والدكاكين التي تبيع البقالة والخضراوات والسجائر والطوى واللحوم ، وحلاقين وسمكرية وميكانيكية ونجارون وسباكون وقطع غيار سيارات ، كذلك تشهد هذه الهوائيات القائمة فوق الأعشاش وقد علاها الصدأ والتراب ، وهذه الأشجار الوارفة ونباتات الخروع وأشجار المؤر والأسوار المخضوضرة ..

إلى أن شرعت الحكومة في تخطيط مدينة نصد في الطرف القصى من مصحراء الماليك . وبدأ المقاولون في البناء لحساب الأهالي العائدين من ليبيا والعراق والكويت ولصوص القطاع العام وتجار المخدرات وكبار التجار الذين أثروا على حساب أقوات الشعب . الحكومة شجعت على البناء و سهلت أموره ، وفرت حديد التسليح والأسمنت بأسعار رخيصة ، حتى الأرض باعتها لهم بسعر

تكلفة المرافق تقريبا وبالتقسيط المريح . في المقابل يابوي كانت هناك صفوف من عرسان وعرايس واقفين بالرصاد يتسقطون أخبار أي بناء ، فبنت لهم الحكومة بعض المساكن الشعبية . فلما فرغت أراضي التخطيط الرسمي تكالب الأهالي على الأراضي المحاورة ، حيث التحويطات الكثيرة بوضع اليد مبارت في حكم الملكية الشخصية . قامت سوق جديدة فريدة : واضعو أيديهم على الأرض يبيعون قطعا منها لملاك جدد بأسعار باهظة . العجيب يابوي أن واضع اليد البائع يستطيع في النهاية - بلفة طويلة معقدة في تواوين الحكومة - أن يسجل المشترى . إلى أن فرغت هذه المساحات بدورها فبدأت الأنظار تتجه إلى سفوح الجبل في مواجهة قرافة المجاورين ، حيث أفقر الفقراء من واضعى اليد الذين رغم طول مدة وضم اليد لم يستطيعوا إقامة بنيان واحد ، والأكادة يابوي أن الحكومة التي صهيئت على الحيتان الكبيرة في صحراء الماليك وطرمخت على كل المَمْالقات لم تتشطر إلا على هؤلاء ، طبعا ياخال ، لأنهم أفقر من أن يساوموا . وبدأ شبح البلدون يطل عليهم في الظهيرة يابوي ، فألقوا بأنفسهم في طريقه تحت عبجلاته بكل جسبارة . داس البلدوزر من داسه يابوي ، ولكن سيل الدم أعجزه عن المواصلة فتوقف ريثما يتشرب أنفاسه وتتشرب الأرض دم الجروجين التعساء . وهنا يابري تذكروا فجأة ، أو ربما جاهم الأخبار مؤخرا ، أن حسن ولد أبوضي ، بلدياتهم ، الذي طالما اشتغل معهم في تفتيت الجبل بالديناميت وحمل جنبة السمك على رأسه في الأسواق ، قد أمسيح بقدرة قادر عضوا في مجلس الأمة ، ويستطيع نقل استغاثتهم إلى سمع الحكومة ..

فجاة رأيت المعلم شندويلى يصعد إلي مكتبى ، كالنبى موسى عليه السلام يجر خلفه رهطا من بنى إسرائيل المطاريد . بتأثر شديد ، وعبر انفعالات هتماء مليثة بالحروف المكتومة الصافرة ، حكى لى المعلم شندويلى قصة شعبه المختار ،

وما نالهم من آلام وخمائر فانحة ، صار يربد بصوت يكاد يكون باكيا - وكأتنى المسئول عما حاق بهم يا خال:

- «يروحوا فين دول؟! بنى اسرائيل دول اللى تايهين في صحراء الماليك وجبل المقطم أكثر من أربعين سنة ؟! بقى يعنى الحكومة لامنها ولا كفاية شرها ؟! خلاص! تدور لهم على متوى يلمهم! ولا يعنى خلاص ما عادش لهم لازمة في البد ؟! والله الصعايدة لو روحوا بلادهم القاهرة تنتن وماتلاقى لقمة تاكلها! طب أهم بكره يرحلوا على الخليج يعمروه ونبقي ندور على نفر بطلوع الروح ما نلاقيهش!!

جريت إلى سيارتى الشيفروليه السوداء ذات الستائر الحاجبة ، بسبوسة بجوارى ، وهندى خلقى مباشرة باعتباره حارسى الخاص حامل السدس ، ناهيك عن مسدسى المرخص باسمى والنائم دوما تحت ابطى ، بجوار هندى كل من بريش وغزولى . ومن خلفتا المعلم شندويلى بسيارته المرسيدس العتيقة المجنحة ملائة بالخلق من بلدياتى ، ومن خلفه سياة أجرة تحمل الباقين ..

نهبنا من فورنا إلى ذلك الخلاء الرابض فى سفح الجبل ، حيث تكون القلعة على الجانب الآخر من الطريق ، ومن بعدها حوش العائلة الخديوية الشبيه بقصر من القصور الملكية بحديقته الكبيرة الزاهرة . أمام حوش العائلة الخديوية صغوف من المقابر الخاصة بعائلات أخري كبيرة ، بعضها داخل أحواش وبعضها في العراء – مكانها الآن طريق الأوتوستراد وهو وحده قصة سأحكيها فيما بعد – أمام هذه الصفوف من المقابر توجد قضبان فى سكة حديدية خاصة بالقطار الحربي المتضمص في نقل الأسلحة والذخيرة بجميع أنواعها من حلوان إلي معسكرات العباسية . هو طريق موحش يا بوى ، لكن بعض سكان حى قايتباى معسكرات العباسية . هو طريق موحش يا بوى ، لكن بعض سكان حى قايتباى الذي يخدم هذه المقابر ويعيش عليها تخصصوا فى التربص بهذا القطار الحربي

من أيام الجيش الإنجليزى ، فنظرا لأنه يمشى ببطء شديد خاصة وهو يجتاز هذه المنطقة فإن مجموعة من الولاد المخريشين يريضون تحت الجسر ثم يقفزون إلى العربات ، ليدحرجوا الأسلحة وصناديق النخيرة وشكائر المؤن والتموين ، فتتساقط على الأرض ، حيث تكون بقية أفراد العصابة قد لاحقوا الجسر لتجميع ما ألقى لهم ..

وكنت أعلم منذ مدة أن نفرا من بلدياتي الذين استواوا على رقع في هذا المكان الموحش البعيد وجوطوا عليها يتخذون من أكواخهم هذه مرابض ومحطات ومخازن لهذه العصابات ، إذ يبادر الواحد من أفراد العصابة بتسريب المسروقات إلي كوخ من هذه الأكواخ بسرعة هائلة ليمشى بعد ذلك بأعصاب مطمئنة يترقب من قد يستوقفه أو يشتبه فيه ، قل إن هذه المسروقات مألها كلها في النهاية لمن قاموا باخفائها من بلدياتي . فحينما يقفل الأولاد عائدين ، يتجمعون في كوخ من أخفوا عنده هذه المسروقات ، حيث يساومهم علي شرائها ، هو وشطارته ، وغالبا هو الكسبان يابوي ، يتخذها بتراب الفلوس ، يبيعها بأغلي الأثمان الصعايدة المقتدرين في القاهرة ، أو يصدرها للصعيد الذي لا يشبع من السلاح ، سيما وأن معلمي شادر السمك الذين يقعون في ضديات مستمرة يعلنون الحرب على بغضهم البعض دائما أبدا ، ولكن بون أن يظهروا في الميدان ، إنهم يكتفون بشراء الأسلحة والنخيرة وتكديسها تحت أيدي صبيانهم ورجالهم هنا أو في بشراء الأسلحة والنخيرة وتكديسها تحت أيدي صبيانهم ورجالهم هنا أو في يمون منهم فالمعام يتكفل بعياله ، أو يسجن فالمعلم متكفل به على أكمل وجه ..

کنت أعرف هذا يا بوى بل کنت فى يوم من الأيام ضمن من يفعلون هذا .
المهم يا بوى ، أوقفنا السيارات ومشينا على أقدامنا بين برك ودروب ملتوية .
المكان موهش جدا ولكنه جميل يابوى : مجموعة أكواخ متناثرة ، بين الكوخ

والآخر مسافة يقطعها السائر في مشوار سخن ، وبين التحويطة والآخرى مرتفعات وصخور وأتربة وقمامة ، ولكن كل كوخ وكل تحويطة تنبع منه وتحوطها أشجار وارفة وتكعيبات عنب ، فوجئنا بسيارات ملاكي فخيمة راكنة بحذاء بعض الأكواخ فعجبنا كيف بخلت إلي هنا ، رائحة احتراق الحشيش تملأ أنوفنا تستدرجنا للنشوة . حقا يا خال إنه لمنتجع عظيم ، فأصحاب هذه السيارات الفخيمة ناس من علية القوم من كبار الفنانين وكبار الموظفين والرأسماليين ، جاوا إلى هنا لتدخين الحشيش في أمان الله بعيدا عن بوشة القاهرة اللعينة . جاوا إلى هنا لتدخين الحشيش في أمان الله بعيدا عن بوشة القاهرة اللعينة . شمة موسيقي شجية يصحبها غناء أجش لكنه مستساغ ومؤثر . قال واحد ممن يسيرون معنا إن أحد أشهر كبار اللحنين زبون يومي دائم عند صاحب هذا الكرخ ، يحشش ويلحن ، فقررت يابوي أن أتخذ لي أنا الآخر منتجعا ها هنا التكرغ ، يحشش ويلحن ، فقررت يابوي أن أتخذ لي أنا الآخر منتجعا ها هنا التداء من اليوم ..

تجولنا في المنطقة من أقصاها إلى أقصاها ، عاينتها جيدا يابوى ، تقابلت مع الكثيرين القاطنين فيها ، استمعت إلي المشكلة من جميع أهلها وكيف أنه قد بات من المستحيل عليهم افتلاع جنورهم من هذا المكان . أكملنا الحديث في قعدة اللمن نفسها ، فتعرف علينا وتعرفنا عليه ، كان ضريرا ، وله ألحان كثيرة تذاع في الإذاعة ، واسمه سيد أبو العرب ، في هذه القعدة استراحت أعصابي يابوى ، هفه فت روحي مع النسيم العليل والهواء النقى . حقا يا خال ، أولاد الفرطوس بلدياتي وضعوا أيديهم على أصح وأجمل مكان في القاهرة كلها ، قديما حظى الموتي بحي يرم عظامهم ، والآن يحظى به بلدياتي بالمجان ، فليكن من نصيبهم إن شاء الله ..

الولد بسبوسة استأذن وقام بعد حجرين ، قال إنه سيلف لفة ويعود . وبعد أن خطأ خطوتين أشار إلى غزولي أن يتبعه ، فتبعه . القعدة احلوت يابوى ، وسيد أبن العرب صنوبة فاتن ، وعوده أفتن ، والجن أكثر فتنة ، أما الحشيشة فعلى الكيف البريمو . بعد حوالي نصف ساعة عاد بسبوسة وغزولي وقد ظهر علي وجهيهما تعبير شبطاني وجد بينهما . فملت على يسبوسة هامسا :

- هما الأمر يا ولد القرطوس ؟!»

قال منتسما في انتصار شيطاني :

- وسأقول لك بعد قليل !!»

ثم بدأت ألاحظ أنه يتململ ، ويتعجل انصرافنا قبل انصراف ضوء النهار . عند خروجنا اقتادني نحو أصاق بعيدة على أرض منبسطة مستوية ، يبدو الجبل في نهايتها كحائط بارتفاع ناطحة سحاب ، وعرض شارع بأكمله . أشار بذراعيه حوانا قائلا :

- ممارأيك في هذا المكان ؟!ه
 - ~ «ساحر يا يو العم اه

بغمزة من عشه أشاف :

- «تخیل هذا صفا من العمائر الكبیرة على نظام قیلات فوق بعضها ؛ أو
 قیلات متجاورة بحدائق ! شف ماذا یمكن أن یدفم فیها !!»

أصابتني الغمزة في الصميم يابوي :

- «كم تبلغ هذه الساحة في نظرك يا يسبوسة ؟!»
 - محرالي سبعة أقدنة !!ه
- ديابو .. و .. ي ! تصلح منطقة سكنية كاملة !!ه
- «إسكان فاخر على شرط! قرية سياحية! مدينة ملاهى مثلا! مشروع العمر يا حسن بك!!»

لعبت محسن بك، هذه بأعصابي لعبا حلو الذاق والله يا بوي . ومع أني

شعرت أن بسبوسة يقصد بها بث الحماس في نفسى وإشعارى بأتنى أو نفذت هذا المشروع فإن البكوية تليق بعقامى ، فإنني رغم ذلك أحببت اللقب وتمنيته بل اعتبرته فألا حسنا يا بوى ، إن اسمى نفسه حسن ، فلقب البكوية وإن ألفته حكومة الثورة لم ينقرض ، ويظهر أنه بات قريبا من اسمى يابوى . وهكذا رسمت الجدية على وجهى ، تقمصنتنى روح البكوية الحقة ، فأشرت لبسبوسة في أمر حاسم :

- دمن غد يابسبوسة تبعث بالرجال لتحويط هذه المساحة كلها بالأسلاك الشائكة ! ويستحسن أن تقوم ببناء حجرتين ثلاثة لخفير ينام فيها لحراستها ! والخفير نفسه يقوم بزراعة السور كله ساير داير باقرع الفل والياسمين وشجر الموز والخروع ! حتى أو اقتضى الأمر أن نرسل لها سيارة بفنطاس الماء كل يوم إلى أن يكرمنا الله ونتمكن من إدخال المياه والنور في هذه المنطقة كلها !!»

هز بسبوسة رأسه في اقتناع تام ، بثقة من كان متأكدا من نجاحه في إغرائي بوضع اليد على هذه الساحة اللقطة ، ثم استدرك بلهجة ذات معنى :

 - «هذا رزق جاءنا لحد عندنا ! وما يجرى علي غيرنا يجرى علينا ! أن نكون الفاسرين على كل حال !»

إنشد عقلى ياخال ، انشغات في التفكير ، رحت أتصور منظر مدينة على الطراز الحديث يؤمها السياح والرواد من علية القوم الأثرياء ، ونهر الفلوس الذي يمكن أن يتدفق على وعلى أولادي وذريتي . ويظهر ياخال أن الملعون بسبوسة قرأ أفكاري ، فأضاف بلهجة من يضع شرطة اعتراضية :

- «لابد أن يكون لنا من الحب جانب خل بالك! نحن طبعا رجالك! تكون لنا مساكن في هذه المدينة! وعلي كل حال تاهت ولقيناها يا حسن بك! لماذا نكلفك؟! أنا وزملائي من الشلة الوسخة كل واحد يحوط له على مساحة معقولة من هذه

القدادين التى بلا صاحب! مثلنا مثل أى واحد من هؤلاء! نحن لسنا أقل منهم في شئ! نحن النين بدعنا الفتاكة والفهاوة والضجك على الحكومة!! أنت تحوط على هذه السبعة الأقدنة! وأنا ستكتفى بهذه المساحة التي ستفصل بينك وبين العشش! وأما غزولى ويريش وهندى والمعلم شندويلى أو أراد فكل منهم أمامه البراح كل واحد يحوط على المساحة التي يرى أنه قادر على الانتفاع بها !!»

قلت برشياء تام :

- «عداك العيب يا بسبوسة ! وماله ! ربنا معنا ! من يدرى ؟ ربما أكرمنا الله وأصدحت ملكنا فعلا !!»

- «هي خلاص أصبحت ملكنا من الآن !!»

هكذا قال بريش بكل ثقة ، فنظرنا جميعا إليه في إعجاب كأنه قد منحنا صك الملكية بالفعل يا خال ، وضوعفت حماستي بصورة غير طبيعية ، فشوحت بعصبية:

- «اللهم التنفيذ فورا يا يسبوسة !!»

شوح بسبوسة مؤكدا:

- «من صبيحة ربنا سيجئ الأنفار بالأسلاك الشائكة والطوب والشتلات! دع الأمر لي! اعتبره قد حصل!!ه

ابن الفرطوس نفذ كلامه بالفعل يابوى من اليوم التالي . فبعد حوالى ثلاثة أيام لا أكثر فوجئت به يقدم لى فاتورة الحساب . كانت كبيرة على عكس ما توقعت ، لكننى سرعان ما فطنت إلى أنه قد حملنى تكاليف العملية كلها : مساحتى ومساحاتهم ، ويدلا من عشرة أنفار اكترى ثلاثين لكى تنتهى العملية فى مساحتى ومساحاتهم ، ويدلا من عشرة أنفار اكترى ثلاثين لكى تنتهى العملية فى زمن قليل وتصبح أمراً واقعا ، قلت لا بأس فهم رجالى واليد الواحدة لا تصفق . فهرت في مشوار سريع خاطف للمعاينة ولتعيين خفير من بلدياتى إختاره المعلم

شندويلى على ضمانته ، ثم عدت فى ذلك اليوم فرحا إلي الشقة التى استأجرها لنا بسبوسة فى حى المنيل في مواجهة بر الجيزة لنشوف مزاجنا فيها ، وكان مقررا أن نستمع في تلك الليلة إلي نص الاستجواب الذى كلفت بريش بكتابته لكى أحفظه جيدا وألقيه فى البرلمان بين يدى الوزير المختص ومحافظ القاهرة ، والواقع أننى لم أكلف بريش ، بل لم يخطر هذا على بالى يا بوى ، إنما خطر على باله هو ، إذ رأيته فجأة يسائنى فى اهتمام شديد :

- مهل حضرت الكلام الذي ستقوله في حضرة الوزير ؟ هل عرفت أولا معنى الاستجواب ؟! معناه أن تعرض أمام الوزير الممتص وزملائك الأعضاء مشكلة كبيرة تخص أهل دائرتك أو أي فئة من الشعب ! ثم تطلب من الوزير إيضاحات حولها!! فإذا اقنعك بالوثائق والأرقام والبيانات المنحيحة أن موقف حكومته سليم وأنها غير مقصرة وغير متراخية في أداء واجبها بالنسبة لهذه الشكلة بالذات! كان بها فتشكره وتعتذر له!! وإذا لم يقنعك فإنك تحاول إقناعه وإقناع البرلمان بسلامة طلبك ويضرورة أن تتخذ الحكومة فيه موقفا إيجابيا يعني تبدأ في حل الشكلة بالفعل !! وهذا بالطبع يتوقف على مدى استيعابك لحقيقة المشكلة والمامك بكل تفاصيلها الواقعية فلريما استطعت أن تثبت كذب الوزير في بياناته!! أنت وشطارتك وقدرتك على الكلام والتسأثيس ! ولكن ! دعني أكستب لك هذا الإستجواب! سأعرض المشكلة جيدا من ناحية! ومن ناحية أخرى سأضع مجموعة من الأسئلة المحرجة لأحاصر بها الوزير حتى يعترف بحقيقة موقف الحكومة من مسألة كهذه تهم عشرات المئات من الأيدى العاملة التي لاغني للقاهرة عنها وفي نفس الوقت لا يمكن ترجيلها إلى بلادها بعد أن استوطنت هنا عمرا طويلا !! المهم الآن يا حلو أن تفتح محك معي ! تصحو ! تحفظ الكلام جيدا! صحيح أنك ستقرأ من الورق ولكن يجب أن تتدرب جيدا على النطق السليم للكلمات القنية ؛ سيادريك في يومين انتين قلا تحمل هما !!ه

عندما بدأ بريش يقرأ علينا نص الإستجواب يا بوى تيقنت فى هذه اللحظة فحسب أننى بالفعل فى البرلمان . هذا البريش المتشرد المخريشاتى مخزن ثقافة يا بوى ، ولا أدرى كيف يكون هكذا ويتشرد ؟! يملك كل هذه المعارف والمعلومات ويشتغل لمما نتنا بدل أن يكون لما محترما . وكنت أظن أن حرصه على قراحة المبرائد والمجلات كلها هو الذى علمه السياسة ، فإذا هو يخبرنى أن فهمه فى المبرائد والمجلات كلها هو الذى علمه السياسة ، فإذا هو يخبرنى أن فهمه فى سياسة حقيقية وساسة حقيقين وصحف حقيقية لا نشرات إخبارية حكومية . لقد تعلم السياسة في الشارع وعلى المقاهى وفي البيت لأن جميع الناس كانوا أنذاك يشفلون أنفسهم بالسياسة . وليست الصحف هى كل ما يقرأ بريش ، إنما هو لا ينام مطلقا إلا بعد أن يقرأ في السرير ساعتين أو ثلاثة في كتاب يشتريه أو يستنجره أو يستنجره أو يستنجره ونستنير مخى الصعيدى الصرف ما دمت ساشتغل بالسياسة كما نصحني هو نفسه ...

كلام كبيريا بوى ، لا تقل لى مرافعات المصامين فى محاكم الجنايات فى الأفلام ، لا ولا خطب عبدالتاصر نفسه . كلام يهز يابوى ، وفيه معلومات وأرقام وبيانات أتى بها الخريوش من جهات متعددة لم أكن سمعت بوجودها من قبل ولا أعرف طبيعة عملها . صور من الواقع ، مقارنات بين المحظوظين والتعساء كيف معش هؤلاء وهؤلاء .. إلخ .. إلخ .. صاح غزولى منبهرا :

- ديا ابن الكا .. ا .. اب .. ! كلام عتبق لم نسمعه من أيام سعد زغلول ومصطفى النحاس !!»

وقال بسبوسة :

- «دماغه جوهرة هذا الولد المتعوس !»

وقال هندى :

-- «يضرب ويلاقي !»

وعلق بريش في زهو :

- دالأهم من كل هذا أن الكلام في النهاية لا يسئ لأحد! كما أنه لا يصلح دليلا لاتهام قائله بأي قذف أو عيب!! لقد راعيت فيه تجنب المنخذ القانونية المحظورة!! استخدمت لغة السياسة وأصول الحوار البرلماني المحترم! كيف استجلب تعاطف البرلمان كله مع مشكلتي! لقد كنت طول عمري أحلم بأن أكون سياسيا وبرلمانيا ورئيسا لحزب! هذا الحلم هو الذي ضبع مستقبلي الدراسي وشردني من السجن مع الوفديين إلي مصدر الفتاة إلي السجن مع الإخوان المسلمين ثم مع الشيوعيين!! ضعت بين جميع الأحزاب والفرق السرية قلم أنسجم مع أي أحد!! وأفقت في النهاية على موت أبي ومن بعده أمي ولم يعد أمامي سوى احتراف الشغب السياسي! تستأجرني الأحزاب والفرق لإثارة الشغب في أي محفل ومحاولة إفشال أي مؤتمر والقيام ببعض العمليات السرية لكنها كلها أوصلتني إلى احتقار الجميع والتمرد على الجميع والشغل ضد الجميع لحساب الجميع أو لحساب الشيطان إن دفع لي أجرا مغريا!! ثم كسدت هذه السوق فانتميت إلى شلتكم الوسخة! وها أنذا أعود مرغما للإشتفال بالسياسة وأو من رواء ستارة الأراجوز – لمؤاخذة يا حسن بك!!»

صحت فيه مبتهجا ، متغاضيا عن نكتته الحراقة :

- «إعتبر نفسك صرت برلمانيا يا بريش! فأنا هو أنت! وكل ما تحلم به لقنه
 لى وأنا أحققه نيابة عنك!!»

ثم إننى أخذت الأوراق منه ، إنزويت بها في الكرسى الأسيوطي متربعا ، صرت أقرؤها ، كان قد كتبها بخط كبير جدا ، وحروف مشكولة ، مما سهل علَّى

نطقها بلذة فائقة . أحبيت الكلام يا خال ، عشقته لما فيه من حلاوة وطلاوة ومعان كبيرة في السياسة أتعرف عليها لأول مرة وأعرف من خلالها معنى أن يشتغل الانسان بالسياسة وأن يكون برلمانيا بالذات ، ومعنى البرلمان ، وكيف أنه صاحب التشريم لكل القوانين والمستور . من فرحتي بالكلام وبالاكتشافات ، وفرحتي الأكبر بالبور الذي وجدتني سأمثله ، كيت أحفظ الكلام بعباراته عن ظهر قلب .. . تكررت القراءة خلال يومين أخرين ، معهم أحيانا ، ومع نفسي أحيانا ، أمام المرأة تارة ، وأمام زوجتي تارة فكنت كمن يستعد لامتحان الكفاءة يابوي . والغربب المدهش بالبوى أنني بوم قراعتي للإستجواب أمام هيئة البرلمان كلها فوجئت بأنني أتكلم بطريقتي الصعيدية البالغة الوضوح دون أن أقرأ من ورقة ، بل أضفت إلى ما في الورقة ما ألهمني به الله من عبارات مؤثرة ، خطبت بها ود الحكومة ، وحمدت لها سهرها الدائم في خدمة الشعب ، وكيف أن حرصها الشديد على فئات الشعب العاملة ، وخاصبة أبناء الصعيد الذين يقدمون لنا أجل الخدمات سوف يجعلها تمد يد العون لهم ، دون أن تكلف نفسها شيئا ، فالأرض ملك للحكومة ، وإذا لم تكن الحكومة قادرة على بناء المساكن فعلى الأقل تقدم الناس تسهيلات أهمها الأرض التي لن تكلفها شيئا ، وأن الذبن سبينون على نفقتهم يمكن أن يتكفلوا بنفقات المرافق ، بل إن الحكومة ستستفيد بنسبة العوايد المقررة على المناني ، إن قرارا حكيما من الحكومة بسمح لهؤلاء الناس بالبناء على الأماكن التي عششوا فيها واستوطنوها كفيل بحل مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية كبيرة ، ويساهم في تدعيم الأمن .. إلخ .. إلخ ..

عنما رأيت ملامح التأثر بادية على وجوه المستمعين ياخال ، وأنهم ينصتون باحترام كبير ، أيقنت أن شخصية حسن واد أبى ضب القديم ، الحرامى النتن رد السجون ، قد انمحت ، وحل محلها أص كبير واعر ، أص شرعى يحميه الشرع يستره القانون يعطيه كل يوم ما يسرقه . عجبت من تصاريف هذه الدنيا العجيبة الغربية بأوضاعها المقاوية ، لكننى فرحت مع ذلك يا خال ، وقات لنفسى : مالى أنا ؟ هل أنا المسئول عنها ؟ إن اسمها دنيا ، يعنى من الدناءة . ولا يمكن أن تكون الدنيا دنيئة والزمن خوان كما يقول المثل الشائع وأكون أنا من دون الخلق نبيل أصبيلا . ألسنا نحن أولادها وهي أمنا الرجم ؟ خلاص ! دناءة بدناءة فالشاطر هو الفائز أما الخاسر فلا عذر له ، ولا عزاء للشرفاء التعساء الواهمين باخال ..

بعد مشاورات ومناورات ومداولات بين البرلمان ومجلس الوزراء استمرت أياما طويلة صدر قرار مشفوع بموافقة شفوية من أبى عبدالناصر بأن تباع الأرض لشاغليها بأسعار رمزية تزيد عن تكلفة المرافق بقليل ..

هب النبى ، نصبنا معسكرا هناك ، أقمنا احتفالا من ليالى العمر لا أنساه يا خال ، كنت فيه العريس وصاحب الفرح ، أعلنت فيه أن هذه المدينة سيكون اسمها من الآن : منشية ناصر ، تقديرا لأبى عبدالناصر على جميله مع ولد بلده . وصحيح أنهم على مرمى حجر منا يقيمون مدينة جديدة اسمها مدينة نصر ، إلا أنها من قعل الحكومة أما مدينتنا هذه فمن فعل الشعب تحية لرئيسنا المفدى . فهتف ولد بلدى كلهم ، ورقص الخيل على نغم المزمار الصعيدى العظيم ، وانتشى المقطم من أطنان الخمر والحشيش التي دخلت في نخاع صخوره ليلة كاملة ..

دبت في المنطقة خلية نحل عاملة ، حركة بناء على جميع المستويات يابوى ، من حجرتين مسقوفتين بعروق الخشب والبوص ، إلى شيلات متباعدة لا يقدر على تكلفتها سوى مليونير مائن ، إلى عمائر عالية يدفع السكان تكاليفها مقدما ، إلى حظائر السيارات ، ومخازن وبكاكين . ثم ظهر المخبوء يابوى ، إتضح فجأة أن هذه الأرض الشاسعة لها ملك بوضع اليد لا نعرف أين كانوا مختفين ولا كيف

علموا بالتطورات ، معظمهم من مطاريد جبل الصعيد القدامي ، الذين تلقوا أوامر من مناحث المنعند بالرجيل إلى أي مكان يدلا من اغتيالهم أن سجنهم ، فعاشوا في مفارات في جبل المقطع يفرضون الاتاوات على كل من ينتفع بالكان من حولهم ، أو يفرضون حراستهم على المنشأت والأعمال ، وكان كل واحد منهم قد خطط للاستبلاء على مساحة معينة ينقض عليها في الوقت الناسب . وإذا بابن خالتي بياب من بين هؤلاء يابوي ، وكنت أظنه انقرض من الحياة لكثرة غيبته ، فإذا بي أمامه وجها لوجه يوم دعوني لفض النزاعات الدامية التي نشأت ، فإذا هو يعرف كل أذعاري ، بالدخين يا يناب كيفك يا حسن ، بيني وبينك فرحت بظهوره واعتبرت أن السماء باركتني بواحد من صلبي يحمي ظهري ، فكان لابد أن أريحه على الآخر يابوي ، تركته ببيع للخلق أجزاء من المساحة التي زعم أنه واضم يده عليها منذ عشر سنوات . أما كيف يوثق للمشترين عقود البيم فهذا ما لا شأن لي به كما قال ، فلما كثر ظهور أمثاله ممن يبيعون الخلق عرفت أنهم يبيعون للمشترين وهما ، إذ يكتب الواحد منهم المشتري تتازلا عن قطعة الأرض - التي بعديها مساحة وإتجاهات - مقابل خاو رجل كبير ، يعتبره المشتري بمثابة خلق رجل مهما كان يعتبر نوعا من البقشيش بالقياس لثمن قطعة أرض كهذه في مكان كهذا . إحتفظ دياب لنفسه بقطعة تكفي لبناء عدة بيوت صعيدية واسعة ، ثم شرع في بناء عمارة كبيرة بالبالغ التي اغتصبها عنوة واستقدارا . أما أنا فقد احتفظت بدياب نفسه ، ضممته الخفير والخرته ليوم قادم بإذن الله .. بسيارتي الملاكي سافرت إلى الصعيد ، زوجي بجواري ، وهندي حارسي الخاص في المقعد الخلفي ، ويجواره بريش الذي أصبح سكرتيري الخاص ومدير مكتبى ومدير أفكاري ومثقفي ومنقذي من كل ورطة طارئة . وقد درب نفسه على نطق حسن بك ودريت نفسى على نطق الأستاذ محمد . قابلتنا البلاد باحتفال

مناخب، واتضح أن خبر بلدياتي مع منشية ناصر قد وصلهم، فارتفعت قامتي إلى عنان السماء وأنا أتلقى المديح والثناء، وأعطى وعودا مؤكدة بالنظر في أحوالهم في القريب العاجل إن شاء الله، وأوزع أنصاف الجنيهات وأرباعها على الفقراء. في الليلة الأولى لوصولنا نبتت الفكرة في ذهن بربش فنفذناها في الصباح، إلتقينا مجموعة من الشبان كانوا تعلموا قيادة السيارات في الجيش أثناء فترة التجنيد الإجباري، استكتبناهم طلبات لبنك ناصر ليعطى لكل منهم سيارة بالتقسيط المريح لتشغيلها في نقل الركاب أو نقل البضائع كل حسب طلبه. أخذ بريش على عاتقه مهمة متابعة هذه الطلبات في بنك ناصر الإجتماعي، والإلحاح بكل وسيلة حتى يوافق عليها. والحق أنه لم يدخر وسعا يابوي، فلم تمض شهور ثلاثة حتى كان الجميع قد تسلموا السيارات ماركة الرينوه والسوزوكي والهوندا والزاستانا، فكان لهذه الحركة دويها الكبيريا بوي.

أما في الليلة التالية فقد شرفتنا الشيخة سعادة بمرافقتنا إلى مكتب المحامى عم زوجى في أسيوط ، حيث أبرم لنا عقد شركة مساهمة مكونة من العبدلله وهليل وأبيه وأولاد خرابة ، لإنشاء مزرعة كبرى للخيول والعجول والماشية مقرها منشية ناصر ، يلحق بها مصنع لمنتجات الألبان ، وتعتبر مزرعة البلدة فرعا منها للتوليد والتسويق ، على أن يتولى إدارة المركز الرئيسي دياب ابن خالتي لأنه يعتبر موسوعة في علم الفيل طباعه وأنواعه وأسواقه وأمراضه وعلاجه فضلا عن خبرته الكبيرة في تدريب الفيل على الرقص والسباق ..

أثناء عودتنا لحق بنا هليل والشيخة سعادة لمعاينة المكان . بمجرد رؤيتهم له بلغ سرورهم أقصى مداه . إقتطعنا مساحة تقدر بثلاثة أفدنة خصصناها للمزرعة والمعمل ، وألحقنا بها حديقة تحوى كل نادر أصيل من الأشجار ، يتوسطها قصرى هذا الفخيم ، الذي انتدبت لإنشائه مهندسا كبيرا شهيرا يعرفه بريش

محكم أنه مخطط القاهرة الكبرى وإدبه شركة مقاولات ضخمة وذات فروع بولية . أطلعني المهندس على رسومات كثيرة وأقنعني باختيار واحد منها يشيه القصور الملكية أعجبتني فيه شرفاته وكرانيشه وحلياته ، هو ذلك الذي نجلس الآن في أحدى شرفاته نملي هذه الأمالي ، مطلبن على القاهرة من جميم الاتجاهات فنراها بجلالة قدرها مجرد عك صغيرة كصناييق القمامة مرمية تحت أقدامنا في سفوح سحيقة غائرة في الأرض ، المهندس - بارك الله له في صحته وأولاده وعلمه – هو الذي صمم ونقذ جميم ما يتعلق بالقصر من مداخل ومنافذ وطرق ومسالك . هذا الطريق المرصوف الذي يبدأ من داخل الحجيقة من أمام القصير مباشرة لينتهي خارج الجبل في السفح الموصل إلى القلعة معمول على حسابي يابوي . هن قرشك ولا تهن نفسك ، فرجل مثلي وفي وضعي سوف بزوره ناس كثار بركبون سيارات فارهة ، فلابد من تسهيل الدخول عليهم وإنجاد مكان أمن يركنون فيه سياراتهم براحتهم ، وقد صح توقعي يا بوي ، ففي هذا القصر تعشى وتغدى وسكر وحشش وقامر خلق غلاظ يقشعر بدنك إن نكرتهم لك ، ناس من أعلى علية القوم يابوي ، صاحبوني وانتفعوا بمعرفتي وجمعوا من ورائي ثروات طائلة هائلة بارك الله لهم فيها . وفي هذه الصديقة غنى ورقص ومنزك أكبير مشاهير المطريين والراقصات والموسيقيين في حفلات أين منها حفلات أضواء المدينة .. أمال يا يوي .

استغرق بناء القصر حوال نصف عام يا بوى . وكان المهندس الكبير قد بدأ
بتعبيد الطريق وتمهيده وتبطينه بالحجر البشور تمهيدا لرصفه بعد القراغ من
البناء . وقد سهل ذلك دخول عربات الأسمنت والحجارة والزلط والحديد . كانت
الحديقة قد أقيمت بالفعل وتولاها بستانى محترف أتى بالأشجار كبيرة زاهرة ثم
رشقها . كذلك أقيمت المزرعة والمعمل بواسطة خبراء تعاقد معهم بريش من
أساتذة كلية الزراعة . بعدها مباشرة شرعنا فى بناء القصر جاعلين أبوابه
الأساسية تفتع على جهة القلعة ، مع الإحتفاظ بممرات مرصوفة بالحصباء تربطه
من الخلف بالمزرعة . وحينما ارتفع بناء القصر بطوابقه الخمسة العالية الاسقف
والشرفات أصبح يحلو لنا السهر كل ليلة فى الحديقة نتفرج على البناء نتخيل
شكله بعد أن يتم دهنه وتلوينه على النحو الذى رأيته فى الملكيت المجسد ، الذى
شكله بعد أن يتم دهنه وتلوينه على النحو الذى رأيته فى الملكيت المجسد ، الذى
نضعه أمامنا كلعبة أطفال شدخمة ونتفرج عليه مسحورين من جميع جهاته .

كانت زوجتى قد أنجبت ابننا البكرى أدهم ، وكان قد تم فطامه منذ أشهر قليلة حين علمت بأنها قد حملت ، فأسعدنى هذا النبأ . صارت قعدتنا على المساند والشلت تطول فى الحديقة أمام التليفزيون الذى يعمل بالبطارية السائلة ، فتروح زوجتى تحلم بشغل كل غرف القصر التى بلغت سبعين غرفة بخلاف الردهات ودورات المياه والمطابخ والحمامات المتعددة . وكنت أداعبها وأقول لها إن عليها أن تنجب لى عيالا بعدد هذه الغرف ، وكان المهندس أعطانا عددا من المجلات الاجنبية الملونة تعرض ألوانا وأشكالا من الغرف المؤثثة . فهذه أنماط من غرف السائرة وتلك من غرف الصالون وثالثة من الاستراحات وهكذا وعلينا أن

نختار منها ما يعجبنا لكن المهندس بعث لنا بمهندس آخر يدعى مهندس الديكور تولى جميم الاختيارات الملائمة اطراز القصر كما قال ..

فتك في الكلام يابوى . فلابد من الإشارة إلى أن سر الشيخة سعادة الباتع هو الذي غض عنا بصر المتطفلين المتجسسين الذين يمكن أن نقدم بسببهم إلى المدعى العام الإشتراكي أو نقع تحت الحراسة . ذلك أن شخصيات كبيرة جدا في الدولة كانت تعتقد في الشيخة سعادة ولا تكف عن استدعائها لقراءة مستقبلهم السياسي بل ومستقبل البلاد في ظلهم ، وكثيرا ماكنا نفاجاً بالسيارة الليموزين السيواء بسائقها ذي الملابس الموشومة تزحف نحونا بأضوائها ، ثم تتوقف على مقرية ، وينزل السائق مهرولا ليفتح الباب الخلفي للشيخة . وكانت توحي لكل المتصلين بها أنها من أصدقائنا ، وأننا من عائلة تعد من أغنى أغنياء الصعيد ، وأننا كذلك من أصل عربي منسب يمتد إلى الإسام الشافعي رضي الله عنه ، سيما وأن لهذه النسبة إدعاء في شجرة العائلة إن بالوهم أو بالحقيقة وكان أعمامي المشابغ دائمي الترديد لهذه المقولة ..

الشيخة سعادة كانت بارعة أشد البراعة ياخال في عقد الصلات مع الأسر العريقة في حكم البلاد سواء من استمر منهم في الحكم بعد الثورة أو من ابتعدت عنم العزوة . كل أسرة تتصل بها يا بوى كانت تدعوني للحضور في سهراتها كي أختاط بهم أتعلم منهم فنون التعامل مع الحكومة ومع الناس ومع الحياة ، حتى لقد أصبحت رغما عني أقلد الدكتور سيد مرعى في التحدث بصوت عريض مستريح النبرات ملأن بالشبع ، وأعتذر عن كل ما يخيل لي أنه إساحة الغير ، وأشكر الناس عمال على بطال ، بسبب ويدون سبب ، وأغدق على كل من ألتقيه من سعاة البرلمان وصغار موظفيه ، وأبعث بالهدايا السرية لبيوت كافة المسئولين : أقفاصا ماذنة بالطيور الداجنة والحمام والفاكهة المنادرة وأجولة الأرز الأبيض

وأفخاذ الضائن ، فى المواسم والمناسبات ، حتى باتت أمورى كلها مقضية بعون الله ، أصبح هناك من يتطوع للدفاع عنى يا بوى ، وتقديم خدمات لم أطلبها يابوى ، وثلك هى الحياة فى مصر يا بوى : تدفع ثمن كل شئ تميش ملكا متوجا يابوى ، ومن يزعم غير هذا فهو فلحاس يضحك على نفسه ..

ذات ليلة هات علينا الشيخة سعادة ونحن جلوس: زوجى وأنا وابننا أدهم يزأط بين الأشجار، والشلة الوسخة شغالة في رص المجارة. التليفزيون أمامنا يذيع الأغنيات الوطنية، ويقطع الإرسال من حين لآخر لينتقل الميكروفون إلى إذاعة خارجية من مطار القاهرة، حيث نرى الرئيس عبدالناصر وهو يستقبل وافدا جديدا من الملوك والرؤساء العرب، حيث أن اجتماعا للقمة سوف يعقد في القاهرة لإيقاف المذبحة التي يقيمها الملك حسين الفلسطينيين في الأردن، والتي أطلقت عليها المسحافة منبحة أيلول الأسود، مما يجعل بعض العامة من بلدياتي يتصورون أن أيلول الأسود هذا رجل أسود القلب ينبع إخواننا المسلمين، فصرح في وجهي بانفمال وأسى: كيف يتركون أيلول الأسود هذا يذبح أشقاء نا ؟!

كان يضيم علينا جو من السكينة أميل إلى الحزن الدفين الفامض . قالت الشيخة سعادة وهي تتابع حركة الرئيس عبدالناصد وهو يستقبل الملوك والرؤساء. جعلت تهمهم بكلمات مضغمة ويصوت فيه رهبة ، ثم هنفت فجأة كأنها تقد خبرا مزعجا :

- «اللهم لاحول ولاقوة إلا بالله! اللهم لانسائك رد القضاء بل نسائك اللطف
فيه !!»

وراحت الدموع تنهمر من عينيها بغزارة كأنها تبكى اسنين طويلة مضت ياخال .. انزعجنا بالغ الانزعاج ياضال ، تشاء منا ، توقعت أن تكون أشفقت على الرئيس من هذه الدوخة بين الملاعين الذين لا يحلو لهم التشدد إلا مع أنفسهم وأشقائهم ولا يضمر أحدهم للآخر إلا كل شر وضعينة منذ أيام الخطف والهجمات إلى أيام النفط الذي اتضح أن أعماقنا جميعا أسود منه :

- ووحدى الله يا ستنا الشيخة ! ما الذي استوجب كل هذا البكاء ؟!»

كفكفت يممها المنسوب:

- دهذا الرجل ميت ! سيعلن موته بمجرد تمدده على أول فراش يقابله !!» هتفنا جميعا في رعب حقيقي :

- مسبحان الله ولا إله إلا الله ! كيف عرفت ؟!ه

وكانت الكاميرا قد استقرت على وجهه ، فأشارت الشيخة إليه كأم يائسة تشير إلى ابنها الكسيح في الفراش :

- «أنظروا إليه !! دققوا في عينيه !! الموت فيهما ظاهر كالشمس واضبح كالموت !! لاشئ أوضح من الموت ! أين اختفى بريق هاتين العينين الصقريتين ؟! إنطفا طبعا !! لم يعد في حدقتيه سوى بقايا فحم بارد !!»

قال بسبوسة :

- «كتر خيره! الرجل من صبيحة رينا واقف على حيله!!»

قال بريش:

- «إنه إرهاق فحسب! مثل هذا الرجل لايموت بهذه السهولة!! إنه كالقطط بسبعة لرواح!!»

قال غزولي :

- «فليمت ! النبي محمد نفسه مأت !!»

قالت الشبخة سعادة :

- داو مات الآن تبقى مصر فى الوحل زمنا طويلا! بكائى ليس عليه بل على مصر! الآن فحسب تذكرت أكبر خطينة ارتكبها في حياته! لقد كتم أنفاس كل الرجال فلم يعد هناك رجل حقيقى يخلفه! لسوف يتدخل فى حكم بلادنا كل من هب وبب من أسافل القوم فى المنطقة!!»

قلت في استياء :

- دعلى كل حال رينا عالم بنا !ه

زفرت الشيخة سعادة :

- محالنا لاتسر! أنا التى لم أكن أفهم فى السياسة ولم يكن يخطر على بالى أن أفهم شيئا من أسرارها أصبحت بحكم عشرتى لأهلها أعرف كل شئ فيها !! إننى أقولها ورزقى على الله: كل من يحكمنا اليوم ليس فى دماغه أى نفع للبلاد!! إنهم لايعرفون ماذا يفعلون! إنني أقرأ لهم الطالع جميعا! وكل واحد منهم يطلب منى أن أكشف له عن حقيقة شعور الآخر بالنسبة له وما الذى يضمره له وللبلاد؟! إننى أولا التوفيق من الله لذهبت طوعا إلى سراى العباسية من كثرة ما يصيبنى من الذهول من فراغ هؤلاء الناس!!»

صار قلبي يدق ياخال ، وجدتني أسألها :

 - دويعد ياستنا الشيخة ؟ ما الذي تنصصينني بفعله في هذه الظروف الفيراء!»

- دضع عينك في وسط رأسك ! كن مع القوى حتى واو كان مغلوبا على أمره فالقوى مهما غلب على أمره سوف ينتصر !! إمسك العصا دائما من الوسط حتى تكون قريبا من طرفى النزاع فتعرف أي الكفتين أرجح !! لمصر رب يحميها ياخوى أما أنت فإن لم تكن مراوغا ذكيا تجيد اللعب على جميع الحبال فسوف تدهسك أحفز الأقدام !! ولكن أكبر نصيحة أقولها لك ياخوى : إن رأك كلب وأنت

ثاكل فارم له بلقمة يالفك يصبح حارسك الوقى !! لا تلعب ولا تخاطر بنفسك إلا فى الكبير الكبير وعليك أن تعف عن كل صغير تتركه للصغار ! كن كالأسد لا يقبل أكل الجيف ولايتكل وهو شبعان !!»

حصيفة أربية والله يا خال . كرامة لها أكاد أصدق أننا نمت بصلة قربى الإمام الشافعي ، وإلا فمن أين جاءتها كل هذه الشفافية يابوي إن لم تكن ورثتها عن جد قديم ؟

الشاهد ، سافرت الشيخة سعادة في تلك الليلة لتبيت في أسيوط في البيت الذي يطلبها فيه المحافظ حينما يحتاجها القوم حيث يسرع خدمها الموجوبون هناك دائما إلى الاتحمال بها في الجبل لتبليغها . وقد علمت أنها ليلتذاك ظلت ساهرة حتى الصباح بجوار الراديو ، وبقيت في أسيوط قريبة من الناس والأخبار..

أما نحن ، الشلة الوسخة ، فقد إلتقينا في شفة المنيل عصر اليوم التالي ورحنا نشوف مزاجنا بالحجرين ، والتليفزيون مفترح أمامنا . كنا قد اندمجنا في الكلام الحماسي حول مشاريعنا التجارية المقبلة وهل تكون - بتعبير بريش - صناعية أم ترفيهية أم استهلاكية ؟ . كان رأى بسبوسة أن أي مشاريع من أي نوع في مصر بالذات مهما نجحت لا تساوى عشر معشار مشاريع الأكل والشرب، فإن أردنا ربحا مضمونا غير ممنوع ولا مقطوع فعلينا التفكير في افتتاح مطاعم ومقاه ومحلات بقاله ومحاصيل زراعية أو مخابز للحاويات . كان كلامه صحيحا تماما يا بوى ، ولكتنا أردنا أن نبحث في وسيلة لتحقيق مثل هذه المشاريع الأكلوية الشربوية على نطاق واسع وكبير يحقق لنا الأرباح ونحن جاوس في أعقاد دورنا ..

وحينما خفتت حدة المناقشة قليلا وبدأنا ننتبه اشد الأنفاس بعمق ، لاحظنا أن

شاشة التليفزيون ملانة بفقيه يقرأ القرآن . ثم بدأنا نتذكر أنه بدأ القراءة منذ وقت طويل جدا ياخال ، فالتقت أعيننا على نظرة كأنها نسخة واحدة لمني واحد في نفرسنا جميعاً ، تنضح بالفجيعة الفامضة ياخال ، لأمر ما ، نكس غزولي رأسه في منقد النار فيما يشبه الشعور بالنب كأن فأله السيُّ بالأمس قد تحقق . لهذا ترك ما في يديه ونهض إلى التليفزيون ، حول المؤشر على القناة الثانية فقيه يقرأ القرآن ، قانا جميعا : بس ! جاك الموت با تارك الصلاة . فتحنا الرابيو : فقيه يقرأ القرآن يمشى وراء المؤشر على جميع المحطات. نفضنا كل ما في أيدينا ، بقينا مسمرين في مواجهة الشاشة لا ينطق أحدنا بحرف باخال . في لم البصريا خال صرنا كالأطفال التعساء ينتظرون صدور الحكم بالإعدام . أغرب وأطرف شيئ لا أنساه با يوي أننا لحظتذاك شعرنا جميعا بالجوع ، فجأة قال بريش : أنَّا جعت ، فقلنا جميعا في نفس واحد : ومن سمعك ، فهرول هندي إلى المطبخ وفي دقائق معدودة تمت تسوية كباب الحلة فنزلنا عليها حتتك بتتك مثل المفاجيم . وفيما نتناول الشاي خرج علينا أنور السادات بنفسه ينعي جمال عبدالناصر للأمة العربية والعالم . كان وجهه الصدئ صورة بالكربون من محمد بك أبو شناف حتى تحيرت فالحركات في نفس الحركات ، وعوجة الفك السفلي ، ونطق المروف بل والصوت والظل وكل شئ من الملامح حتى الزبيبة على الجبهة واحدة ولا يمكن أن يكون هذا غير ذاك ياخال . مع ذلك فأنا مرغم على الاعتراف بأنهما شخصيتان منفصلتان بابوي . فإذا كان كل من يعرف الاثنين قد أكد أنهما اثنان فكيف لى أن أزعم أنهما واحد يابوي ؟! هناك من يزعم أنه قابل الاثنين في جلسة واحدة لكنني أشعر أن القائلين بهذا يكنبون لأني لاحظت أنهم فشارون ببالغون في إشعارك بأهميتهم ، وأنا لا أدقق مع هؤلاء بل أترك كل واحد يفشر كما يشاء لأني أستمتم بالفشر ، والفشر ينشط خيالي لكي أفشر أحسن منهم ، فهكذا الدنيا يابوى ، فشر فى فشر والشاطر من يجعلك تصدقه فى كل ما يقول..

وه يابوى ، كيف أصف وقع الخبر علينا ؟ إنفجرنا في بكاء صارخ ولطم خبود، لكن الشرارة التي انداءت في الخلاء سرعان ما شملت الكون كله أشعلت فيه الصراخ والجعير واللطم وشق الهدوم وببدية الأقدام على الأرض . الكون في زارال رهيب ياخال ، كأن الدنيا كلها قد تيتمت . نزلنا نمشي في الشوارع تائهين مسلوبي الإرادة والشعور والعقول يا خال . التحمنا بالجموع الضالة التعسة البائسة ، وقد ألقت الجموع ظلالها الكثيفة على الشوارع فسحبت أضواء ها واختنق الهواء وخيمت الكابة كأنما السماء داقت على الأرض جموعا بلا جنور بلا أهل ، تتعرف أقدامها على الطريق لأول مرة ..

عدنا إلى الشقة نفسها في أواسط الليل ، أغلب الظن لنبحث عن شخصياتنا التي فقدناها في الجموع المتلاطمة ، استاتفت الجوزة بورتها ، بدأت ظائل من شخصياتنا تتعرف على أجسادنا وتنحاز إليها ، وجدتني أقول لبريش :

- «عندك تفسير لكل هذا الهلم الذي رأيناه ؟!»

سحب من الحجر نفسا عميقا ، أتبعه برشفة من كأس البيرة المفرم بونتا بشريها ، ثم قال في هنوء الفلاسفة :

- «الجميع يشعر بالفجيعة طبعا ! لأنهم كالأطفال الصفار الذين عودهم أبوهم على أن يفعل كل شئ بنفسه لا يترك لهم أى شئ يشاركون به فى إدارة البيت ! فهو ربّ البيت وكل شئ فيه ! هو الذى يمنح ويمنع ! لارجل غيره والجميع عيال حتى واو كانوا أفضل منه فى كل شئ إلا معوت أعلى من معوته ! لا كلمة لأحد فى ظله وكلمته تمشى فوق رقاب الجميع !! لا يقبل نقدا ولا مشورة ومن يتقدم بشئ من هذا فهو عدو يجب إبادته فى الحال أو بتره من شجرة العائلة !!

وهكذا أراح الجميع أنفيهيهم وتركوه ينفرد يكل صبغيرة وكبيرة حتي الذين اختارهم ليعاونوه يفعلون ما يأمرهم به في العان وينقضونه في السر بأفعال مضادة !! فلما يموت فجأة لابد أن يشعر الجميع بأنهم صاروا في العراء بعد أن الهدم سقف البيت على ره وسهم !!»

ثم استأنف الشرب وشد الأنفاس كأنه كان يكلم نفسه أو يفكر بمنوت عال . قلت له :

- موالعمل الآن يا يريش ؟!ه
 - قال بتلقائية ويغير انفعال:
- «العمل عمل رينا طبعا ! جاءت لأثور السادات على الطبطاب !! هو تائبه الأول ! سوف يتولى رئاسة الجمهورية مؤقتا إلى أن يحدث الاستفتاء الشعبى ! المتوقع طبعا أن الشعب سوف يوافق على رئاسة أنور السادات ! الشعب الذى لم يقل لا طول تاريخه لن يقولها فجأة لأنور السادات ! وحتى لو قالها فإنها لن تصل إلى أسما ع القائمين على الاستفتاء !!»
 - «وما الذي تراه إذن بالنسبة لنا ؟!»
- «أرى أن نتصرف على أساس أن أنور السادات هو رئيس الجمهورية إلى الأبد! وأن نبلغه من الآن تأييدنا له بكل الصور! هو سوف يكون رئيسا غصبا عن التخين في البلد! فخلها بجميلة وأعلن مساندتك له من الآن ضد من سيحاولون منافسته من رجال عبدالناصر الذين كانوا قريبين منه وفي حوزتهم كل أسراره وأسرار الحكم والبلاد والناس!! هؤلاء لن يسكتوا بسهولة خل بالك! ليس لأنهم يحتقرون أنور السادات فحسب بل لأن منصب الرئاسة أجل من أن يفرط فيه القريب منه!! ستحتدم المحركة وهنا يجب أن نكون نحن بعيدا حتى يفرط فيه القريب منه!! ستحتدم المحركة وهنا يجب أن نكون نحن بعيدا حتى نتفرج ونتسلى ونستمتع كبقية الشعب المصرى! إنما نكتفي بإظهار ولاجا لأنور

السادات! صدقتي إن الشعب بمكن أن يختاره بالفعل وبنون حاجة لتزوير لأن في الشعب فئات كثيرة قوية يمتعها أن يكون رجل كأثور السادات رئيسا للدلاد! وسواء كان هو عبيطا بالفعل أم هو يستعبط ويتدروش لاكتساب حب الناس فإن الناس يهمها أن بكون الحاكم يرويشا لأنهم حينئذ سيسهل عليهم توجيهه لخدمة مصالحهم!! غدا سأفكرك بأن هذا الثعلب الماكر هو عبدالنامير مضروب في عشرة ولكن في الاتجاء المضاد للثورة !! سيقف وراءه الأغنياء القدامي ! العائلات التي ضربتها الثورة ستضحى في سبيله بالكثير وهو سيستجيب من أول نظرة لمفازلتهم لأنه مصباب بعقدة العائلة! كان بتمنى أن بكون من عائلة ذات جاه ترعزوة وسلطان كعائلة عبدالغفار مثلا في بلدتهم بالنوفية !! سوف يفتح صدره لتلك العائلات الإقطاعية القديمة ويحتويها بيسط حمايته عليها لكي يشعر بالنشوة من توافق الأقدار إذ يرى هذه العائلات الضخمة ذات التاريخ قد أصبحت تقف بأعتابه تتمسح فيه تخطب وده وأصبح منها بمثابة السيد ذي اليد العليا والقامة الأعلى !! إسالوني أنا عن أنور السادات فإني أعرفه جيدا عجنته وخبرته شاركت في تهريبه ذات يوم قبل الثورة أنا وممرض بالقصير العبني أصبح الأن كاتبا مشهورا في الإذاعة ! وكنا قد عرفناه وصاحبناه عن طريق كاتب مشهور اسمه زكريا المجاوي لعلكم سمعتم اسمه في الإذاعة أيضًا! ذلك الذي تزوج خضره محمد خضر الموالدية!! أصيع ما فيكم جميعا لا يساوي سنة واحدة في حياة أنور السادات ومن هذا فإنه سيعلم الناس كيف تمشى على العجين فلا تلخيطه !!» كلام بريش عميق بإخال ، إنه وإد مخريشاتي يفهم في أشياء كثيرة وبالأخص في أنور السادات ، خريشته أهم من خريشتي ومن خريشات بسبوسة وغزولي وهندي لهذا يفيد بعضنا اليعض فائدة كبيرة . صياعة بريش شمات الحواري والشوارع السياسية منذ وقت مبكر ياخال ، فليس في البلاد كلها سياسي واحد غير معروف لبريش بالاسم الثلاثي والعنوان وتاريخ الميلاد ، بل قد يعرف اسم

زوجه وأهله وأخباره العائلية التقيقة ، وهو يصدع ره وسنا كل ليلة بهذه الأخبار ، ويمشاريعه الشريرة في استخدام هذه الأخبار ضد أصحابها ذات يوم قريب ، يعرف كم صفقة مشبوهة عقدها هذا الوزير ، وكم استقاد ذاك من عمولات بحكم منصبه ، يعرف لماذا أقيل فلان ، وهل أقيل أم أنه استقال . ويهذه المناسبة يابوى فقد ظللت وقتا طويلا لا أعرف الفرق بين الإقالة والإستقالة إلى أن عرفتها من بريش العفريت هذا . وما أكثر ما عرفت منه يا بوى . علي أننى بعد أن كنت أحاول إسكاته عندما يدير شريط مثالب الوزراء وفضائح مجالس الإدارات أصبحت أناشده أن يستأنف الكلام كلما سكت ، ذلك أننى قد بدأت أعرف قيمة أهده الأسرار يابوى ومدى إقادتها لنا في تثبيت علاقتنا بثنور السادات .

أما صياعة بسبوسة — وهى الأخرى مفيدة جدا في هذا المجال — فإنها صياعة فريدة : يعرف أسرار كل نسوان البلد تقريبا ياخال ، وخاصة نسوان الوزراء والكبراء والوجهاء ، ذلك لأنه كان مكلفا بعراقبتهن من بعض أزواجهن أو عشاقهن أو بعض الجهات ، يعرف متى تقابلت إحداهن مع أحدهم في المسيف البعيد جدا ، وعلاقة المساحقة بين هذه والله . يعرف أخبار جميع دور اللهو في شارع الهرم وشارع عماد الدين ، فهذه السينما ملك فلانة وهذا الكازينو ملك الراقصة علانة ، ومن الذي يسهر في منزل الراقصة المعتزلة فلانة ، ومن الذي يلعب القمار عند من ، ومقدار الخسائر . يعرف عدد صناديق الويسكي التي تم يعرب بواسطة فلان الفلاني مقابل مبلغ كذا . يعرف من هي الصحفية المجهولة الداعرة التي نظمت حفلا غنائيا راقصا للضباط في أنشاص المسحفية المجهولة الداعرة التي نظمت حفلا غنائيا راقصا للضباط في أنشاص الما أله أن تم ضرب جميع المطارات المصرية في التكسة المشهورة ، ومن هي الراقصة التي أحيت الحفل شبه عارية ، وكيف أنها هي التي جلبت بقية الفنانين الراقصة التي نضبت بين المشير أبو

عامر ويرلنتي عبدالحميد ، وكيف استولى عليها المسير وتزوجها رغم أنف المعترضين وعلى رأسهم عبدالناصر . يعرف المثلات اللائي أرغمهن صلاح نصر رئيس المخابرات على العمل بالدعارة مع بعض السفراء وكبار الزائرين للحصول على معلومات تفيد البلد في حربها مع العدو . كل هذا وغيره ياخال يعرفه اللعين بسبوسة ، غير أنه أثقل من بريش في الإفضاء بما عنده ، ربما لأن مهنته الأصلية كمخبر في الآداب علمته الكتمان كصنعة يستفيد بها عند اللزوم ، اكته عندما ينفتح يمكن أن تملأ منه مكتبة شرائط كاملة في الجلسة الواحدة .

أما غزولي يابوي فصياعته محدودة لكنها مهمة جدا يابوي . يعرف جميم تجار ومهربي المخدرات على أعلى مستوى ، معرفة شخصية ، بل لديه أسرارهم الخاصة إذ أنه - وهو من المفروش أنه عين الحكومة عليهم - يصبح عينهم على الحكومة ، يعرف جميع اتصالاتهم بل ويقوم في أحيان كثيرة بمهمة المرسال من المهريين والتجار وبين ضباط الحنود ومياحث الأقسام ، يتفاوض من أجل تمرير منفقة أو غض البصر عن بيعة ، ويأخذ عمولته من الطرفين . يعرف كيف يقوم ضباط الحدود بالاستيلاء على بعض ألصفقات بتواطق مع المهربين نرا للرماد في العيون ، بعرف من من كبار مستوردي الأخشاب والسيارات يتخنون من هذه السلعة المستورة سنتارا يخفى المشيش والأفيون والهبروين ، ومن الذي بشاركهم أو يعاونهم من أعضاء البرلمان البارزين . يعرف أن تاجر المخدرات الكبير فالان الفلاني هو الذي اشترى سيارة أحد المسئولين بمبلغ كبير رغم سوء حالتها لكي يستفيد من حصانتها بقية الشهور المثبوتة في الرخصة باعتبارها سبارة معروفة لجميم السلطات . يعرف أن محل الأزياء الكبير في شارع الشواربي تملكه زوجة الوزير فلان وتكتبه باسم خالتها وهي التي تستورد الملابس الأجنبية وتهريها من الجمرك ، يعرف ثروات أبناء الضباط الأحرار ورئيس الوزراء وعدد وأنوا م المشاريع التجارية المستترة التي تدر عليهم أنهار الفلوس. ولأنه صايع كبير فإنه يعرف مساكن مشاهير الكتاب والصحفيين الكبار ونجوم المسرح والسينما والتليفزيون ويحلف أنه يشاهد الكثيرين منهم عند تجار المخدرات بل إنه كثيراً ما باع لهم بنفسه. كل هذا وغيره يعرفه غزولي الخلبوص مع أن شكله يبدو كأنه لا يعرف السما من العمى . وربما كانت هذه الموهبة هي سر نجاحه يابوي ..

أما مسيقي هندي المجدع فإن مساعته هو الآخر تبيو سطحية لكنها مع ذلك توقفه على الكثير من الأسرار والأشيار المهمة جدا بإشال ، إنه متخصص تقريبا في معرفة أخيار اللصوص كنارهم وصغارهم على السواء ، يعرف كيف يسرق المحافظون وكبار رجال البولة الأرض الحكومية بتسهيلات وأوراق ملفقة ، وكيف مستغلون الفلاحان في زراعتها ، أو المقاولين في بيعها للبناء . يعرف كيف يستفيد رجال الأوقاف من أموال الوقف التي بلا صباحب على كثرتها . يعرف مزارع الفاكهة التي استولى عليها يعض الضياط الأحرار من قدامي الإقطاعيين في الشرقية والمنوفية والصعيد . يعرف أخبار الإختلاسات في محلات القطاع العام والهنئات والمؤسسات وكيف يتم تلفيقها المنغار المؤلفين الفلاية . يعرف حجم المواد الغذائية النظيفة التي تخرج من مخازن الجمعيات الإستهلاكية إلى منازل المسئولين بالمجان في حين يقف الشعب في الطوابير طول النهار ينتظر مجئ ما لايجيُّ مطلقاً ، يعرف الكثيرين جداً من أمثال الحاج أحمد نوار الدين السني في مجالات كثيرة متنوعة ، كما يعرف النين يتعاونون معهم من كبار الموظفين اللصوص . يعرف عبد سيارات الأجرة التي يمتلكها المسئول عن هيئة النقل العام وكنف بتم إممالهما وتركب قطم غيارها بالمجان في ورش الهيئة نفسها ، ويقول هندى دائما إنه كان جديرا بأن يرأس مباحث الأموال العامة لأنه يعرف جيدا أين تذهب وكيف يمكن أن يردها الدولة . حين استعرضنا كل هذه الخبرات يابوى فى قعدتنا تلك عقب وفاة الزعيم الراحل شعرنا بأننا قوة لا يستهان بها يا خال ، وأننا إن فشلنا في التعامل مع أى رئيس أيا كانت شخصيته فإننا نكون غير جديرين بالحياة أصلا ، معنى الكلام يابوى أننا يجب أن نعمل بالقاعدة الشعبية الشهيرة : اللى تعرف ديته اقتله، واختها الاشهر : اللى تغلب به إلعب به . ويما أننا لدينا الكثير من الكروت الصالحة للعب فإننا يجب أن نعرف كيف نلعب بها فى حرفنة وتودك وإلا خسرناها وخسرنا الجلد والسقط .

وهكذا وضع لنا بريش خطته الجهنمية للإلتفاف حول أنور السادات في وقت مبكر . واقد أوصائي بادئ ذي بدء بأن أنسي بل أنزع من نماغي مسألة المشابهة بين أنور السادات ومحمد بك أبو شناف ، لأنها في نظره غير مجدية من ناحية ، ولأن السياسي عموما بحكم طبيعة عمله يمكن أن يكون أكثر من شخص في وقت واحد ، حتى لو ظهر أمامنا بشخصية واحدة من ناحية أخرى . ثم إنه من المسلحة أن نشعر من يعاملنا بشخصيتين أننا لم نقطن للعبته ، حتى يتصرف أمامنا بكل حرية ..

فوافقته في الحال ياخال ، سيما وأننا - كما قال اللعين يسبوسة - سنكون المستفيدين في كل الأحوال ، إذ أننا نستفيد من كل شخصية على حدة . وقال هندي إننا جميعا نعيش بأكثر من شخصية فما الغريب في ذلك ؟ ثم قرأنا الفاتحة على الظالم والمفتري .

انضرطنا في خطة بريش المحكمة : برقية عزاء باسمى في وفاة الزعيم الراحل، تحث السادات على حمل الأمانة باعتباره أكثرهم وفاء ليلاه وأشدهم خبرة بالسياسة وإلا ما اختاره الزعيم الراحل ليكون نائبه الأول . ثم انهالت البرقيات يا خال بعدد المناسبات التي تفنن بريش في استقطابها : عيد ميلاد ابنته، إبنه ، زوجته ، أبيه ، عيد زواجه ، عيد خروجه من السجن قبل الثورة ، عيد عودته إلى الجبش بعد قصله منه .. إلخ أطواق الورد الرسلة لاحصر لها ، من أكبر المحلات وأرقى الأنواع با يوى ، وقد نشط بريش في أمور الدعاية لي بشكل جهنمي يابوي ، فهو تقريبا يعرف تسعين في المائة من محردي الصحف المسابين بنقاط ضبعف كثيرة ، يلتقي بعضهم في البارات ، وغرز الحشيش ، في عموم الأماكن المشبوهة ، ومادام قد عرف خصالهم ونقاط ضعفهم فقد عرف بالضرورة أثمانهم : فهذا يحتاج لإمرأة ، وهذا جائع للغلوس ، وهذا يضر أمام زجاجة الويسكي أو قرش الحشيش ، وهذا يرضي بقليله ، ريما بكلمة يا سعادة البيه ، أو يمدح في عنقربته وشرفه . وهكذا مانوي انهالت التحقيقات الصحفية معي دون أن أنطق فيها بحرف واحد يا خال ، عن مشاريم وهمية يجرى تنفيذها لخدمة دائرتى والنهوض بالصعيد الوسطاني ، وعن أعمال البير والفير ، والتبرعات للجمعيات الخيرية . وفي كل تحقيق مسحفي لابد أن يشار على اساني بكلمتين حلوتين في حق أنور السادات وتاريخه السياسي الوطني المشرف .

كنت قد عينت بسبوسة – الذي أصبح أفنديا على درجة عالية من الأبهة والفخامة ويتكلم في وعي ولباقة أكثر من وزير للخارجية – جاسوسا لنا في اللجنة المركزية بالاتحاد الاشتراكي ، وكذلك اللجنة المركزية العليا ، تلك التي لم أكن أعلم عنها شيئا إلا بعد أن ثقفني بريش سياسيا . ولأن بسبوسة ناعم ولذيذ فقد سهل عليه اختراق جميع الاجتماعات - حتى السرية منها ، عن طريق أصدقاء وأعوان من صغار الموظفين الذين تثول إليهم الأوراق والمحاضر في النهاية . كان يأتينا كل ليلة بأغبار طازجة ليفاجأ بأن بريش قد علم بها من مصادره الخاصة وكان ينتظر - فقط - تأكيدا لها من بسبوسة ..

أبلغنا بسبوسة أن أنور السادات بعد أن كان قد أكد للجنة المركزية الطبا أنه سبيقي نائبا لرئيس الجمهورية إلى أن يتم الانتخاب الحر في وقته الطبيعي أي بعد أن تتم إزالة أثار العنوان الإسرائيلي كما أعلن عبدالناصر في خطاب عودته بعد حادث التنجي ، رجم في كلامه وطلب اجتماع اللجنة المركزية العليا -- المكتب السياسي – وطالب بضرورة إجراء الإنتخابات الرئاسة ، وطالب معرض اسمه على الشعب كرئيس للجمهورية ، وقد ثار ورثة عبدالناصر بقيادة على صبرى ، وتحفظوا على هذا الطلب قائلين إن الشعب لا يحبه وسوف يرفضه لامحالة وحينئذ تسقط هيبة مجلس قيادة الثورة وتنتهى ثورة يوليو ، فأصر السادات على طلبه وقال إنه لا يأس من المحاولة فإن رفضه الشعب قدموا له مرشحا أخر وثالث ورايع إلى أن يوافق الشعب . هنا أضاف بريش أنه علم أن الكثيرين من أعداء عبدالنامير في مصر والأمة العربية – وخاصة الإخوان المسلمين – هم الذين أوعزوا السادات بعدم التقريط في فرصة انتزاعه الرئاسة من ألايش عبدالنامير الذين ظهر أن معظم الشعب يكرههم لكنه يخاف من بطشهم ، إضافة إلى الملوك العرب الذين ما صدقوا أن رجل عبدالناصر فسعوا لاستئصال شافته من السياسة الممرية ليعود كل شيَّ في المنطقة إلى هنوبُه الذي كان قبل الثورة . هذه التيارات قوية ياخال ولا يستهان بها مطلقاً، فمعها الأموال الطائلة با خال، ومعها القوة الأمريكية الإسرائيلية الكارهة للشيوعية والاشتراكية، وهي تملك الأسلحة والأجهزة الرادعة الكاشفة في حين لايملك ألاديش عبدالناصير سوي جهاز المخابرات بجهاز بث الإشاعات، جهاز بث الرعب مم الفقر المادي المدقم ياخال، مم انعدام الأسلحة، ومناورات ومخادعات الاتحاد السوفييتي الجبان الذي لم يكن صادقا في دعمه لصر بقدر ماكان يتخذها مقرا لمناوأة أمريكا . تلك هي تطيلات بريش الداهية .

ياخال . والحق يا خال لقد لخبط لى مخى بقدر ما أضاءه ، فقد كنت أظنه من عشاق الاشتراكية فإذا به ليس من عشاق أى شئ ، وإذا به يقول لى :

- دما يهمني هو مستقبلنا السياسي وكيف نكون أقوياء نشوف لنا يومين قبل أن نتوكل على الله !! وعلى فكرة با حسن !ان ظاهرة الحزن على عبد الناصر التي رأيناها بأعيننا لم تكن حقيقية إلا في جزء منها !! الأغلبية العظمي وهي الأقوى تكره عبد النامين كره العمي مبدقتي : الإقطاعيون الذين انتزعت أراضيهم! أصحاب الشركات والمصانع والمحلات التي أممت! الأغنياء والرأسماليون الذين وضعوا تحت الحراسة ظلما وعنوانا ليستمتع بخبرهم اللصوص والأفاقون! أباء الجنود الذين قتلوا في حرب وهمية قادها ضابط حشاش بتاع نسوان! السياسيون والمُقفون والشرفاء الذين جند أبناؤهم كمخبرين عليهم! النين ذاقوا مرارة السجن والاعتقال والعزل السياسي! أعضاء الأحزاب التي حلت وكان لها في الشارع حضورا قويا من قبل! الطلبة المستثيرون الذين قلمت أظافرهم وحرم عليهم الاشتفال بالسياسة وتم إخصاؤهم وإبطال بور ومفعول الجامعات! حتى التقدميون الذين من المفترض أن عبد الناصر يحقق لهم حلم الاشتراكية يقفون ضده كدكتاتور! ومنحيح أنهم اليوم يتزعمون موجة التباكي عليه والإبقاء على تراثه لكن ذلك مؤقت وسبيه خوفهم من ضياع ثورة يوليو وعودة البلاد إلى عهد الملكية وهذا بالطبع مستحيل حدوثه !! وإنهم يعملون بمقولة : نار عبد الناصر الثورية الإشتراكية ولا جنة السادات الرجعية ! وهذه مقولة غبية لا نفع لها في السياسة والدليل على ذلك أن معظم القوى التي تملك المال والسلاح والنفوذ في مصدر مدعومة بالعالم العربي المدعوم بأمريكا هي الآن مع السادات وإن لم تظهر على السطح بعد خوفا من بطش رجال عبد الناصر الذين قد يظهر أنهم يملكون قوة سرية مدخرة !! فلا تنس أن الحكم كان محوطًا بالسرية لأنه حكم الغرد

- وأذنابه وليس حكم الشعب كما كان المرحوم يزعم! »
 - «والخلاصة يا بريش؟!»
- «بكل صراحة كان المرحوم كابوسا والناس كانت تبكى من الفرح لا من الحزن! أو قل من الحزن على المستقبل الغامض والورطة المهية التى أوقعهم فيها المرحوم بموته المفاجئ! إن الموت في حد ذاته هزيمة مضاعفة!! هزيمة بهزيمة فمن الأفضل أن يراجع الشعب نفسه في هذه الثورة من أساسها ويعمل على الخلاص منها! وهذه هي الأرض القوية التي يقف عليها أنور السادات ونحن
 - «هل سيقرط السادات في الثورة التي منتعته ١٤»
- «الثورة عنده كانت لاستكمال الأبهة كما قلت لك من قبل يحقق بها النفوذ والعزة الشخصية ! فإذا كان هذا سيتحقق له من مصادر أخرى فلتذهب ثورة يوليو إلى صفيحة القمامة غير أنه لن يفعل هذا مرة واحدة إنما سيظل مستمسكا في الظاهر بشعارات الثورة كأسباب شرعية لبقائه إلى أن يثبت أقدامه !!»
- دوما الموقف الذي يجب أن أتخذه غدا في البرلمان ؟ ففي جلسة الغد سيجري الاستفتاء على ترشيحه !»
 - «لابد أن تكون على رأس الأصوات المؤيدة له !!»

صدقت نبوءة بريش يابوى وتم انتخاب أنور السادات بالإجماع في السادس عشر من أكتوبر رئيسا للجمهورية .

وكانت هذه صدمة كبيرة الألاديش عبد الناصرمن أمثال على صبرى وسامى شرف وشعراوى جمعه وغيرهم من أعضاء المكتب السياسى الذين تمكتوا من بث المخوف فى دراويش عبد الناصر ممن يتخذون من الإتحاد الإشتراكى سندا للنفوذ والوجاهة.

وقد نقل لنا بسبوسة أن أعضاء المكتب السياسى بثوا هذا الخوف فى الدراويش والمريدين ليصبح لديهم ذريعة يواجهون بها السادات لكى يحكموا هم من خلاله يحواوه إلى طرطور وحسبه لقب رئيس الجمهورية يرضى به غروره أما الحكم الفعلى فيكون للمكتب السياسى . فقال بريش إن عشمهم فى هذا عشم إيليس فى الجنة .

وقال غزولى: - «لى أصدقاء فى مباحث أمن الدولة والمخابرات العامة يقولون لى ان ألاديش عبد الناصر يفكرون جديا فى اغتيال أنور السادات بخطة جهنمية حدى الترتيب لها حاليا».

فاعتبرنا هذا الكلام مجرد خرف ولم نعلق عليه رغم أننى يابوى شعرت نحوه بشئ من الاهتمام نظرا لتزايد خطر السادات والتأييد الشعبى له وقد يدفعهم هذا إلى التعجيل بالخلاص من عدوهم قبل أن تبرد دماء عبد الناصر في عروق المؤودين لهم ..

سجلنا اسمنا في دفتر الزيارات برئاسة الجمهورية ، تقدمنا بطلب لمقابلة الرئيس لتقديم التهنئة وللتحدث معه في بعض الأمور ، المفاجأة كانت عظيمة يا بوى وافق السادات على هذه المقابلة وحدد لها موعدا بعد ساعات قليلة .

فى تلك الليلة سهرت الشلة كلها محتاطه بى تلقننى ما ينبغى أن أقوله للرئيس وما أرد به إذا سائنى عن كذا وكيت . كل واحد من جهة راح يصب فى رأسى أطنانا من الكلام كأننى سأمكث فى مقابلة الرئيس عشر سنين ، أو كأننى مطلوب منى مناقشته فى مستقبل الكون كله يا بوى .

رغم ضيقى بكل ما سمعته وشعورى بعدم قدرتى على تذكره أثناء المقابلة ، فوجئت فى الصباح بأننى استوعبت كل ما قيل ، فرغم تخانة مخى الصعيدى التي يعيروننى بها فهمت جميم عبارات بريش ومصطلحاته وصرت أرددها بكل طلاقة روعى ، صرت أتكلم بأسلوبه ومفرداته من قبيل : بيد أن ، مطلقا، طرا ، حاشا وكلا ، عن بكرة أبيها ، برمتها ، الشارع السياسي أزمة الشرق الأوسط ، التيارات التقدمية الإلعادية ، ماركس ، إنجلز ، فائض القيمة ، الصراع الطبقى ، مستقبل التيتوية ، عدم الإنحياز ، التقوق النووى ، شد البساط من تحت الأقدام ، سحب الثقة ... إلخ إلخ ، بل استطيع الهمبكة بالكثير من الكلام في شرح هذه العبارات إذا ما وقعت في مأزق حرج ..

قابلت الرئيس يا خال . كان جسدى كله ينتفض ، أحاول السيطرة عليه بكل قوة . وكنت واثقا أن هذه الرهبة مصدرها الجو المعيط بالزيارة للقصر وأنها سننتهى بمجرد رؤيتى للرئيس لأن الشبه الكبير بينه وبين محمد بك ابو شناف سيخدمني فكاننا أصدقاء قدامي .

كان اللقاء في بيته بجوار الشيراتون ، وكان الرئيس يرتدى بذلة فاخرة كانه المانيكان يا بوى ، شياكة لامثيل لها يا بوى ، عطور نفاذة . وكنت بدورى قد ارتديت بذلة تضارع بذلته في الفضامة من مجموعة البذلات الفاخرة التي اشتريتها من شارع الشواريي ، مع قمصان من العرير الطبيعي وأربطة عنق من أشهر الماركات العالمية ، ومجموعة أحذية يستخسر الواحد المشي بها على الأرض ولو مفروشة بالبساط .

خلعت العمامة وصففت شعرى عند الكوافير مساء أمس ، ودربت نفسى جيدا على نسيان الزى الجديد حتى لا أرتبك وأبدو كمحدث نعمة . قالت الشلة إننى أبدو مثل قدامى الباشوات ، وذهبوا ينتظروننى فى استراحة الشيراتون ..

بعد انتظار حوالى خمس بقائق فى الصالون شريت خلالها جرعتين من كوب الليمون المقدم لى فور دخولى ، أقبل الرئيس نحوى فانتفضت واقفا ، هروات نحوه لمقابلته متوقفا أن يفتح حضنه الأرتمى فيه . لكنه يا بوى كالنخلة المسلوبة ، فيما عدا وجهه المسترخى بابتسامة عريضة مشرقة . مد ذراعه الطويلة ، فقبضت على يده مسرت أهزها بحرارة ، فقستجيب يده بحرارة أشد . ثم أشار لى بالجلوس ، فجلست على أقرب كرسى له بعد أن جاس هو أولا ...

من لحظة وقوع بصرى عليه يا خال ، أيقنت أننى أمام محمد بك أبو شناف الحميم لى لكن ملامح وجهه ، طريقة سلامه على ، ثم أمره لى بالجلوس ، وقوله : أهلا وسهلا شرفت ، كل ذلك كان محايدا تعاما يا خال ، وصادر عن شخص لا يعرفنى على الإطلاق من قبل . ثم أنه وضع ساقا على ساق ، وأعاد الترحيب :

- -- «تشرب قهرة معي ؟! »
- «يزيدني شرف يا سيادة الرئيس!»
 - «مضبوطة؟!»
 - «نعم ياسيادة الرئيس!»

فصفق بيديه تصفيقة خفيفة ، فظهر السفرجي نو العمامة المرتفعة جدا والوجه الأسود . عاجله الرئيس قبل اقترابه :

- «مضبوطتان» -

انحنى السفرجي وخرج . قال سيادته :

- هيه ! ما الأخبار ؟!»

انبريت أخطب خطبة حسدت نفسى على قدرتى فى ارتجالها . ويظهر ياخال أن البنى أدم منا عنده قدرات كبيرة لا يعرفها ولاتبين إلا فى الزنقة . هنأته وهنأت الشعب المصرى والعرب وكل شعوب عدم الإنحياز وكل المقهورين فى الأرض . أعربت عن سعادتى وسعادة كل هؤلاء برئاسته الميمونة . دعوت الله أن يقيه شرور ألاديش ودراويش عبد الناصر . وأن يحميه من الشيوعيين ، ومن خبث الصهاينة الأشرار .

كررت أنتى بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن أهل دائرتى نتمنى له النصر المؤزر ونضم أنفسنا بكل ما نملك تحت تصرف سيادته .

صار هو يتابعنى بهزة من رأسه فى إعجاب ورضا وامتنان ، مع ابتسامة كبيرة والبايب – نفس بايب محمد بك ابو شناف – بين أسنانه البيضاء الناصعة . ثم فوجئت به يسائنى عن اسم دائرتى وعن موقعها بالضبط من خريطة الصعيد وعن حالة الأمن فيها، وحالتها الاقتصادية والاجتماعية بوجه عام . جعلت أحدثه فى كل ما طلب الاستعلام عنه حديثا مستقيضا .

استمع لى فى شغف وهدو، وروية ، لم يبد عليه مطلقا أنه على علم سابق بأى من هذه المعلومات . فأيقنت يا خال أننى بالفعل أمام حضرة الرئيس وليس محمد بك ابو شناف ، وأن هذه الشخصية تختلف عن تلك اختلافا بينا رغم تطابقهما فى الشكل والطول والصوت والعادات ولهجة الكلام . كنت أعتقد أنهما توأم ، لولا أن ذلك ليس موجودا فى تاريخ السادات .

ثم إنه شكرنى على هذه الروح الطيبة الشجاعة التى تتسم بها شخصية الصعيدى بوجه عام ، وفى منتهى الرقة أبدى ملاحظة بسيطة استشفها من كلامى إذ قال إنه يهمه أن يوضح لى نقطة بسيطة ربعا كانت غائبة عنى وعن البعض من أبناء شعبنا الطيب الأصيل ، تلك هى أنه — فى الواقع - يحب ويحترم عبد الناصر ، وأنه ماض على طريقه بإذن الله ، غير أن له طريقته الخاصة فى الحكم . ثم سائنى :

- «وبالناسبة ما هى الأخبار التى تسمعها عن ألاديش عبد الناصر هؤلاء كما
 تسميهم ؟!»

أدابت بكل ما عندى من تقارير سرية وعلنية ، جميع ما أخبرنى به بسبوسة ويريش وغزولي وهندى ، حتى الإشاعات المتطرفة حكيتها له باعتبارها معلومات وسعدت بأنه استمع لى ياخال فى صبر واهتمام . وكان الدفء ينبعث منه حارا غازيا ، فكأننى جالس إلى أخى الأكبر فعلا ، إذ يميل نحوى ويهمس متسائلا أو مستفسرا عن شئ ، موحيا لى بأن أخفض صوتى ، فأخفضه إلى حد الهمس الحميم ، مما أشعرنى بأننا صديقان فى حالة ود ، أوحى لى ياخال أنه يبادلنى الأسرار ، والصفاء بمجرد نطقه لعبارات من قبيل : أعرف يا حسن! أنا لست غافلا يا حسن! سوف ترى عاقبة الشر والخيانة يا حسن! ربنا على الظالم يا حسن! للهم أن نضع يدنا فى يد كل الشرفاء يا حسن لخدمة مصر وانتشالها من الكرب!إدع الله يا حسن أن يوفقنا فى خدمة هذا الشعب السكين ! فى اشباع الجياع . و سيادة القانون! خلك على اتصال بى يا حسن! مكتبى مفتوح لك ولكل الناس الطبيين! مم السلامة يا حسن! شرفت!! ..

هذه العبارات يا خال أقنعتنى بأننى فى حضرة ولى من أولياء الله الصالحين ، وأنه مثلنا يتحدث ويفكر كما نتحدث ونفكر . قل إننى أحببته يا خال ، آمنت بزعامته ، وعقدت النية على أن أكون من رجاله المخلصين ..

أثناء خروجى من البيت متجها إلى استراحة الشيراتون لم أفلح فى طرد شبح محمد بك أبو شناف الذى شعرت أنه كثيرا ما كان يطل من حديث الرجل فى لمحات خاطفة . ممار يلطشنى فى رأسى فيخيل لى كأن الحرس الجمهورى المبثوث حولى سوف يضبطنى متلبسا بالمقارنة بين الرئيس وشخصية كهذه .

رأيت الشلة تتحلق مائدة بجوار حمام السباحة ، ضحكوا ضحكا عميقا لرؤيتي ، هتفوا في نفس واحد الحمد لله ، فاستريت في لهجتهم يا يوي .

صمموا على الغداء هذا ، قلت : وماله ، حلاوة مقابلتى للرئيس . وفيما أنا منهمك في دفع فاتورة الحساب الحراقة قال بسبوسة – أغلب الظن ليصرف ذهني عن استهوال المبلغ :

- «ألم تر جدول مواعيدك؟!»
 - 418x -
 - قال بريش:
- «غدا بإذن الله نحن مدعوون على العشاء في منزل ضيفنا القديم الحاج أحمد نوار الدين السني !»

أخذتنى المفاجأة يا خال ، فهذه أول مرة أدعى فيها إلى بيت الحاج أحمد نوار الدين السنى وأنا في ثوبى الجديد بشخصيتى الجديدة ، فكيف ترانى سأتصرف حيال مأزق كهذا يا بوى ؟! قعدة الحاج أحمد نوار الدين السنى عرفتنى كصبى غرزة ، مجرد نفر من أنتن اللصوص يقوم بخدمة البكوات يمسك لهم بالجوزة ، هذا واقع ماثل لم يمض عليه وقت طويل ، فكيف أذهب إليها الآن وأنا عضو في البرلمان ولى خدم وحاشية وسائق وهيئة مكتب وسيارة ملاكى وبطاقات مطبوعة باسمى !! وهل ترانى سأجلس بين البكوات حسب وضعى الآن ؟! أم أن أصلى سيخلب ويعود بي رغما عنى إلى وضعى القديم ؟ ومن هم البكوات الذين سيحضرون حفل العشاء يا ترى ؟

يظهر يا خال أننى فكرت هكذا بصوت عال ، لأن بريش رد في الحال قائلا :

- «المدعوون ليسوا غرباء عنك ! إنهم نفس الوجوه التي تعرفها : محمد بك ابو
شناف (وانفجرت ضحكة مساعقة لفتت إلينا الأنظار بكثير من الاشمئزاز
والاستنكار إذ كانت بالفعل سوقية يا بوي» والشيخة سعادة ! وحسن بك عضو
مجلس قيادة الثورة ! والحاج قدرى ! والمقدس زخاروس تاجر الآثار و المعلم
عطاطس وحازم وأصدقاؤه ويقية الناس الهردييس ! المناسبة طبعا هي عيد ميلاد
البنته ! غير أن المغل هذه المرة كما يقول سيكون على القد وليس مثل كل سنة !! »
لستني هذه العبارات الأخيرة . وجدتني أصبح :

- «أ ...أ ...أ ... لماذا على القد هذا العام بالذات ؟!»

قال بسبوسة كأنه يفسر شيئا في غير حاجة لتفسير :

 السبب واضح: الرجل يئس من العقلات الواسعة!! الهدف منها لا يتحقق أبدا!! فسلم أمره لله وقال لا داعى للتكاليف الباهظة!!»

- «وما هو هذا الهدف الذي لا يتحقق يا بو العم؟! »

- «البنت عانس كما تعلم! فرغم جمالها الصاروخي ورغم ثراء أبيها الفاحش لم يتقدم لها العريس المناسب!! كانت حفلات عيد الميلاد هذه كمصيدة للإيقاع بعريس ترضى عنه البنت ويوافق مزاج الحاج! فالرجل وابنته لديهما اعتقاد بأن كل من يتقدم لها - وهي الوحيدة - لابد أن يكون طامعا في ثروتها الكبيرة التي سترثها !! البنت نفسها تضع شروطا معقدة فيمن تتزوجه! منها أن تحبه وأن تتكد من أنه يحبها الشخصيتها كانت النتيجة أن تعقرب أمر زواجها! كثر الخطاب دفعة واحدة وإحدة أيضنا !! على فكرة! هذا هو السر في أن الشيخ السنى يكثر من دعوة الشيخة سعادة لعلها تنجح في عمل سحرى يفك

- «انتظر هنا يا بسبوسة! كيف تتأكد البنت من حب شخص أو عدم حبه مادامت هي محبوسة في البيت وليس لها علاقات كما أنها ليس لها عمل تحتك فيه بالشباب؟!»

شخر بسبوسة شخرة خافتة لم يسمعها لحسن الحظ أحد سوانا:

- «من قال إنها محبوسة يا سعادة البك ؟! إنها أولا تخرجت في الجامعة الأمريكية وتجيد عدة لفات إجادة تامة يمكن أن تعيش في الخارج بدون أي مشاكل !! ثانيا هي عضو بارز في نادى الجزيرة وسيارتها البويك مركونة دائما أمام النادى ! وتنزل حمام السباحة باستمرار ! ومشجعة كبيرة لفريق النادى

الأهلى لكرة القدم وتدفع للاعبين مكافآت فوز! وتعزمهم فى كل مناسبة! ولها صداقات قوية بين جميع كبار الفنانين بجميع مستوياتهم وألوانهم! ولعلمك فهى على علاقة وثيقة بكثير من الأميرات العرب تعزمهن ويعزمنها باستمرار! وتعرف بدلا من الشاب ألف شاب!! أما أن تعطى مفتاح قلبها ومفتاح خزينة أبيها لأحد فهذا هو بيت القصيده! فهمت يا سعادة البيه ؟!»

قال هندى بهدوئه المعتاد ، وثلاثة أرباع كلامه دائما غمز بالعينين والشفتين والحاجب واليدين ، إذ يبدأ العبارة ويكملها بالغمز والحركات :

- «نسى بسبس أن يقول الله : إن يعض نجوم القن اللامعين جدا جدا تقدموا لها ! لكنها ! كما تقول : إنها هى ! هى المشكلة ! والمشكلة هى ! أخذت بالله ؟ العقدة كلها فيها ! بماغها ! تعرف ؟ دماغ مقطوش كدماغ أبيها بالضبط ! وللعلم ! أقولها ورزقى على الله ! هى ليست ! أقصد ! من ناحية الجمال يعنى ! فى مرة قريت وجهى من وجهها أتصدق ؟ نقرت منها ! أى والله نقرت ! فى الأول كنت أتمنى تقبيلها ! فلما أقتريت منها عن غير قصد طبعا تصور ؟ جاعى شعور بأننى سأقبل الحاج أحمد نوار الدين السنى فى شفتيه ! هى جميلة طبعا ما قلت فى ذلك شيئا ! إنما بمها ! هو نفس دم الحاج ! والحاج يمكن أن يكون خفيف الظل واكن دمه على امرأة ؟! إسمح لى !!»

ضحكنا في مرح ، قال بريش بلهجة حكيمة رصينة !

- «سيبك من كل هذا! البنت سوقها واقف لما يشاع عن علاقة محرمة بين أبيها وبينها! أستغفر الله العظيم يا جماعة !!أنا شخصيا لست متأكدا من صدق هذه الشائعة التي سمعتها بأذنى كثيرا في نادى الجزيرة مؤخرا!! وما أستطيع تأكيده هو أن البنت مصابة بعقدة اسمها عقدة أليكترا قرأت عنها كثيرا وفهمت أنها معروفة للأدباء وأطباء النفس!! مشهورة!! ومعناها أن البنت تعشق أباها أو

أخاها نسبة لشخصية في مسرحية عالمية اسمها اليكترا كانت هكذا والله أعلم !! وفي ظنى أن الحاج وإن كان بريئا من الانس فإنه مسئول بشكل أو بآخر عن تتمية هذه العقدة في نفسية البنت فقد أغدق عليها عطفا مبالغا فيه لأنها وحيدته ويتيمة من أم كان يقدسها لأنها صاحبة هذا العز الذي هو فيه وهذا البيت في الأصل بيتها ! البنت الآن عمرها فوق الثلاثين ولا ترى غيره أمامها ! ومع ذلك تبدو كفتاة في الاعدادية !!»

علق بسبوسة بخبث شديد :

- «والحاج هو الآخر عنس ولم يجد من تتزوحه رغم أنه حاول كثيرا من أجل انجاب ولد يرث ثروته ! كل النساء اللاتى تقدم لهن أيام الشقاوة كن يقبلنه فى الفراش ويرفضنه كزوج !! إنه فى الفراش دقرم جبار ! لكن النساء مدريات على اكتشاف الرجل البسكوته ! فالرجل البسكوتة أحسن من يضاجع ! ونوق الحاج يرميه دائما على نوع معين من نساء النوق القديم اللائى لا يعجبن ابنته ولا توافق عليهن !! يموت فى اللحم الكثير ! والملحمات يفضلن ابتزازه بدلا من وجع الدماغ مع ابنته ! فابنته هذه يكفيك شرها ! أكبر متسلطة شفتها فى حياتى والحاج لايخاف إلا منها !!»

قرفت والله يا خال من هذه الشلة الوسخة ولد الأبالسة ، صحت فيهم بأعصاب متوترة :

- «المهم الآن ياولد الأبالسة هل سنروح الحقلة ؟!»

قال بريش في حماسة :

- «طبعا ؛ نحن أول من يروح !!» -

- حلو! هل سنكون بكوات هذه المرة أم ياترى سيصر البكوات على معاملتنا القديمة كخدم وألاديش ؟!»

- قال هندي ساخرا:
- ومن فات قديمه تاه !!»
 - وقال غزولي :
- «اللهم علَّى مراتبنا ووطى نقوسنا !!»
 - رقال بسبوسة :
- «الناس على دين ملوكهم يا حسن بك! مثلما تفعل سنفعل!! » وهتف بريش في انفعال وجدية ، مقطب الجبين:
- مما هذا الكلام الفارغ ؟ سنحضر كبكوات طبعا ! نضع أرجلنا في عين التخين ونطلب من يخدمنا ! نحن لابد أن نروح لنشعر ببكويتنا ! نفرضها !! المثل يقول : أصلك وقتك ! ونحن الآن في وضع مختلف لقد محونا الماضى بأستيكة ! والحاج نفسه لابد أن يكون واعيا بهذا من قبلنا !! وإن لم يفطن نقطنه غصبا عنه !! من فيهم سيكون أشيك منك ؟! سيارتك أفخم !! و الأهم من ذلك معك حاشية ورجال ! وقابلت رئيس الجمهورية شخصيا وتحدثت معه كأصدقاء ! أنت يجب أن تكون نجم الحفل أنسيت الدرس الذي علمته لك ؟ تصرف دائما كواحد من كبار رجال الدولة المتمتعين بالحصانة!!»
- «تشكر يابق العم! أنا فعلا يجب أن أتذكر هذا دائما !! خلاص يا بق العم!
 نروح الحقل غدا كيكوات !!»

في مساء الغد كنا - أنا وولد الأبالسة - على سنجة عشرة . لبست بذلة كحلية اللون غامقة من الصوف الهيلد المعتبر على قميص لينوه الشوريجي زهرى اللون بياقة صلبة ، ورباط عنق قرمزى اللون عليه رسوم زخرفية رصينة مشبوك بدبوس من الذهب الخالص .

أما الحداء فإيطالي المنع يلمع كالمرأة المعقولة رغم سواده الفاحم . كل ما

كان يضايقنى هو منظر أصابع يدى بما تتراكم عليها من صدأ خشن لم تفلح الليفة فى تنعيمه ، كذلك كانت شياكة الشلة كلها ، حتى أن صياع مصر عتيقة الذين يعرفون أصولنا ظهر الانبهار الشديد فى عيونهم فانحنوا لنا فى تبجيل ، وتلك هى الدنيا يا بوى ، مظاهر فى مظاهر .

أوراق السر الأصغر

الواد بسبوسة الدقرم عينه ثاقبة طول عمره ، لاحظ ونحن نقترب من بيت الحاج نوار الدين أن الجو فية شئ غير طبيعى : ثمة سيارات سوداء تركت فى زوايا مظلمة تطل من وراء زجاجها عيون متلصصة متقحصة و شبان فى ثياب بسيطة يقفون فى زهو ولا مبالاة مفتعلة يقول منظرهم : نحن مهمون ، يحتلون النواصى وحول البيت وسرادق البضائع – تكاد عين الواحد منهم تستوقفك تشدك من قفاك ، لا لتستعلم عن شخصيتك وتستطلع هويتك بل لمجرد أن تقول لك .

في مدخل البيت ، ذلك المر الضيق القصير المؤدى إلى الباب الرئيسي وقف ثلاثة أشخاص لم نرهم من قبل ولا نعرف عنهم أي شيّ مع أننا نعرف كافة المتصلين بالحاج سواء من العملاء أو اللصوص أو السماسرة أو البلطجية أو الأصدقاء.

كانوا على شئ كثير من اللباقة والمرونة والفهلوة ، يوهمون كل داخل أنهم من ألاديش الحاج أوقفهم هنا لإدخال المدعوين قحسب ممن يحملون بطاقة مطبوعة

باسمهم ، واحتجاز كل ذي شكل مريب .

كانوا - تقريبا على وعى بكل داخل ، ينادون البعض بأسمائهم مسبوقة أو متبوعة بلقي : بك أو باشا .

ريك والحق لم أسترح لهذا الجو يابوى . بالفهلوة شعرت أن ولد الأبالسة من الشلة الوسخة يعرفون حقيقة الأمر ولا يريدون كشفها لى لسبب من الأسباب ، فلريما وقر فى أذهانهم أننى لو عرفت السر الذى يعرفون فقد أرتبك أو تنهار شخصيتى حيث كثيرا ما يشعروننى بأن لهم الفضل فى تلفيقها بنجاح يشهد ببراعتهم .

كنا نمشى بقوام مشدود ووقار يليق ببكوات أصلاء: بريش على يمينى ، وبسبوسة على يسارى ، وغزولى وهندى خلفنا لزوم الحرس والتأمين متعمدين إظهار ذلك المظهر للعيان سيما وأن هندى كان بارعا جدا فى تقليد دور الياور أو البودى جارد المطلوب منه حماية شخصية كبيرة . همست ليسبوسة :

- «ماذا في الأمريا بسبوسة ؟! المسألة فيها سر! ويظهر لي أنك تعرفه !!» فعادر بريش بلهجة من بطمئن طفلا متوجيعا :
- «بالعكس! الامر واضح ومفهوم! فمن بين المدعوين عضو وربما أكثر بمجلس قيادته الثورة! ومن المؤكد طبعا أن محافظ القاهرة ومحافظ الجيزة مدعوان! ولو شغلت مخك الصعيدى فإنه يقول لك إن المدعوين في مثل هذه الحفلات الكبيرة هم دائما أشبه بالمجاميع المرتبطة ببعضها! بمعنى أنك إذا دعوت فلانا فلا بد أن تدعو بقية الطاقم الموازى له في الأهمية! يعنى سيكون هنا

بالضرورة مدير الأمن ومساعدوه ورجاله! وعلى كل ماذا يهمنا؟

رأسنا برأس الجميع هنا! أنت أيضًا طاقم! فيما أنك عضو في البرلمان! وصاحب أعمال فلايد أن يرافقك رجالك!!»

رفع يده بالتحية العابرة للثلاثة الواقعين ، بحركة غاية في الرصانة المتقنة لا يفعلها إلا كل شخصية خطيرة ذات نفوذ . بذلك ربوا عليه في احترام وحماسة كبرين :

- «أهلا يا افندى! شرفتم! تفضلوا!!»

تقدمنا أحد الأدلاء إلى الطابق الثانى حيث الردهة الكبيرة المستطيلة العريضة المعددة في الأصل لمثل هذه الإحتفالات حيث ترتفع أرضها في ركن منها بما يشكل مسرحا . جعل الدليل يرشدنا إلى الأماكن المخصيصة لجلوسنا وفقا لترتيب محكم.

المقاعد أفضم من مقاعد سينما الدرجة الأولى ، سمعت أن شركة متخصصة تأخذ الحفل من بابه مقاولة ، من المقاعد حتى العشاء والحلويات وجميع أنواع المشروبات . جلسنا متفرقين يابوى ، أنا فى مقدمة الصف الثانى بجوار وزير الداخلية مباشرة ، فى حين جلس رجالى فى صف يبعد خلف ظهرى بحوالى عشرة صفوف .

أكرن كانبا يا خال لو قلت إننى لم أرتجف من وزير الداخلية . تصور يا بوى ، لم أرتهب من جلستى مع الرئيس وارتعبت من وزير الداخلية وكتفى تلامس كتفه وفخذى يكاد يلتصق بفخذه . كنت أشيك منه بكثير جدا ، ومع ذلك فقد تجمع كل خوفى الأزلى من البوليس وكرهى الشديد له وانتصب وافقا فى جوفى كعود الحديد فى كير الحداد المشتعل ...

تذكرت في الحال نصيحة بريش: أنت حيث تضع نفسك بشرط أن تكون قويا من داخلك. عند ذلك اصطنعت كأنني لم أكن قد انتبهت للوزير أثناء جلوسي بحكم التهائي في الزهام والأضواء والحركة الصاخبة على الحلبة المرتفعة ، وها أنذا بدأت أتبين ما حولى ، و :

- «أهلا يا فندم فرصة سعيدة ! لامؤاخذه ! العتب على النظر !!»
 - بكل إريحية واحترام هز الرجل رأسه في امتنان:
 - ~ «أهلا يا حسن بك! أحتا الأسعد!!»

أخرجت علبه السجائر الأجنبية الطويلة ماركة دوموريه ، ثم قدمتها له :

- «سيجارة حضرتك !»
 - «شكرا ±»

وأطفأ عقبا كان بين أصبعيه ، في طفاية واقفة بين كل مقعدين ، ثم تناول سيجارة من علبتى ، ويسرعة أخرج ولاعته الرونسون البيضاء و .. تك أشعل لى ، ثم له ..

فجأة رأيت عبد المليم حافظ واقفا على الملبة ، فضبحت القاعة ضبحيجا لا مثيل له يا بوى صبياح وصفير وهياج وزغاريد مدوية . شكرهم عبد المليم ممسكا بالميكروفون في زهر حبيب ، وقال إنه رغم مرضه وانشغاله لم يطارعه قلبه في عدم المضور وأنه – بعد إننهم وإذن الأنسة العزيزة – سيغنى أغنية واحدة يختارونها فضبج الحضور بالطلب حتى استحال معرفة ما يطلبونه ، لكنه هو الوحيد الذي عرف أنهم طلبوا أغنية : زى الهوى ، إذ سرعان ما شوح بذراعيه للفرقة الموسيقية فانسابت على أوتار نغمات زى الهوى يا حبيبى زى الهوى وأه م الهوى ياحبيبى ، ه م الهوى .. ياحبيبى .

صارت القاعة تصاحبه بالتصفيق على الواحدة ، وصار هو يعيد ويزيد ويترنم حتى استغرقت الأغنية نصف ساعة كاملة .

اوح بيديه بالتحية فالنقته الآنسة وهو يهم بالانصراف ، احتضنته محتفظة بمسافة على قدر الحرج ، فقبلته على خديه ؛ رشقت على صدره جعرانا فرعونيا مطعما بالأحجار الكريمة بالغ الجمال ، فمال عليها قبلها في خديها ، ثم انصرف وسط تهليل وتصفيق وصفير .. بعده طلعت نجاة الصغيرة فغنت ! وصفوا لي المب وأما غربية ، وتألقت فعلا يا خال .

ثم توالت النمر ، وكلها دسمة مبهجة : محمد رشدى مع الراقصة سهير زكى ، على نغمات عدوية وآه باليل ياقمر ، محمد قنديل مع الراقصة نجرى فؤاد وأغنيتى جميل واسمر وأبو سمره السكرة ، عبد اللطيف التلبانى وبرج الجزيرة الله على سحرها ، ما هر العطار ويلغوه ، ومحمد العزبى ومواويله ، فايزة أحمد ويا أمه القمر ع الباب ، عادل مأمون وياللى مالكش حبيب بعدى تعالى هنينى وحدى ، شادية وعلى شط النيل يا حبيبى ، عايده الشاعر أيوه أه ، ليلى نظمى وع الزراعية يا رب اقابل حبيبى ، أما شكوكو فقد أكل الجو كله يا بوى. وكان الماج قد استلمه بمجرد وصوله فأرسله إلى القمرة العليا حيث عجن الصبيان الماج قد استلمه بمجرد وصوله فأرسله إلى القمرة العليا حيث عجن الصبيان دمه بالحشيش الصافى ، ونزل منها مرتدا يا الجلابية والطرطور ، متحزما بشال ، وهات يا رقص ويا تتكيت ومواويل فكاهية وحوار مع الأراجوز .. بعده انصرف الكثيرون ، معقصفت القاعة على الصفين الأماميين وبدأت فرقة موسيقية أخرى تتوزن أوتارها استعداداً لوصلة سيد مكاوى ..

أثناء ذلك حازاني الحاج نوار الدين واكزنى ، ثم غمزنى بأن أتبعه ، فإذا هو يصعد بي إلى القمرة العلوية . فوجئت على آخر سلمه بأننى وحدى ، فهممت بالنزول طالبا رجالى ، فلكزنى بلهجة مقحمة حازمة :

« لا تكن مخلولا !! هذه قعدة سرية وخاصة جدا !! ولولا علاقتك بالشيخة سعادة وكونك برلمانيا مادعوتك إليها !! ولكن اطمئن فرجائك هم أولادى كما تعرف وقد طيبت خاطرهم وشرحت لهم الموقف بوضوح وصراحة فتقبلوه عن طيب خاطر!! هم الآن سابحون مع الويسكي المعتبر وسيد مكاوى! خش خش !!»

دخلت يا برى . محمد بك أبو شناف - تانى ! ؟! فى المواجهة كالعادة . تحلف اليمين يابوى كدت أهتف صائحا : أهلا سيادة الرئيس . هو بعينيه يابوى الخالق الناطق ، ولولا أن الطاقية الشبيكة على رأسه ، والجلباب السكروتة الأبيض ، والعصا الأبنوس بجواره ، كل ذلك يشهد بأنه فلاح قادم لتوه من العزية ، لا يمكن أن يكون هذا العمدة الريفى القح هو نفسه ذلك البك المانيكان الذي استقبلني بالأمس فى قصره بجدية هائلة وملامح وجه محايدة تماما .

إنتعشت ملامح وجهه بمجرد رؤيتي ، وينفس المنوت المألوف صاح:

-- «من ؟ حسن ؟ معقول ؟ يا أرض احفظي ما عليك ! ألف مبروك يا سيادة التائب ! ألم أقل لك تشجع وافعلها ؟ ها أنت فعلتها ونجحت ! مليون براوة عليك! لا أحد أحسن من أحد !!»

سلمت عليه بحرارة ، وعلى ذلك المدعو حسن بك ذي اللحية السكسوكة والوجه المنتجهم الذي سبق والتقيته في استراحة القناطر . وكانت الشيخة سعادة قد راحت ترقبني من قعدتها في الركن من تحت الخمار الشفاف الذي أمعن في أبراز ملامح وجهها ، بأنفها المستقيم المدبب قليلا في شموخ ، وخديها البارزين ، وعينيها الواسعتين السوداوتين الساحرتين و مع ابتسامة ثقة وإعجاب وزهو تضئ ثفرها فيما هي تتأمل – شبه ذاهلة – شياكتي ويكويتي التي بدت متسقة على هيأتي .

سلمت عليها ناظرا في الأرض ، قبلت يدها الملفوفة في قفار حريري ، ثم جلست بجوارها متريما على الشلقة العالية .

قال محمد بك أبو شناف :

- «الليلة ياستنا الشيخة أنا مشوق لمعرفة طالعي !! إفتحى لى الكرتشينه ! قصد اقرئي لى ورقى عندك !! أنت سحرتني بالفعل ليلة قرأت لحسن بك طالع البلد ومستقبلها كعولة! من ليلتها وأنا أحام بأن تقرئى لى ورقى فأنا فى الحقيقة أمر الآن بفترة انتقال جذرية وصعبة وأحب أن أعرف رأسى من قدمى!! فمن يدرى؟ ربما استترت برأيك واستبصرت حقيقة سككى وحتلى معها كما يرمز له الورق! فإبدئي باسم الله!!ه

فتحت الشيخة سعادة حقيبتها السوداء ، أخرجت حزمة الورق ، فكت لفافتها الحريرية الممراء ، فصلت الجزء الصغير الذي مازات اذكر أن اسمه أوراق السر الأعظم ، أعانته إلى الحقيبة ، أبقت الجزء الكبير في يدها وهو المسمى – فيما أذكر بؤراق السر الأصغر ، قالت لمحمد بك أبو شناف :

- حكم عمر سيادتك ١٩٥
- قال بنبرة من التفاخر المبطنع :
- دستة وخمسون عاما على وجه التقريب !!»
 - صاحت الشيخة في ابتهاج :
- مبعدد أوراق البير الأصغر !! هذا قال سعيد من أولها !!»
 - «الحمد لله ! كله يقضل الله ويركة دعاء الوالدين !!»

هكذا قال وهو يتلمظ ثم يشعل البايب في استمتاع طفولي كبير. الشيخة قدمت له الأوراق با خال:

- «قم بنفسك بتفنيط الورق دون أن تنظر فيه !!»

بحركة لاعب كوتشينة عريق ومدرب قام بتفنيط الورق عدة مرات بحيث يضمن أن كل ورقة كانت تالية للأخرى لم تعد تالية لها . ثم قدمه إليها مقلوبا على وجهه مثلما نفعل مع ورق الكوتشينة بالضبط يا يوى .

قلبت هي الورق على ظهره في يدها ، نازعة الورقة ملوحة بها في غبطة ، ثم أعانتها فوق الورق ، وأزاحت الخمار عن وجهها ، فأضافت إلى ضوء الحجرة ضوع جديدا يا خال حتى لقد بحلق فيها الجميع منسحرا بهذا الجمال الخمرى الهادئ الرصين بكبريائه العظيم .

عنديدٌ قال محمد بيك ابق شنباف متعمدا إظهار نبرة الغزل :

- «يا أرض احفظي ما عليك !!»
- وقال حسن بك في تحفظ وتحرج:
- عما شاء الله ! ما شاء الله !! جوهرة مكتوبة !»

وعلق الحاج أحمد نوار الدين السنى وقد برقت في عينيه نظرته الطفولية الشقنة المرحة العابثة :

- «قل لها يا حسن بك : حرام إخفاء هذا الجمال الرياني !! هذا بخل يا ستنا الشيخة !!»

نكست وجهى في الأرض وقد غلت الدماء في عروقي يا خال ، صبرت أقرأ الفاتحة في سرى حتى لا تفضحني عيوني أو أفقد توازني . أما الشيخة سعادة فقد أحمر وجهها وتحول إلى بسمة نضرة ، ولما راقبتها من تحت لتحت رأيتها تعيد النظر في الورقة المسحوبة وتنقل بصرها بين الورق وملامح وجه محمد بك أبو شناف . كانت الورقة عبارة عن مجموعة من السيوف المتقاطعة كأنها غابة من السيوف كل سيف يحاول قطع الآخرين من منتصفه .. قالت الشيخة سعادة :

- «كنت تنوى السفر في هذا الأسبوع !!»

شحب وجهه في الحال يا بوي ، دمدمت البوارق في عينيه حتى كبنا نسمع لنظراته صوتا يا خال . لكنه قال :

- «صبح!! أنا أنوى السفر بعد غد إلى مكان ما !!»
 - «زيارة عمل استطلاعية !!»
 - «داخل مصر طبعا !!

- «ينصحك الورق بعدم السفر إلى هذا المشوار!!»
 - «اکذا !!» -
 - «هكذا يقول الورق !!»

نكس رأسه متفكرا في عمق وحيرة تدخل حسن بك في شئ من القلق الذي يخفى رغبة قوية في معرفة ما وراء هذه النصيحة . قال بلهجة من يعرف حقيقة الشوار المقصود :

«رأيى يا ستنا الشيخة أن تكشفى له الورق أكثر!! صارحيه بما ترينه فى
 الورق!!»

هزت الشيخة سعادة رأسها بالموافقة :

- «واجبى أن أنبهه إن كان سيادته مصرا على معرفة السبب فإنني أقوله !!»
 - «قوليه طبعا! ليس هنا من أحد غريب!!»
- «هناك نية غدر في طريقك! مؤامرة لقتلك من ناس متلاحمين بك تلاحم هذه
 السيوف ببعضها! السكة معقرية تماما! سيوف تتقاطع!!»

رام في قلق كبير جدا يا بوي :

- «الأمر هكذا إذن! والله لقد حدثنى قلبى بشئ من هذا صباح اليوم! قلب
 المؤمن دليله فعلا!! وبعد يا سننا الشيخة؟ ماذا يقول الورق أيضا؟!»
- «دعنى أرتب أوراق الكشف في مجموعاتها الأربع لكي أقرأ لك الورق من جميع النواحي!!»

شخصنا إليها جميعا يا خال ، فيما راحت هي تفرق الورق على الأرض في أربع مجموعات متجانسات ، كل مجموعة أربع عشرة ورقة ، أظن أننا جميعا حفظنا شكل الورق ، ورقة ورقة ..

هذه هي المجموعة الأولى: الورقة الأولى منها مرسوم عليها سيف نتار تمسكه

يد . الورقة الثانية مرسوم عليها سيفان متقاطعان في حركة التفاف مقوسة
بيضارية يتوسط القراغ بينهما وردة حمراء على بساط من زهور وأغصان صغراء
وخضراء . والورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاثة سيوف ، اثنان منها في حركة
التفاف بيضارية ، والسيف الثالث يخترق هذا الشكل البيضاوى عمونيا ، تتفرع
من هذا السيف أغصان الزهور بأوراق حمراء وخضراء وصفراء فكأن السيف
هو الذي طرحها .

الورقة الرابعة أربعة سيوف متعاشقة فى نفس الشكل البيضاوى كل سيفين يخترقان السيفين المتقابلين من الأطراف ، وفى قلب البيضة غصن أخضر على أصفر تتوسطه وردة حمراء ، وعند الأطراف المتعاشقة ورود ، وأغصان .

الورقة الخامسة تشبه الرابعة في شكل رسمها إلا أن السيف الخامس يخترق البيضة عموديا ، يلتف حوله غصن بأوراق خضراء ، أما مقبض السيف فأصفر على أحمر على أزرق .

الورقة السادسة سنة سيوف ، كل ثلاثة تتعاشق أطرافها مع الثلاثة المتقابلة في شكل بيضاوي يتوسطه غصن بأوراق خضراء وصفراء وحمراء في نهايته زهرة لوتس متفتحة عن أكمام صفراء. الورقة السابعة تشبه في رسمها الورقة السادسة إلا أن السيف السابع يخترق البيضة عموديا ، والأرضية تخلو من أي زهور أو أغصان . الورقة الثامنة مرسوم عليها ثمانية سيوف كل أربعة تتعاشق أطرافها مع الأربعة المتقابلة في شكل بيضاوي ، تتوسط الأرضية زهرة على شكل النيشان . والورقة التاسعة تشبه في رسمها شكل الورقة الثامنة إلا أن السيف التاسع يخترق البيضة ، والأرضية بيضاء من كل رسم . الورقة العاشرة تشبه التاسعة هي الأخرى إلا أن السيفين التاسع والعاشر يخترقان شكل البيضة في تقاطع من عند الرأس على شكل ميزان القباني . الورقة الحادية عشرة مرسوم في تقاطع من عند الرأس على شكل ميزان القباني . الورقة الحادية عشرة مرسوم في تقاطع من عند الرأس على شكل ميزان القباني . الورقة الحادية عشرة مرسوم

عليها صبورة ملك يلبس التاج على رأسه ويمسك بيمناه سيفا أصفر اللون كلون التاج مسكة تشريفية وسن السيف مرفوع لأعلى ، أما بذلة الملك فلونها خليط من الأصفر والأزرق وهي قطعتان عبارة عن سترة ووشاح وحول ساقيه جوريان أحمران وفوق الوشاح عباءة حمراء . والورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج على رأسها ؛ هي الأخرى تمسك بيمناها سيفا أصفر اللون مثل تاجها ، وإذا كان الملك يمسك السيف جالسا على كرسي العرش فإنها أمسكته وإتفة يحركة من تتأهب لأداء رقمية وقد يسطت كف يسراها كمن يشرح شيئا لأحد ، سيما وأن قوامها رشيق بديم ، فستانها ينساب ذيله على الأرض أزرق اللهن فوقه مريلة بكتفين أحمرين حتى الجذع أما بقية المريلة فلونها بني فاتح ، بكورنيش فيه زخارف زرقاء على أرضية صفراء . الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس بدرع أزرق وعباءة حمراء ، يركب فوق حصان جامح مندفع مرفوع القدمين الأماميتين في حالة انقضاض ، فيما أمسك الفارس بيمناه السيف في حالة من يهم بالضرب ، أما الورقة الرابعة عشرة والأخيرة فمرسوم عليها شاب فتى عارى الساقين يرتدي ما يشبه الفستان لونه أزرق بخطوط حمراء، واضعا يسراه خلف اليتيه في حركة انثناء رشيقة ، وبيمناه أمسك السيف مسكة تشريفية خالصة .. حاجة تهرس يا يوي .

تلك هى المجموعة الأولى يا خال . أما المجموعة الثانية فالورقة الأولى فيها مرسوم عليها قطعة نقود دائرية ، فوقها نقوش زخرفية ، والقطعة موضوعة بين غصنين عموديين على شكل الرسوم الزخرفية التى نراها في بعض البوابات الحديدية ، مما يدل على أن جميع النقوش الزخرفية التى نراها اليوم على البوابات والأبسطة وحوائط الريفيين المدهونة بواسطة الاسطنية إنما هى مأخوذة من هذه الرسوم وأمثالها يا خال .

الورقة الثانية مرسوم عليها قطعتا نقد كالبريزة الفضية يحتاط بهما شريط طبق الأصل من شريط التصوير السينمائي قبل تحميضه يأخذ شكل علامة استفهام برأسين ، وكل قطعة موضوعة داخل رأس من رأس علامة الاستقهام هذه.

الورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاث قطع دائرية ، والورقة مقسمة نصفان بالطول في قلب النصف الأول قطعة تحتاط بها الغصون والأوراق . في قلب النصف الثاني قطعتان متجاورتان تفصل بينهما غصون وأوراق ، القطع الثلاثة منقوشة بالأصفر والأخضر الزرعي والأغصان زرقاء على حمراء ، يقصل بين نصفي الورقة وردة على شكل النبشان .

الورقة الرابعة عليها أربع قطع وهى الأخرى مقسومة نصفين ، كل نصف عليه قطعتان متجاورتان بنفس اللونين الأصفر والأخضر ، وكل قطعتن يفصل بينهما غصن مهيب قاعدته حمراء وأوراقه زرقاء على الجانبين ، وفي الوسط أكمام لوبس صفراء متفتحة .

الورقة الخامسة عليها خمس قطع نقدية ، اثنان في اليمين واثنان في الشمال وخامسة في المنتصف ، ويفصل بين القطع غصون وأوراق لوتس حمراء .

الورقة السادسة مرسوم عليها ست قطع نقدية بنفس النقوش ينفس الألوان ، كل ثلاثة في جانب في وضع مثلث : اثنان وفوقهما واحدة ، ويفصل بين المثلثين غصون حمراء على زرقاء تتفرع من شيئ شبيه بالنيشان .

الورقة السابعة تشبه هذه الورقة في تشكيلها . كل ثلاث قطع في وحدة ثلاثية الوضع في ناحية أما القطعة السابعة ففي منتصف الورقة تحيط بها الغصون والأوراق .

الورقة الثامنة مقسمة إلى نصفين ، في كل نصف أربع قطع متقابلة تشبه في

وضعها شكل الصليب كل ضلع من أضلاعه الأربعة تمثله قطعة ، أما مركز الصليب عند نقطة التقاطع فيشبه مخدة بنية اللون غائرة من أطرافها الأربعة كأن كل قطعة قد طبعت على طرفها مستقرها المقرس ، ولكنك يمكن أن ترى الورقة على شكل آخر بأن ترى ثلاث قطع في كل جانب وبينهما قطعتان متجاورتان يفصل بينهما غصنان متعاكسان .

الورقة التاسعة شكلها أبدع: أربع قطع متجاورة في أعلى الورقة ، وأربع قطع متجاورة في أعلى الورقة ، وأربع قطع متجاورة في أسغلها ، والقطعة التاسعة في قلب الورقة كأنها نقطة الربط بين الأربع والأربع ، يمتد بالطول من جوار القطعة التاسعة هذه غصن زهرة لوتس مزبوجة متفتحة من ناحية ومضعومة من الناحية الأخرى ، والطرفان المتفتحان يفتحان على القطعة التاسعة من الجهتين ، الغصنان لونهما أحمر ، وكل غصن يتفرع منه فرعان متقابلان لونهما أزرق .

الورقة العاشرة منقسمة إلى وحدتين ، في كل وحدة خمس قطع ،اثنان في الأعلى واثنان في الأسفل ، والخامسة في القلب ، يفصل بين الوحدتين غصن منفتح أحمر :الون .

الورف السادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج على رأسه أصفر اللون ويلتحف بعباءة حمراء غامقة يجلس على كرسى العرش ممسكا بيسراه عصا صفراء، وبيمناه قطعة نقد كالرغيف، كانه يهم بقذفها إلى بعيد.

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها ملكة تلبس التاج الأصغر ، ترتدى ثويا سماويا فوقه بلوزة في لون عسل النحل وهي الأخرى تمسك بيسراها عصا صفراء وبيمناها قطعة نقد مشجرة كأنها تعرضها في المزاد .

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس فوق حصان في أون جنوع الشجرة ، يمسك بيمناه سيفا مخفوض الرأس السفل ، على رأسه خوذه يبزغ من رأسها زر كخصلة من ذيل الحصان ، وخلف رأسه قطعة نقد سابحة في الهواء كاتبا من أضغاث أحلامه .

أما الورقة الرابعة عشرة فمرسوم عليها صورة شاب فتى عارى الساقين على صدره درع مشغول بالقصب ، ويرفع بيمناه قطعة نقد ويشير بسبابة يسراه إلى الأرض .. حاجة تهوس يا بوى ..

أما المجموعة الثالثة يا خال ، فالورقة الأولى منها مرسوم عليها صورة كأس لها غطاء كالسكرية عليه زخارف باللون الأصفر والسمنى والأخضر و البنى ، في وسطها رسم صليب واضع ومحدد .

الورقة الثانية يا خال عليها كأسان من شكل مختلف بلا غطاء ، أرشق من الأول وأرق يفصل بينهما غصن كشجرة تحتوى الكأسين من الجانبين .

الورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاث كئوس ، اثنتان في القاعدة وواحدة في الأعلى في منتصف المسافة بين الكأسين ، لكن الزهور والأغصان تملأ الفراغ من جانبيه تحفظ للصورة توازنها بيفصل بينه وبين الكأسين ، وبين الكأسين وبعضهما غصن مزدوج بعنقودين من العنب .

الورقة الرابعة مرسوم عليها أربع كئوس ، إثنتان متجاورتان في الأسفل ، والمساحة الفاصلة بين الاثنتين والاثنتين مالانة بالزهور المتفتحة ، لونها لون الكئوس خليط بين الأحمر والأصفر والأخضر ، ويفصل بين الكاسين الأعليين عصاتان متقاطعتان مربوطتان عند التقاطع بشريط حريري أزرق .

الورقة الخامسة تشبه الرابعة: كأسان في الأعلى وكأسان في الأسفل، والكأس الخامس في المنتصف بين غصنين أحمرين متقتحين.

الورقة السادسة مرسوم عليها ست كثوس ، ثلاث متجاورة في الأعلى وثلاث متجاورة في الأسفل ، والمساحة بينهما مالانة بغصن يأخذ شكل المقرب ، ملون

بالأحمر والأزرق ، أما الكثوس فكلها صفراء اللون مشوبة بالاخضرار الخفيف ومكرنشة عند القاع بحزام أحمر فاقع كحبات عناب متكومة .

الورقة السابعة تشبه السادسة في شكلها إلا أن الكأس السابعة في منتصف الورقة ، تحتاط بها زهور ثمار في لون التمر وشكله .

الورقة الثامنة مقسمة إلى ثلاث وحدات: ثلاث كئوس متجاورة في الأعلى ، ومثلها في الأسفل ، واثنتان متجاورتان في المنتصف ، والمساحات بينها ملائة بالزهور والثمار.

الورقة التاسعة مرسوم عليها تسع كثوس: أربع في الأعلى وأربع في الأسفل والتاسع في المنتصف يحف به من الجانبين غصنا زيتون.

الورقة العاشرة تشبهها في الشكل إلا أن الكأسين التاسع والعاشر في المنتصف ، فرقهما غصن زيتون وتحتهما غصن زيتون .

الورقة الحادية عسرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج ويجلس على كرسى العرش يتكر عبيسراه على منضدة سطحها الرخامي مثبت على رقبة حصان وقائم كقدم الحصان طبق الأصل عصا الملك نائمة على كتفه الأيسر عود أمسك بيمناء كابنا كانه يقول : في منحتك .

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج الأصغر وتقف معسكة بيسراها نقس العصا ويمناها كأس كأنها تقدمه لمجهول غير ظاهر .

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس فوق حصان يخب خببا ويمسك بيمناه كأسا كأنه ينادى على من يملأه له .

الورقة الرابعة عشرة مرسوم عليها صورة شاب فتى كامل اللباس يمسك بيمناه غطاء رأس كالقبعة ، وبيسراه كأس في مسترى وجهه يبحلق فيها بعينيه .. حاجة تهرس يا بوى .

أما المجموعة الرابعة ، فالورقة الأولى منها مرسوم عليها صورة عصا غليظة جدا كفرع مقطوع لتوه من شجرة لا تزال أغصانها وأوراقها عالقة به ، تمسكها مد قوية بالوان حمراء وصفراء ومخضو ضرة .

أما الورقة الثانية فمرسوم عليها عصاتان متقاطعتان بعلامة إكس ، تشبهان أعمدة السرير الفلاحى القديم ذات العساكر النحاسية ، وكل الفراغات حول التقاطع من جميع النواحى مائنة بأوراق شجر كبيرة تأخذ شكل طيور بمناقير ، لونها أصفر وأخضر أما العصاتان فالأولى جزؤها الفوقى أحمر ورأس زرقاء فوقها رأس أخرى صفراء ، والجزء الوسطى أزرق والجزء السفلى بنفس لون الجزء الفوقى ، وكذلك العصا الثانية جزؤها الوسطى أصفر والفوقى والسفلى أزرق ورأسها حمراء وصفراء .

الورقة الثالثة يا خال مرسوم عليها ثلاث عصبى ، اثنتان منها متقاطعتان والثالثة تخترق التقاطع عموديا ، والفراغ في الجانبين ملأن بأوراق شجر على شكل طبور مريشة .

الورقة الرابعة مرسوم عليها أربع عصى ، اثنتان منها تتقاطعان مع آئنتين ، وقراغ الجانبين مشغول بأوراق شجر على شكل طيور تنوعت أجناسها أما الفراغان الفوقى والسفلى فقى كل منهما غصن مورق ينتهى بوردة .

الورقة الخامسة مرسوم عليها خمس عصى ، وشكلها يشبه شكل الرابعة إلا أن العصا الخامسة تخترق التقاطع عموديا ، قد طرحت العصى أغصان ورد مورقة وامتلأت الفراغات بأوراق شجر على هيئة طيور .

الورقة السادسة ثلاث تتقاطع مع ثلاث تحتاطها الأغصان المورقة والورود ، الورقة السابعة شكلها نفس شكل السادسة إلا أن العصا السابعة تخترق التقاطع عموديا والفراغات ملائة بالأغصان المورقة .

الورقة الثامنة أربع تتقاطع مع أربع ، والفراغات القليلة تزدان بأغسان ورد مورقة .

الورقة التاسعة شكلها نفس شكل الثامنة إلا أن العصا التاسعة تخترق التقاطم عموديا مم زهرتين في موضم التقاطم .

الورقة العاشرة شكلها نفس الشكل إلا أن العصا التاسعة والعاشرة تخترقان التقاطع عموديا مع رُهرتين في موضع التقاطع .

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج ويجلس على كرسى العرش ممسكا بعصا طويلة كالحرية .

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج على رأسها وتقف مسكة بعصا ، نفس عصا الملك في يمناها ، وفي يسراها شيّ غامض تشير به إلى المصا .

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها فارس فوق حصان شرس متمرد رافع قدميه الأماميتين في نكوص وإحجام ، والفارس يرفع العصا بيمناه كانه يهم بضربه الإزامه حد الطاعة .

الورقة الرابعة عشرة مرسوم عليها شاب فتى يقف فى وضع انتباه ، يمسك بيسراه غطاء رأس كالقبعة وييمناه العصا بمسكة حرية ،، حاجة تهوس يا بوى ،،

كلنا يا خال دفعنا الفضول إلى التغرج على هذه التصاوير وفحصها ورقة ورقة كأننا نبحث خلف تصاويرها الغربية هذه عن أسرار مهولة غامضة.

وقال محمد بك أبو شناف:

«شئ في منتهى العجب! هي بالفعل أوراق سحر! ولابد أن راسمها قصد
 من ورائها شيئا رمزيا!!»

وقال حسن بك نو اللحية السكسوكية غير المنسقة على شكله كواحد من

الضباط الأحرار وعضو مجلس قيادة الثورة كما يزعمون:

- «أوراق السحر هكذا دائما يامحمد بك ! سبحانه جلت قدرته يعطى أسراره لمن يشاء ويلهم قراحها من يشاء ! لقد خاطبنا سبحانه وتعالى بالكلمة المصورة في قرآنه فلا عجب أن يلهم عبيده مخاطبته بالصورة المرسومة الملونة !! يضع سره في أضعف خلقه يا محمد بك ! وأنا وأنت وأمثالنا من المتعلمين تعليما عاليا لا نفقه شيئا في مثل هذه الأمور السحرية على سبيل المثال في حين قد يفقه فيها من لم يدخل المدارس !! ملك يا محمد بك نظمه سيده !! سبحانه تبارك وتعالى !!» أخذ الحاج أحمد نوار الدين السنى يلوح بأصابعه الطويلة الصدئة المزادنة بخواتم فضية وذهبية غليظة ، في الأصبم الواحد خاتمان وربما ثلاثة .

نظرته الصبيانية العابثة المحة تتلألاً في عينيه وهو يقول:

- «شف يا حسن بك! والكلام الك أيضا يا محمد بك! هذه الأوراق مصرية أي نعم لكنها مرسومة في العصر الروماني! هذا واضبع!! ملامح الوجوه رومانية! حتى الشعر وطريقة تصفيفه! طبعا! هذا لا يمنع أن تكون الأفكار مصرية فرعونية ولكن ..»

قاطعه حسن بك :

«الله أعلم على كل حال !! ولكن ما قولك أننى كنت على علاقة ذات يوم قريب
 ببعض الأسياد من الجن من نوى الجنسية المصرية !! ...»

قاطعته الصاعقة ، أقصد الضحكة يا خال ، التي فجرها محمد بك أبو شناف، فاتسعت في التو أصواتنا جميعا فيما راح حسن بك ينظر فينا بحرج شاحب السمات .

وكان محمد بك يهتز من قرط الضحك العميق ويمسح عينيه بمنديل.

قال الحاج أحمد نوار الدين السني بلهجة اعتراض بشويها التحفظ الساخر ،

- «هذه أول مرة أعرف أن هناك جنيا مصريا وآخر سودانيا وشاميا وتركيا!!»

هتف حسن بك في غضب مشيرا إلى الشيخة سعادة التي كانت تكتم ضحكها بقوة خرافية:

- «إسال سنتا الشيخة وهي تقول لك !!»

في ذكاء منقطم النظير وسرعة بديهة تحسد عليها قالت الشيخة سعادة :

- «عدم المؤاخذة! الجن يتشكل للإنسان في صور كثيرة! ربما جاء على هيئة المرأة جميلة من أولاد البلد المصريات! فلا تستغرب يا عم إذا لا سمح الله الشر بره وبعيد - ركبك جن إنكليزي أو فرنساوي!!»

بلهجة من لايريد الدخول في تفاصيل رفع كتفيه في عدم اقتناع وأضبع:

- «ممكن على كل حال! كل شيّ جايز!!»

- «طبعا يا عم الحاج! مادمت أمنت بوجود الجن فلابد أن تؤمن بكل ما يفعله وما يظهر به من أشكال وأرواح وشخصيات وكل ما لا يخطر على البال!!»

هكذا أضافت الشيخة سعادة ، فعلق حسن بك في حماسة بالغة :

- «أفادك الله يا سنتنا الشيخة!! الجن نفسه كان يزورني في أوقات عصبية! أ أحيانا وأنا مجتمع بزملائي! ويقول لي كلاما غريبا: أنا مصرى وخائف على مستقبل البلاد منكم! يقصد زملائي في الحكم! وكنت ومازلت أوافقه!!»

كأنما لينهى المناقشة المغرقة في الفكاهة قال محمد بك:

- «المهم يا سنتنا الشيخة سعادة! أكملي قراحة ورقي!!»

أشارت الشيخة إلى المجموعات الورقية بعد أن انتهت من ترتيبها ورصها بعد أن عشت مها أمادينا . قالت :

- «تحب أن نبدأ بأي مجموعة من هذه ؟!»

أشار محمد بك إلى المجموعة الأولى ، أغلب الظن ليدرأ عن نفسه مأزق وشؤم المفاضلة في الاختدار . قال :

« ! aia» --

قالها بلهجة من يقول: بختك يا بو بخيت . فرفعت الشيخة سعادة المجموعة وأعطتها له قائلة:

- «فنطها!»

فنطها وأبقاها في يده ، قالت له :

- «إختر ورقة لأقرأها لك !!»

هنا ارتعشت أصابعه يا خال ، وارتبك ، حاول نزع ورقة بطريقة عشوائية عميانية ، فالتقطت أصابعه ورقتين مضمومتين على أنهما ورقة واحدة ، سلمهما للشبخة ، فإذا بها تبتسم قائلة :

- «هكذا شاء بختك فالورقتان الآن ورقة واحدة بالنسبة لك والمثبوت فيهما متصل ببعضه ويك في معنى واحد !! نشوف على كل حال !»

وكانت الورقتان مقاويتين ، فعدات الأولى وعرضتها لنا ثم نظرت فيها.

كانت هي صورة الملك جالسا على كرسي العرش ممسكا بالسيف في يمينه .

قالت الشيخة سعادة :

- دباسم الله ما شاء الله أنت على كرسى العرش جالس غير أن الحرب مفروضة عليك فرضا لا مفر من خوضها ولا مهرب يعنى ستحارب ستحارب ندعوا الله سبحانه وتعالى أن يتصرك !!»

فتيسم محمد بك أبو شناف ، وشملته رعدة فرح تنضع زهوا ، كأن النبوحة قد أصابت فيه منطقة غرور يحبها ، ثم جعل يردد في تهدج كنه يختم الصلاة :

- «اللهم لاحول ولاقوة إلا بالله! اللهم أعنى على قدرى وأمنحنى الفطنة!! تمام يا سننا الشيخة! أفادك الله!!»

قلبت الورقة الثانية التي كانت لصيقة بالأولى . تجهمت فجأة ، كانت هي صورة الثناب الفتي ممسكا بالسيف ، قالت متحاشية النظر إلى أحد :

- «ولكن! هذا قضاء الله يا محمد بك! ستفقد في هذه الصروب واحدا من

نريتك ! ابنك أو أخاك ! هذا ما يقوله الورق والله أعلم طبعا لكن علينا أن نتقبل الضور والحزن مثلما نتقبل الخير والقرح بروح طبية !!»

إرتعد محمد بك بالفعل يا خال ، ظهر عليه قليل من الاضطراب والتشاؤم ، واكنه قال :

- مونعم بالله !! أنا مؤمن شديد الإيمان !! ومادمت سأخوض حربا مقدسة
 من المحتمل أن أموت فيها فمن باب أولى أتقبل استشهاد أحد أبنائي فيها !!»

- «والآن أي مجموعة تختار ؟»

أشار إلى المجموعة الثانية :

- «هذه بإذن الله !»

كانت هي مجموعة النقود . فرفعتها الشيخة عن الأرض سلمتها له . مبار يفنطها عدة مرات ، وينفس الطريقة العشوائية سحب ورقة فإذا هي الورقة العاشرة ذات القطع النقدية العشرة .

أشرق وجه الشيخة سعادة ، فتسريت عنوى الإشراق إلى وجوهنا قالت :

- ديعطيك الله مالا بغير حدود فعسى أن تنفقها في أعمال البر والخير ومهما أنفقت فإن الله يزيدك على الدوام أضعاف ما تنفق واسوف يضاعف اك حتى لو لم تنفق في سبيله وهذا حظك مرسوم وناطق بالسعد !!»

رمقه حسن بك في كثير من العسد والفيرة ، ولكنه سرعان ما عدل النظارة الطبية على وجهه ونكس رأسه في الأرض مهمهما :

- «لا إله إلا هو !!»

وتهدج صوت محمد بك :

- «اللهم لك ألف حمد وألف شكر !! اللهم إنى زاهد في المال وأنت تغرقني
بنعمتك !!»

ثم مد يده تلقائيا ورفع المجموعة الثالثة وجعل يفنطها بعناية .

كانت هى مجموعة الكئوس يا يوى . وسحب ورقة مسبوقة بالبسملة ، فردتها الشيخة سعادة فإذا هى الورقة التاسعة تضم تسم كئوس . صارت تتأملها مقطبة الجبين وقد صرنا جميعا في حالة ترقب ووجل . هتف محمد بك :

- «خيرا يا ستنا الشيخة ؟!»
- تنجنحت قليلا مسكة بصوتها:
- دورق الكئوس يقرأ الحظ بالذات! حظك يا محمد بك ضارب في السما كما هو واضح والورقة التي اخترتها بنفسك تقول إنك أوتيت والحمد لله جميع كئوس الحظ إلا كأسا واحدا وأو أنك اخترت الورقة العاشرة بالكئوس العشرة لاختلف الحظ أما وقد كشف حظك عن غياب الكأس العاشر فإنه يبدو أنه الكأس الوحيد الذي تسعى أنت اليه بكل وسيلة وربما دون أن تدرى والله وحده يعلم ماذا سيحتويه ذلك الكأس الغائب لكن المرجح أنك إن لم تسع اليه فسوف يسعى هو إليك وهو بكل أسف فأل ليس حسنا !!»
 - «أي كأس سيكون يا ترى ؟!»
- «الظاهر أنه يمثل شيئا غاب عن بالك وغير متوقع منك لكننا نطلب الستر
 من الله على كل حال !!»
 - «أبكون كأس الموت مثلا ؟!»
 - دريسما !!ه
 - «فهو إذن كأس دائر على كل العباد ؟!»
 - «نعم واكنه قد يأتي في ظرف حرج وغير متوقع بل غير مناسب !!»
- «مرحبا به في كل الأحوال! أنا رجل مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر بقدر
 ما أنا مؤمن بواجبى تجاه وطنى!!»

- «دعوتي لك بالتوفيق يا محمد بك !»

ثم سلمته المجموعة الرابعة ، مجموعة ورق العصى.

راح يفنطها بغير عناية هذه المرة ، وقد ظهر في وجهه لون من الشحوب يعكس قلقا غامضا . أخيراً سحب ورقة سلمها للشيخة سعادة التي راحت تتأملها .

كانت الورقة تحتوى على صورة الملكة المتوجة المسكة بالعصا . قالت له :

- «إمرأة مقربة إليك ربما كانت زوجك أختك إبنتك أو من نسلك لكنها من أترب الناس إليك مقدر لها ولك وللناس أن تمسك هى بالعصا فى يدها لتضرب بها كل من ليس على هواها ولسوف تضرب الكثيرين وتسبب الألم للكثيرين مالم تفطن أنت لها وتوقفها عند حدها فلريما نالتك عصاها أنت نفسك وإنك فى الواقع لمحبوب من الله ولذا فهو يكشف لك الأوراق كلها كى ينبهك إلى الأشياء قبل حدوثها بوقت طويل لتكون منها على بينة فلريما استطعت تدارك الأمور ومن المتوقع الله سناله التوفيق لنا جميعا أمين يارب العالمين !!»

شاركناها جميعا في هذه العبارة الأخيرة يا خال . رغم ما ظهر على وجه محمد بك من زهو وإشراق إلا أن مسحة من القلق كانت واضحة عليه ، فيما راح يرجه عبارات الشكر للشيخة سعادة والثناء على بصيرتها النيرة ، ويقول لها إنه تحت أمرها في كل وقت إذا ما احتاجت لأى خدمة .

جعلت هى تدعو له بطول العمر وبوام الصحة وروقان البال ، فيما أخذت تجمع ورقها تضمه إلى بعضه تعيد ربطه بالشريط الحريرى تضعه فى حقيبة يدها ناظرة إلى حسن بك نظرة ذات معنى حرت أنا فى تفسيرها يا بوى : أغلب الظن أنها تنبهه إلى رغبتها فى الانصراف .

سنالها حسن بك إن كانت في عجلة من أمرها فيأمر بتوصيلها حالا أم أن عندها فسحة من الوقت اقضاء يوم آخر أو يومين في ضيافته . فشكرته وبعت له بئن يظل بيته عامرا أبد الدهر ، ثم نهضت واقفة ، فنهضنا في أثرها . تقدم حسن بك وهي في أعقابه ، ومن خلفها محمد بك ، فالحاج أحمد نوار الدين السنى ، فأنا . سلمت علينا ، وغمزت يدى غمزة دافئة كأنها تبلغني رضاءها عنى . ثم ركبت الليموزين السوداء في المقعد الخلفي ، وركب حسن بك مع محمد بك في سيارته ، واتجهت أنا إلى سيارتي وقد شعرت أن حركة مفاجئة استيقظت في الشارع تحيط بنا في خفاء ظاهر ، أي والله يا بوي .

ينط

صحوت ذات عصرية على أحداث غريبة : موجة كاسحة من الاستقالات : رئيس مجلس الأمة ، وزير الإعلام ، وزير الحربية ، وزير شئون رياسة الجمهورية أعضاء من اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي ، وأعضاء اللجنة المركزية العليا ، كل هؤلاء استقالوا يا خال مرة واحدة في نشرة أخبار واحدة احتجاجا على قيام أنور السادات برفت وزير الداخلية ، حيث قيل إن الرئيس السادات اكتشف أن هذا الوزير تآمر على حياته ووضع خطة لاغتياله أثناء سفره إلى مديرية التحرير ، وأن السادات قد حصل على دليل حقيقي في يده ..

خيل أنا يا خال أن البلد قد انحلت عقل ظهرها وستقع في الحال مغشيا عليها.

ربك والحق يا بوى كتا لانزال خائفين من شبح عبد الناصر القوى المثل في كل رجاله والاديشه الذين كانت البلاد كلها في أيديهم يا بوى .

لكن شيئا من ذلك لم يحصل يا خال ، لم يخرج أحد في مظاهرة ، ولم يفك أحد فمه بكلمة . الظاهر يا خال أن الشعب أحب أن يتفرج فقد جاحه الفرصة على الطبطاب يابوى : وقعت الثورة في بعضها وياحبذا لو فتكت ببعضها وأراحتنا من كابوسها .

لكن السادات العقر انتصريا بوى ، تغدى بهم قبل أن يتعشوا به ، كل شيء كان جاهزا عنده ، أعلن التليفزيون إعادة تشكيل الوزارة ، ومضبت الحياة يا بوى والناس تضحك وتنبسط في الشوارع ، غرز الحشيش شغالة على سنجة عشرة ، والبارات مصهللة ، وأم كلثوم في المقاهى تردح بأعلى صوت ، والنغمة التي كانت

تتحدث بها الإذاعة مع الصحف عن عبد الناصر هي بنفسها الخالق الناطق التي تحدثت بها عن أثور السادات ، أصبح عندنا عهدان بائدان :

عهد ما قبل جمال عبد الناصر وعهد ما قبل أنور السادات ،

أجمعت الصحف على أنها ثورة على الثورة واسمها ثورة التصحيح ، هى الأخرى لها أغنيات وأناشيد ، ومحمد عبد الوهاب جاهز في الحال ومن ورائه حملة العيدان والآلاتية والشعراء والأصوات .

ذلك هو الشعب المصرى يا بوى: اللى يتجوز أمى أقول له يا عمى ، والكتاب والصحفيون ورسامو الصور المشلقطة الذين رفعوا عبد الناصر إلى السماء السابعة رفعوا أنور السادات إلى السماء الثامنة ، هات مدح هات يا رقص هات ياتلسين على عبد الناصر وثورته وذمته المالية وتسلطه وتكسيره لكرامة الشعب المصرى مع أن الذي يكسر كرامة الشعب المصرى حقا يا خال هو هذه القعال نفسها أكثر من غيرها ..

بینی وبینك یا خال أنا لم تكن تعجبنی هذه الفعال ، فعبد الناصر مهما كان بلدیاتنا ، ورافع رأسنا فی البلاد ، ومحررنا من الملك والاستعمار ، ومهما كانت فعاله فلا یصبح أن نجلده وهو میت و ولكن هل أستطیع أن أقول شیئا یا بوی ؟ لا طبعا یا بوی ، فالعیب فی الشعب المصری قبل أن یكون فی حكامه وألادیشهم .

هذه خميرة زرعتها أمم وأجناس شريرة من النين احتلوا بلادنا فبقيت بنورها في أرض مصر .

ومادامت مهمتنا ليست إصلاح الكون يا خال فلنعش أيامنا - على رأى بريش - بقدر ما نستطيع من الفخفخة ولا شأن لنا بالصبح والفلط إلا إذا كان الغلط

ضد مصلحتنا الشخصية .

إن الفيصل في حكم مصريا بوي - كما يقول بريش دائما - هو مدى قدرة الشلة المسيطرة على شكم غيرها من الشلل الطامعة في سرقة السيطرة ، ومدى قدرتها على التبجح و إنكار التهم وإخفاء الحقائق وطمس نور البصر عند الناس ومسح أمخاخهم ..

من حسن الحظ يا بوى أننى صار لى رأس بين الروس يمكن أن يكون له سعر وثمن ، فمالى لا أختار ذهب المعز دون سيفه ؟ ثم إننى أحببت الرئيس السادات فعلا يا بوى ، أرى أنه ولد فتوات أخذ الكرسى بذراعه من أنياب الأسود الشرسة الفادرة .

فإذا كان ألاديش عبد الناصر بكل جبروتهم المعروف قد سكنوا الجحور منذ أن حدد إقامتهم إلى أن حاكمهم وأودعهم السجون ، فهل يستطيع فلقوس مثلى أن يقول تلت التلاته كام ؟ لا يابوى ، يفتح الله ، أنا لا أعرف شيئا اسمه تلت التلاته من أصله ...

وهكذا يا بوى أصبحت صديقا للرئيس السادات ، يطلبنى كثيرا فى قعداته الخاصة ، فى أماكن غير معروفة ، يستأنسنى فأظل طول السهرة أعمل على إضحاكه والتسرية عنه كأننى بشهادته بعضمة لسانه أكبر ممثل كوميدى فى مصر وليتنى اتجهت للتمثيل من بدرى ، إلا أنها – فى رأيه، نفس الظروف التي منعته هو أيضا من احتراف التمثيل إذ حودت به على السياسة رغما عنه .

وهذا ما كان يملؤني زهوا ونفخة يا بوى إذ ها أنذا أشترك مع الرئيس السادات في بعض الصفات . كنت أقلد له عبد النامس وهو يخطب ولكن بكلام هزلى اخترعه قور اللحظة بحكم ما أصبحت أعرفه من معلومات وأسرار ، أقلد الوعاظ النصابين الذين ينتشرون في الصعيد وهم أجهل من أمى ، ويكلام هزلى أيضا ، أرفع نراعي منائحا في جدية شديدة وورع مصطنع بإتقان :

أقلد له من أسماهم بمراكز القوى ، فى كلامهم فى مشيهم فى صورتهم التى تنشرها الصحف . أحكى له أحدث نكتة عن الصعايدة ، فيستلقى على قفاه من الضحك .

وكان ضحكه يا بوى هو الشئ الوحيد الذي يقنعني بأنه يقلد محمد بك أبو شناف لحظة انبساطه في قعدة المزاج ..

النكتة التى عششت فى دماغه ، جعلته يطلب منى إلقاحها كلما التقانى ، ويضحك بعمق كأنه يسمعها دائما لأول مرة ، هى نكتة بخيت وبخيتة : بخيت أخذ بخيتة ازيارة سيدنا الحسين ، ركبا القطار ، بعد قليل صاحت بخيتة : عايزه اعمل زى الناس ، فأشار لها على المرحاض فذهبت وأغلقت الباب عليها فاطمأن وجلس واكنها غابت ، حيث خرجت من المرحاض فاختل دماغها فذهبت فى اتجاه أخر فتاهت فى القطار، فقام بخيت إلى المرحاض فوجده لايزال مغلقا من الداخل ، فطرقه بقيضة يده ، فأتاه من الداخل صوت رجل يصيح : إحم فهنف بخيت فى الحال : بخيتة عندك ؟!».

كان يقول إن هذه النكتة دليل على طيبة قلب الصعايدة وخفة ظلهم ، بعكس أهل مدن القناة السواحلية مثلا ، فهم في رأيه الثماء وخبثاء .

ثم يتباسط معى فيحكى هو الآخر نكتة عن أهل مدن القناة : «كان في زيارة لمدينة السويس بعد توليه الرياسة و قد دفعه الحنين لزيارة بعض سائقي الكميون الذين صاحبهم أثناء فترة الهروب من الانجليز حيث اشتغل سواقا الكميون هو الآخر ، فوجد أحدهم علي قيد الحياة فقرر أن يزوره في بيته إمعانا في التواضع وحلاوة النفس ، فسبقه البوليس والحرس والمخبرون فمشطوا المنطقة كلها فزرق هو إلى البيت في أمان ، وفيما هو جالس يتبادل حديث النكريات مع السائق العجوز دوى صراخ إمرأة تتألم ، فقيل له إنها زوج ابن السائق تلد وهذا فأل طيب ، فقرر في الحال صرف إعانة كبيرة عاجلة ، بعدها بقليل جاء زوج المرأة ليشكره على هذه الإنعامة الشريفة ، قال : الحمد الله يا سيادة الرئيس كنت قدم السعد علىنا فنتعها الله بالسلامة بعد أن كادت تموت !!

فساله الرئيس : ولد ولا بنت ؟ فقال الرجل : ولد يا سيادة الرئيس ! فسأله الرئيس : وناوى تسميه إيه ؟! قال الرجل : صراحة بصيت في شكله لقيته كشر وباين عليه حيطلم مفترى رحت مسميه جمال عبد الناصر !!»

وينفجر ضاحكا بعمق ، وأجاريه في الضحك ولكن يتحفظ ، ثم كان يتباسط معى أكثر فيقول لى – بما لا أدرى إن كان يقصد المدح أم الذم في الشعب المصرى:

- دالشعب المصرى لثيم ياحسن !! ولابد لمن يحكم هذا الشعب أن يكن ألأم وأمكر واحد فيه ! لأن أفراد الشعب سيعاملوه بكل لؤم ومكر على أساس أنه أكثر لؤما ومكرا منهم حتى ولو كان هو بريثا من المكر واللؤم والخداع !! فلابدله إذن أن يكون ألأم وأمكر حتى تتوازن الأمور !!»

الشاهد يا خال ، صرت أبرطع في البلاد طولا وعرضا أفعل كما أشاء ، أحقق أية فكرة تطق في رأسي مهما كانت مجنوبة . أصبحت أنا الآخر استعمل سيف المعز وذهبه ، فسيف المعز هو معرفة من بيدهم الحل والربط أننى من خلصاء الرئيس وأننى سميره ومضحكه ، أما ذهبه فيتمثل في الفرص التي تواتيني بسبب هذه العلاقة ، يعنى أنا أعيش في خيره يابوي .

بسيفه انخفضت لى الروس وانزاحت العقبات كلها عن سككى ، ومن خيره أغدقت على كل من يقدم لى خدمة ولو بسيطة ، والشعب المصرى - عدم المؤاخذة يابوى - يموت عشقا فيمن يغدق عليه .

مستعد هو لأن يغفر له كل ما تقدم من ذنبه وما تأخر. كن سفاحا يقتل القتيل ويمشى في جنازته ، كن لصا يسرق الكحل من العين ، وثق أنك واجد من يغطى على سوءاتك ويدافع عنك بحماسة كبيرة مادمت تدفع ، وكلما دفعت تحصد يا خال ..

دفعت أموالا طائلة انناس لا يتصور المرء أن الواحد منهم يمد يده يا خال ، ناس على رأسهم الريشة كما يقال: الواحد منهم يفاجاً بى طببت عليه فى الوقت المناسب ، حيث يكون غزولى قد أتى لى بنتباره فعرفت أنه مزنوق فى كذا ، فإذا هو يفاجأ بى قد عزمته على العشاء ، فبعد أن يتعشى وينبسط أسرب له المظروف المنتفخ حالفا بأيمان المسلمين ألا يفتح فمه بأى كلام ، ثم تمر الأيام والشهور وأنا لا أسأله شيئا ، لكنه يفاجأ بعد حين بهندى أو بسبوسة أو غزولى يذهب إليه من طرفى يطلب خدمة معينة ، تحلف اليمين يا خال أنه يؤدى الخدمة حتى لو كانت على رقبته ، ولو كان يملك مفتاح المدينة لقدمه لى عن طيب خاطر.

وماذا يكون مفتاح المدينة هذا يا خال بالنسبة لما قدموه لى من خدمات ؟ لقد أعطونى جميع المفاتيح التي يمكن أن تتخيلها يا خال ، طبعا ، من نقنه افتل له حبلا يا بوى .

مجنونسة

انتقلنا إلى القصريا بوى . يوم افتتاحه جادت الشيخة سعادة وكل أصهارى ونفر من عائلة خرابة . فكان يوما مشهودا يا خال. اقترح هليل أن يقام أمام القصر فرح بالطبل والمزمار البلدى ترقص فيه خيول المزرعة المرشحة البيع ، فكتب بريش بطاقات دعوة بعثنا بها إلى عائلات كبيرة كثيرة مشهورة في الزقازيق والمنوفية والصعيد والبحيرة يدعوهم لمشاهدة ما أسماه بمهرجان الخيل ، فجاء نفر كثير ، وليلتها باع هليل كثيرا من المانجو والخوخ والتفاح و البرقوق والبرتقال وهي كلها أسماء يطلقها على الخيل ..

الشقتان على الكورنيش في مواجهة المنيل حولناهما إلى مكتب للإستيراد والتصدير ، استيراد كل شئ يخطر على البال ، وتصدير كل مالا يخطر على البال.

اقترح بريش أن نوظف عندنا في المكتب شخصيات كبيرة من رجال الإقتصاد ومن أساتذة الجامعات المتخصصين في التجارة الدولية والمحلية ، ومن كافة التخصصات التي تخدم الإدارة ، وقام بنفسه بالإرشاد إلى وزراء سابقين ، ورؤساء مجالس إدارات أحيلوا إلى المعاش ، وضباط أحرار متقاعدين ، وضباط شرطة مغضوب عليهم ، وما أكثر المغضوب عليهم يا بوى من أعلى الكفايات في مصر ، هذا ما كشفه لي بريش وهو يحكي لي عن عمالقة في العلم والاقتصاد والسياسة والقانون غضبت عليهم الثورة السوداء فركنتهم وحاربت بعضهم في رزقه وحريته .

جئنا بهم يا خال ، أتى بربش بعناوينهم وأرقام هواتفهم ثم دعونا الجميع

وعقدنا معهم لقاءات ومفاوضات ثم اتفاقيات ثم عقود عمل.

إن هي إلا أيام حتى صار المكتب يعج بنوى الروس العالية والكفاءات النادرة والأسماء الكبيرة الرئانة ممن كنت أظن أن مقابلة الواحد منهم مستحيل لعلو شأنه وارتفاع صيته ومقامه ، فإذا بالفلوس لها فعل السحر يا بوى ، الفلوس في عصرنا هي القبلة التي أصبح يركم في اتجاهها أعتى الرجال .

كلهم يا بوى تم توظيفهم عندى بمرتبات شهرية يسيل لها لعاب التخين ، أرقام لم يسمعوا بها فى حياتهم خاصة بعد أن كانت الأضواء والخيرات قد انسحبت عنهم .

وأنت تعرف خصلة شعب الثورة يا خال ، فمن تفضب عليه الثورة ولو بالإشاعة فإن حياته تصبح جحيما ، يهرب منه الناس ويتم عزله ، ولهذا فلا أستطيع وصف الروح الطبية والحماسة التي أقبلوا بها على العمل ..

هؤلاء يا خال هم الذين نظموا لنا المكتب من الألف للياء ، وضعوا هيكله الإدارى والتنظيمي ، ملثوه بالعناصر المطلوبة من خريجي كليات التجارة والحقوق والزراعة والعلوم ومعاهد السكرتارية وكلية الألسن ، هم الذين فتحوا عيوننا على نوعيات العمل ، ما الذي يجب أن نستورده الآن ومن أين ؟ وما الذي يجب أن نصدره وإلى أين ، وضعوا لائحة مطاطة بحيث يكون للمكتب صلاحيات بلا حدود في البيع والشراء ، حدّدوا حجم الميزانية المطلوبة أشرفوا على فتح حساب لها في البيك الأهلى .

عينونى رئيسا لمجلس الإدارة ، فضلا عن كونى المالك ، وعينوا بربش - بكثير من نبرة المجاملة مديرا عاما وكان بربش من الذكاء والإخلاص لى باكثر مما قدرت ، إذ نشن على واحد يعرفه جيدا من أعضاء مجلس الإدارة وطلب منى تعيينه عضوا منتدبا يتولى الإدارة الفعلية ويتحمل المسئولية كاملة على أن يظل منصبى شرفيا ومنصب بريش رقابيا سريا ..

اشتغل المكتب يا خال عقبال أملتك ربنا يعطيك ويعطى كل مجتهد . صدق من قال إن أصحاب المال لا قلب لهم يا يوى .

هذا صحيح مائة في المائة ، قرأس المال خوان ونذل لا يعرف أباه ولابد أن يكسب الطاق عشرا وربما ألف ليظل يحمى نفسه بالتكاثر المستمر ، فهو إما أن ستزايد أو يتناقص وليس من حال وسط .

الانفتاح الذي مشاه أنور السادات فتح علينا أبواب الرزق بغير حساب استوردنا الجبن ولبن الأطفال والبولوبيف ولحوم الديوك الرومي والفراخ المجمدة وكافة المعلدات من مأكولات ومشروبات .

استوربنا الأخشاب بجميع أنواعها ، العطور الأدوات المنزلية والكهربائية من سلع معمرة وأخرى غير معمرة . دخلنا في علاقات مع الشركات المتعددة الجنسية لبناء القرى السياحية في أسوان والأقصر والفردقة ومرسى مطروح .

حصلنا على توكيلات من كبريات الشركات المنتجة في العالم: السيارات الموسيكلات والسراجات وقطع الغيار، والسجائر الأجنبية التي أصبحت أنا وشأتي من كبار مدمنيها.

ضاق السكان بالسكنى فى العمارة باتوا جاهزين لأى مساومة على الرحيل ، رحلوا بالفعل مقابل تعويضات تملأ العين لكنها ملاليم بالنسبة لنا ، فى ظرف شهر واحد أحال المقاول هذه العمارة إلى عروس تتصل شققها بيعضها فى جميع الطوابق بواسطة مصاعد داخلية صغيرة تنقل الأوراق والتأشيرات ، أقمنا خزينة صرف ثانية كبنك صغير بنينا عدة عمارات جديدة في قطع من الأراضى التي اشتريتها أنفا ، جعلناها مخازن وأفرع ادارية في وحدات متخصصة ، منها وحدة للمتاجرة في أراضى البناء وإقامة عمائر اشقق التمليك بأسعار خيالية ، باتت مجموعة شركات الصفا والمروة أكبر بيت للمال في مصر .

علمنى الجهابذة والأساتذة من موظفى كيفية إخفاء ثلاثة أرياع الأرباح فى البنوك الأجنبية بعيدا عن أخطار المفاجئات غير السارة ، كما كانوا بارعين في خلق مشاريع استثمارية تعفى من الضرائب لعدد من السنوات تشجيعا لها على منتجات تحتاجها السوق المحلية كمصانع للأسمنت وحديد التسليح ولابئس أن تقوم هذه المصانع بصنع أشياء أخرى .

قمنا بتصدير البطاطس والبصل والفضراوات بجميع أنواعها والفواكه ، والمنسوجات القطنية من ملابس داخلية وفوط ويشاكير وملاءات وأطقم سراير وسجاجيد يدوية من شغل الكرداسة وكنت أرى الناس تدوخ وراء السلع المحلية فلا تجدها فأعرف أننا قد استنزفنا السوق كلها بل أوقفناها لأننا نتعامل مع المصادر نفسها نشترى الحدائق والحقول قبل نضج الثمر بوقت كاف ليتولى خبراؤنا رعايتها بالطرق العلمية الناجعة ، نتعاقد مع المصانع عقود احتكارات طويلة المدى .

ذمة وبين باخال كان قلبى يوجعنى حينما أرى الناس محرومين من خيرات بلادهم، ولكن ماذا يفيد وجم القلب؟ لقد أصبحت ماكينة العمل دائرة لا تستطيع

إيقافها بأى حال ، فجميع المعطفين يحصلون على حوافز وإضافيات وإكراميات تكفل لهم الإستغراق التام في العمل بحماسة .

وكان بريش متالقا في دفع العملات والرواتب الشهرية لأعداد هائلة من المسئولين في جميع الجهات ..

البنى أدم منا طماع يا بوى لا يملأ عينيه إلا التراب ، هكذا كان كل العاملين في شركاتي وعلى رأسهم بسبوسة ، لم أستطع إيقافهم عند حدهم ، فجميعهم ناس يلعبون بالبيض والحجر يا بوى .

سافرت معهم مثات المرات إلى جميع أنحاء العالم ، أمال يا بوى : مال وحصانة ، شفت لندن وباريس والهند واليابان وألمانيا وأمريكا وأسبانيا وإيطاليا والنمسا والسويد وسويسرا والنرويج ناهيك عن تركيا وإيران وبلاد العرب ، أترك المختصين يشوفون شغلهم في التعاقدات والمعاينات ، وأمضى بصحبة زوجي ومعنا ترجمان خاص من عشرات المترجمين العاملين عندي شغلتهم الترجمة من وإلى العربية وجميع اللغات ، نتفرج على دور اللهو والمحلات نشتري كل مبهر من الطلبات نتكل في أفضم المطاعم نبيت في أعظم الفنادق ، آخر نزاهة يا بوي .

وكنت على يقين من أن المختصين بأمور البيع والشراء والتعاقد يتقاضون العمولات الكبيرة ، وأطرمخ ، فهذا رزقهم ، ويابخت من نفع واستنفع و لكننى لم أعرف أنهم على هذه الدرجة من الفجور وانعدام الضمير يا خال : ما تكاد البضائع المستوردة تصل حتى أفاجاً بأثنى مطلوب للذهاب إلى الجمارك لتخليص إحدى الرسالات بمعرفتي مستفلا صفتى البرلمانية ، لماذا يا ولد ؟ يقال لى : هناك

مشكلة بسيطة . أذهب يا خال ، أفاجاً بأن الفحص الطبى قد أثبت أن صفقة الفراخ المجمدة كلها غير صالحة للأكل بعد أن فقدت عمرها الافتراضى من قبل أن نتعاقد عليها ، فأبعزق بضعة آلاف من الجنيهات ويضع مكالمات هاتفية فيتم تعديل التقارير وتغيير الأوراق وأخرج بالصفقة كاملة غير منقوصة .

ما تكاد أيام قليلة تمر حتى أطلب ثانية : صفقة البولوبيف اتضح أنها معمولة أصلا للكلاب ومكتوب عليها هذا بصريح العبارة باللغة الأجنبية طبعا .

طلب ثالث: لحوم الديوك الرومى هذه ليست لها صلة بالديوك الرومي إنما هي طيور جارحة اصعطيدت من الغابات وأعدت كطعام الكلاب أيضا . طلب رابع: الجبن والمكرونة ولبن الأطفال كله ملي بالإشعاعات الذرية !! ما الحكاية يا بريش؟!إن مديرى المشتريات – يقول – يسترخصون ويدخلون في هذه الصفقات المضروبة وهم على علم بأنها كذلك .

عال عال ، وكيف يا رجل الرقابة تسمح لهم بهذا ؟! أمن أجل عمولات كبيرة نفرب بيتنا ؟!

قلل: بالعكس فإن الفروق الهائلة في الأسعار تضاف إلى مكاسبنا ثم إن البضائع في النهاية تباع فنحن نبيع اشعب يتكل الزاط ولا يعترض أنما الذي يعترض هم القاعدون للساقطة واللاقطة كي يسترزقوا من حجة تأدية الواجباوهؤلاء مقدور عليهم في النهاية! وعلى كل حال خليك أنت بعيد وأنا أتصرف سيكون تصرفي أقل تكلفة من تصرفك فأنت تنفق بسخاء لأنك طيب من ناحية ولا تعرف المفتص الرئيسي من ناحية آخرى ووصواك إليه يكلفك إضافات

باهظة أما أنا فأخرم على واحد بعينه قبل وصول الصفقة فينتهى كل شئ في ستر وكتمان!!

قلت : دوهل يرضي ضميرك بهذا يا بريش ؟!»

قال: «ضمير ما ذا يا أبا الحاج ؟! هل في البلاد كلها شئ اسمه الضمير حتى نتمسك نحن به ! الناس جعانه وحياتها أرخص من الأموال بكثير ! اقتلني وانقع لي هكذا يقول كل واحد في البلد !! ألست تدفع عمولات ومرتبات لشخصيات كبيرة جدا من المفروض أن يحاسبوك ويحاكموك ؟! إنهم إنن يوافقون على كل شئ ! فكيف تحبكها أنت ؟! حكامك أنفسهم أباحوا لك هذا بمجرد أن مدوا أيديهم لهبر المعلوم ! بركة ورثك يا عبيط !! استهدى بالله و لاتوقف حالنا بعد أن جاحت الدنيا إلينا في أواخر العمر !!»

ما أسكتنى يا بوى هو أننى ثور الله فى برسيمه فى مسألة الإدارة هذه . ثم
إن ماكينة الشغل تضخمت وقويت تروسها وتشعبت وتداخلت فروعها واتجاهاتها
وأغراضها أصبحت شيئا منفصلا عنى يا خال ، لم أعد قادرا على السيطرة عليها
فأخذت للراحة والاستمتاع بأطايب النعيم من كل ما قلبك يحبه ويتمناه ، صارت
مهمتى تنحصر فى عد الفلوس العائدة كقواديس تصب الفلوس فى جيبى بغير
ترقف ومن كل ناحية وكانت زوجتى – التى شجعتها على مواصلة التعليم
الجامعى – تقرأ لى التقارير النهائية واشعارات البنوك عصر كل يوم فى شرفة
القصر المطلة على المقطم ، تقول إن ثروتنا باسم الله ماشاء الله لو وضعت فوق
بعضها لصارت كهذا الجبل ! .

الأرباح في تزايد أي أي نعم يا خال ، لكن الرائحة فاحت في كل مكان ، والأمراض بدأت تنتشر بين الناس من سرطان إلى التهاب كبد وبائي إلى فشل كلوي إلى تسمم إلى ارتفاع في ضغط الدم ، كما أن ضبط الرسائل لا يتوقف والبرطيل في تزايد نشوان ، حيث امتدت جهود بعض الكبراء من العاملين عندي فشهدت القاهرة نشاطا كبيرا في الندوات والمؤتمرات حول تلوث ماء النيل الذي يسبب كل هذه الأمراض .

وكنت أرى صور رجالي في الصحف وهم يتحدثون في المؤتمرات والتحقيقات الصحفية باعتبارهم أساسا من أكابر العلماء ، فاندهش من هذه الازدواجية التي تنطوى عليها شخصيات كبار المتعلمين في بلادنا بحيث يحمل الواحد منهم الضمير ونقيضه معا .

الدليل على ذلك هذه المتقارير المغرضة التى يكتبها بعض أطباء الرقابة الصحية بعد أن يظرفهم بريش بالمعلوم ، إذ تقول بكل علمية أن المادة المسممة فى الفراخ المجمدة واسمها السلمونيلا توجد فى جلد الدجاج فقط وأنها تموت على النار ولهذا فمن الافضل شوى الدجاج بدلا من سلقه ، وفى حالة سلقه تنزع قشرة الجلو وترمى .

طب ماقواك يا بوى أننى يا صعيدى ضحكت من هذا التقرير الفكاهى وظننت الطبيب يسخر منا ومن كافة عقول شعبنا الطيب ، ومع ذلك حاجة تهوس يا بوى . تناقلت الصحف هذا التقرير بكل احترام وتوقير وردده الناس في اقتناع .

الناس فعلا جعانه يا بوى والجائع يمكن أن يصدق كل شئ ويقول ما تطلبه أنت . أذكر كلمة لعمى الفقيه الكبير قالها ذات يوم ورسخت في بالى : قال الإمام الشافعي رضى الله عنه : «لا تشاور من ليس في بيته دقيق» .

فعلا يابوي صدق الإمام الشافعي ، إذ كيف تنتظر من الجائع أن يعطيك

المشورة في شيّ ؟ في انتخاب أو تقرير أو شهادة ؟! مستحيل يا بوى وإلا ما ظهر مثل شعبي يقول: «إحييني اليوم وامتني غدا».

يبقى ضميرى أنا يا خال ، وخوفى من نق الشيخة سعادة لو علمت أن شركاتى هى المتسببة فى كل هذه المسائب الكبيرة . ضغط شبح الشيخة على نافوخى ذات يوم ففكرت فى حل هذه الشركات ، فلما صارحت زوجى بهذه الرغبة صرخت فى وجهى : لاتكن فقريا وتسد نهرا سيروى نسلك الكثيرمن بعدك ! هذه فكرة عبيطة يا أبا أدهم فالشركات أصبحت أشد رسوخا مما تتصور والقائمون على ادارتها لن يمكنوك من هذا وربما اشتروها منك بتراب القلوس فلا أنت أوقفت الغش ولا أبقيت على نهرك الفياض فاحمد الله واسكت ودع الملك للمالك ولاتزن على خراب عشك لأن حل الشركات ريما يؤدى إلى تقديمك للمحاكمة لأنه اعتراف بعدم سلامة العمل !!

طبعا يا خال ، فقد باتوا عصابة قوية متماسكة مستعدة للدفاع عن مصالحها بكل نذالة ، سيما وأنهم جميعا قد ملّينوا وصارت أرصدة لهم خصوصية مثلى في بنوك العالم .

انفصلت عنهم ظاهريا فحسب ، بمعنى أن شركاتى راحت تمارس فسقها فى واد ، وأنا فى واد آخر ذلك الرجل الصالح فعال الخير ، الذى يتبرع بالأموال الطائلة لكل مشاريع البر والإحسان يقيم فى كل عام قرعة للسفر إلى الحجاز على نفقته يفوز فيها أكثر من ثلاثين حاجا ، ويخصص عمارة بين كل خمس عمائر مما تقيمها شركاته للعرائس الغلابة ، صحيح أن معظم شققها يذهب إلى أبناء كبار رجال الدولة المهمين ولكن هناك من يأخذ نصيبه من العامه كما أن أبناء كبار رجال الدولة هؤلاء يمكن ادراجهم ضمن الحتاجين أيضا يا بوى .

وهكذا ملكت البلاد من أقصاها إلى أقصاها يا بوي .

ملعوبسسه

الرجل الواعر خيب كل توقعات العالم با خال . ظل ثلاث سنوات يتنرع بالضباب الذي يملاً الأفق أمامه ، يعشم الناس بالإصلاح ، يزعم أن الرخاء قادم لا محالة يسافر إلى روسيا للتفاوض مع الزعماء السوفييت على أسلحة ، زعماء السوفييت يظهرون له الاحترام والتوقير وهم في حقيقة الأمر يحتقرونه يستهزعون به ، وذلك - كما يقول بريش - لفبائهم الشديد في السياسة الخارجية ، والأخص في علاقتهم بمصر والعرب كما أضاف بسبوسة ..

كان المفهوم لنا أن عملاهم في مصر من ألاديش عبد الناصر يوهمونهم أن السادات لن يستمر في الحكم أكثر من شهور معدودة لأنه غير محبوب من جماهير الشعب العاملة ولأنه من ناحية أخرى غير كفء لحكم دولة كعصر ، وأنهم هم الذين ساعدوه على النجاح في الانتخابات إنقاذا لثورة يوليو وهيبتها من الضياع .

وحتى حينما هزأ هو بهم وأودعهم السجون ظل السوفييت على وهمهم بأنه غير باق في المكم ، فراحوا يماطلونه ، حتى فوجئوا به يقعل بهم ما فعله في مراكز القوى في لحظة غير متوقعة : طرد خيراء هم من مصر شر طردة .

ويدلا من الكلام في الحرب راح يتكلم عن السلام ، يقبل المبادرات ، ويقترح المبادرات ، ويقترح المبادرات ، وهو ماء من تحت تبن يا بوى و .. هب للنبي ، فوجئ الناس كلهم بأن قواتنا الباسلة عبرت خط بارليف المنبع ..

تصور يا خال أننى ليلة خمسة أكتوبر لبيت طلبه في الهزيع الأخير من الليل ، فذهبت إليه في مكان سرى بعيد لم أتبيته لأن سيارة المخابرات التي أقلتني إليه كان زجاجها حاجبا الرؤية إضافة إلى أن الوقت كان ليلا .

سهرت معه أقلب في القديم وفي الجديد ، ولكي أضحكه كما أراد :

- دعاوز أضحك يا حسن! نفسى مفتوحة للضحك الليلة بشكل غريب لدرجة إنى فكرت أبعث أجيب العيال بتوع مدرسة المشاغبين وثلاثي أضواء المسرح يعملوا عرض خاص هنا لولا أن الوقت تأخر و الظرف مش مناسب!!»

قلت له :

- «مشاغبين وبتاع مين يا سعادة الرئيس ؟ وسع لي وسع !»

صرت أتشقلب مثل القرد ، وأفعل مالا يخطر على البال من حركات فكاهية ، وهو مستغرق في الضحك لكن على من يابوي ؟

أنا أعرف الضحك الأصلى من الضحك التقليد . ضحكة ليلتذاك كان ضحكا برانيا مغشوشا ، مما جعلنى أفكر في سكك بعيدة تصورت أنه متخانق مع الجماعة في البيت ويريد النسيان لكن يظهر أن الفناقة كانت حامية خصوصا أنه يحب جماعته بشدة والجماعة أشداء بعض الشئ عليه لثقتهم في مكانتهم عنده . وإذ بهذه الداهية يابوى قد أمضى قرار الحرب وانتهى الأمر وكان القلق يطارده وهو يحاول الهروب منه بأى شكل .

لم تجئ سيرة الحرب في سهرتنا إلا بكلمة واحدة عابرة على الماشي حينما سألني فحأة:

- «إلا قوالي يا حسن! أنت تبرعت المجهود المربي ولا لأ ؟!»
 - صحت بصوت جهوري :
- مطبعا يا سيادة الرئيس! يفعت ثلاثة آلاف جنيه حتة واحدة!!ه
 - تراجع بذقنه في استنكار:
 - ديس ؟!» –
 - «هل هناك من دفع أكثر مني ؟!»
- «أوهو .. وه ! الناس الطبيون كثار في مصر ! الاخوة المؤمنين بالله والوطن

! على كل حال! إدفع خمسة لتتساوى رأسك برأس الكبراء المساهمين! الجيش محتاج لنهر من القلوس!!»

ترددت بعض الشئ بحثا عن الرد المناسب ، لكنه أسكتني برفع نراعه :

- «بكرة تذهب إلى إدارة المجهود المربى وتدفع خمسة آلاف اخرى ! حرب الاستنزاف مصت دمانا يا حسن لابد من وقوف كل المؤمنين بالله معنا فهذه حرب مقسة !!»

- «أمرك يا سيادة الرئيس! هاك دفتر الشيكات إملاً منه شيكا بالمبلغ
 المطلوب وأنا أوقعه وتتفضل سيادتك بإرساله للادارة!»

وكتبت شيكا باسم المسئول عن المجهود الحربى فنادى سيادته على شخص ، سلمه الشيك أمره بتوصيله إلى إدارة المجهود الحربى من صبيحة ربنا ..

الحرب قلبت كل الموازين يا بوى ، فرحة المصريين لم تكن تقدر بمال ، وفرحتهم بأنور السادات كانت لا مثيل لها ،

قجأة أصبح أنور السادات بطلا من أعظم أبطال مصر ، مع ذلك فإن بريش أعان سخطه عليه وعلى الصحافة والإذاعة ، مالك يا بريش ؟ ماذا يغضبك والناس كلها فرحانه ؟!..

- «كيف يسمع الإخوان المسلمين بالركوب على هذا النصر العظيم ؟! إياك تظن أن أنور السادات هو الذي انتصر في الحرب !! لا المنتصر القعلى يا أستاذ هو الشعب المصرى ! إذا كان هناك مجموعة من تجار الإخوان المسلمين تبرعوا للمجهور الحربي بمبالغ كبيرة جاشهم من مشايخ النقط ! فإن الذي حارب هو الجندي المصرى ! أبناء الفلاحين و العمال هؤلاء هم الذين حاربوا بغل شديد وانتقعوا لأهلهم أرادوا الخلاص من العار ! وبماؤهم في سيناء تشهد على أربع حروب ضارية ! فكيف يجئ الإخوان المسلمون اليوم ويركبوا على النصر ؟ ويقول

عملاؤهم في الصحافة والإذاعة إن هذا النصر تحقق لأن ملائكة من السماء بلبسون الأبيض في أبيض نزاوا إلى الميدان وشاهدهم الجنود وهم يطيحون في العبور؟! ما هذا التخريف با مسلمان؟! هذا معناه باأستاذ أن هذه الفئة المخرفة ذات العقول الذرية تجرم الشعب المميري من الشرف الوجيد طول تاريخهم المينث! معناه أن المصريين ليسبول أقوياء ولا يحزنون والنصير جاءهم على الطبطاب!! غلطة أنور السادات أنه سمح لهذا الكلام المضحك أن يتردد في الصحف والإذاعة بحجة أنهم يرينون جذب الناس إلى الإيمان كأنهم بربنون القول إن تورة يوايو الاشتراكية الشيوعية جلبت علينا الهزائم فلما تخلصنا منها كافأنا الله بالنصر كلمة حق براد بها باطل! والمقبقة إن الإخوان السلمين طلعوا من جحورهم بدأوا نشاطهم بالركوب على نتائج حرب أكتوبر العظيمة ومن الأن فصاعدا يجرون الناس إلى البلاهة والدروشة حتى تسترد إسرائيل أنفاسها وتهجم علينا ونحن حينئذ نجرى لنصلى مملاة الاستسقاء وصلاة النصر ننتظر نزول الملائكة لتحارب نبابة عنا كما فعلت !! سننصرف كلبة للتعبد وعلى الله أن يكافأنا بإرسال الملائكة تدافع عنا !! لا ما استاذ أنور السادات لم بعجبتي في هذه النقطة وفي نقاط كثيرة أخرى! إنه الآن يعتبر متحالفا مع التيار الاسلامي المتطرف وهو يتحالف في نفس الوقت مع أمريكا لصالح إسرائيل ألم يوقف إطلاق النارحتي تمكنت إسرائيل من الاختراق وتطويق الجيش الثالث والوصول إلى السويس ؟! لا با أستاذ ! الممألة غامضة وفيها أسرار كثيرة وربنا يستر !!»

بینی و بینك یابوی اغتظت من بریش ومن كلامه المسموم هذا ، لقد سمم فرحتی یا بوی . لكننی تعودت دائما أن أتشرب كلامه وأستنیر به إذ هو یفهم فی السیاسة ربما أكثر من أنور السادات . وهذا ما جعلنی أشعر أن شخصیتی كثیرا ما تنقسم علی نفسها حتی أصبحت أومن بالشئ ونقیضه معا ، وأصبحت

غير قادر على البُّت النهائي في أي مشروع من المشارع دون وجوده ،

قعلا يا خال صدقت نظرة بريش . فوقف إطلاق النار نكد علينا قطم فرحتنا قطم الخيش قطم الخيش الفرحة بقى ، النصف الأخر أكلته الثغرة التى فتحها الجيش الإسرائيلي في قلب جيشنا ماكسبناه في الحرب خسرنا أضعافه في هذه الثغرة يابوي ..

أمواج السخط بدأت ترتفع يا خال منذ بدأ السادات يتكلم عن السلام والصلح مع إسرائيل . أنصاره يقواون إن الصلح هنا لا عار فيه لأنه يتم بعد الانتقام ورد الهزيمة فهو إذن صلح من منطق القوة .

والحكماء ممن أقابلهم من أبناء الشعب يقواون إنه في النهاية صلح مع العنو ، والصلح مع العنو ، والصلح مع العنو ، والصلح مع العنو قبول للعدو وتسليم بكل شروط عيشه في المنطقة إلا أن أنور السادات فاجأنا بقوله بأعلى صوت أنه مستعد في سبيل السلام – أن يسافر إلى إسرائيل .

كلنا تصورنا أنه يمزح يا بوى ، ولعله شرب حجرين من صنف ردى هيأ له مثل هذه التخيلات الضارة ، قامت قيامة البعض ، وانكتم البعض كتمة العدس ، وهاجت الأغلبية المسماة بالمنسحقة صار الشارع يغلى بالتناقضات : شتائم صريحة في أنورالسادات ، مدح كبير في أنور السادات .

المهلبانية وتجار المخدرات وثعالب الأسواق والحرامية كلهم كانوا مبسوطين من السادات آخر انبساط، يقولونها لبعضهم البعض صداحة: من لا يعمل ثروة كبيرة في عهد أنور السادات سيحكم على عياله بالجوع مدى الحياة وهذا صحيح يابوى: عصر أنور السادات عصر سبهلله، عصر يابخت من نفع واستنفع إنهب واسرق وكوم ثروة كما تشاء بأى شكل تشاء فلن تجد من يحاسبك مادمت تلحاحت وقتحت مخك فأعطيت للجميع من «الحب» جانبا.

لكن ولد الأبالسة من كارهى السادات يريدون قطع رزقنا صارت الجرائد كل يوم تطالعنا بأخبار القبض على تنظيم سرى ، شيوعى أو إسلامى متطرف ، تحلف اليمين يا خال أنه لا يمر يوم واحد دون خبر اكتشاف تنظيم سرى يعمل لقلب نظام الحكم ضبطت فى حوزته منشورات وأسلحة وأموال وخرائط وقوائم شخصيات عامة مرشحة للاغتيال ، حتى ذعرت ، فلو كان هذا صحيحا يا خال فإن الشعب كله يكون قد تحول إلى تنظيمات سرية تعمل على قلب نظام الحكم فى البلاد ، إذن فالحكومة فى هذه الحالة غير شرعية ، وتعتبر مغتصبة للسلطة .

جاء علينا وقت نكاد نستورد فيه وكلاء نيابة بأعداد هائلة تكفى التحقيق مع كل هذه الأعداد المهولة من التنظيمات السرية المعادية للحكومة لأن جميع وكلاء النيابة باتوا يستنزاون اللعنات على النبوى اسماعيل الذي يستكردهم كل يوم بتنظيم يحتاج التحقيق فيه إلى جهاز كامل وهم – على كثرتهم – أقل عددا من حجم هذه التحقيقات والقضايا ، والمحاكم ازدحمت بمئات الألوف من المشتبه فيهم لأسباب واهية بلهاء ، وحتى لقد خيل لى يابوى أن النبوى اسماعيل عقد اتفاقا مع أحد مقاولى الأنفار ، أو موردى الكومبارس ، لتزويده بكل هذه المجاميع التعسة لمشتغلوا متهمين كعمال موسمين ..

كتت أرى هذا وأغتاظ من غباء الحكومة التي لا تريد أن تدعنا نشوف شغلنا في ستر وهدوء بال ، وتخلق لنا التوترات المزعجة بتلفيق القضايا وتنشرها في الصحف والإذاعات .

فلتقبض على من تشاء يابوي فهى حرة ولكن لماذا الفضيحة ؟ تريد أن تطلع الرأى العام كى تكسبه فى صفها ؟ رأى عام ماذا يا خال ؟! هل بقى هناك رأى عام ولا زفت ؟! الحكومة تقعل ما تشاء وصحفها شغاله فى التسبيح بحمدها ومن يتمرد يأخذ بالحذاء على أمر رأسه فعلام الفضائح والشوشرة التى تقلق راحتنا

وتلفت الانتباء إلينا ؟!..

أصبحت أعتقد أن الحكومة ظلت تلفق وتلفق حتى صدقت نفسها ، وصدقها الواقع هو الآخر ، أصبحت هناك تنظيمات سرية بالفعل تعمل على قلب نظام الحكم ، وأخشى ما أخشاه أن تضطر الحكومة ذات يوم للقبض على الشعب كله . مجنونة وتفعلها . ولكن هل ترانى استطيع الجهر بهذا الرأى ولو من باب الحرص على مصالحها ؟ حاشا وكلا سينظرون لى نظرة استرابه و النبوى اسماعيل جاهز في كل لحظة لاكتشاف كل ما ورائى من تنظيمات سرية ، ولديه الوثائق الدامغة على الدوام وفي الحال .

فهل أنا مجنون يا بوى ؟! من يحمل قربة مثقوبة تخر على دماغه ، مع ذلك فأنا أدعو ليل ونهار : يارب احفظ لنا أنور السادات . الكسستاب الرابسع

الفيسيي

ما كنت أتصور مطلقا بإخال، وما كان يدور لي بخلدي، أن الشيخة سعادة بجلالة قدرها – شقيقتى من لحمى ودمى وبنت أبى وأمى – يمكن أن تقاطعنى، بله أن يصل الأمر بيننا إلى حد الصدام . أكثر ما كنت أخشاه أن تعاتبنى مثلاً أو تلومنى بشدة على ما تفعله شركاتى في البلاد من نهب وهبر وتسفيح . وهذا ما حدث كثيراً بالفعل ياخال ربك والحق، غير أننى ظننت أن الأمر يقف عند هذا الطن إلا قلة مفهومية من جانبى ..

فذات ليلة عصيبة - والبلاد كلها مقلوبة بحادث اختطاف الشيخ الذهبى واغتياله بأيدى جماعة التكفير والهجرة التي أعلنت - لأول مرة في تاريخ مصر - مسئوليتها عن الحادث - فوجئت بالشيخة سعادة تزورني على غير انتظار كعادتها دائماً، يرافقها هليل هذه المرة، وهو الذي قاد سيارتها المرسيدس الخاصة السوداء ذات الستائر والزجاج الحاجب . كان من الواضح أن العلاقة بينهما دخلت في طور جديد يا خال، صار الحب القوى الجارف بينهما معلناً سافرا مبطنا بالاحترام والمعزة والفضيلة التي أعرفها في كليهما . بدا لي أنه لم يبق إلا أن يعلنا عقد القران ولكن بعد قليل، ربما انتظاراً للوقت المناسب . ولم يكن ذلك ليقلقني يا خال، بل لعلني على يقين تام بأنه لو تم يكن أنجح قصة حب حقيقي على ظهر الأرض، ويكون أعدل زواج تم بين اثنين كلاهما يتبتل ويتفاني هي حب الآخر كما لمست بنفسي يا بوي ..

إنما القلق جاخي من حالة التجهم الشديد التي شملتها في زيارة تالية، لدرجة

عدم الاستجابة الفرحة المعلنة بقدومها، والتي ترددت أصداؤها الصاخبة من أول الخفير فالحارس فالجنايني فالتشريفاتي الذي صحبهما من مدخل الحديقة حتي منتجعنا في الطابق الثالث، وما أبديناه جميعاً من مظاهر الحفاوة، إذ نودي على الطباخ والسفرجية في الحال التجهيز العشاء . كل ذلك لم يلق منهما أي بادرة اهتمام أو إمتنان أو انبساط، مما بعث فينا توجسا كبيراً ..

من سذاجتي يا خال تصورت أنهما مأخوذان مثلنا بهذا الحادث الجلل . فما أن جلست قبالتي في الركن المضاء في الردهة الكبيرة حتى بادرتها قائلاً :

- «البقية في حياتكما ؛ ربنا يستر على مصر من هذه العصابة السوداء العمياء القلب ؛ أفينبغي أن نعامل شيخاً تقياً ورعا بكل هذه الوحشية ؛ نضربه بالرصاص في رأسه ؟ الذي امتلاً بعلم الله والقرآن والسنة والحديث؛ تلك والله علامة من علامات الساعة!! »

فكانني لم أقل شيئاً يا خال . لم يبد عليهما أدنى تأثر، كلاهما جالس في أدب واحتشام وتزمت كضيف غريب غير أمن غدر مضيفه . حينما جاء السفرجي الأسود اللطيف بملابسه الزرقاء المزركشة بالقصب الأحمر، ووضع أمامهما عصير المانجو صائحاً في غبطة ومرح كالعادة : «مرحب ستنا الشيخة»، لم تبتسم له كالعادة أو تلاطفه؛ إنما اكتفت بهز رأسها بوجه مقطب، بلهجة من يريد قول الخرس . فارتد الرجل مأخوذا ومضى يتصبب عرقاً . أبدا ليست هذه هي الشيخة سعادة ياخال ؛ وليس هذا هو هليل الفياض بالدفء والمودة . فسرت ذلك – أيضاً بأنه ربما كان شدة تأثر بالحادث الأليم، فاستطردت :

- «لا بد أن يأخذوا هذه العيال بالشدة !! لا بد من تعليقهم في المشنقة في عيدان عام وإلا عمت الفوضى وخريت البلاد !»

فإذا بها تصيح في غضب من بين أنيابها -

- «لم لايعلق غيرهم ؛! قبل أن تطلب هذا العيال أبطال مجاهدين كهؤلاء لا يعجبهم الحال المائل وحالة الكفر التي تفشت في البلاد إطلبه المجرمين الأصلاء الذين يتاجرون في قوت الشعب وفي أرواح الناس يبيعون البلاد للأعداء !!»

دُشَ بارد انفتح فوق دماغى فأغرقتى ياخال، برد كل شىء فى جسدى حتى صرت أقاوم الرعشة، تملكتنى حمى مفاجئة فغامت الأشياء فى نظرى وخيل لى أننى صرت عارياً في مهب ريح عاصفة . لذت بالصمت طويلاً، رشفت جرعة من كوب المانجو أبل بها ريقى الذى جف كالعصا، ثم أشرت لهما على الأكواب :

- ~ «تفضلاً !»
- «شكراً !»

نطقاها في نفس واحد بصوت مشروخ من شدة الصمت، حاسمة باترة تعنى رفض الشرب بصريح النبرة. اعتقلت دموعي شعرت بها تنزل في صدري :

- «ما الأمر يا جماعة ؟! حالكما لا يسر !!»

لحظتها كانت زوجتى قد أنهت ارتداء ثيابها الرسمية وجاءت تجرى من الطابق الرابع معلنة الترحيب بصوت يسابق صوت خطواتها على السلم الخشب الجعجاع.

- «ما كل هذا النور؟ من العصر وأنا أشعر أن طيفا من الجنة في طريقه إلينا!»

للًا اندفعت نحو الشيخة سعادة لكى تأخذها بالحضن فوجثت بها ترتد قليلاً، وتمد يدها الملفوفة في الطرحة لتسلم عليها من بعيد في أنفة وتأفف . أما هليل فقد لف يده هو الآخر في منديل قبل أن يسلم . غلت الدماء في عروقي يابوي . غرقت زوجتي في الحياء والخجل وقد انطفات فرحتها؛ لكنها جلست على كرسي مجاور الشيخة سعادة مستأنفة الترحيب بها كان شيئاً لم يكن :

- «أهل البلد كلهم بخير ؟!»
 - «الحمد لله!»
 - ملت على هليل :
 - -- «ما الأمريا هليل؟!»
- صوت جديد وغريب في حنجرة هليل أجاب ·
- «يستحسن يابو العم أن نتكلم في حجرة مقفلة بعيداً عن الخدم والسفرجية
 !! هناك أمور حئنا لتصفيتها !!»
- أهى أمور تستدعى أن يكون منظركما هكذا ؟ إنظر بجوارك في المرآة لترى غضب الله على وجهك ووجهها ! عمرك ما كنت هكذا ولا هي ! ما الحكاية بالضبط يا هليل ؟ !»

نكس هليل رأسه ٬ وردت الشبخة سعادة :

- «بعد قليل تعرف كل شيء !!»
- «هل زوجتي ممن لا يجب حضورهم ؟ !»
 - «لتبق إذا أرادت! هي وشأنها!!»

تقدمتهم إلى الطابق الخامس والأخير، حيث توجد حجرة مزنوقة فى جدار المقطم بشرفة عريضة تشبه المحراب أو الخلوة كنت أحب الصلاة فيها بل كنت قد أعددتها خصيصاً من أجل الشيخة سعادة تختلى فيها حينما تكون فى ضيافتنا وأسميناها محراب الشيخة سعادة . جلسنا متربعين فوق الشلت ·

- «خيريا ستنا الشيخة ؟!»
- «شف يا خوى! لقد نصحتك كثيراً لكنك تصبر على أن تستمر في الضلال !! أنت بكل صداحة تعتبر في نظرى ونظر شرع الله من أكابر المجرمين في البر المصرى ! كل ثروتك التي جمعتها من وراء شركاتك المتعددة هي حرام في حرام !

أنت تقبل الحرام على نفسك وأولادك أما أنا وهليل فلا ! سننفق كل ما نملكه في البر والإحسان !!»

- «كسينا صلاة النبي !»

- «لا تذكر اسم النبي على لسانك لأنك تقعل كل ما يغضب الله ويغضبه! لقد حاولت أنا أن أطهرك أنقلك من الوحل الذي كنت فيه! بذلت كل ما أستطيع لأجعل منك كبير قوم لعلك تعود إلى الله مؤمنا كامل الإيمان لكنك مع الأسف الشديد كبرت في الضلال أيضاً! ويعد الانحراف أصبحت غارقاً لأذنيك في الرذيلة!! صلاتك باطلة من أساسها إن كنت لا تزال تركعها!!»

-- «اللهم طولك ياروح!»

- «جئتك الليلة لأضع حداً لهذا الكفر الذي تجره علينا أنا وهليل بغير ذنب جنيناه اولكن كيف ؟! أقول بغير ذنب في حين أنني المذنبة الكبرى ؟! ليتني تركتك مجرد لص صغير يسرق أفراداً لكنني مع الأسف كبرتك لتسرق شعباً بأسره ! الناس الذين انتخبوك نسبت أمرهم لم تقدم لهم أية خدمة حتى كرهوك ! أما هذه الأموال التي تدفعها كما تقول الصحف لأعمال البر والإحسان فخيرلك - إن كنت تدفعها بالفعل - أن توفرها على نفسك لأن حسنة واحدة أن تكتب لك بسببها فهي من الحرام !! عذرى عند الله - إن قبله سبحانه وتعالى - أنني قصدت الخير يوم وقفت معك كما أنني نصحتك مرات ومرات قلم تهتد ومن الواضح أن الله لم يكتب لك الهداية بعد !!»

انسجيت رُوجتي من لسانها غاضية:

- «هذا كثير علينا باستنا الشيخة ! الإنسان لا يجب أن يهان في بيته إلى هذا الحد حتى ولو من أخيه ابن أمه وأبيه !!»

سلقتها الشيخة بنظرة حارقة :

- «اوكنت مكانك لهجرت هذا البيت سكنت في عشة فراخ أطهر منه وأشرف

إ! هذا القصر المبنى بجماجم الفراعين القدامى ! ودم الغلابة المساكين الذين
ماتوا بأغذية مسممة يستوردها زوجك هذا والشقق السكنية التي تكلفت الملاليم
وبيعت بشقاء عمر كامل في الغرية ! إن الذين ماتوا في النكسة وفي الحرب
الأخيرة لا يستاهل أهلهم أكل الفراخ الفاسدة وبولوبيف الكلاب ولا أن يشرب
أطفالهم حليباً ملوثاً بالإشعاع الذرى !!»

تفجر الغضب على وجه زوجي وانسابت الدموع على خديها غزيرة مهانة :

- «هذا ما لم أكن أنتظره منك أبداً باستنا الشيخة!! طول عمرك لسانك لابعرف العبية فكف بطول علينا هكذا مرة وإحدة؟!»

قلت على سبيل المرّاح لأطيب خاطرها:

«يظهر أن سنتا الشيخة انضمت إلى جماعات التكفير والهجرة وها هى ذى
 تتشطر علينا وتكفرنا فى عقر دارنا!»

قالت بجفاء:

- «أنا لا أنضم لأحد !الناس هي التي تنضم لي وأنت تعرف ! إن كان ولا بد من الانضمام فاعتبرني منضمة لطريق الجهاد في سبيل الله طول عمرى ولا يصح أن أكون مجاهدة ويكون أخى في هذا الفسق والضلال تحت سمعى ويصبرى ! وقد قال الرسول عليه السلام من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان !! ولما كنت غير ضعيفة الإيمان فإني نويت أن أغير هذا المنكر بالوسائل الثلاثة : اليد واللسان والقلب !!» رمقتني زوجي بنظرات مشحونة بالانفعال، فيها فضول وتحريض ، وكنت قد

- «زين والله زين ! أريني إذن كيف ستقعلين !!»

غضيت بالفعل وتعيت من نزيف كرامتي؛ قلت بلا مبالاة ويرود:

قالت سرود أشد

- أما باللسان فقد فعلت ! وأما باليد فهو ما جئت من أجله اليوم أنا وهليل لتقول لك إن مجامينا الخاص سيمر عليك ليفض الشركة التي بيننا!! إما أن تبيع لنا وإما أن تشترى ولكننا في الواقع نحب أن نشترى لأننا حرمنا فلوسك الملوثة ولا يصح أن نمسكها أو نخلطها بفلوسنا !! سنشترى منك وقد نبيع لغيرك أو لا نبيع هذا شأننا !!»

ما بيني وبينكما هي المزرعة فحسب!! خذاها إذن بكاملها ووصلني ثمنها!
 إنك في نهاية الأمر شقيقتي وهليل صديق عمري!

بعد صمت طويل نطق هليل:

- «كنت صديقك فيما مضى ! أما الآن فلا !!»

خبطت زوجتى على صدرها في هلم وقد عراها التوبر والخوف فانتفشت صارت كالبلونة الموشكة على الفرقعة ، أردفت الشيخة سعادة :

- «شقيقتك هذه لم يعد لها وجود! انتهت رسميا وعمليا من الحياة! اختفت!
 الجالسة الآن أمامك هي الشيخة سعادة!!»
- «حتى علىُّ أنا الآخر هذا الكلام؟ لقد دفناه سويا!! أنا تسترت عليك وهذا يكفى !!»
- أنا لم أدفن معك شيئاً! الماضى هو الذى اندفن بإرادتى ويفعلى أنا وقدرتى أنا ! ولو أنك حاولت كشفى فأن يصدقك أحد! أما أنا فلو تكلمت فأنت تعرف جيداً ما تفعله كلمتى فى أكابر الرءوس!! التى تكلمك الآن هى الشيخة سعادة بمعنى الكلمة!! أقصد التى تغير قلبها من ناحيتك!!»

كدت أبكى ياخال، لكنى أدركت أن أوان البكاء لم يحن بعد، وأننى يجب أن أعالج هذه الأزمة الداهمة بأقصى ما أستطيع من هدوء أعصاب. إنفلق دماغى

واسودت الدنيا كلها في عيني، فلو أنا بعت لها المزرعة فلست أصمن أن تبيعها لجار سيئ ينازعني في ملكيتي يصبح شوكة في جنبي، قد يهد المزرعة ويبنيها محلات أو ورش، في نفس الوقت هي رافضة قبض فلوسي فهي إذن تريد أن تضايقني والسلام . في قلب هذه الحيرة نط بربش في رأسي فتشعلقت به .



دخل بريش علينا كمانيكان يستعرض الأبهة والقضامة بملابس اشتراها من أشهر بيوت الأزياء في العالم. كانت رائحة الضمر واضحة مع أنه كان في غاية الإتزان. أجلسته بجواري . لم يكن قد دخل هذه الظاوة من قبل، ولذا راح يتلفت حواليه في شغف مستطلعا جمال زخرفتها ومشغولات سقفها المقبب المليء بالمنحوتات والبروازات . وكانت الشيخة سعادة ترمقه في تأفف واحتقار ظاهرين، إضافة إلى أنها لم ترد عليه السلام لكنه لم يكن من النوع الذي يتأثر بسهولة بل هو يتلذذ باللامبالاة في مثل هذه المواقف إمعانا في الكيد للطرف الأخر . في أثره مباشرة جاءت صينية القهوة التي طلبها وهو يصعد السلم ، قال بربش بروحه العملية السريعة الإيقاع فيما يرشف القهوة والدخان معاً بشراهة

- «شغلتني يارجل! أنا تحت أمرك!»

تفكرت قليلاً قلت له :

- «جاءتنى الآن برقية عاجلة من الصعيد من شركائى فى المزرعة يطلبون بيع نصيبهم بشرط ألا أشتريه أنا لأنهم يستحرمون فلوسى وأنا أخشى أن أبيعها لهم فيبيعونها بدورهم لواحد غير مضمون السيرة يكون شوكة فى جنبى فبماذا تشير على لحل هذه الورطة البايخة ؟ السخيفة ؟ مع ملاحظة أن محاميهم سيصل صبح الليلة للتخليص !!»

بلا مبالاته الخفيفة الظل قال:

- «يعنى شركاؤك هؤلاء يعتبرون أن أموالك ملوثة كأموال تجار المخدرات والقوادين؟!»

مناح هليل على غير انتظار:

- «بالضبط يابو العم ! هم يرونها أسوأ من هذا إذا لم يعجبك !!»

لم يلتفت إليه بربش، لم يعره أدنى التفات، بل رشف ما تبقى فى الفنجان ثم جعل يهز الفنجان بهدوء وجسده يتراقص ليذيب البن المترسب فى قاع الفنجان للرشفة الأخيرة التى طوح بها فى فمه ثم وضع الفنجان فى الصينية وجذب نفساً من السنجارة :

- «الحل بسيط: إغسل أموالك الملوثة هذه قبل أن تعطيها لهم! نظفها جيداً!!»

ولم يضحك، بل كان وجهه جاد الملامخ رصينا، فصحت فيه بغيظ وألم:

- «الأمر لا يقبل الهزار! ما معنى هذا الكلام الفارغ الذي نطقت به؟ نضع الأموال في الفسالة؟ بالرابسو أم بالصابون؟ يارجل قل كلاما ينسمع!!»

جذب بريش نفسا عميقاً بكل هدوء ثم التفت لي في اندهاش عظيم :

- « أصبحت بنكيراً كبيراً ولا تعرف أن الأموال هي الأخرى تنغسل وتتطهر ؟! ألم تعرف كيف يودع تجار المخدرات أموالهم في بنوك ويسحبونها من بنوك أخرى بترتيبات بنكية معينة ومعروفة ؟! على كل حال هذه فكرة وسوف أشرحها لك فيا بعد ! أما الخروج من هذه الورطة التافهة التي تحيرك الأن فالخروج منها يتم على النحو التالى : دياب ابن خالتك يشتري نصيب شركائك ويدفع لهم من جيبه وبهذا يقبض شركائك أوراك أموالاً طاهرة !! ثم يقوم دياب بالبيع لك !!»

الفكرة على بساطتها ويدهيتها كانت مشرقة فعلاً فنظرت إليهما أتكشف رأيهما، أقصد هليل والشيخة سعادة، فلم ينطقا، فسألتهما

- ـ د يرضيكما هذا الحل؟!»
- قال هليل دون أن ينظر إلى .
 - -- «يرضينا يابو العم»
- «إتفقنا إنن! قليات المحامى التنفيذ من صبيحة ربنا وسيجد محامىً
 الخاص جاهزا!»

خبط بربش على ركبتيه في استعجال:

- «ائتهت مهمتی ؟ !»
 - «شكراً !»

ونهضت مسلماً عليه فجذب يدى بغمزة خفيفة فمضيت بجواره الأوصله إلى السلم، فهمس لى بعبارات مضعمة بأننى من الغد يمكن أن أضع مبلغاً في البنك لمساب دياب ابن خالتى وأن أكتب معه عقد بيعه لى قبل أن يكتب هو عقد الشراء، ولا بأس من تكسيب دياب مبلغاً معقولاً يشجعه . ثم هبط السلم مهرولا

وقد تم التنفيذ في السر والكتمان، ويهدو، تام، وفي أقل من ساعتين ؛ ولكنني لم أستطع مداواة جرحي ياخال؛ شعرت أنني خسرت خسارة فادحة؛ إذ كيف تصل الأمور بيني وبين شقيقتي إلى حد العداء هكذا ؟ وهليل صديق عمرى الوحيد كيف يتنكر لى هكذا ؟! ما الذي جرى في الدنيا ياخال؟ ما سر هذا العطب الذي أصاب الناس في مقتل فأتلف قلوبهم ؟ ..

الحياة أصبحت ماسخة . وأنا يا بوى ما كان مرادى أن أخسر أختى وصديق عمرى، لكن هل أفرط فى مستقبل عيالى ومستقبلى فى سبيل إرضائهما ؟ من يقول هذا ؟ من يقول أن الإنسان يحاسب أخاه على الإيمان أو عدم الإيمان ؟ لم نسمع من قبل يا خال أن الله قد عين شرطة للإيمان تتحرى عن قلوب الناس . باعتبارى من ألاديش الرئيس السادات بطل الحرب والسلام على سن ورمح، فإننى كنت أتبعه كظله . نعم، وعن عشق والله ياخال بصرف النظر عن المصلحة الشخصية فأنا والحمد لله كنت قد أصبحت قادراً على الاستغناء عنه بل أصبح بإمكانى الاستغناء عن مصر كلها، أستطيع أن أعيش في سويسرا، في النمساء في باريس في أي مكان في أفضم القصور في أجمل الجزر، لدي من الأموال ما يكفيني ويكفي نسلى لعشرة أجيال قادمة على أقل تقدير ..

ولما بلغتنى أخبار تحركات التيارات الإسلامية المتطرفة منذ وقت مبكر، وأن الإخوان المسلمين يدبرون لإغتيال الشخصيات العامة تسهيلاً أوصولهم إلى حكم البلاد وأنهم قد اخترقوا معظم الأجهزة وصار لهم رجال فيها، فكرت جيدا في الهجرة التامة إلى الخارج وإدارة أعمالي من أي عاصمة عالمية؛ سيما وأننى قد أصبحت أجيد التكلم بالإنجليزية إلى حد يكفل لي التعامل مع الناس والبنوك، كما أصبحت زوجتى تجيد الفرنسية والألمانية قراءة وكتابة بل وكانت تؤلف شعراً بالفرنسية لأنها باسم الله ما شاء الله تخرجت في الجامعة الأمريكية ودخلت في سباق مع سيدة مصر الأولى جيهان السادات قائلة لنفسها ولى إذا كانت السيدة جيهان وهي الأكبر منها سناً وفي مركز يحقق لها كل شيء وقد أصدت مع ذلك على مواصلة التعليم والحصول على الدكتوراه وبراسة الشعر الإنجليزي فمن باب أولى – وهي الشابة الصغيرة لا تزال – أن تفعل ذلك هي وفي العمر فمن باب أولى – وهي الشابة الصغيرة لا تزال – أن تفعل ذلك هي وفي العمر

أمامها متسع لتحقيق درجات علمية تنفعنا في الحياة .

بتشجيع منها قمت - في نوية شبه جنونية - بشراء مجموعة من القصور في بعض العراضم العالمية · اندن وباريس وروما . لعلمك ياخال إن كنت تستهول هذا الأمر فإنه لم تكلفني إلى حد الإيهاظ، بل إنني لم أشبعر بالارهاق مطلقاً، فتُمن قطعة أرض وإحدة من الأراضي التي سيق أن اشتريتها يتراب الفلوس، والتي ركتتها فلم أدخلها في حساب ثروتي المتزايدة، كان بشتري قصرا بكامل مفروشياته في واحدة من هذه العواصم الكبيرة . في البداية بإذال فكرت في الإقامة الدائمة في باريس الساحرة، ليكون قصري استراحة حيدة لإصطبار السياسيين المسريين الوزراء والأمراء العرب؛ فمنها أستطيع ادارة أعمالي أفضل من القاهرة؛ ومنها أصفق خلوة تمكنني من شيراء أي رأس بشكل نتوءاً في طريقي، فسيف الدولار هو أمضي سيف لكشط أي نتوء يضايق حركتك . أنت في الخارج - كما عرفت يابوي - تستطيع امتلاك جميع المسئولين إذا كان عندك شقة للمبيت والصهللة فما بالك لو كنت تملك قصراً فخيماً ونهر فلوس لا ينفد ؟!.. إلا أن بريش العفريت نصحني بالانتعاد عن لندن وباريس بالذات لأنهما تحويان الواغش . فهناك ثلاث حهات تعيث فساداً في المثقفين المصريين بالذات والعرب عامة، تنفق عليهم الأموال الطائلة ليكونوا جنوباً بخدمون سماستها بالدعاية لها وإطفاء الرهبة عليها من ناحية، ولتسخيرها لضرب الحاكم المصري وإشاعة البلبلة والقلاقل في مصر من ناحية أخرى، بأوهام وشعارات اشتراكية وحدوية فهاوية ثورية من ناحية أخرى . هذه الجهات هي العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية وليبيا . ما من واحد من مثقفي الناصرية والشيوعية المصرية إلا وبعيش ملبونيرا أو على الأقل لورداً في بلهنية من العيش على نفقة واحدة من هذه الجهات الثلاثة، بعضهم متسق مع نفسه لأنه يعمل في إطار المباديء التي آمن بها بصرف النظر عن القوة المادية المسيطرة التي توجيهها في خير أو في شر؛ ويعضهم يعرف جيداً إنه مجرد لاعب على الحبال بهلوان يرغب في تجميم ثروة طائلة في زمن محدود وإذا فهو يجيد القفز على التناقضات القائمة دائماً بين الأنظمة السياسية العربية.، ليضم نفسه في خدمة أي منها إلى أن تواتيه فرصة أكبر الوثوب على تناقض أكثر ثراءً؛ منهم المراسل الصحفي، والكاتب المتقرع، والمدمن إصدار مجلات وصحف تتلقى التمويل من كل حدب وصوب مقابل السكوت عن الشوشرة أو توجيهها في اتجاه أخر؛ ومنهم السياسي المعزول في بلده وقد أوهم إحدى هذه الجهات بزعامته وقدرته على إقامة تنظيم مصرى في الخارج يستطيم القفز على الحكم في الداخل؛ ومنهم الجاسوس المحترف نو الوجوه السبعة ، ومنهم الشاب المخدوع بأوهام الثورة والإشتراكية والقومية .. إلخ ؛ ومنهم المذيع الحنجورجي المتخصص في تدبيج وإلقاء البيانات ضد مصر وأنور السادات خائن العروية. لكل هؤلاء - يقول بريش روافد وقنوات داخل القاهرة؛ والدولار النفطى في يدها يستقطب كل من يجيد الإمساك بالقلم ممن يلزمهم مسكن وزوج وسيارة ومصروف جيب يقاوم به الإرتفاع الجنوني للأسعار بعد حرب أكتربر، وإذا فإن الصحافة النفطية هي صاحبة الصوت الأعلى الأن بل هي صاحبة الصهوة والصولجان في مصر، ثقافة معلية لا تخدم قضية ولا تبنى شعباً، تفح منها رائحة الجاز؛ كل ذلك يتم طبخه في لندن وباريس أكبر سوقين في العالم لتجارة السياسسة والفنون وصنع الأبطال المزيفين والإرهابيين والمفكريين الأدعياء ..

ولو أننى أقعت في باريس أو لندن يابوى فإن هذه القوى الجهنمية ستتخطفنى بأى شكل، على الأقل تورطني في أشياء قد تغضب الرئيس السادات منى، خاصة وأن المثقفين المصريين هناك يسببون له كثيراً من الضيق والإزعاج، وهو محق في

الثورة عليهم والتنديد بهم في خطبه وأحاديثه، لأن الفرق بين مجاربة الرئيس المصرى في الخارج وبين محارية مصر نفسها شعرة رفيعة بنسي المحاربون المحترفون دائما أنها كثيراً ما تنقطع رغماً عنهم فإذا هم يحاربون بلادهم في الصميم تحت علم الجهاد في سبيل مصلحتها في حين أن مصلحتها في سكرتهم. وجودي بين هؤلاء خطر باذال كيما نصحني بريش، محرد اتصالي بهدأو اتصالهم بي قد يجر على الإشاعات والوشايات خاصة إنني لست هارياً من شيء في منصبر، وبالأخص لأني صنديق لأنور السنادات ومؤمن منله ومنقنتم بأنه السياسي الوحيد الذي يمكن احترامه بين جميع زعماء العرب على الإطلاق، والعمل معه أشرف بكثير جداً من العمل مع أي ديكتاتور عربي لا يملك إلا السيف والذهب؛ في نفس الوقت أنا لست محتاجاً للمال أو الشهرة أو المركز لكي أعمل مع أي قوة عربية مضادة لأنور السادات ٬ الأهم من ذلك أنني أعشق تراب مصر ولا أطيق من يسيء إليها أو إلى رئيسها في الخارج، أي إنني باختصار بابوي سـأخلق لنفسي من المشاكل ما هو أشيد خطورة من يقائي في مصير. ثم إنني عضو في مجلس الشعب بالخال، وعضوبتي أصبحت مضمونة في كل دورة يعني ناجح ناجح غصباً عن الجميع مهما حوريت من خصومي في الدائرة بل أصبح عندى دائرة احتياطية مضمونة في جيبي هي منطقة منشية ناصر والجمالية والدرب الأحمراء وهي منطقة لو سحبت منها أموالي الشفالة فيها لخريت ثلاثة أرباع تحارتها..

قل إننا نحينا فكرة الهجرة جانباً. ونصحنى بريش بتوجيه اهتمامى إلى المظاهر الإسلامية الزاعقة حتي أصبح رمزاً من رموز الإسلام ترضى عنه جميع التيارات المؤيدة والمعارضة على السواء. فبدأت إتجه لبناء المساجد وإقامة المستوصفات في الأحياء الشعبية الفقيرة تعمل بالمجان وتسمى بأسماء اسلامية:

المنفا، مكة، الريان.. إلخ . ولم يكن ذلك يكلفنى كثيراً يابوى، بل على العكس كان يفيدنى ذلك أن تكاليف هذه المستوصفات كانت تخصم من الضرائب المستحقة على شركاتى ثم أن بربش ويسبوسة وغزولى أقنعونى أن عدوان جماعات التكفير والهجرة منصب في الأساس على الشرطة، وحدها والى أن يمتد عدوانها إلى الشخصيات العامة يكون قد حلها الحلال .

* * *

كنت قد انضممت إلى حزب مصر الذى كونه الرئيس السادات . صرت أفخر بأننى عضو بالهيئة التأسيسية مما أتاح لى أن أصبح عضواً بلجنته المركزية العليا . دفعت أكبر مبلغ تبرعت به فى حياتى لتأسيس الحزب، ثم مبلغاً أخر لتأسيس جريدة مصر . وحينما إنقلب الرئيس السادات على الحزب لسبب لست أدريه ولم أعن بسؤال بربش تفسيراً له؛ تبتعه فى الحال ياخال ؛ وفسرت انقلاب الرئيس بينى وبين نفسى أن الرئيس قد أدمن الإنقلابات وقلت لنفسى :

شاركت فى تأسيس الحزب الوطنى يابوى؛ دفعت مبلغاً أكبر من السابق تبرعاً لميزانية الحزب 'قدمت شركاتى كل خدمات ممكنة تحتاجها مقار الحزب وجريدة الحزب ووسائل انتقالاته..

بعد ذلك انضم كل من بسبوسة وغزولى إلى حزب الوقد لأنهما يحبان هذا الحزب بحكم الميراث. أما هندى فقد انضم إلى حزب العمل لأنه قرأ ذات يوم مقالة عن أحمد حسين فأحبه واعتقد أن هذا الحزب يشبه أحمد حسين وأيامه !! أما بربش – وهذا هو المثير المدهش ياخال – فقد انضم إلى حزب التجمع الوحوى الناصرى. ظننته يمزح يابوى؛ لكنه صفعنى بإبراز بطاقة العضوية؛ ثم بدأ يكتب في جريدة الأهالي من حين لآخر وعلى حس الأهالي صدار يكتب في

- Foo -

صفحات الرأى في الجرائد المسماة بالقومية الأهرام والأخبار والجمهورية، بشكل متواصل، لا يمر أسبوع إلا وتقرأ زوجتي على مقالة بقلمه في جريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات؛ كما أنه صار يلمع نفسه بالأخبار الدائمة في كل الصحف معتزما دخول الحقل السياسي من جميع أبوابه عن طريق الحزب وجريدته . قلت له :

- «ولكتك يابريش من ألد أعداء عبد الناصر والاشتراكية والشيوعية وغير مؤمن بفكرة الوحدة العربية وإمكانية تحققها في العصور القليلة القادمة على الاقل! ورأيك أن الإتحاد السوفييتي نصاب بل أشد وساخة من أمريكا فكيف تنضم إلى الحزب الذي ينادي بكل ما أنت ضده ؟!»

قال بېساطته ووضوحه المعهودين:

- هذه هي الشلة التي أعرفها جيداً في الحقل السياسي كما أعرف نفسى !! ليس من شخص فيها لم أختلط به في السراء والضراء وأعرف نقاط ضعفه ومكامن قوته ! إنها المجموعة التي أستطيع التعامل معها في يسر وسهولة لما بيننا من لغات مشتركة وتفاهم سريع سهل ! فهي إذن مجموعتى ! فريقي الذي أستطيع أن ألعب به أية مباراة سياسية ولا ننس أنهم أكثر وعيا بالسياسة وأكثر قيمة في معظمهم بصرف النظر عما يصيب بعضهم أو كثرتهم من عطب وعفن وضمور في عضلة الضمير وجروح غائرة بسبب ما أصابهم من تعذيب داخل السجون !! إنهم أكثر السياسيين مدعاة للإحترام !! إنني أشعر بينهم بالتواؤم ! لقد انتهت المبادىء في نظرى منذ سنوات !! ويحكم سفرياتي العديدة في السنوات الأخيرة إلى كل العواصم الاشتراكية كتاجر وكسائح وكمثقف يلوح لي أن المسألة الإشتراكية هذه أصبحت على حافة بركان لابد أن ينفجر عما قريب !!

- 4.1 -

الاحتماعي والسياسي بلغت الطقوم ولم يبق إلا الإنفجار!! ومعظم من نابوا بالاشتراكية والشبوعية في مصر عرفوا هذا وتأكلوا منه لكن أصبح من العسير أن يتحولوا هكذا يبساطة عن أشياء أمنوا بها عمراً طويلاً وقدموا في سبيلها زهرات شمامهم ؛ إن أكبر سلطة في العالم الأن هي سلطة النقط حتى وإن كان مالكه و ضعافاً جهلة متخلفان انما العبرة قيمن بسيطرون عليه !! أموال النفط مثل طبيعة النفط تماماً عندما يكشف عن نفسه بالقيض إذ أنه ينتشر في يقم عشوائية تَأْخِذَ فِي الاتساع والتشعب حسب درجة مبلاية التربة !! هكذا أمواله أيضياً تزحف على سطح المجتمعات العربية والنامية على شكل رقم عشوائية جتى تصبيح الطبقات العاملة والفقيرة من صغار الموظفين والفلاجين معرضة للثراء الفاحش بغير مناسبة !! حينئذ تبدأ مقتنيات التكنولوجيا في الانتشار في الأحياء الشعبية وتكثر مظاهر الرفاهية فتبطل بالتالي كل دعوة للمباديء السياسية المسماة بالاشتراكية والشبوعية لأن الطبقات القصودة بالخطاب السياسي لم بعد لديها أذن تصغى ولا وقت تضيعه في عمل سياسي منظم !! كل النظولات السناسية تصبح وهماً أخرق في ظل سوق نقطية عارمة تبعثر الأموال بغير حساب على كل من ينضم إلى قافلة الزيت أو يحتك بها مجرد الإحتكاك إننا مقبواون على العصر الذي يسميه حسنين هيكل بالعصر السعودي حيث تسعى السعودية بقوتها المادية والدينية إلى أن تكون مركزاً الحكم في العالم الإسلامي وتصبح مصر بجلالة قدرها إبالة سعودية أو إسلامية كما كانت من قبل إبالة عثمانية! كان من المقروض أن أنضم إلى حزب موال المد السعودي أو أشارك في البغمة الكبري لكنني في هذه المسألة حنبلي! اقد تعلمت الوطنية الحقة من كيار الشيوعيين وما دام الله قد أعطاني المال في أواسط العمر فلا داعي للنذالة في المسألة الوطنية!! أنا مصرى قع! وعربي ثانياً ! ولا أقبل أن تصبر مصر بجلالة قدرها مجرد إبالة

لا سعوبية ولا حتى جن أزرقية !!»

ذلك هو بريش ياخال، معلمى ورائدى وصاحب أكبر فضل فى بزوغ نجمى: واولا نصائحه وتوعياته وخططه وعلاقاته الواسعة ولباقته فى الحديث وقدرته على إتقان شخصية محبوكة منضبطة تقنع من يراه بإنه زعيم سياسى بالسليقة والفطرة؛ لولا كل ذلك لتعثرت فى أول الطريق ياخال ..

فليقل بريش وليفعل ما يشاء فإننى أحببته . وإذا كان هو – كما وصف لى نفسه ذات يوم في شقة المنيل – نتاج عصره المضطرب المليىء بالتناقضات والحروب والخوف والرعب والتطلع المجنون والطموح الأخرق؛ فإننى بدورى نتاج بريش إضافة إلى كونى من نفس العجينة التى ديست في قعر المجتمع ..

صرنا خصوماً سياسيين في الظاهر ياخال بحكم انتماء كل منا إلى حزب مختلف، أنا في الحزب الحاكم وهو في الحزب المارض لكنه أصبح يسبب لى الكثير من البلبلة ياخال، بل الكثير من الحرج أمام سيادة الرئيس والهيئة البرلمانية للحزب التي أنا عضو فيها. كنا نسهر كل ليلة معاً في شقة المنيل أو في قصرى أو في استراحة خارج القاهرة؛ وأثناء السهرة يؤكد لي مجدداً أهمية إتفاقية كامب بيفيد للسلام التي عقدها الرئيس السادات مع اسرائيل؛ ويؤكد لي بكل إقتناع أن السادات بها وحدها دخل التاريخ كبطل للحرب والسلام معاً؛ وهو ليس يستحق جائزة نويل فقط بل يجب أن نقيم له تمثالاً من الذهب في قلب كل مصرى اللغات التي كتبت بها ياخال، وفور صدورها، بل في مسوداتها الأولى قبل إعلانها اللغات التي كتبت بها ياخال، وفور صدورها، بل في مسوداتها الأولى قبل إعلانها على الملاء؛ وتولى شرح البنود على حدة ، وتعليقات الأجانب المحليين وأصداء ذلك في وكالات الأنباء العالمية، وردود الفعل الإقتصادية، والتوقعات لما ستسفر عنه هذه الحركة العدائية الناشبة ضد مصر بين العرب فيما عرف بجبهة الصدود

والتصدى بقيادة صدام حسين الذى أوهمه المثقفون المصريون المحترفون بأته الوريث الشرعي لعبد الناصر في المنطقة أو لعله النسخة المصنة المعدلة منه وأنه لا مجالة وإميل بالعرب إلى بن الأمان؛ وكنف أن هذه الحركة ستأكل نفيتها ينفسها، ستغرقها يحيرات البترول الأكثر تدفقاً في يقع من يقاع الجبهة المزعومة؛ مصلحة البترول الحاكم ستكون هي فصل الخطاب، هي التي لابد أن تسود . إن البترول - يقول ياخال - الذي سيطرت عليه القوة الأجنبية الشيطانية سينضم تلقائباً لخدمة سابته أصحاب الهيمنة؛ وبالتالي فغداً أو بعد غد تتشرذم هذه الجبهة الهشة من حالها ، التي لا يجمعها سوى الشعارات والانفعالات ولا تملك من أسباب التلاحم الحقيقي سبباً وإحداً؛ سرعان ما تنفتح لكل منها جيهات داخلية مدمرة تستهاك كل قواها فلا يبقى من جيهة الصمود والتصدي سبوي فراغ المنطقة من أي جبهات على الإطلاق؛ تظل كما كانت وكما ستبقى لدهور مجرد سوق للنفط يستهلكه السادة إياهم ونحن مجرد حرس وخدم نعيش على الفتات الفوضوي، ولسوف تؤوب المسائل في النهاية إلى سريان ما خطط له السادة إياهم وأرابوا. وإن عشنا استوات قلبلة قادمة فسيفكرني حيثما أرى بعيني أن الحميم يسعون للصلح مع اسرائيل لأنهم لا خيار أمامهم سواه بعد أن تفتتت كل الجبهات واضمحل شأنها . كل طرف سيمني النفس وإن يربع ما حصل عليه أنور السادات في إتفاقيته؛ وما حصل عليه السادات ليس بالقلبل في الواقع؛ مكفيه استرداد الأرض المغتصبة منه شبراً شبراً. ثم إنه لم يلجباً لهذه الإتفاقية إلا بعد أن تركه أشاوس الصمود والتصدى وحده في مهب الربيح يشراخون في دفع أنصبتهم في تكاليف المعركة همم يريدون استمرار الصرب مع اسسرائيل حتى آخر جندي مصري وآخر قرش في خزانة مصر فهل هذا حالاً أم حسرام؟! تـقـولـون بأن المعركة عربيـة ؟ نعـم؟ إنن

فليكن الجيش عربيا والسلاح صفا والقيادة واحدة؛ أما أن يكتفى البعض برمى الفتات كتعويضات مادية دون مشاركة فعلية صارمة حاسمة، شراءً لخواطر سادتهم المهيمنين على نعيمهم النقطى فهذا محض تهريج وتخريف وتخلف؛ ولا جناح على أنور السادات إن هو ولى وجهه نحو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مصير بلاده قبل تفاقم الخسائر ووصول الأمور إلى المراحل الصعبة ثم المستحيلة.

ذلك هو رأى بريش ياخال ويكل حذافيره كما شرحه لى مرارا وتكراراً في سهراتنا إبان القلق العام والدوار الذي أصاب الجميع بصدمة الإتفاقية المفاجئة؛ بل إنه صاحب التعبير القائل بأن المستحيل أصبح ممكناً بهذه الإتفاقية فلم لا يعيش الجميع من سكان المنطقة في وئام وحذر طالما إنه أمر واقع ومفروض بإجماع العالم ولا مقر منه ؟

إلا إننى أفاجاً – ربما في صباح نفس الليلة ياخال – بمقال بترقيعه منشور في جريدة الأهالي يهجم فيه على السادات يصفه بنشنع الأوصاف ياخال؛ يمزق إتفاقية كامب ديفيد شر تعزيق، واصفا إياها بننها اتفاقية الخيانة والهزيمة والخور وبيع التاريخ كله بنصف خردة !! ثم يصف الحزب الوطني الحاكم بننه حزب التجار وأغنياء الحرب والصدفة، والسماسرة والوكلاء الذين لا يعنيهم مستقبل الوطن في كثير أو قليل.

تكررت هذه الحركات النص كم ياخال من بريش حتى فهمت إنه حينما يريد أن يكيل اللعنات السادات فإنه يرفع اسم الرئيس ويضع بدلاً منه الحزب الوطنى . الحاكم؛ وحينما يكيل اللعنات على الحزب الوطنى الحاكم فإنه يضرينى أنا تحت الحزام ياخال . أما حين أعاتبه، يضحك ؛ وفي ضحكه – ياعجباً – صفاء الطفولة ويكارة الأبرار، ثم يقول:

- «هذا شغل سياسة لا بد منه ياصاحبي!! أنا حينما أكتب في جريدة الحزب

فلأننى عضو في هيئة كبيرة تمثل الحزب أمام جمهور السياسة وأعضاء الحزب !! إن الحزب الذي أشرف بالإنتماء إليه يرفض الإتفاقية شكلاً ومضموناً بل لا يعترف بها من الإساس فكيف أخالف الحزب بإجماعه ؟! إننى إذن لمنشق ويحق له طردى منه !! أنت يجب أن تفرق بين بريش صديق عمرك ويريش عضو الحزب السياسي! أنا مع الإتفاقية بقناعة شخصية لكننى مع حزبي بالموقف والمساندة بجميع أنواعها!! هذه أصول حزبية لا بد من مراعاتها !!»

-- وولكتك يا بريش يا خوى تشهر بنا ! تحرض الجماهير علينا تحريضاً صريحاً تهيج مشاعر الرأى العام ! خاصة وأن القراء المهمين إنصرفوا عن الجرائد القومية إلى الجرائد النفطية اللندنية ونشرات المعارضة !! فما معنى أن تكون صديقى وعدى في نفس الوقت ؟!»

- دهذه هي السياسة صاحبي! أنتم بالفعل خصوص السياسيين في الواقع! واسنا وحننا خصوص الشعب! لقد رخسي واسنا وحننا خصوص الشعب! لقد رخسي الشعب بالحرب وقدم أولاده ولف الحزام على بطنه جاع تعرى أهين في المواصلات سكن في المقابر كل ذلك في سبيل الخلاص بالحرب فلما تحقق النمس ساحت الأوضاع واسودت عيشة الناس بدلاً من الرخاء المنتقل!! اشتعلت الأسعار عزت المساكن انعدمت السلع نضبت المرتبات والمهايا!! سنوات الضباب التي تنرع بها الرئيس لم تمطر بالذهب والفضة بل أمطرت البلاوي السوداء والعياذ بالله!! قيل السلام قرين الخير! فرضى باتفاقية السلام ودم أبنائه لم يجف بعد فإذا بالأوضاع تزداد سوءاً حتى أولادنا الذين كفونا مئونتهم بالعمل في بلاد النفط أصبحوا يتعرضون للذل والهوان والطرد بسبب الإتفاقية!! حتى الذين رضوا بالذل والهوان هرباً مما هو أمر منه في بلادهم خفضت أجورهم إلى أدنى حد عنوة والمهوان هرباً مما هو أمر منه في بلادهم خفضت أجورهم إلى أدنى حد عنوة واستقداراً!! إن البلاد يا صاحبي تغلي غليانا مخيفا وأنت لا تدري!! الفرق بيني

وبينك أننى شوارعى أصيل استمرت علاقتى بنبض الشارع حتى وأنا في رحلة في الخارج أما أنت فاستمرأت النعيم !!ه

تصور ياخال، بريش يقول هذا الكلام . عندئذ ياخال ايقنت أننا في عصر التبجح البهلواني المتقن، إذ يحق لبريش أن يفعل ما فعل ويرتكب ما ارتكب ضد الناس في ادارته الشركاتي ثم يقول مثل هذا الكلام الوطني الحار!! هذا درس آخر مما تعلمته في شفل السياسة ياخال: أن تكون محبوك الشخصية قادراً على الإقناع بالكلام المسبوك فهذا يكفيك وافعل خلف ذلك ما تشاء من الأفعال .

كان فرح سماسم بنت بسبوسة - الذي أقمناه في فندق المريديان - على وشك الانتهاء حينما انزويت مع بسبوسة في ركن قصى في الاستراحة فوق مياه النيل، نستروح النسمات ونستنشق ذكريات الماضى الأليم . وإذا به يقول في شيء من الزهو:

- دضيوف بربش الليلة كانوا أضعاف ما توقعت !! الولد اتسعت علاقاته! كان معه الليلة ناس مهمون من سفارات العراق وليبيا والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية وتونس واليمن والسعودية! كُتُاب ومحقيون ودبلوماسيون ومناضلون! رحبت بهم طبعاً حينما قدمهم لى بالواحد ملأت موائدهم بزجاجات الويسكى من أرقى نوع بخلاف ما أتى به بريش ! جاست معهم بعض الوقت فاستكملوا حديثهم أمامى! جننت ! ليس هذا بريش الذى أعرفه! ما كل هذا الكلام الفخيم الرنان ؟ هذه القضايا الكبيرة التى تكلم فيها ؟ لو رأيته لحظتها يخيل إليك أنه يسعى لمنصب رئيس الجمهورية!! مجنون ويفعلها!! فاجر! والله كان يتكلم كأنه يالمدى المنتظر! المذهل أن ضيوفه كانوا يعاملونه هكذا!!»

- دماذا كان يقول مثلا يا بسبوسة ؟!»

- «أنت تعرف أننى لست مائى المزاج وإن كنت أشرب!! لكننى شربت الليلة
بمعنى الكلمة فلعب الويسكى برأسى لولا أننى قرقشت ليمونة يخيل لى أنه كان
يتكلم عن جريدة يومية باسم الفيضان تكون سياسية انتقادية حادة! وتكلم عن
شىء اسمه الميليشيات! لم أعرف معنى الكلمة ولكن ربطها بالعمل الفدائي جعلنى
أفهم أنها ربما كانت تعنى الفدائيين المقاتلين! وأن يديرها بنفسه متصدياً بها لفرق
التيارات المتطرفة يصفيها جسديا قبل استفحال خطرها الزاحف بقوة! وأشياء
من هذا القبيل! وأطنه تكلم أيضاً عن حزب سياسى سيتقدم بطلب لإنشائه بعد أن

يجمع التصاب القانوني من الأعضاء سيسميه باسم الجريدة: الفيضان ! فيضان الخير فيضان الغضب فيضان الثيل كله داخل في بعضه كما قال!! يبدو أن الواد قد ركبه جنون العظمة بعد أن شبع وعمل القرشين !! لا تستهن به على كل حال!! ابنه من زوجه القديمة – وهو طالب في الجامعة –عنده سيارة بي إم دبليو! مثل سيارة زوجه الجديدة !! أما زوجه القديمة فسيارتها بيجو ٤٠٥ لابنته الطالبة بيبلوم التجارة سيارة فيات ١٩٨٨!! اللهم لا حسد ولكنه بدأ يفجر فجرراً لا مثيل له ويلينا أن نحذر منه كل الحذر! لا نخسره وفي نفس الوقت لا نأمن جانبه!!»

«ربنا يعمل ما فيه الطيب يابسبوسة! ربنا يهديه فأنا في الواقع لا أستغنى
 عنه أبدأ وأنت تعرف مدى ارتباطي بكم جميعاً فأنتم أهلى وناسى!»

- دأنا لا أطعن فيه لعلمك اولا أوقع بينه وبينك فأنا أيضاً أحبه وهو قطعة عزيزة من حياتي إنما أقول ما لاحظته عليه! ولأننى مخلص لك وله فإننى يجب أن أقول لك إنك لن تستفيد منه الكثير بعد الآن في شغل السياسة! لقد بدأ عصره الآن!! هو لعب في السياسة من خلالك! لبس وجهك وثيابك حتى حقق ما كان يتمناه أصبح يوصف برجل الأعمال المصرى الكبير أصبحت له شعبية في النادى الأهلى ويرشح نفسه لمجلس الإدارة فينجح ويتزيج من نجمة سينمائية صاعدة ويقنعها بالتخلى عن طموحها السينمائي من أجله!! هو الآن يشتغل في السياسة لحسابه! باسمه! بوجهه! ولسوف ينجح بالتأكيد!!»

- «وما العمل في رأيك يابسبوسة؟ !»

- «أنت لا تزال الأقوى طبعاً بحكم موقعك فى السياسة فى الحزب الحاكم ومركزك المالى الضخم! ولا أظن أنه سيصارعك فى يوم من الأيام لأنه يحبك من جهة! ومن جهة أخرى فإن حزبه لن يصل إلى الحكم أبداً لأنه مجرد أنقاض عهد مضى وكرهه الناس كرها شديداً! كل ما فى الأمر أن بعض الأنكياء من أمثال

بريش يمكن أن يقفوا فوق هذه الأنقاض فيحققوا مكاسب شخصية كبيرة !!ه

- دما رأيك بابسبوسة أو أننى فضضت جميع شركاتى أرحت نفسى من وجع الدماغ وهاجرت إلى بلد أوروبى أقضى فيه بقية عمرى بعيدا عن المخاوف أربى عيالى تربية راقية وأعيش عيشة راقية ؟»

- وتكون جننت بالفعل!! إياك أن تفكر في هذا مجرد التفكير! إن الرأسماليين المصريين المتجنسين بالجنسية الأمريكية بدأوا يتوافدون اليوم على مصر لإنشاء المشاريم الإستثمارية المريحة! فجأة تذكروا مصريتهم التي تركوها أيام الحرب غرقانة في الوحل وعادوا الآن يتمسحون فيها يظهرون في برامج التليفزيون يقولون كلاما يرفع ضغط الدم من كثرة النفاق والزيف والكنب: جئت لأخدم بلدى الحبيبة مصر العزيزة في القلب..إلمْ!! الأحرى بالواحد منهم أن يقول : جئت لأنهب وأستغل فأنا أولى من الغريب!! ماضيك كله في التجارة والإستثمار كوم والأيام القادمة كوم آخر!! المكسب الحقيقي سبيدأ!! القطاع العام سيتم بيعه لا محالة لأن معظم أعضاء مجلس الشعب والوزراء من كيار الرأسماليين وأصحاب المشاريع والحزب الوطنى كله كما تعلم ضد القطاع العام ومجانية التعليم ومكاسب العمال الفلاحين وتحالف قوى الشعب العاملة!! أكبر تناقض في حياتنا السياسية الآن هو أن الحزب الحاكم يحكم باسم ثورة ٢٣ يوليو وهو نفسه الذي يقوم بتدميرها ومحو أثارها من الوجود!! ذهب عصر حكومة العمال والفلاحين وانقضى عصر حكومة المهندسين وعصر حكومة التجاريين المحاسبين ويدأ عصر حكومة رجال الأعمال! وتجيء أنت الآن بسلامتك لتفكر في الإنسحاب؟ ما الذي أصابك في عقلك بارجل؟! توقف نهر الفلوس ؟!»

 - وبصراحة بابسبوسة أصبحت أخشى التيار المتطرف! أسلوب الخطف والإغتيال والتفجير قد بدأ وعيونهم الآن على كل من أيد الإتفاقية أو سافر إلى اسرائيل مع الرئيس !! أنت بنفسك نقلت لى أخباراً سرية تقول إن إيران والسعوبية ينفقان أموالاً طائلة على التيار الإسلامي لخلفلة النظام المصرى وتعجيزه كي يصل الإخوان المسلمون إلى الحكم فإما أن يكون التيار الموالي لإيران هو الاقوى فتكون مصر ممراً لإيران إلى السيطرة على السعوبية! وإما أن يكون التيار الموالي للسعوبية هو الاقوى فتكون مصر سلاحاً في يد السعوبية لضرب إيران وتبقى هي زعيمة العالم الإسلامي الكبير!!»

- داهلك تذكر أن بريش شرح لنا ساعتها أن ذلك سيبقى مجرد حلم تسعى إليه الدولتان وهو غير قابل للتحقيق بسهولة وإن ظل مصدراً للقلاقل! إن أوروبا التى تستنزف الآن بترول البلاد! وأمريكا التى تدلل السعودية وتبغدد الخليج لتضمن حراساً أمناء على مصالحهم في المنطقة بدلاً من الشاه وحتى تصبح إسرائيل قوية بالدرجة الكافية!! هؤلاء ان يتركوا لا السعودية ولا إيران ولا البلكستان ولاحتى مصر تقيم امبراطورية إسلامية تنازعها وتهدد أمنها بعد أن البلكستان ولاحتى مصر تقيم امبراطورية إسلامية تنازعها وتهدد أمنها بعد أن تخلص العالم من الإمبراطورية العثمانية!! وإذا كانت أمريكا تركز جهودها الآن لقضاء على الإتحاد السوفييتي كي تستقل هي بحكم العالم فإنها ليست من القضاء على الإتحاد السوفييتي كي تستقل هي بحكم العالم فإنها ليست من القباء بحيث تسمح للتيار الإسلامي بأن يصل إلى أبعد من الحدود التي رسمتها له!! إنه هو الآخر سلاح في يدها تلعب به في المنطقة من بعيد ابعيد واكنها عند اللزوم يمكن أن تدكه دكا!! هذا ما شرحه بريش وإني أتذكره جيداً!»

كان بريش قد انصرف مع ضيوفه إلى حيث يستانفون السهرة في صحاري سيتي؛ وهندى وغزولى تطوعاً باقتياد سياراتنا مزوقة بالورق الكريشة المشاركة في موكب توصيل العروس إلى شقتها التي احتجزناها في واحدة من عماراتي الفاخرة في مدينة نصر كهدية مجانية لها وكسراً لعين عربسها ضابط الشرطة، فيما جلست أنا ويسبوسة نشرب القهوة في انتظار ولد الفرطوس بالسيارات.

وكنت أهز رأسى بالتحية لكل من يفوت علينا ملقيا السلام، كإننى أحد نجوم السينما يلاطفنى الكثيرون بل إن بعضهم يصر على أن يبعث لى فنجان قهوة على حسابه، بصراحة يا خال كرهت بريش لحظتها لأنه أضر بهذه الناس وأطعمهم الفراخ الفاسدة وطعام الكلاب باسم شركاتي. عاد حب القاهرة يلعلم في قلبى؛ قلت لنفسى: كيف طاوعك قلبك على التفكير في الرحيل بعيداً عن هذه العزوة الدافئة لتعيش في بلاد لا يعرفك فيها أحد ؟.

واستدرك بسبوسة:

- «على فكرة! الناس تلوم أنور السادات لأنه أفرج عن الإخوان المسلمين وبرك لأشبالهم حرية العمل في الجامعة فانقلبوا عليه!! قيل إنه أراد أن يلعب بهذه الورقة لكسب شعبية دينية كبيرة من ناحية وليخلصوه من الشيوعيين والناصريين من جهة أخرى فخانه الحظ في هذه الورقة لأن من يربي وحشاً لابد أن يستدير عليه !! وأنت بنفسك شفت محاورة السادات مع عمر التلمساني ساعة أن دعا عليه التلمساني على الملا في الجلسة قائلاً بِالقم المليان: شكوتك لله ! وشفنا في التليفزيون أنور السادات وهو مرعوب من هذه الشكوي ويطلب من التلمساني سحبها فلا يسحبها فكأنه أهدر دمه بين القبائل المتطرفة وها هم يتآمرون عليه علناً!! بصراحة لا تدخل دماغي فكرة الديمقراطية هذه! وفي ظني أن السادات أفرج عن الإخوان نتيجة ضغط عليه من جهة معينة زينت له فكرة الحصول على الشعبية الدينية! الله أعلم أن تكون هذه الجهة هي السعودية أو أمريكا! المهم الآن أنه خلق لنفسه عدوا ليس سهلاً! فالإخوان بينهم وبين ثورة يوليو تار بايت! وهم أصحاب العمل السياسي المسلح طول عمرهم! وكل هذه التنظيمات الشبابية الجديدة من أبنائهم وتحت توجيههم ومخططاتهم يسخرونهم لتمهيد الطريق حتى تظهر الرء وس الكبيرة في الوقت المناسب! إنه تنظيم دولي خطير يمتلك بدلاً من سيف المعز وذهبه كل السيوف وكل الذهب بل يمثلك المعز نفسه!!»

- «هذه التنظيمات الشبابية هي ما أخشاه على نفسى وأولادى يا بسبوسة ياخوى! خاصة أن تصرفات بريش وشركائه في شركاتي سوأت سمعتى!! المسئولية مسئوليتي طبعاً لأتى كان يجب أن أقطم رقبته من الأول لكني بكل صراحة عجزت يابسبوسة! الله وكيل يابسبوسه! أنا أيضاً طمعت في المكسب الكبير! من ناحية أخرى حسبتها فرأيت أننى حتى لو منعتهم رسمياً من التلاعب في البضائع فإنهم كانوا سيفعلون ذلك من وراء ظهرى !! ضميرى يأكلني يابسبوسة ولا أدرى ماذا أفعل!»

- دعلى كل حال ياحسن بك ما حصل حصل وانتهى الأمر! وعلى فكرة! الشعب المصرى أسرع شعب ينسي الإساءة ويغفرها! أنظر حواليك فى أى مكان فى مصر! فى مكان كهذا مثلاً! تجد على الأقل عشرة رجال ممن كانوا سياسيين ذات يوم من وزراء وحكام سقونا المر أشكالا وألواناً بل وقتلوا منا المئات باعونا للذى يسوى والذى لا يسوى بتراب الفلوس، وها هم كما تراهم يبرطعون فى البلاد بالطول وبالعرض يعيشون عيشة الملوك! هل تعرض لهم أحد؟ هل انتقم منهم أحد؟ أبدا وشرفك!! الكثيرون منهم سيقبُون فى هذه الأيام سوف يظهرون من جديد فى صورة ملائكة أطهار جاءا لإنقاذ الشعب من أزماته الإقتصادية!! ياحسن بك ضمع فى بطنك بطيخة صيفى وضع ضميرك هذا فى الثلاجة! وعند الزوم إذا وضعك أمام المساطة فأنت لا دخل لك فيما حدث لأنك است المدير المسئول إنما أنت صاحب مال قحسب!!»

- «صدقت بابسبوسة ياخوى ولكن التسفيح في تزايد!! إننا أصبحنا نبيع الشقة التمليك بمائة ضعف ما تكلفته وهي مع ذلك مجرد حجرة واحدة قسمنا مساحتها على ثلاث حجرات وصالة وعفشة مياه!! شفت بعيني نوعية المونة وطريقة

الكلفتة في البناء والبخل بوضع أساس متين مع أن الأرض رخوة ! في ظني إن هذه العمائر ان تعمر أكثر من عشر سنوات على أحسن الفروض !! إنني مرعوب يا بسبوسة ياخوى! الله تجانى من لبخة المواد الغذائية أما هذه العمائر المبنية على قشر بيض فلا أظن أن الله ينجينا منها بسهولة!! الكوابيس بدأت تطلع لى في الليل ويريش يخطط لحزب الفيضان!!»

- «صدقتی إن كل شیء سيمضی فی سلام كما يحدث فی مصر دائماً!! لا
 أحد ينتبه لشيء مما يدور في ذهنك! الناس في لهو يا حسن بك!!»
- «لا بك ولا زفت! الواحد ما عاد قادراً على الإستمتاع بهذه البكوية! جئت لنفسى بالوجع المؤلم حتى فى الرقاد! فى الماضى كنت أفرح بأنى وجدت شيئاً طلبته ولو كان صغيراً! اليوم كل مالا أطلبه تحت أمرى لعلنى أطلبه فى حين أنى لم أعد أطلب شيئاً لم أعد أستلذ شيئاً حتى هذه القصور التى امتلكتها فى عواصم عالمية كبيرة أراها موحشة ولا أطيق البقاء فى واحد منها أكثر من أسوع!!»
- «أولادك يا رجل سوف يستمتعون بها قريباً وسوف تتلقى دعواتهم بفزارة!!»
- لا أظن يابسبوسة باخوى! إن من يواد ويرى كل شئ ميسراً حوله ان يشعر بالامتنان والشكر لأحد!!لا يشعر بالامتنان مطلقا إلا من كان فى احتياج لشىء وعثر على من عاونه فى تحقيقه أو حققه له!! أما المولود بغير احتياجات على الاطلاق فإنه لو شكر الله يكون عملة نادرة!!»
 - «هل أنت في هذه الحالة منذ وقت طويل؟ !»
- «تصور یابسبوسة یاخوی أن أقرب الناس لی هزأنی وقاطعنی بسبب نشاط شرکاتی ؟! أنت تقول : الناس فی لهو ولا أحد بدری شیئاً ! غیر صحیح یابو

العم! إن شقيقتي وصديق عمري سيحا دمي فما بالك بالغريب؟ !ه

- «هذا هو السبب إذن !! قل هذا من الصبح وخلصنى يارجل! السالة كلها أخذت على خاطرك من سوء تقاهم حصل بينك وبين أختك وصديقك! صعبت عليك نفسك فوصلتك إلى الحال التي أنت فيها! هذه هي الفولة! ما رأيك إذن في كنسين من الويسكي؟! على الأقل مجاملة لي في فرح ابنتي أخرج عن عادتك مرة واحدة الليلة!جرب الويسكي ربما اكتشفته أحسن من الحشيش والأفيون وأحسن من البوبرة التي الله بها كل من في يده فلوس!!»

- «كفانا الله شر البودرة! وهذا على فكرة مما يطمئن يابسبوسة! لو كانت فلوسى هذه حراما لابتلائي الله بشم البودرة مثل كل من أعرفهم في سوق المال والتجارة ورأيي يابو العم أن فلوسهم حرام في حرام ولهذا سلط الله عليهم هذا البلاء ليفرب بيوتهم أولاً يثول ويكتب عليهم العرى والفضيحة فاللهم استرها بارب!»

- «طب على الطلاق أنت محتاج لكأسين!! بس! بس! يامتر! إتنين دويل هنا
 من فضلك تيم القرح! فيه قزايز جوه تبعانا ليلتك فل يا بو على !!»

- «إخر الشيطان يا بسبوسة!»

- «إخره أنت! جرب وستدعو لى بالستر بعدها! ستعرف أنك من حين لآخر يجب أن تداوى نفسك بكأسين لكى تجدد مشاعرك وأفكارك! سوف تحب قصور أوروبا! هل جربتهن؟!»

- «أعوذ بالله!»

- «يا رجل شوف لك شوية عيال العب معاهم! الغنى المثلك حرام! ما فائدة العز إن لم تستمتع به ؟! غير دمك! غُيِّر العتب! غير النفس! غير السرير وقعيص النوم والعطر والملاءات! غير الأحضان يابقف يا مقفول! ليس من الضروري أن يكون ذلك فى الحرام! تزوج! اليوم ظهر فى بلادنا شىء اسمه زواج المتعة! فماذا تنتظر ? حتى يضمك التراب ؟! مثلك ليس له راحة إلا فى الهموم والمشاكل والأزمات وإن لم توجد أوجدها لنفسه بنفسه!! أرح نفسك واستمتم!!»

بعد الكأس الأولى يابوى بدأ كلام بسبوسه فى هذا الإتجاه يحلو فى نظرى وحين نسبت عدد الكئوس كان كلام بسبوسة قد أحيانى بالفعل ياخال، جدد نشاطى ونفسيتى وضعنى فى حالة اهتياج لم أعهدها فى حياتى من قبل . كدت أعض بنان الندم على ما فات من العمر بغير استمتاع كنت قادرا عليه! شعرت كان الرغبة الجامحة تكاد تأخذنى من لحظتى إلى مطار القاهرة لأكمل بقية الليل فى الطريق إلى سويسرا أو باريس أو روما . فى آخر الليل أقبلت على زوجى بشهية أذهلتها، فلما تشممت رائحة فمى دفعتنى بعيداً عنها، وانزوت إلى بعيد بشهية أذهلتها، فلما تشممت رائحة فمى دفعتنى بعيداً عنها، وانزوت إلى بعيد بشهية أذهلتها، فلما تشممت رائحة فمى دفعتنى بعيداً عنها، وانزوت إلى بعيد

عقد السادات لقاءاً في النادى السياسي مع أعضاء اللجنة المركزية وأعضاء الهيئة البرلانية . كان من المغروض أنه سيناقش معنا خطة الحزب في النهوض بالإقتصاد المصرى، ورأى الحزب في أداء تجرية القطاع العام . لكنني من لحظة ما جلس بيننا، أيقنت من منظره وشروده أنه يخفي توبّراً عصبياً شديداً وإن بدا أنه بارد الأعصاب هادىء البال..

كان مشتت الأفكار ياخال، يوأوىء كثيراً حتى يعثر على الكلمة المناسبة؛ يقفز من فكرة إلى فكرة، ومن موضوع إلى موضوع كفرس النبى، يمزج بين أزمنة ماضية وأخرى حاضرة وقادمة، بلا تركيز، يستعيدك السؤال مرتين ليعطى نفسه فرصة تجميع الإجابة.

لاحظت أنه كثيراً ما يتلفت حواليه في شيء من الإسترابة، يتفحص كل من يدخل أو يهم بالخروج، بعين ممدودة كالمثقاب؛ يكاد ينتفض خوفا إذا سمع طرقعة مفاجئة أو انكسار كوب في البوفيه البعيد. لحظتئذ ياخال أيقنت أن السادات لم يكن في حاجة لاجتماع مباحثات ومناقشات، بل كان في حاجة لدفء الجماعة الكبيرة الموالية له، ليشعر معها بشيء من الأمان . لهذا قد انقلب الإجتماع إلى دردشة تتخللها نكات مصطنعة سقيمة لا تضحك ومع ذلك تجد من يضحك في صخب.

وزير الداخلية كان حاضراً بالطبع سمعته يطمئن السادات بأن «هؤلاء الأولاد» ليسوا سوى مجموعة شرائم لاوزن لها ولا أهمية، وأنه إذا كان قد وفقه الله فى تشريد عصابات الشيوعية من لابسى قميص عبد الناصر فإنه بالأحرى قادر على قطع دابر هذه الجماعات المتطرفة بإذن الله . أما ذلك الضابط العسكرى المدعو بعبود الزمر فإنه بات على بعد خطوات من الفخ المنصوب لاصطياده، فعلى السادات أن يقر عيناً ويهدا بالا من ناحية الأمــن الداخلى، لأن «هــؤلاء الأولاد» إن كانوا نارا فلن يحرقوا مطرحهم. شم راح يتكلم عــن ذلك التنظيم الجهاد وكيف أنه لعـب عيـال فى لعـب عيال،

واسوف يلقنهم درسا لا ينسى..

السادات يتابعه بهزات من رأسه، وقد ارتسم على وجهه شيء شبيه بما يظهر على وجه أي أب يبدى الإعجاب بشجاعة ابنه رغم يقينه بأنها مجرد حماسة مرتفعة وكان من المفروض أن الرئيس سيلقى خطابا يشرح فيه ظروف الحالة الأمنية التي اضطرته للقبض على عبد هائل من العناصر الدينية المتطرفة، من كبار الكتاب والصحفيين أمثال محمد حسنين هيكل صفيه القديم ومرشده إلى الكثير من القرارات المهمة؛ ومنهم ذاك الشيخ السكندري المدعو بالمحلاوي الذي اتخذ من أحد المباجد السكندرية مقرأ لوعظه السياسي صبار يواصل هجومه على أنور السادات والحكومة الكافرة التي تبيع البلاد وتتصالح مع العدو ، البلد يا خال في حالة غلبان وفوران حتى فاضت المياه المغلية واندلقت : خطباء بالسنة طويلة بنديون بجميم المصريين المحبثان، صحف المعارضة الحزيبة كلها استحلت اللعبة الديمقراطية المزعومة وهات ياشتائم من أعنف وأقذع ما سمعت في حباتي؛ الجامعات في حالة اضطرابات أشد عنفاً وشراسة حيث تغولت الجماعات الإسلامية سيطرت على اتحادات الطلاب صادرت كل الأنشطة الثقافية والفنية دخات في حوار وحشى بالسنج والجنازير والمطاوى فرضت سلطتها بالقوة الجبرية على الطالبات . الناس في الشوارع غاية في السخط بابوي وكأن حالة الرواج المادى التي أحدثتها قوانين الإنفتاح وما تبعها من جريان المال في كثير من القنوات التي كانت بعيدة عن المسبات من قبل قد أيقظت الغالبية العظمي على أحقيتها في المال الكثير السايب كغيرها من الفئات القربية من الأنهار والمصبات المالية . ثم إن الفلوس كثرت أي نعم ولكنها رخصت يابوي قلت قيمتها، فطالب المال في طلب مستمر لا يتوقف ، والفقير في فقر مستمر ينزل به إلى قاع القاع بدون رحمة . حدث انقلاب مروع في المجتمع ، القوالب نامت والأنصاص قامت؛ من يستحقون العيش الكريم داسهم المجتمع ونكلت مهم الأسعار والطبقات الطالعة؛ ومن يستحقون الحرق والرمى في القمامة أصبحوا بفضل النهب والسرقة ملوكاً وأباطرة يكفى أنا ياخال والشلة الوسخة، شف ماذا كنا وكيف أصبحنا. غير أننا في نهاية الأمر اشتغلنا وتعينا وفكرنا ويعنا أشياء محدودة؛ الدور والباقي على من تاجروا في أوهام وباعوا الهواء والشمس وربحوا من خيانة الوطن بالإنضمام إلى قافلة النفط المادية، وكما قال لى بريش ذات يوم قريب: سقطت كل الهيبات على الإطلاق بفعل هذه القافلة النفطية التي سريت جراشم أمراضيها وإحنها الحضارية إلى لفيف من مثقفي مصر فصاروا – تحت ستار زائف من البحث العلمي والدراسات الأدبية والتاريخية المغرضة - يشوهون كل القيم الوطنية الجميلة، حتى فوجئنا ذات يوم بأن جميع زعماء مصر ورجالاتها من كبار المفكرين والسياسيين والكتاب خونة وعملاء شواذ وتافهون ونمور من ورق . سارت هذه الموجة وعمت وأصابت حتى الذين حركوها واستفادوا منها لبعض الوقت، فالذين شوهوا أباهم ورموزهم أن يكونوا إلا شائهين. جبلة الجراثيم التفشى، وهكذا انحطت قيمة العرب جميعاً سقطت هبيتهم فمرغت اسرائيل كرامتهم في الوحل أدخلتهم جحور العز والفخفخة الكاذبة كجرذان محبوسة في مخزن طعام شهى، صربًا في عصر الصبية؛ وها هو ذا السادات يتلقى تهديداً مباشراً من أحدهم تمكن من الهرب من الجيش والكمون في مأمن.

كل هذه الغواطر دارت في ذهني ياخال وأنا منزو في ركن مهمل من اجتماع النادى السياسي . وكنت أشعر أن الله قد أمسك بقلبي وصار يهزه كأنما يقول لي : أفق يا هذا وعد كما كنت مجرد مواطن يكسب لقمة عيشه بشرف! إسمع نصيحة أختك الشيخة سعادة فهي أقرب إلي منك أيها الضال المارق! أنتما من دم واحد فكيف صلحت هي وفسدت أنت ؟! ألم تسمم قراءتها للورق فتتعظ كما

اتعظت هى ؟! إن الطريق للتوية مفتوح أمامك فدعك من هؤلاء وعد إلى فأنا الذى يحميك ويرفعك وليس بين البشر قوة تعادل قوتى وهؤلاء الذين تحتمى فيهم أضعف مثك!!..

انتفضت ياخال مرتعش الأوصال . نظرت حولى؛ كان وزير الداخلية ماثلاً في ناظرى أكثر من غيره . طب ما قولك ياخال أنه رغم مظهر القوة والثقة والصلابة: ورغم مظاهر القوة المسلحة التي أحاطت بالنادى السياسي إحاطة السوار للمعصم وامتدت ذيولها وتفرعت إلى جميع النواصي والتقاطعات؛ رغم كل ذلك بدا لي خوف من جرد ...

عدم المؤاخذة أنا أصبع واحد في المجتمعين كلهم أعرف حقيقة شعور المسك بالمطواة: من نظرة واحدة في عينيه أعرف إن كان سيضرب بها حقا أم أنه مجرد هواش أونطجي. الوزير كان يغطى خوفه بقناع سميك من اللامبالاة والثقة الزائدة عن الحد يابوي؛ مما جعلني – ربك والحق – أصير أشد منه خوفاً يصل إلى حد الإرتعاد رغم ربع قرش الأفيرن الخام الذي استحليته قبل المجيء إلى هنا من أجل التطامن وهدوء الأعصاب . شعرت بالهول يابوي . قال صوت في أعماقي لعله صوت الشيخة سعادة: أنت وأمثالك سبة في جبين النظام السياسي الساداتي ! أنتم من أقوى الأسباب التي عجلت بهذه الفورة العنيفة التي كانت نتيجة متوقعة لمن يقرأ الأوضاع جيداً. وقال صوت لعله صوتي: لو أن السادات كان جاداً في المناصر إقامة نظام سياسي وطني طاهر حقاً لطهر بلاده من أمثالنا قهل هذه هي غلطته السياسية الخطيرة ؟ فرد عليه صوت يسبه صوت بريش: ولكن هذه هي العناصر التي التقت حوله ومكنته من الاستقرار واستتباب الكرسي فأمثالنا هم الصواميل والمسامير التي أحكمت متانة المقاعد المستبة كلها فهل رأى السادات خيراً منا ولم يقبل ؟ فتسلل صوت كصوت بسبوسة على شيء من الخبث يقول: ولماذا لا

تقول إن هذه العناصر هي التي عرف السادات كيف يتواءم معها من وقت بعيد؟ ولم لا تقول إن ميوله الشخصية موالية لهذه الفئات الحوتية المطبوعة على النهم والرغبة في الثراء السريع السهل؟ .

اختلطت الأصوات التي تطلع من صدري بالأصوات التي تصخب في الاجتماع . بدا لي الاجتماع ياخال كاجتماع أسرة ذات عزوة ومديت وأبهة لكنها من عناة قطاع الطرق وقد اجتمعت لتبحث موضوع أمنها الشخصي وهي تعرف مقدماً أن مصالحها تتعارض مع مصالح بقية العائلات وأن هذه العائلات من حقها أن تثور وتغضب وتهدد لكن أن تتعدى هذه الأسر حدودها فقد وجب أن تلقن درسا قاسياً وعاجلاً . راح كل من يضع نفسه في مقام الأخ الأكبر يشحن كبير العائلة بعبارات حماسية هوجاء تستجلب سخطه وغضبه على المتطاولين من أبناء هاتيك الأسر وتحرضه على إنقاذ هيبة العائلة ببالغ السرعة ويكل قوة وحزم حاحة تهوس بابوي...

العجيب يابوى، إن الرجل قد تسرب إليه شيء من الاطمئنان. يظهر ياخال أن هذا الجمع الملتف حوله ينهش في لحم المشكلة قد أحال المشكلة إلى هيكل عظمى متفتت، فخف حملها عن الرجل؛ فإذا به قد خفت توتراته العصبية التي جاء بها ، قلت استجابته للأصوات المقاجئة الصاخبة ، بدأ يرى من حواليه كأفراد؛ بدأ اتصال عينيه بالأفراد يذكره بملاطقات كانت غائبة، وتحيات كانت واجبة، لمحات كانت خافية . نحى الغليون أشعل سيجارة خفيفة، رشف من فنجان القهوة رشفة، ركز بصره على وجهى ثم ابتسم، لمعت في عينيه نظرة من عثر على شيء كان غائبا عن ذهنه رغم أهميته؛ فإذا به يعتدل في جيسته ناظرة لي في إمعان :

⁻ مما أخبارك ياحسن؟ لعلك بخير!!ه

^{- «}الحمد لله ياسيادة الرئيس! طالما حضرتك بخير فأنا في أسعد حال! إن

شاء الله منصور على النوام! إن النصر من صفاتك! وإن ينصركم الله فلا غالب الكم!!»

أشار إلى جواره:

- ~ تعال هذا! أريدك في أمر!»
- «انتفضت واقفا والجميع ينظر لى فى حسد وغبطة؛ فإذا بالذى كان جالسا بجواره يتطوع بالقيام متخلياً عن مقعده لأجلس عليه: فلما جلست مائلاً برأسى فى اتجاه وجهه الذى مال نحوي قليلاً، وضع يده فوق يدى الموضوعة على مسند الكرسى، ثم همس فى كثير جدا من الخبث:
- وقيل لى إنك تعرف تلك العرافة التي اسمها الشيخة سعادة! أظن أنكما
 بلديات أو أقارب!»

أسقط في يدى يابوى؛ فالسؤال يلخبط اللخبطان خاصة أنه مفاجىء. ترددت قليلاً نكست رأسي في الأرض مرددا كاتي أحاول التذكر:

- «الشيخة سعادة! الشيخة سعادة!!»

قازداد ضغط يده على يدى فنظرت إليه؛ فإذا في عينيه نظرة أذهلتني والله يابوى . تحلف اليمين ياخال كأنها تنطق قائلة : هجرى إيه ياابن ... ؟! نعم الشيخة سعادة التي نعرفها معاً أم أنك تستعبط على ؟!». ففي الحال هتفت بصبوت خفيض :

- «نعم ! أعرفها إننا بالفعل بلديات لكنى لم أرها منذ وقت طويل !!»
- «أنا محتاج إليها!! رح لها برسالة منى قل لها إننى أوافق على أن تقابلنى فى أسرح وقت !! قل لها إن سيادة الرئيس يطلبك فى خدمة مسرورية فلا بد أن تجىء!!»

صرت أكتم الرعشة من خوف جديد غامض:

- وإكن ! أنا دائماً كنت أقابلها صدفة! هنا في القاهرة عند أحد أصدقائي وكانت أحياناً تحضر فجأة إلى بيتي وسيادة المحافظ يعرف عنوانها في أسيوط وهي يمكن أن تجيء بالأمر !!»
- «لا ياحسن! مثلها لا يمتثل المؤامر! فيجب أن نعاملها برقة! لقد أرسلنا لاستدعائها بالفعل ولكن اتضع أن شقتها في أسيوط يسكنها الآن ناس غيرها يقولون إنها عزات إلى مكان آخر لا يعرفونه !!»

وقع قلبى ياخال:فهذه معلومة جديدة تشى بكثير من التطورات الجديدة في حياة الشيخة سعادة . قلت :

- «هذا يزيد مهمتي صعوبة باسيادة الرئيس!»

قال بِلهِجة أمر حاسمة لكنها مغلفة بالود :

- «تصرف ياحسن! هذه مهمتك تنفذها من بكرة إن شاء الله! لابد أن أهل دائرتك يمدونك بثغبار عنها!! وجودها الآن ضرورى بالنسبة لى!! لا بد أن تأتى بها من تحت طقاطيق الأرض! اتفقنا؟!»

– «أمرك ياسيادة الرئيس!»

ثم شعرت في الحال بإخال كأننى صبرت جالسا في العراء تتخطفني الرياح من جميع الجهات . زحف نحوى شبح رعب غامض مقبض القلب ياخال، وانزاح كل المدخب من حولى ، ليحل محله في أننى صبوت كصوت صفير البوم في بيوت خربة مهجورة ليلتها ياخال ظللت حتى الصباح أقلب جميع الأمور على وجوهها، أتوقع احتمالات يقف لها شعر الرأس، ومفاجآت تسقط من عنقها الحبلى . صبرحت لزوجي بكل شيء فقالت :

 - «إفعل ما أمرك به! هاتها له من تحت الأرض! قمن يدرى ؟ ربما كان محتاجا لها بالقعل في هذه المحنة! وربما تكون هذه المهمة سببا في انصلاح العلاقة بينك وبين أختك فالظفر لا يخرج من اللحم بسهولة والدم ليس ماء!!ه

أراحنى هذا الكلام بعض الشيء ياخال . من صبيحة ربنا ركبت سيارة من
سياراتي القوية المعدة لمثل هذه المشاوير؛ واتكلت على الله وحدى وليس في
صحبتى سوى حارسى الخاص هندى، على سبيل التحوط والونس، وام أكن في
قرارة نفسى مستربحا لهذا المشوار باخال .

وصلت إلى أسيوط في أذان الظهر بالضبط ، فصليت في جامع سيدي جلال ، التخذت طريقي إلى شقة الشيخة سعادة في عمارة حديثة البناء في أعماق الحقول. استقبلني في أول وصلة الطريق الداخلة إلى العمارة رجل ممسك بمسبحة وملتح يلبس جلبابا أبيض قصيرا ، ممار يمد خطوه ليسابق زحف السيارة البطيء . لم أعره التفاتا ، حتى وصلت إلى باب العمارة ، فنزلت من السيارة تاركا هندى فيها فلما هممت بدخول العمارة اعترضني ذلك الرجل ولكن في شيء من الرقة والدمائة

- « ترید مُن حضرتك ؟!»

أَرْحَتُه بِرِفْق ومودة وابتسام ، وواصلت الدخول ، بدأت أصعد السلم قائلا في غير صلف :

- « هذه عمارتنا يا أبا الحاج : أنا المالك وأختى هنا في الدور الثالث !»
 - « يامرحب ! ولكن من تكون أختك إن شاء الله ؟!»

اغتظت ، لكنني لم أشأ الصدام من أول الطريق قلت في مزيد من الرقة :

- « ليس من حقك هذا السؤال وقد عرفتك بنفسى فأنا الذى يجب أن أسألك
 من تكون حضرتك ؟!»
- أنا من السكان! أقوم بدور البواب هنا مؤةتا! عينتني صاحبة العمارة!!»
 - « الشيخة سعادة عينتك ؟! منذ متى ؟!»
- د الشيخة سعادة تبرعت بالعمارة كلها لجمعية السنة المحمدية! هي على كل
 حال لم تعد تقيم هنا منذ شهور طويلة!! وجمعية السنة المحمدية تقوم بتأجير
 العمارة لطلبة الجامعة المغتربين نظير أجر رمزي كمساعدة لهم في طلب العلم!! »

وكان قد جعل يرافقني في الصعود خطوة بخطوة كأنه يشوف آخرتها معي ، إلى أن توقفت أمام باب الشقة وطرقت بابها برفق . فإذا به يقول :

 - د ياسعادة البيه العمارة كلها يسكنها طلبة في حالهم أبناء ناس غلابة مجتهدين في العلم لاشأن لهم بالسياسة !!»

ارتعبت ، لكنني قات :

- وأنا مثلهم بالضبط لا شأن لي بالسياسة إنما أنا جئت لزيارة أختي التي
 لم أرها من وقت طويل لأني كنت في سفر في الخارج !!»

جعل يعيد النظر في ملامحي بتدقيق شديد ، ولاحظت أن مشاعر الاسترابة قد بدأت تزايل وجهه شبياً فشيئا ،

فاردادت ابتسامته تحفظا وتحسبا ، قال برقة دافئة :

- « ملامحك بالفعل قريبة منها! الدم واحد على كل حال! تدويرة الفم!
 المينان! طول الرقبة! لكنك أسمر منها وأطول قليلا! مسوتك فيه نفس نبرات صربتها ولكن على رجالى! يمكننى أن أصدق أنك شقيقها أو ابن عمها!!»

- و أنت تعرفها جيدا اذن !!ه

ثم طرقت الباب بعمبية . فقال :

 « مساها الله بالخير ! صاحبة أيادى بيضاء علينا كلنا ! ربنا يكـرم أصلها!!»

- « الله يكرمك ! فلماذا تعترض طريقي ؟!»

وطرقت الباب بعصبية أشد . فإذا به يتقدم بيني وبين الباب قائلا في تهدئة :

« لاعليك فلن يفتحوا لك ! لهم عذرهم ياسعادة البيه فالبوليس لايترك لهم
 فرصة للمذاكرة ! كل يوم والثانى يهجم على العمارة يفتشها ركنا ركنا ! ويتخذ
 بعض الولد للتحرى ثم يتركهم ! هؤلاء ولد غلابة عندهم امتحانات ! وعلى كل حال

ان يفتحوا إلا على خبطاتي أنا !!ه

ويظهر ياخال أنه رأى الفضب في عيني ، فعالجني بهزة من يده في الهواء قائلا:

- د مِنائيت اك !!ه

ثم طرق الباب بعقلة بنصره مرة ثم مرتين متتاليتين ثم الحقهما بثالثة منفمة . بعدها جاخا صوت واهن متوجس بعد نحنحة :

- « « من بالناب ؟! »
- و أنا البواب الفتح باخالد اه

إتفتع الباب نصف فتحة ، ظهر شاب في حوالي الثانية والعشرين من العمر ، ملتع ، يلبس نفس الجلباب الأبيض القصير ، ملامحه غلبانة جدا ، من الواضع أنه من طلبة الأرياف المجتهدين بتفان وسهر ، شاحب الوجه قليلا ، أسمر البشرة كالرغيف المحروق ، بعينين حادثين فيهما قليل من العدوان وكثير من التحدي ، طويل القامة ناشف العود ، جعل يصب على وجهى النظرات القلقة المستطلعة . أشار الدواب نحوى قائلا:

- « يقول إنه شقيق الشيخة سعادة !!»

برقت نظرات الشاب واختفى منها العدوان في الحال ، تغيرت ملامحه إلى مسحة من الترحيب الشجاع .هنف:

- د آه ! أهلا وسهلا ! حضرتك عضو مجلس الشعب ! أعرفك ارأيت صورك في المنحف كثيرا ! تابعت أخبارك لكتنى لم أكن أعلم أنك شقيق الشيخة سعادة ! تفضل على كل حال !! »

وسع فتحة الباب ، وأوما البواب المزعوم أن ينصرف ، فتلكا هذا قليلا ثم انصرف.. العفش والفرش هو نفسه كما رأيته آخر مرة زرت فيها الشيخة هنا . نفس الانتريه في مدخل الصالة ، وترابيزة السفرة بكراسيها ونيشها المليء بالأطباق في نهاية الصالة تحت الشباك المطل على المزارع . حجرة الصالون هي الأخرى كما هي ، مفتوحة على كراسيها المذهبة ذات التاج المرتفع ، وسجادتها ، وعلى حوائطها سور قرآنية على لوحات مبروزة ، كل ما أصاب المجرة من تغيير أن أضيف إلى أرضها بعض الوسائد ، وثمة ملتح ينام مستغرقا على ظهره كميت يتنفس ، فلما عوجت رقبتي قليلا تبين أنهم ثلاثة بين الكراسي ، كلهم ملتحون بجلابيب بيضاء قصيرة ، لكنهم غليظو الوجوه والملامح ولحاهم أطول وأغزر من أن تستريح لها العين يابوي ، أقدامهم خشنة متشققة الكعوب ، الطرقة المؤدية إلى الأطبخ والحمام وغرفة النوم منظرها كثيب يفح منها الظلام أرضها مبطشة بأثار الأقدام ؛ رائحة النوم والعرق الزنخة والسجاير تملأ الشقة . ليس ثمة من كتب أو الخشب ومسطرة طويلة ، وعدد هائل من الصحف والمجلات وكتاب تلبيس إبليس ، الخشب ومسطرة طويلة ، وعدد هائل من الصحف والمجلات وكتاب تلبيس إبليس ،

فتحت الشباك على مصراعيه طلبا لتجديد الهواء .

قال الشاب :

- « راحت علينا نومة! تعبنا جدا مساء أمس وأول أمس في قسم الشرطة! يصرون على أن لنا صلة بالجماعات الإرهابية المتطرفة مع أنهم يعرفون جيدا أن جمعيتنا لا شان لها بالإرهاب أو بالسياسة إنما نحن أهل نكر وعبادة وصالح! بهدلونا من التفتيش عن عبود الزمر وغيره!! »

ألهمني الله الفطنة ، فنافقته قائلا في غضب متقن الصنع :

- « حكومة تستحق الحرق ! وبوايس يستحق قطم رقبته ! ماذا يريدون من

عبود الزمر وأمثاله ؟! والله وبعقد الهاء لو كان الله يحب هذه البلد لأعطاها كثيرين من أمثال عبود الزمر الشجعان! إن مستقبل الإسلام في خطر وهو أمانة في عنق أمثالكم من الشباب الناهض! نريد أن نعيد مجد الإسلام! لكي نعيده لابد أن يكن عندنا أمثال عمر بن الخطاب وأبي بكر وطارق بن زياد وخالد بن الوليد الأبطال المقاتلين! لابد من رفع السيف في وجه الطاغوت طالما أن المعارضة بالقول لم تعد تفيد الطفيان يتفشى!! الإنحلال يستشرى وكلمه لا إله إلا الله مهددة بالانقراض!! إسمع يابني! حلفتك بالله وقرآنه وسنة رسوله إن كنت تعرف شيئا عن الزمر أو غيره فلا تتفوه به حتى لو قطعوك إربا!! نحن لا نساعد الحكومة على ضرينا! لقد اخترنا صف الله ومن وقف في حزب الله لا يضام لا الحكومة على ضرينا! لقد اخترنا صف الله ومن وقف في حزب الله لا يضام لا ينكسر! اللهم وفقنا جميعا لما فيه الخير للإسلام!!»

ويظهر ياخال أننى كنت أعنى ما أقوله بالفعل وليس مجرد تمثيل . وقف الشاب وقد عادت اليه بوادر من تلقائيته :

- « أعمل لحضرتك الشاي ! »
 - « وماله ! »
- خطأ نحو الطرقة . استوقفته :
- « أو سمحت ! كانت هنا صورة مبروزة بالمجم الكبير لأبى وعمى الشيخ أحمد ! هل أخذتها الشيخة سعادة ؟! »

طرقع الشاب بأصبعيه وقد ظهر عليه الإطمئنان إلى أننى أعرف الشقة جيدا . قال:

- « بالضبط ! أرسلت مرسالا منذ أيام قليلة بطلبها فأعطيناها له ! إن الشيخة بمثابة أم لنا جميعا ! تتفق علينا من تبرعاتها التي لا تنفد ! كما ترى تترك لنا الشقة لنقيم فيها بالمجان ! إنها سيدة عظيمة من عظماء مصر الآن !! »

- و أنتم طلية في الجامعة طبعا! >
- د أنا خالد في كلية الهندسة! ومعى وائل وهمام في كلية الطب! وياسر في
 كلية أصول الدين! وطلعت في كلية الصيدلة! وسهير في كلية الصيدلة أيضًا!! »
 - -« فتاة تعيش معكم هذا ؟!»
- دهي زوجة طلعت! تزوجا حديثا! ولذلك أمرت أمنا الشيخة سعادة بأن نترك لهما حجرة نوم الشيخة! هما الآن نائمان فيها! أما نحن فنتام في أي مكان هنا كما ترى!!»

أخرجت محفظتى الكبيرة ، سحبت منها رزمة فلوس ، عددت منها ثلاثمائة جنيه ، ذهبت بها الشاب :

- « أنا أخ كبير لكم ! بما أننى شقيق الشيخة سعادة فأنا بمثابة خالكم ! حالتى ميسورة والحمد لله كما تعرف ! هذا المبلغ هدية منى تعاونكم على شظف العيش ! أنتم سنة أفراد فلكل واحد منكم خمسون جنيها ! وإن شاء الله سأترك لك عنوانى فى القاهرة لتطلب منى أية مساعدة تحتاجها !!»

بُهت الولد ياخال ، طاف بنظراته الذاهلة على كل أنحاء جسدى كمن يرى كائنا أسطوريا غريبا ، وقبل أن يفتح فمه بكلمة اقتريت منه وبمسست المبلغ في جيب صدره ، لحظتها قال :

- « الآن فقط اقتتمَّت بأنك شقيق ماما سعادة! نفس روح العطاء! نفس نبرة الدفء في مدوتها!! »
- « لا تشكرنى ! فهذه النفحة من باب الله جاحت الأبناء الله ! ففى ميزانيتى بند ثابت الأعمال البر والنبير ! بفضل الله بنيت أكثر من مسجد ومستوصف ومستشفى!!»
- و أعرف الكثير من هذه الملومات! كلنا نقرأ الصحف جيدا ونقليها!! ماما

سعادة أيضا كلمتنا عنك كثيرا بمناسبة تحقيق صحفى معك يوم افتتاح مستوصف الدُّراسة بجهودك الذاتية !! لكن ماما سعادة بصراحة لم ثقل إنك شقيقها لكنني أتذكر الآن أن حماسها كان يقول ذلك !! »

- « أنا يابو العم شقيقها الشقيق لحما وبماً أما وأباً ! كل ما في الأمر أن ماما سعادة ذات كبرياء عظيم ! لا تحب أن يظن الناس أنها تتمسح في شقيقها ! بل تحب أن يحترمها الناس لشخصها ! تكره المظاهر ! على فكرة ! آخر مرة زرتها هنا كان البوتاجاز خربا وكانت تنوى إصلاحه لكنني اقترحت عليها تغييره طراز أحدث !! »

هتف في مرح واطمئنان:

- « بالضبط ! إشترت بالفعل واحدا جديدا لكن من نفس الطراز ! تركته لنا وأخذت القديم تصلحه انفسها ! إنها لا تطمع في شيء أبدا !! إنها أم بمعنى الكلمة ! هي التي زوجت صديقنا من صديقتنا على سنة الله ورسوله ! هي تعول مالايقل عن ألفين من الطلاب تدفع لبعضهم مصاريف التعليم وحتى الدروس الخصوصية ولا شرط لها إلا أن يكونوا أعضاء في جمعية الكتاب والسنة !! إن الجميع حتى الأكبر منها سناً يقولون لها ياماما عن اقتناع حقيقي ! يقبلون يدها ! الجميع حتى الأكبر منها سناً يقولون لها ياماما عن اقتناع حقيقي ! يقبلون يدها ! تكريها قبل أن يقعل !! إن في ماما سحراً لا يستطيع أحد مقاومته مهما كان جامد القلب لابد أن يخر صريعا أمامها !! أعرف عيالا فلاسفة متبحرين في علوم الدين حين يتناقشون معها يكتشفون أنهم بجوارها لاشيء مع أنها لم تستق العلم من كتب !! ماذا أقول لك ! نحن هنا في أسيوط كلها نسميها أم المؤمنين وإنها لأميرة بالفعل ! الله ياأستاذ لو أنها حكمت البلاد لجعلت البر المصرى قبلة المسلمين قاطبة !!»

زحفت معه تلقائيا حتى وصلنا إلى المطبخ ، فرأيته كما كان لم يتغير باستثناء البوتاجاز الجديد ، إلا أن منظر الحلل والأوانى والأكواب القذرة كان مثيرا للقرف كريه الرائحة .

مع ذلك وقفت بجواره واضعا إحدى يدى في جيب السروال ، ممسكا المسبحة بالأخرى ، وفيما يفسل الأكواب ويضم البراد فوق النار إستدرك متذكرا :

- « ولكن منذ متى لم تر ماما سعادة ؟!»

- « منذ شهور طويلة ! (نت است غربيا الآن ! بل أنت في مقام ابني طالما أن أختى بمثابة أم لك ! لقد حدث بيننا سوء تقاهم بسيط ! هي كانت محقة حينما طلبت مني أن أصغى بعض شركاتي لأنها غير راضية عنها وأمسرت على ذلك لكني تربدت فهذه الشركات تفتح بيوتا كثيرة ! المهم يابوالهم غضبت هي ومشت ! فتركتها حتى تروق وتتصل بي فلم تتصل ! فأخذت على خاطرى منها ولم أتصل ! إلى أن راقت نفسيتي اقتنعت بكلامها فنفئته أرسلت لها تلغرافا بذلك التحضير فرجع التلغراف ! فأرسلت مرسالا من رجالي فلم يستدل على عنوانها فجئت بنفسي لأصالحها فصدمت بخبر عدم وجويها ! فإن كنت تعرف مقرها الجديد بأنها سوف تشكرك شكرا كبررا إن دللتني عليه !!»

راح يصب الشاى مقطبا فى تفكير عميق ، ثم نظر فى عينى نظرة ذات معنى وهو يلقى بورقة الاختبار الأخيرة قائلا فى شىء من المراوغة :

- « هي في الواقع لم تأخذ مقرا جديدا !! هي رجعت إلى مقرها القديم !! »
 - « في الجبل ؟! »

في الحال انبسطت ملامحه ، أشرق وجهه ببسمة عريضة مطمئنة :

- ~ ﴿ أَنْتَ فَعَلَا تَعْرِفَ كُلُّ شَيَّءَ عَنْهَا !! ﴾
- « قل لي : هل تزوجت هليل أم لا ؟!»

- أشرق وجهه:
- « يا..ه ! تعرف هليل أيضًا ؟!»
- « أعرف هليل ؟! إنه صديق عمرى الوحيد !! في حياتي كلها لا أعوض صداقته !!»
- « هـ و الآن أمير كبير ! هو الآخر عملة نادرة في هـذا الزمان ! يـا..ه ! مليل!»
 - د أمير على من ؟! »
 - « علينا كلنا ! جماعتنا !! »
- « ماشاء الله .. ماشاء الله ! هو يستاهل ! طول عمره أبيض القلب مؤمن
 نقى الإيمان ! يده مبروكة تخر ذهبا !! اللهم قربنى من مكانته عندك يارب !!»
- « بالضبط ياأستاذ ! هذا هو الشيخ هليل بكل نقة ! لخصته حضرتك في كلمة ! هو فعلا مبروك ! يوم يوزع علينا اللحم في عشوة يشبع الجمعيع ويفيض مهما كانت الكمية قليلة ! المشاريع التي يقيمها بقلوس الجمعية تتضاعف في كل ساعة وبالحلال !!»
 - و المهم هل تزوج ماما سعادة أم لا ؟!ه
- « لا مع الأسف !! اقتنع كلاهما بأنه منذور من يومه لخدمة الطريق !! كل منهما أزهد من الآخر في متع الدنيا كل منهما مع ذلك يحب الآخر حبا جنونيا لكن حب الله والإسلام عندهما أكبر وأجلً من أن ينشغل الإنسان عنه بحب آخر دنيوى ! أو بمتعة أخرى غير متعة الانتصار على الشهوات !!»
 - « هي إنن تقيم الآن في الجبل ؟!»
 - « تعرف المقر طبعا !»
 - « طبعا! رحته مئات المرأت!!»

- « أنت تقصد قصر الجِيل العتيق ! بيستانه القسيح ! ومسجده المحندق !!»
 - ~ « طبعا هن ما أقصده !»
- « هذا الذي تقصده هو مقر الشيخ هليل الآن! تركته ماما له! البستان
 الآن منثور لمن يريد التدريب من الشباب يقيم فيه تحت رعاية هليل إقامة دائمة لا
 ينعي للدنيا هم أكل أو شرب أو كساء أو دواء!!»
 - و التدريب على ماذا عدم المؤاخذة ؟!ه
- « على ! على المجاهدة ! جهاد النفس والرياضة النفسية والبينية ! وذكر الله
 في خلوة !! »
- د نكر الله موجود في البستان طول عمره! ماما سعادة كانت تأوى وتعول
 الكثيرين من مجاهدي الأمة الإسلامية!!»
- د الآن أصبح البستان مملكة ثانية ! حاجة تفرح القلب حقا ! مئات من الشبان المتعلم وغير المتعلم ممن أفاقوا من الفقلة على يدى ماما ! خريجو جامعة أطباء ومهندسون وضباط جيش وكيميائيون زهدوا في وظائف الحكومة واحتقروا العلم الدنيوى قمسحوه من عقولهم واتجهوا إلى العلم الديني الإلهى يستنبطونه من الحياة من القرآن من الحديث الشريف من السنة المحمدية من الآيات البينات في الكون !! هناك أيضا شباب ممن لم يكملوا تعليمهم عن رغبة وممن لم يتعلموا أصلا ! حرفيون عمال نجارون خياطون فلاحون كلهم تمت هدايتهم السنة المحمدية خلصت نيتهم للتبليغ والدعوة.!! اللهم قربني منهم ! أمنيتي أن أكتسب قوتهم فأهزم نفسي الأمارة بالسوء أذهب لأعيش بينهم في هذه الجنة الحقيقية لعل الله يتقبل مني يسامحني في ذنوبي أيام جاهليتي ! اكن كل شيء بؤوان ! الشيخ هليل هو الذي سيحدد لي متى أكون أهلاً للانتقال إلى البستان والصمود فيه بقوة لا مترغزع !!»

 « رينا ياوادى يبلغك ما تتمنى! اللهم اهدنا جميعا إلى مافيه الخير والصواب!!»

ثم إن دموعى تفجرت من فرط الروع ياخال ، إنثالت بغزارة هائلة حتى أغرقت ياقة القميص ورياط العنق ولم أكن أعرف علام أبكى بالضبط فعمرى مابكيت هكذا باخال .

بكائى كان عنيفا صامتا ، مما أثر فى الواد تأثيرا شديدا ، بل تألقت الدموع في عينيه ياخال ، صار يقول بصوت مرتعش الندرات :

- « صلى على النبي يا أستاذ! لا داعي لهذا!»
- « مايبكينى أننى أن أستطيع رؤيتها وقلبى ينفطر عليها! روحى ستطلع من أجلها!! ذمة وبين ياولدى لوكنت تتصل بها فى وقت قريب قل لها إنى أخشى أن أموت قبل أن أراها!!»

هتف في شجاعة عظيمة :

- « ومن قال إنك ان تراها ؟! ستراها بإذن الله ! أعرف أننى أرتكب مغامرة حمقاء ! غير مضمونة العواقب من كل النواحي ! لكننى سأتحمل المسئولية لأننى اقتنعت بصنقك تماما ومن أول لحظة أولا ذلك مامسرحت ال بكل مامسرحت ! إن أي معتوه ينظر في عينيك بالذات لابد أن يعرف صلتك الوثيقة بماما !! لاتظن أنى عبيط أو مفقل !! »
 - --« لا سمح الله ياولدي ! ان أنسى لك هذا الجميل وهي أيضا ان تنساه !»
 - « معك سبارة طبعا !»
 - « طبعا !»
 - « إنحان الشكلة !!»
 - « لا تؤاخذني ياوادي! المشتاق متعجل دائما!! فاقد الصبر! فلو لحقنا
 وقتنا مبكرا بكون أفضل!»

- « إهدأ وأرح أعصابك على الآخر فالأمر يلزمه ترتيب! سنفعل كل شيء
 حالا فاطمئن!»

حمل كوبى الشاى في يديه ، تقدمني إلى الردهة وأنا وراءه كطفل تعيس شقى . ترك الكوبين على المنضدة مطرقعا أصابعه من شدة اللسم :

- « بعد إننك دقيقة واحدة !!»

اختفى فى الغرفة الداخلية المجاورة لغرفة النوم ، وكانت معدة فى الأصل كغرفة المسافرين والمعيشة معها .. ما أن رشفت بعض الرشفات وأشعلت سيجارة حتى رأيته مقبلا وقد ارتدى قميصا أفرنجيا وسروالاً من الجينز الملطخ بالعرق والوسخ .

سحب من تحت المجلات كراسة (بلوك نوت) كبيرة، وقلما من الرصاص .. إنخرط في الكتابة بسرعة شديدة .. كتب أكثر من صفحتين ، نزعهما من الكراسة رشقهما بديوس إبرة في الستارة الفاصلة بين الطرقة والردهة مريدا :

- « كتبت خط سيري لزملائي حتى لا يقلقوا !!»

بخفقة قلب ممادقة وجدتني أعترض بانفعال شديد:

- خطر ياوادى عليكم! مادام البوليس ينط هنا كل ساعة والثانية! ورقة كهذه ربما جعلتهم يتشككون في سيركم وسلوككم! إنزعها ياوادى! وعود نفسك على الحرص الشديد طالما أنكم مستهدفون من الحكومة!!»

أوماً برأسه علامة أنه يعرف كل هذا ، أضاف :

- « من يقرأها لن يفهم منها أي شيء ينعو لأي استرابة ! أنا أقول لهم جاء أخى الأكبر من القاهرة وذهبنا سويا لرؤية أمى في البلد ربما أتأخر ! قلت لهم أيضا إن أخى أقرضني مبلغا قدره كذا تركته لكم على رخامة المطبخ لتشتروا طعاما كثيرا الثلاجة الفارغة ! كلام عادى لا يحتمل أي ليس !!»

أيقنت ياخال أنني أمام عيال لايستهان بهم على الإطلاق ، وإنهم ليسوا مجرد محبين للسنة المحمدية ، لاياخال إنهم أكثر وأكبر من مجرد هذا الغرض . إن وراهم اترتيباً وتنظيماً وتعريباً وأهدافاً جد خطيرة ..

ما أن رأنى هندى حتى نزل من السيارة مقدما طقوس الاستقبال المتبعة . وكان البواب المزعوم قد ارتكن على حافة نافذة السيارة وراح يتبادل حديثا وديا وبودا تتخلله الضحكات . جرى هندى مهرولا ، فتح الباب لى فدخلت إلى مقعد القيادة ، ثم استدار بنفس الحفاوة والاحترام ففتح الباب المجاور لسيده الجديد ، الذى تقدم فركب بجوارى ، فأغلق هندى الباب ركب فى المقعد الخلفى متأهبا لكى ينقض من الخلف على هذا الرجل بمجرد إبداء بادرة عدوان تجاهى كسكست إلى الوراء قليلا ، ثم اعتدات على الوصلة . فلما صرت فى الطريق الزراعى قال مرافقي:

- « خلنا في طريق الغنايم !»

قلت : طيب . ونزعت من الخرطوشة الموضوعة أمامي علبة سجائر أجنبية مدينها له :

- « وام ! خلها معك !»

أخذها مرددا :

 « متى يتوب الله علي منها ؟! إنها من الأسباب التى تحول بينى وبين البستان ! شرط البستان أن أبطل كل المكيفات لا أتعلق بشيء يكون سببا فى أن أضعف أمامه !!»

فتح العلبة وأشعل منها ثلاثة وزعها علينا ، صرنا ندخن والسيارة تهدهدنا على الطريق الزراعي . عمرى ماتصورت باخال أنني يمكن أن أتوه في الجبل.

ويظهر ياخال أن هذه الخمىلة تنتاب كل من يكون على اتصال بهذا الجبل مدمن للتجوال بين درويه ومسالكه ،

إذ يتوهم أنه قد أصبح خبيرا به وبشعابه ومنعطفاته السرية . هؤلاء سرعان مايهزأ بهم الجبل . هذا المكان السحرى الكبير ، إذ يبقى دائما أبدا أكبر من كل الكائنات المتطفلة عليه ، يحتويها في جوفه البعيد الغور فلا يظهر له ثمة من أثر .. وأنت ياخال تستطيع أن تمضى في الجبل رائحا غاديا ليل نهار ، أو تنظر إليه من طائرة هليوكبتر مثلا تمسحه بنظراتك ونظاراتك المعظمة كيفما شئت ، فتتيقن بالدليل البصرى أن الجبل خال تماما من كافة السكان لأنك لا ترى شيئا إلا الوحشة ودروب الظلام والسفوح والوديان الملساء .. في حين أن الجبل يشغى بكائنات لايشملها حصر ، وتقوم فيه حيوات أشد نشاطا وحيوية مما في المدائن والقرى ..

الواقع أن ميزة الجبل ياخال لا تتمثل في دروبه ووديانه ومفاراته ودرواته الكثيرة الآمنة ، ولا في كونه متاهة تعطل المطاردين وهم يتعقبون المطاريد ، فحسب إنما تتمثل ميزته الكبري في أنه خيمة من الصخور تحجب طرقا ويلادا تقوم تحت بطن الأرض وتتصل ببعضها وبخارجها في سهولة وسلاسة .

نعم ياخال ، فتحت الجبل طرق كاملة ووديان وممرات سرية وسراديب لايمكن اكتشافها إلا صدفة ، أو السيطرة عليها إلا صدفة أيضال .. هذا كما قلت آنفاً لا يكون إلا مسن شدخل الفراعين قداهري الصدخور والموت والمفرناتات ..

كنتا قد تركنا السبيارة علي الطبريق النزراعي في مدخل الفنايم ومشينا - حسب رغبة الولد - مشية من يستروح نسمات العصارى . منظرى كان قد تغير بطبيعة الحال منذ سنوات لدرجة أن الكثيرين من كانوا يعرفوننى من قبل بالعمة والجلباب لم يعد من المكن أن يعرفونى بالبذلة الفاخرة والشعر المصفف والنظارة الريبان ذات الإطار الذهبى . ولأن الجبل يلتحم بالأرض كثيرا في التحامات خادعة ، تتصور معها أنك لا تزال بعيدا عن الجبل في حين أنك في الواقع تمشى فوقه وأن هذه البقاع الزراعية هي الجزء الذي كان مغمررا منه دائما تحت الفيضانات المتكررة فاكتسب خصوبة فسرعان ما حوله الإهالي إلى أرض زراعية وتملكوها ؛ فإنني ظللت لمسافة طويلة أتوهم أننا بعيدون عن الجبل . قلت لمرافقي بلهجة وبوية حانية :

-« هل تعرف الجبل جيدا با خالد ؟! »

ابتسم ابتسامة ذات معنى :

« أنا من ديروط الشريف! عمى من مشاهير المطاريد أنت تعرفه وهو يعرفك! حكى لنا كثيرا عن أيام شقاوتك وأنت صبى!! تظن أن الأجيال الجديدة لا تعرف ماضيك الحاقل؟ بالعكس! الكثيرون من جيلى يعرفونك جيدا ومنهم من يراك مثله الأعلى في النجاح!! منهم من يراك أسطورة من أساطير النجاح الساحق في الصعايدة المحدثين!! حتى الذين يدينونك بعض الإدانات السياسية والسلوكية يفعلون ذلك من باب الاحترام أيضا!! عمى هو محمود بخيت الذي وقف بجوارك في المعركة الانتخابية الأولى دون أن تدرى به شيئا!! قد كبر في السن! بغضل الله تمكنت ماما سعادة من هدايته! هو الآن من أكبر مساعديها في استعمار الجبل! طبعا أنا أقصد كلمة الإستعمار بمعناها الأصلى لا بمعنى الاحتلال!! إن ماما تقوم الآن فعلا بتعمير الجبل والنقوس معا!! ».

« ما أظن يا خالد يا ولدى أننا جننا لنتفسح وسط الحقول ونحكى الذكريات
 ! الوقت يسرقنا خل بالك ! وأخشى على السيارة وحدها في الطريق !! » .

- « السيارة في أمان ! أن يجرؤ مخلوق عفريت على الاقتراب منها ! لأن هذه الأرض ملك استنا الشيخة اشترتها وأوقفت ربعها على خدمة شباب الإسلام !! أنت الآن في مسكن ستنا الشيخة بالضبط وها نحن في الطريق إليها فلا تكن عجولا فالأمر أو تدرى شائك وخطير !! ».

لاح لنا على القرب كوخ مبنى بالطوب الأحمر مسقوف بالخشب والبوص ، من تلك الأكواخ التى تقام لخفارة ماكينات المياه . صرنا نقترب منه ؛ دخلناه . هو بالفعل هكذا ، ماكينة المياه موجودة وشغالة ، بجوارها خفير في حوالي الخمسين من عمره ، متغضن الملامح ذابل العينين من فرط السهر والإرهاق ، نظراته متلبكة بكتل من العماص اللزج . كان متربعا على حشية مستطيلة من الخيش المحشو بالقش ، بجواره مخدة وبطانية ويندقية وخريطة ماكنة بالنخيرة ، ووابور جاز وعدة شاى ، وجلة وسلة خيز ..

- « سلام عليكم يا عم القط! »

هكذا قال مرافقي وهو يدلف داخلا ويشير لنا بالدخول أكثر فاقترينا من الفرشة . رمقنا الرجل بكثير من التوجس للتزن ثم نهض واقفا :

- « عليكم السلام ورحمة الله ويركاته! »

سلم علينا باليد :

- « يا مرجب! تقضلوا »

وانزاح عن الحشية موسعا لنا . قال مرافقي :

-« فلنتربع!»

تربعنا بالفعل تذكرت في الحال أيام أبي وخفارته الطويلة لمثل هذه الماكينة وكيف كنت أبيت معه في كوخ كهذا بالضبط إن لم يكن هو نفسه ، ونستقبل المطاريد في الليل الحالك نقدم لهم الأكل والشاي ، توجه الخفير الى وابور الجاز فسحه أعطاه نفسا . عاجله مرافقي :

- « أترك هذا الأمر لى واخطف رجلك إلى أمى ! قل لها : خالد كلية الهندسة إبن بيتك في أسبوط قد حضر برسالة فحواها كما يلى : أخوك حسن يبلغك أنه قد تاب وأناب ونقذ لك شرطك عليه وجاء من القاهرة يطلب عقوك ويضع نفسه تحت أمرك من الآن قهل ترضين بمقابلته ؟! »

تمعن الرجل في أنا وهندى بتدقيق شديد كأنه يريد أن يعرينا من ثيابنا ليعرف ما تحتها . تردد قليلا ، لكنه ترك الوابور ونهض واقفا :

-دخامْنر!»،

ومضى ، ثم ارتد فى الحال وأخذ البندقية والخريطة علقهما فى كتفيه ، ومشى بخطو بطئ متمهل . راقبناه وهو يبتعد ، منحرفا فى طريقه نحو الغرب قليلا ، حيث يوجد كوخ آخر مشابه تماما لما نجاس فيه . تنكرت أننى كثيرا ما انزعجت من هذا الكوخ فى طفواتى ، فقد كان مصدر رعب لا ينتهى ؛ إذ هو مغلق منذ سنوات بعيدة جدا ، تسكته العفاريت والشياطين وأرواح القتلى من كل المطاريد . قيل إن كثيرين دخلوه فلم يخرجوا منه مطلقا ؛ وأن إحدى النساء اللعوبات كانت تلتقى عشيقها فيه ؛ وذات ليلة راقبها زوجها فتبعها خطوة بخطوة حتى فتحت باب الكوخ وبدخلت ؛ كانت تفصله عن الباب خطوات قليلة قطعها على مهله ليضمن ضبط زوجه متلبسة بأحضان عشيقها ؛ فلما فتح الباب وبخل لم يجد أحداً على الإطلاق ؛ أشعل علبة ثقاب كاملة عوبا وراء عوبه ، لف جميع أركان الكوخ ، لم يجد أحدا ؛ رجع إلى داره فلم يجد زوجه فهى إذن لم ترجع ؛ فظل طول الليـــل يجد أحدا ؛ رجع إلى داره فلم يجد زوجه فهى إذن لم ترجع ؛ فظل طول الليـــل يعذى؛ ثم استمر الهذيان إلى أن أدى به إلى العباسية لأن زوجه لم تعد حتى يهذى؛ ثم استمر الهذيان إلى أن أدى به إلى العباسية لأن زوجه لم تعد حتى

كان مرافقى وهو يشعل الوابور ويفسل عدة الشاى يفتعل كلاما كثيرا لم أركز الانتباه عليه لانشغالي في مراقبة خط سير الخفير ، وكان يتصنع الإتيان بإبريق الماء من ركته البعيد فيستكمل الكلام واقفا ؛ مما أشعرنى بأنه يحتجز بصرى عن مراقبة الخفير . لكننى أوهمته بأنى معه ونظراتى تخالسه وتخطف خطوات الخفير أخرج من جيبه مفتاحا فتح به قفلا كبيرا على الباب ، ثم فتح الباب وبخل ، وأغلقه من الداخل ..

شرينا الشاى ثلاثة أنوار . دخنًا كومة هائلة من السجائر . قمت لأصلى العصر الذي فانتى ، فانضم الاثنان ورائى : مرافقى وهندى . صلينا عصرين ، فأربع ركعات لله ، فأربع أخرى لكى يوفق الخفير في مشواره ، فأربع لكى يعود بسرعة ، لكنه لم يعد ، وازداد اصفرار الشمس واغمق لون الخضرة في الأرض ؛ حتى تخيلت أن الأساطير المشاعة عن هذا الكوخ لا تزال قائمة وأنها حقيقية . قلت هذا لخالد على سبيل التسرية عن نفسى ولتبرير ما اعتورني من قلق ممض . فقال الود إن الطريق طويلة وليست سهلة كما أتصور ..

في اللحظة التي فقدت فيها الأمل يا خال ، لحظة الغسق ، واختناق الشمس على صليب الأفق؛ فوجئت بالخفير بدخل منهكا لاهثا :

— « تقول لك هاته وتعال !! » .

فانتفضت واقفا يا خسال ، كأننى تلقيت أمرا بالإفراج بعد سجن طويل . نهض خالد :

- —« أنت رحدك عدم المؤاخذة !! » .
- « طبعا یا وادی ! هندی هو حارسی الخصوصی وسوف یبقی هنا فی
 انتظاری ! هیا بنا !! » .

وأشار خالد بأصابعه إشارة من يضغط على زر ؛ فاستل الخفير من جبيه الداخلي كشافا يعمل بالبطارية ، سلمه له . فمضى خالد أمامى نحو الكوخ الذي كان الخفير قد دخله ، كوخ الأساطير المرعبة يا خال .

وجد القفل موضوعا في الرزة لكنه غير مقفل ؛ رفعه فتح الباب وبخل . بخلت وراءه ؛ وضع القفل فوق عرق خشب من العروق المثبت فوقها لوح الباب ؛ ثم أغلق الباب من الداخل بالترباس ، وأضاء الكشاف وسلمه لى . لم يكن في الكوخ ثمة من أحد ؛ اللهم إلا ماكينة مياه قديمة صدئة معطلة ، والأرض من تحتها ناشعة بالزيت والشحم المتجلد ..

لف خالد حول الملكينة ، أزاحها كثيرا ؛ ثم تقرفص ، سرب أصابعه فثبتها في حافة بلاطة كبيرة أشبه بغطيان البالوعات . ويقوة انتفخت لها عروق رقبته رفع البلاطة حتى أوقفها على سيفها وقال لى :

- « إنزل !! » .

نظرت في الفتحـة التي ينبعث منها الظلام والمجهول المرعب ، ترددت . قال بحسم قاطع :

-« إنزل! لا تخف!!».

إنحنيت ناظرا في أعمال الفتحة مسلطا ضوء الكشاف في قلبها ؛ فإذا هو بدر ساقية ميني بالحجارة لكته جاف تماما ؛ في الحوائط الأربع المتقابلة فضبان حديدية مثبتة في الحجر وبارزة كالمساكات ، وهي نفسها درجات نزول وطارح قال :

- « إنزل !! »

زررت السترة ؛ وضعت رجلى السروال في الجورب ، نزلت ، ليست هذه أول مرة أنزل فيها داخل بئر كهذا ، فقد سبق ونزلت في شبيه له أوصلني إلى مقبرة العز التى يملكها الحاج أحمد نوار الدين السنى . جعلت أهبط درجة وراء درجة في حرص وحذر ، حتى وصلت إلى ما يشبه الأرض ؛ فتوقفت ؛ رأيت خالد يهبط ساحبا بكلتا يديه مقبض البلاطة التى راحت تميل فوق الفتحة شيئا فشيئا حتى غطت الفتحة ، تبعها صوت شئ صلب يفر ثم ينك تكة مكتومة ، كصوت الأكره الخشنة الفسدانة . قلت واجفا : ما هذا ؟ قال إنه صوت الملكينة تعود إلى مكانها إذ إنها مثبتة في البلاطة ببكرة وزنبرك خفى ، تزيحها البلاطة وهى ترتفع ، وتشدها لمكانها وهى تهبط ثانية : تكنولوچيا عتيقة يا خال فكر فيها الحفاة العراة من أهلنا. هكذا قال خالد وهو يتأبطني أخذا الكشاف منى . كنا في قلب ما يشبه فسقية المقبرة ، وهي عبارة عن صحن كبير مربع يجده النازل في مواجهته بعد النول مباشرة .

مشينا فيها يا خال المجيب أنها كانت ممتلة بالهواء ولا أدرى من أين أتاها يا خال الففنا حول الجدار المواجه ثم مشينا في سرداب متعرج ، أرضه مبلطة بالمجارة العريضة الجافة ، طوله حوالي نصف كيلو متر ، تتخلله على الجانبين فتحات مظلمة كانها دواليب منحوتة في الحائط الصخرى بأطوال وأعراض هندسية مدروسة ، حود بنا السرداب فجاة إلى الجنة الا أجد وصفا آخريا بوى، ما كل هذا السحر المذهل ؟ أكاد أقع مغشيا على من فرط الذهول والمفاجأة الصادمة الابد أن هذا هو الطريق الملكي فعلا : طريق عريض رصعت طاقاته على اجانبين بالشموع ، آلاف الشموع المضيئة على امتداد نهاية البصر ، الشموع وحدها تحتاج لفريق من العمال كل وظيفتهم إضاءة الشموع واستبدال الفاقد منها ليس هذا هو المدهش مع ذلك يا خال ؛ فأي واحد في مركز الشيخة سعادة وأهميتها يستطيع فعل هذا ، ولكن ما ليس في طاقة البشر ، حتى في عصر واهميتها يستطيع فعل هذا ، ولكن ما ليس في طاقة البشر ، حتى في عصر التكنولوچيا المتطورة ، أن ينقش هذا الشارع الضخم على الجانبين بهذه النقوش

ذات الألوان الزاهية الملعلمة ليس فحسب من أول الجدران لأخرها بل والسقف أبضا تحلف اليمين يا خال كأن هذه الألوان الزاهية خارجة لتوها من تحت يد النقاشين ، رسوم ، رجال ونساء بالزي الفرعوني البسيط الشبيه بملابس الإحرام حيوانات ، صقور وكياش وأغرية وسباع وعصافير وبجاج وثعابين وحيات ، شموس وأقمار ، أهرامات مثلثة ومدرجة ، مفتاح الحياة بشكله القريب من شكل الصليب ، يتخلل كل هذه الرسوم حروف هيروغليفية ، نفس النقوش التي رأيتها كثيرا في كثير من المعابد الفرعونية الظاهرة فوق الأرض ؛ غير أن هذه التي تحت الأرض هريت من الزمن قهرته نفته بعيدا عنها فكأنها تولد كل يوم مرة . والله العظيم إنه لشي يلحس المخ فعلا ، تصور يا خال أنني بعد خطوات قلبلة تبينت أن عشرات الآلاف من الشموع المضاءة لم تكن في الواقع إلا عددا قليلا جدا ، وأنها قد ضوعفت إلى ملايين من أمثالها ، لاتعكاسها على السقف والحوائط اللامعة المسقولة كأنها المرآة ؟! هل هو ما نسميه اليوم بالسيراميك أو الزليزلي ؟ هل تم نقش هذه النقوش فوق الأرض ثم جئ بها لتركيبها في حوائط وسقف هذا السرداب الصخرى العريض المتد إلى مالا نهاية ظاهرة ؟! وسواء كان قد تم نقشه على قطم فوق الأرض أو على الحوائط نفسها والسقف فإن العمل في الحالتين مستحيل يا خال ؛ ليس لطول المسافة وعظم الشغل فحسب ، بل كيف يتسنى لهم فعل هذا داخل سرداب مظلم بهذا الطول وهذا العرض إلا أن يكون أجدادنا قد عرفوا الكهرباء وسلطوا على مكان العمل أضواء سأطعة كالنهار ؛ وحتى في ظل الكهرباء فكيف يتم نقش الجدران والسقف هكذا دون أن تخلو عقلة أصبع واحدة من نقش وتلوين ، بل كيف تم نقش السقف وحده يا خال ؟ هل كان الفنان ينام على ظهره فوق سلم كبير ذي عجل ليتمكن من نقش السقف بهذه الرسوم الدقيقة؟ حاجة تهوس يابوي ..

الدواليب المنحوتة في الحوائط بأطوال وأعراض موحدة ، والطاقات الصغيرة ، كلها مزدانة هي الأخرى بالنقوش والألوان ، وفي كل منها تمثال من الواضح أنه قد تم نحته في الصخر أولا ثم نحتت له هذه المقصورة من حوله . تماثيل كياش وصقور وثعالب وأعضاء تناسل رجالية عظيمة الحجم ، ومسلات . ما بين الشرفة والشرفة ما يقرب من نصف كيلو متر .

مرقت بجوارنا ظلال أجسام بشرية تماوجت على الأرض وانعكست في لمعان الموائط والسقف . كركبت بطنى وأمعائى ؛ خيل لى أن التماثيل تتحرك ، حيث يتمخض عنها ناس يظهرون قجأة يقطعون الطريق علينا لابسين الجلاليب البيضاء والمسدسات في أيديهم . صرخت من الرعب ؛ فضحك خالد بل ضحكت الأشباح قال خالد :

- -« لتوك شاعر يهم ؟! »
- « بینی وبینك أشعر بوجود أنفاس بشریة من أول ما دخلنا لكنی لم أر أحدا إلا الآن! » .
- « كانك لم تر الذين كانوا في السرداب المظلم ؟! إنك بمجرد نزواك من الفتحة مرصود بوضوح خطوة خطوة ! وهي خطة جهنمية مدروسة بحيث لاتمكنك من رؤية راصدك في حين تمكنه من كشفك جيدا !! من يتولون هذه المهمة مدريون على ترك النازل يمشى وحده كيف يشاء مؤجلين الصدام به حتى يصير في الأعماق البعيدة حيث يتم افتراسه إن كان غازيا مهاجما أو احتواءه إن كان أخا زاداً ! مع العلم بأنهم يعرفون مقدما من سيجي ومن سيخرج ..

تعبت من المشى يا خال ؛ فبعد ما يزيد على ثلاثة كيلومترات طلبت الجلوس قليلا فى إحدى هذه الشرفات . لكن خالد قال إننا قد وصلنا . ثم دخل بى فى شرفة على اليمين ، تبين لى بعد دخولها أن حائطها المنقوش وراء التمثال إنما هو جدار صخرى ، يراه المار فيظنها مجرد شرفة منحوتة فى الحائط ؛ فإذا دخلها فوجئ بفراغ مستتر فى أحد صدغيها . مرقنا فى هذا الفراغ المظلم . ماكدنا نخطو حتى انبعث ضوء كشاف آت من بعيد مسلط على وجهينا ؛ ثم تبعه كشاف ثان من الجنب ؛ ثم ثالث من الجنب المقابل ؛ ثم رابع من أعلى ؛ فعرفت أننا قد وصلنا إلى عرين الأسد ، وسط ما يشبه ساحة عريضة يشرف عليها فى المواجهة درج سلم رخامى كبير ، ما أن وصلنا اليه حتى تحول ضوء الكشافات فاستقر على هذا الدرج ؛ فإذا بنا فى مدخل بوابة مهولة ذات واجهة منقوشة الأعمدة . دخلنا . الأرض مبلطة بالرخام الملون ، والشموع كثيرة فى ردهة مستطيلة على جانبيها عدة أبواب . ضوء وشيش كلوب يأتى من الباب الأخير على اليمين فى الردهة . حوّبنا إليه . دخلنا ..

الشيخة سعادة جالسة في صدر الغرفة على كرسى ملوكى قريب الشكل من السرير ، بقوائم ومساند من الواضح أنها من الذهب . حولها مجموعة من الرجال والنساء كلهم يرتنون الجلاليب البيضاء يجلسون على مقاعد مشابهة فوق سجاجيد ومصليات مفروشة على الأرض . كان من الواضح أنهم في خلوة روحية عميقة ؛ وكان ثمة من يتكلم فلما دخلنا كف عن الكلم ونظر فينا مستطلعا ..

سلام عليكم ، فردوا السلام وهم جلوس . خيل لى أنهم تماثيل منحوتة هى الأخرى فى الصخر دبت فيها الروح قليلا . إخترقت الطريق إلى الشيخة مباشرة ؛ ارتميت فى صدرها وهى جالسة ؛ إندفعت فى البكاء يا خال ، صرت أنتفض على صدرها وهى تريت فوق ظهرى قائلة :

- « ظاهرة غير مطمئتة ! إجلس على كل حال !! » .

نهض أحدهم تاركا لى مقعده بجوارها . كان شابا يافعا ناضح الملامح . قال: - د إسمحى لى يا أم ه .

- إلتفتت إليه :
- -« ستنصرف يا ناجح ؟! » .
- « حان وقت انصرافي فاعطني الإذن! » .
 - د بسلامة الله! ء .

ومدت له يدها ، فطبع على ظهرها قبلة ، ثم قدم لها خديه ، فطبعت فوقهما قبلتين أموميتين :

- « وفقك الله يا ناجع! ».
- مضى الواد خارجا . نادته :
 - « ناجِح ! » .
- فتوقف في الباب مستديرا إلينا . وهتفت به .
- « إذا لم تجد الظرف مناسبا فارحل! وإذا التقاك أحد من صحابك عند
 الرحيل فأنت لست تعرفه ولا تود أن تعرفه!! » .
 - -« قاهم يا أم الـ»-
 - « في رعابة الله ! »
 - فاختفى ، وساد الميمت برهة . قلت :
 - « هل عطلتكم عن شيّ ؟ !
- « نعم ! كان قضيلة الشيخ يلخص انا فلسفة ابن تيمية في معاملة الحاكم !
 اللهم قرينا منه فعلمه غزير وخيره وفير منير ! بصره حديد ورأيه سديد !! » .
 - « إذن فأنا أسف ! »
 - فلم تعلق ، بل أشارت إلى ذلك الرجل .
 - « تفضل يا مولانا أكمل حيبتك ! »
 - رقعت يدى يسرعة :

-« لا تؤاخذيني فقد ... »

قاطعتني:

- « ضيفك الآن في الرعاية الكاملة ! سينكل ويشرب ويبيت في أحسن مكان ! سيارتك أيضا في أمان ! أنت لكى تخرج من هنا يلزمك وقت طويل ! السكة سالكة بإذن الله ولكنها طويلة طويلة فاهدأ واتركنا الآن نكمل هذا الغرض الملح ! نستقبل علماً كنا في حاجة إليه منذ وقت طويل لكى نسلك سلوك المسلمين الحقيقيين !! استقد معنا لعل الله يقفر لك شيئا من ذنويك !! » .

وانصرفت عنى إلى الاستماع ، وبدأ الرجل يتنحنح مسلكا صوبه ، وأخيرا تكلم بعد أن تصفح أوراقا في كتاب أصفر قابع بين ركبتيه على حامل خشبى . لم أفهم من كلامه شيئا ، ربما لأننى لا أعرف اللغة التي يتكلمون بها . كل ما بقى في رأسي كلمات عن التتار والمغول والصليبيين والأتراك والماليك والطاغوت وفريضة الردع والمقومات الحقيقية للمسلم الكامل الإيمان ، والغزو اليهودي وعذاب القبر . كل كلمة من هذه الكلمات تنحشر بين أعداد هائلة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . صار دماغي من فرط التعب يستسلم للنعاس لحيظات خاطفة يسقط فيها دماغي على صدري فأسترده مأخوذا . مع ذلك بقيت في ذهني بعض أسماء الجالسين الذين كانوا يحاورون الرجل فيرد عليهم بأسمائهم : عبد السلام ، خالا، همام ، فرج ، عبد الجواد ، ياسر .. إلخ .

أنقذني من الكابوس رجل في حوالي الستين من العمر وقف بالباب هاتفا:

- « العشاء يا أم!! » .

نهضت الشيخة سعادة وأقفة :

- « يكفى هذا الآن!»

ومشت ، فنهض الجميع ؛ فخيل لى أنى مندهش من قيامهم . مشينا خلف

الشيخة عائدين إلى باب مجاور البوابة فإذا هى كلها مقروشة بالحصائر الملونة وقد ارتصت قوقها مجموعة من الطبالى حقلت بأناجر الفتة وهبر اللحم والشورية والسلطات والفجل والجرجير . جلست الشيخة أولا ثم جلسنا جميعا ؛ وكانت جلستى بجوارها فلم توانى أى اهتمام بالمرة ،، فلما فرغنا من الطعام وشرب الشاى نهضت الشيخة قائلة :

« سأذهب إلى محرابى الأنظر في أمر هذا الضيف ولسوف يرجع إليكم بعد.
 قليل ليمكث معكم حتى الصباح!! » .

ثم دفعتنى أمامها برفق ، ثم تقدمتنى . اتجهت بى يسارا ، إلى المجرة الموجرة المحرة التي كانوا غيها عندما دخلت عليهم . حجرة مربعة صغيرة بعض الشي ، حوائطها وأرضها مغطاة بالسجاجيد المنقوش عليها صورة الحرمين بخيوط النسيج . يوجد بعض الشلت بمختلف الأحجام ؛ الشموع مشتعلة في طاقات محفورة في الحوائط ؛ جلست متربعا شاردا فاقد القدرة على الكلام .

إنقيض قلبي بالخال وشعرت بأخطار غامضة التمثلت لي الشبخة سعادة في شكل مارد من الجن أكاد أحترق بسعيره المتطاير شرراً من جسدها ، لحظتئذ فحسب با خال أنكرتها بكل معنى الكلمة ؛ فرطت في أخوتها ، سلمت أمرى لله فيها . كانت في غاية القسوة رغم رقتها الظاهرة . كانت شخصية رابعة أشد هولاً وخيالا من الشخصيات الثلاث السابقات : سعيبة زوج خرابة قاطع الطريق ؛ رُعِيمة الجبل الملكة عليه ؛ الشبخة سعادة العراقة قارئة الكتاب السحري والكف والفنجان ؛ أم الرجال الحصيفة الحادة النارية . أي دماء تجرى في عروق هذه الكتلة الضبئيلة من اللحم ؟ أي شيطان تلسِيها يا خال ؟ أهي طبيعة الجبل زرعت فيها روح العصابة ويستور العمل السرى في الخفاء ضد عدو إذا لم يكن موجوداً أوجدته ؟! أهي اللوثة الدينية التي أصابت البلاد في مقتل ؟ ولكن كيف تسريت جرثومة القسوة والعمل الديني المسلح ليس ضد النولة فحسب بل ضد الناس كلهم صالحين وفاسقين معا ؟ ! ومن يدريها يا خال إن كان هذا أو ذاك من البشر فاسقا أم صالحا ؟! وما مقياس الفسق ومقياس الصلاح في نظرها ؟! هذه اللوثة جرثومة وفدت علينا من خارج البلاد يا خال . فأنا على يقين من أن الشيخة سعادة على علاقة وثيقة بأمراء ومشايخ نقط أثرياء وشيوخ دين مصريين أكثر ثراء يعيشون في قلب أمريكا وأوروبا . رأيت الكثيرين من أمثال هؤلاء وأولئك عندها كثيرا في الجبل وفي أسبوط . رأيت عندها في الجبل حقائب سفر ملاّنة بالفلوس : دولارات على فرنكات على إسترايني على كوبتي وسعودي وعراقي كأنها بنك من البنوك ؛ مما يدل على أن هذه الأعوال قائمة إليها من كل هذه البلاد . أذكر أنى سائتها ذات يوم مازحا : هل تتاجرين في العملة ؟! فسلقتنى بنظرة أحرقت في صدري روح النكتة وقالت إنها لا نتاجر في شيّ وإن هذه نفحات من باب الله لباب الله ؛ والآن جاء الوقت الذي أعرف فيه أي باب من أبواب الله تنفق فيه هذه الأموال الطائلة ..

تأملتني طويلا ، ثم صاحت :

- « أراك صامتا ! فهل هو شعور بالذنب ؟ ! »

والواقع يا خال أنى لم أكن عرفت كيف أبدأ حديثى ؛ فما رأيته قد صعب مهمتى ووضعها في جراب المستحيل ففي أي شئ أتكلم الآن ؟

سمعنا طرقا خفيفا على الباب ، صاحت الشيخة في أمر : ادخل ، فانفتح الباب الثقيل وبخل شاب غليظ الوجه والصوت ، ملتع ، توقف على عتبة الباب :

-« دقيقة واحدة لو تكرمت يا أم! »

كان يبدو عليه الإضطراب والشحوب . فنهضت هى ذاهبة إليه ؛ فى طريقها وجهت لى نظرة استرابة غير مريحة ثم سحبت الباب وراها واختفت . بقيت وحدى يا خال أضرب أخماسا فى أسداس . ماذا أقول ؟ ماذا أفعل ؟ لقد أرهقت أعصابى يا خال ، وخيل لى أنى كبرت خمسين عاما من شدة القهر والفيظ . طال الوقت جدا فكأنه يأكل فى لحمى أكلا ينهشه بأسنان ثالمة ، مضى ما يقرب من ساعة كاملة ، كثرت خلالها الخطوات فى الردهة رائحة جائية فى توبر مصحوب بأصوات تكتكة أقرب إلى صوت تزييت البنادق وتجريب محركاتها . ثم إن الباب بأصوات أخيرا وبخلت الشيخة سعادة وأغلقت الباب وراجها ..

كان وجهها ركية نار في قلبها ثقبان يفحان أونا أزرق مخضوضرا . تربعت في مواجهتي صامتة تتحداني بنظرات حادة فيها أوم واحتقار وغضب ونذر وانتقام شبطاني مروع قالت أخيرا :

- « أراك انكتمت ! فماذا وراط أيها الكافر الفاجر ! يا من تستحق السحل !
 خير لي أن ألقى بك حيا في قلب النار وأستمتع برؤيتك وهي تسلقك وتشويك !! ».
 - راحت الدماء من عروقي يا خال ، طفش عقلي ، صبرت أردد في خوف :
 - « يه .. يه ! لماذا ؟ ما الذي جرى لأستحق هذا ؟! »
- « ظننتك جئت تائبا توبة نصوحا ! فإذا بك عميل جاسوس ! حيوان قدر !! »
- « سامحك الله ! أنا على كل حال جئتك برسالة رسمية وما على الرسول إلا
 البلاغ ! حرصى على مصلحتك هو الذي جعلنى أقبل المجئ إليك لتبليغ الرسالة !!
 - « رسالة ؟! ورسمية ؟! ممن يا ترى ؟! »
- « من أنور السادات بذات نفسه! هو لم يعرف أننى شقيقك لكنه يعرف أنى
 أعرفك كما قبل له!! » .
 - -« قيل له ؟! يالها من صفاقة !! » .
- « كلمنى ! قال إنه محتاج لك فى أمر مهم ! وقد طلبك المحافظ لمقابلته فقيل له إنك بعث البيت وعنوانك غير معروف ! فطلب منى السادات شخصيا أن أجئ بك بأى شكل نظرا لاحتياجه الشديد إليك فى مهمة لم يكشف لى عنها فربما كانت مهمة شخصية !! »

انفجرت ضاحكة ضحكا جنونيا يمثلئ بالحقد والكراهية بشكل ضاعف من فزعى . أخيرا قالت :

- « هذه وحدها خطيئة تستحق القتل عليها !! الخطيئة الثانية هي ما ترتب
 على قبواك لهذه المهمة المشبوهة السافلة !! أتعرف ماذا حدث أيها الجاسوس
 الجبان ؟! »
 - مات قلبي يا خال ، مبحث في حشرجة :
 - -« إستريا رب! »

- « قتل أولادى ثلاثة ضباط من مباحث أمن الدولة كانوا يراقبونك خطوة خطوة ، إشتبه فيهم الخفير فراقبهم وهم يحومون حول الكوخ الذى بخلته فتركهم وخرج إلى الخلاء أطلق بفعه صفيرا معينا ! فلما عاد وجدهم فى كوخه يتحدثون مع رفيقك الذى ينتظرك ! سألهم عما يريدون فقالوا إنهم اشتبهوا فى نمر السيارة المركوبة على الطريق فجاء ا يبحثون عمن يكون صاحبها ! فليقن أنهم أعداء ! قال سأنادى لكم صاحبها ! وخرج فالتقاه الشباب الذين هبوا لصفيره لنجدته ثم تسللوا إلى نافذة الكوخ وأطلقوا الرصاص عليهم من مسدس كاتم للصوت !!

- « قتلوا هندى ؟! لا حول ولا قوة إلا بالله !! »

وانفجرت باكيا ألطم خدى كالنسوان ، لكنها بكل برود قالت :

- « العقبى لك !! الجثث تمت تعبئتها في أجولة ! حملتها الحمير في الظلام وألقت بها في النيل ! ولكن الشبان أبنائي حماهم الله أرابوا أن يخدموك بإيعادك عن القضية فأشعلوا النار في سيارتك قصارت كتلة من الصفيح الخردة !! لا يمكن الإستدلال عليها ! رأيي أنك لا تستحق الخدمة بل إن قرار قتلك قد اتخذته منذ وقت مضى لكني أرجأت تنفيذه لعلك تثوب إلى رشدك وتعفيني من عتاب الدم ومن شبح العظام النائمة في قبرها !! أما الآن فإنني صدت مقتنعة بأن قتلك أصبح واجبا وحلالاً !! غير أني ساتركك حيا لسبيين : الأول أن تبلغ رسالتي لأنور السادات ! والثاني لأنه هو الذي سيقتلك بنفسه !! لقد عرف أنك شقيقي منذ وقت طويل وهو يضعك تحت الاختبار ! وعرف أني أحاريه فأرسلك طعما ليصطادني بك ا لكنه نسى أن مخابراتي أنشط وأقوى من مخابراته !! ولدنا العزيز خالد الذي أتى بك إلى هنا شغلته التخابر وجمع المعلومات وتبليغها أولا بأول !! لابد أن ترصل رسالتي لأنور السادات كي يمتد عمرك أياما فهل أنت مستعد لتوصيلها؟!»

- « ماذا أقول له ؟! » .

- « قل له إن الكتاب لا يكتب !! إن الورق لا يخون أهله ولا يخدع نفسه !! النبوءة لابد من حدوثها !! لقد قرأت لك الورق فكأنى أقرأ التاريخ الذي رأيت أحداثه المقبلة مجسدة أمام عينى !! قرأت له الورق أي أنى أنذرته ! وقد أعذر من أنذر لكته لم يرعو ! بل ازداد جهالة على جهالة وكرر صورة الطاغوت مضروبا في مائة !! إن الله الذي ألهمني قراءة الورق هو سيجانه الذي ألهمني مهمية تنفيذ النبوءة !! حينما كنت اقرأ له الورق كنت في الواقع أقرأ عهدا وميثاقا أبرمته روحي مع الله سيمانه وتعالى !! قل لأنور السادات كل هذا !! قل له إن أم الرجال أم المؤمنين لقادرة على تخليص البلاد من رأس الفساد ! وإن الله لناصرها عما قريب ! وإن الموت أقرب إليه - وإليك - من حيل الوريد ! وإن جميع قواته وحرسه وسلاحه وأسواره كل ذلك لن يعصمه من مصير اختاره له الله والدليل على ذلك القتاع الملايين من المسلمين بهذا القصاص !! والان فلتذهب إن ولدى الذي أتي بك هو الذي سيخرج بك من هنا ! هذه آخر مرة أراك فيها !! » .

تنفست الصعداء بمجرد علمى بأنى سأخرج من هنا إلى الخلاء ثانية ؛ مع أن منظر الشيخة وملامحها المسمومة الحادة كانت تشككنى فى صدق عفوها؛ فالراجح عندى أنها وصلت إلى المرحلة القصوى فى الإنفصال عن كل المشاعر الإنسانية من فرط يقينها بكفر الآخرين ، ويوجود كل هذا الرعيل من الشبان وهذا العدد الهائل من المريدين من جميع فئات المجتمع مثقفين ومهنيين وحرفيين وعسكريين وطلاب دراسات عليا كل هؤلاء بعثوا فى فؤادها غطرسة القوة الغاشمة القاسية التى لاترحم . لقد تقمصتها روح زعيمة العصابة على نطاق أوسع ، حيث يصبح القتل وقطع المريق وقطع الأرحام عملا بطوليا شرعيا فى خدمة الإسلام

وإلله ..

قل إننى كنت مرتابا في عفوها وأظنه تمويها وخداعا ، وأننى - كما صدار مرتبا لى - ستؤخذ بناصيتي في الخلاء بعيدا عنها . إلا أننى يا خال تذكرت شيئا خطيرا في كلامها أردت أن أراجعها فيه على أمل واه بأن تغير رأيها أو على الأقل تخفف من حدته . قلت :

- « ولكن يا ست الكل أنت تقولين إنك قرآت الررق لأنور السادات ! والصحيح أنك قرآته لمحمد بك أبو شناف ! فكيف حدث هذا الخلط ! تحملين رجلا أوزار رجل أخر ؟! ما لمحمد بك أبو شناف بأنور السادات ؟! هذا رجل كان من الضباط الأحرار ذات يوم واعتزل السياسة واشتغل في البزنس أما هذا فرئيس جمهورية بعد تاريخ سياسي كبير !! » .

فضحكت ضحكة عمرى ما سمعت في غرابتها يا خال ، سعدية الرقيقة الشقيانة في مكتبة عمها الفقيه وخدمة ضيوفه ، والتي انتقمت لزوجها خرابة من قاتله في التر واللحظة محققة العدالة بنفسها على الحكومة في عقر دارها ؛ سعدية زعيمة الجبل مطهرته ناشرة الود والسلام والعدالة بين المطاريد الاشقياء ؛ سعدية الشيخة سعادة ربيبة العلماء والمتصوفين والمسالحين من أنحاء العالم الإسلامي قارئة الكف والورق لرجالات الثورة في مصر ، سعدية هذه بكل وجوهها لم يحدث أن صدرت عنها مثل هذه الضحكة النحاسية الصدئة السمجة الشريرة ؛ ضحكة أن صدرت عنها مثل هذه الضحكة النحاسية الصدئة السمجة الشريرة ؛ ضحكة خلفت على وجهها شحوبا أصفراوبا مرعبا يا خال . قالت بنبرة تخلو من أية مشاعر:

- « كيف تريد أن تفرض على عباط الذي لا مثيل له بين الحمير ؟! أنا لم أقرأ
 ورق محمد بك أبو شناف أنا قرأت ورق الحاكم المصرى !! سيان عندى أن يكون

الجالس أمامى محمد بك أبو شناف أو أنور السادات !! محاولة التغريق بين الشخصيتين لم تشغلنى لم أفكر فيها أصلا !! لكتنى مذ وقع بصرى عليه ليلة القراءة وعند تفنيط الورق اعتبرت كلا منهما قرينا للآخر !! أنا التقيت صاحب البرنس كما تسميه لكنى قرأت في الورق صورة قرينه صاحب البرنس الأكبر !! كلاهما يوضع في مكان الآخر دونما فرق يذكر عندى !! كلاهما أثم في نظرى !! كلاهما قطرة يعير فوقها الفساد لتخريب ديار الإسلام ويفتح الباب للكفر حتى يصبح الإسلام غريبا في بلده !! كلاهما خائن الأمانة وأنت نفسك أكبر دليل وأوضحه على فسادهما معا !! ».

ومنفقت بيديها ؛ فانفتح الباب وأطل منه الوجه الغليظ . صاحت فيه :

– « المهندس خالد ! » ،

فمضى الغليظ . ويعد برهة جاء خالد . صاحت فيه :

- « إصحبه إلى الخلاء من سكة لا يتذكرها !! » .

ولم أكن أقوى على الوقوف يا خال من شدة الرعب والخور فتقدم خالد منى ووضع ينيه تحت إبطى ، ثم أوقفنى ، ثم سحبنى فمضيت بجواره كالمنوم مفناطيسيا ؛ مجرد هيكل عظمى لا حول له ولا طول ..

ظللت منتبها إلى أن غادرنا الساحة أمام البوابة إلى سرداب متفرع من الشرفة التى دخلنا منها . سرداب مظلم تماما ، ضيق ادرجة أن أكتافنا كانت تحتك بجداريه . من حسن الحظ أنه لم يطل أكثر من حوالى ربع ساعة . فما أن شعرت بأننا حودنا إلى سرداب أوسع كثيرا ، تهاويت على الأرض فاقد الوعى يا خال..

أفقت بعد وقت طويل ، على يد تدلك قلبي وتحرك ذراعي كحركة ذراع الطلمبة

فطنت إلى أنى استفرغت كل ما فى جوفى . صار خالد ينظف لى ملابسى ، يجفف عرقى . ثم جذبنى بقوة فأوقفنى . استأنفنا السير . كانت الساعة فى معصمى تشير إلى التاسعة صباحا حينما نظرت إليها فى ضوء الولاعة وأنا أشعل سيجارتين لى ولخالد . طلبت الجلوس قليلا ؛ فجلسنا . أبديت دهشتى من تقدم الوقت إلى هذا الحد فهل مشينا كل هذا الوقت ؟ فقال خالد إن فترة الإغماء قد امتدت حوالى خمس ساعات ، وأنه ظن أنى مت ويدا يفكر فى كيفية التخلص من جثتى لكنه من شدة الإرهاق تمدد بجوارى حتى يمر بنا أحد من الرجال يساعده على التصرف ، فنام نوما عميقا فلم يوقظه إلا شخيرى الذى ارتفع فجأة يدمدم ويزلزل كقصف الرعد ؛ فحمد الله وانتفض جالسا يمسع القيىء عن صدرى شميجرى لى عملية تدليك القلب انتشيط اللورة الدموية .

مشينا يا خال ، والسرداب يتسع شيئا فشيئا والضوء يتسع معه ، فكأننا نمشى في ميدان مسقوف تتفرع منه سراديب ضيقة لا حصر لها كجيوب يختبئ فيها الهول والمجهول . توقف خالد وصار يستطلع حواليه ويعد السراديب التي على يساره ثم يسحبني إلى السرداب الثالث ؛ دخلناه بقامة محنية قليلا ؛ مشينا بالقامة المحنية حوالي عشر دقائق صعبة خانقة ؛ إلى أن دهمنا جدار يسد علينا السرداب . فلما اقتربنا منه رأينا فراغا على الجنبين عبارة عن شق هائل بالطول في الجبل ؛ شق يتسع لجسدين فقط ؛ والسماء ظاهرة لأول مرة ، بشمسها ونورها الساطع . ثمة صخور وأحجار كثيرة تسد الطريق من الجهتين ؛ تسلقناها بصعوبة . لفت بنا الصخور عبر مدق ينحدر من أعلى ، صرنا نصعد فوق الجبل تحت قرص الشمس مباشرة ، مشينا تحت الشمس حوالي نصف ساعة ؛ ثم دهمتنا مغارة ذات بواية تستطيع ابتلاع عمارة شاهقة . دخلناها ؛ كانت مليئة

بالضوء ، متعرجة ، واسعة ؛ ما أن تضيق حتى تتسع ، وما أن تتسع حتى تضيق مشيئا في قلبها حوالى ساعة كاملة يا خال ، والضوء يقترب ويزداد ابيضاضا ونصوعا . ثم ظهر الأفق من بعيد جدا ، كشريط أخضر ؛ ومن خلفه بيوت كعلب من الكبريت . لفظتنا المغارة إلى أرض مستوية ، ثم تبين لنا أن الارض الزراعية والمساكن في سفح واطئ ، وأننا أعلى منها بنحو قامة رجلين . صرنا كأننا نقف فوق سطح أحد المنازل ، والناس تروح وتجئ من تحتنا ..

كان ثمة منحدر على اليمين فمضينا إليه ، صار يهبط بنا ، بعد قليل صرنا في قلب أرض زراعية ، وبعد قليل صرنا في قلب المباكن ، قال خالد :

- « أتعرف أين أنت الأن ؟! »

صرب أراجع كل منظر حوالي ، قلت :

- « البلد مألوقة لي! »

ثم تبيئت في الحال أننا في قرية « دُرُونكه » . هنفت من أعماق خاوية :

« يا ... ! ... ه ! كيف وصلنا إلى درونكه ؟ يا لها من رحلة عصيبة مضنية!!
 إنى أسف يا ولدى ! لقد سببت لك المتاعب دون ذنب ودون فائدة !! » .

قال بتلقائية :

- « بل أنا الذي يأسف لكل ما حدث! لكنه مكتوب! والمكتوب ما منه مهروب!
 المهم الآن أن صلاة الجمعة وجبت! بالكاد نتوضاً! ».

- «إذن فاتجه بنا إلى جامع درونكه!» .

توضيعًنا ؛ دخلنا إلى المصلى . كان المصلون في حالة غير طبيعية ؛ يميلون على بعضهم البعض يتهامسون في قلق ، يكاد الهمس ينقلب إلى شجار ، وهم بين مؤيد ومعارض ، راض وساخط . كانت عيونهم تشير إلى المنبر وتستثنف الهمس والعراك الصامت . نظرت في الخطيب الواقف على المنبر ؛ أصابتي الذهول ياخال؛ إنه ذلك الشاب المدعو ناجح ، الذي رأيته بالأمس في حضرة الشيخة سعادة . ميات على خالد وسائله :

- «ناجح هذا من زملائكم طبعا !! » .
- «نعم ! أظنك رأيته بالأمس مع ماما !! » ،
 - -«أهو من درونكه ؟! » .
- «لا ! ولكنه يجول بين المساجد في بلاد المسعيد ! إنه من أنشط العناصر
 وأقواها في الإقناع والتأثير ! هو خطيب جيد !» .
 - دولكني أرى في الأمر شيئًا غير طبيعي !!» .
- «طبعا! فأتباعه هذا قلة قليلة جداً أو غير قادرين على اقتاع الآخرين فاستضافوه ليخاطب أهلهم من فوق المنبر! ولأنه معروف بالاسم هذا فبعضهم متوجس من ظهوره وبعضهم مرحب به!! ».

ثم خطب ناجع . كان قصيحا بليفا سريع البديهة قوى البيان ، يربط بين الماضى والحاضر بأفكار جريئة مبهرة براقة يرصد فيها مظاهر الفسق والفساد في كل مكان ، يحمل الناس مسئولية ظهورها ومسئولية استمرارها ؛ ينذرهم بعذاب الجحيم إذا لم يقاوموها ويستأصلوا شأفتها من أرض الإسلام . أشهد أن ناجح نجع في تخدير جميع الصفوف ، وفي التأثير عليهم إلى حد ارتفاع البكاء بين المصلين . ثم أقام الصلاة ؛ فما أن سلم ذات اليمين وذات الشمال ، وصافح القريين منه ، حتى تلقفه مضيفوه ، واختفوا به في لمع البصر ..

توجهت بصحبة خالد إلى الطريق الزراعى ، حيث تلقفتنا إحدى سيارات النقل لتلقى بنا في أسيوط . كنت أجرر ساقى شاعرا بالقهر والحزن العميق ، أكتم الدموع في صدري ، أمشي ذاهلا ، قال خالد :

- «تركب القطار ؟! » ،

قلت: لا . وعزمته على الفداء ، توجهت به إلى مطعم للأسماك ، فتناولنا وجِبة سريعة . ثم ودعته على باب المطعم ومضيت إلى موقف السيارات فركبت واحدة : على مصد ياأسطى ، ثم استرخيت متمددا على المقعد الخلفي كله ، واستغرقت في نوم عميق كأنه الموت ياخال . بُهتت زوجي حين رأتني ياخال، أنكرتني ، أعدت الحمام الساخن فقطست في الحوض لساعات طويلة وأنا في حالة لا تركيز فيها على الإطلاق ، تناولت العشاء في صمحت ، وأويت إلى القراش فنمت . أيقتلتني زوجي في اليوم التالي لأتناول الغذاء ، فدخلت الحمام الساخن وخرجت منه فاقد القدرة على التركيز تماما . أين طفش عقلي ؟ إني غير شاعر بوجوده يابوي ، لا أقوى على التفكير في أي شيء ، لا أعرف شيئا مما يدور حولي ؛ تكلمني زوجي بالساعات فلا أفقه شيئا مما قالت، فأعاود النوم ، وأصحو لاتعشى وأنام ، ولا أقوى على صلب حيلي يابوي ، ولا الوقوف على قدمي ..

ذعرت زوجى ؛ استدعت طبيبى الخاص ، فحصنى جيدا ؛ قال إنها حمى أدت إلى فقدان الذاكرة مؤقتا ، لم توافق على نقلى إلى المستشفى ، كانت المكالمات التليفونية تنهال على البيت من جهات مختلفة تسال عنى ، فترد عليهم بلباقة ، وتتابع العمل مع بربش دون أن تخبره بشيء عن حالتى الصحية وكانت الرئاسة قد اتصلت بى أكثر من مرة ؛ فأبلغتهم بحالتى الصحية ، فاتصل السادات بنفسه وسائها عن حقيقة الأمر فشرحت له الحال كلها ؛ فأرسل مندويا طبيا من طرفه ليرانى على الحقيقة ، أيقظونى ، لم أقر على النهوض ؛ لم أع شيئا مما يقال حولى ؛ إنما أبحلق فيهم كأنهم جميعا غرباء ، وحينما أعود للنوم يستغرقنى الهذيان ..

بدأ الإنزعاج الحقيقى . جاء السادات بنفسه ليعوبنى فصرت أنظر إليه ولا أقوى على مواصلة النظر بل تعاوبنى الحمى وينكسر رأسى فوق صدرى . نقلونى إلى المستشفى العسكرى . مكثت فى غرفة العناية المركزة عشرين يوما ؛ ثم انتقلت إلى حجرة استشفاء فمكثت فيها عشرة أيام . فى هذه الأيام العشرة الأخيرة بدأت أفيق شيئا فشيئا ، بدأت أعى ما حولى ؛ أتذكر ما حدث ، أرد على الهاتف ، أتبادل الحديث مع الزوار بتركيز طبيعى ، أناقش مع بريش تقارير الوضع فى الشركات ، أحكى لزوجى حقيقة ما ألم بي ...

جاء تنى وفود من المباحث الجنائية ، ومباحث أمن الدولة . سألونى عما يكون قد حدث لى فى الصعيد . راوغتهم ، زعمت أن بعض مطاريد الجبل قد اختطفونى ظنا منهم أننى أحمل فلوسا كبيرة فأرهقونى بالتعنيب والتهديد بالقتل ثم فتشوا سيارتى قلم يجدوا بها شيئا فأحرقوها ونقلونى معصوب العينين ليلا إلى أسيوط فتركونى عند المحطة ولانوا بالفرار ؛ رجحت أن يكون ما حدث لى من فعل الجماعات الارهابية لأن الجناة كانوا ملثمين ..

كان عدم التصديق والاستنكار واضحين في أعين الذين حققوا معى ، لكنهم مع ذلك لم يرهقوني . بعد عودتي إلى البيت بأيام قليلة طلبني السادات فذهبت إليه. طلب مني تقريرا وافيا عما حدث لي في المشوار المشئوم ؛ حكيت له نفس ما حكيته من قبل واكن بشكل محبوك هذه المرة إذ أضفت بأن الذي قادني للخطف أوهمني بأنه سيوصلني إلى المقر الجديد للشيخة سعادة وأنه اختفى في شعاب الجبل ليعسك بي الملامون ..

نظراته كانت نظرات ثعلب ماكر تبدى الاقتناع بما أقول لكنها تقلت منها بوارق تتوعدني تقول إن كلامي مفكك بل متهافت لا يدخل الدماغ . لكنه قال : – «على كل حال ! حمداً لله على سيلامتك !!» .

ونهض واقفا إيذانا بانتهاء المقابلة . وحينئذ انتبهت إلى أنه يرتدى الجلباب والطاقية المدوفية الفلاحية ويمسك بالعصاء وأولا منظر القصر الجمهورى وحشود الحرس المتنوع الأزياء لأيقنت أنه محمد بك أبو شناف بلحمه ودمه . وعندما سلمت عليه تأهبا للإنصراف شعرت بيده رخوة باردة ؛ فنوى قصف الرعد في بطني ، وقفلت عائداً إلى بيتي أعض بنان الندم لأني لم أعترف بكل ما حدث جملة وتقصيلا ؛ واشدة غيظي لم أفهم لماذا لم أعترف ياخال .

* * *****

لعقت بى زوجى إلى المرحاض مهرولة متوجسة يشملها الكثير من الاضطراب. بقيت واقفة على باب المرحاض الموروب قليلا ؛ صارت تحدثنى بصوت مضطرب ؛ وأنا أشد منها اضطرابا أرد عليها بصواريخ من الضراط الراعد ، المطرطش ، ومخى كله مركز في بطني . فلما هدأت بطني قليلا استعدتها ما قالت، فحكت لى أنها لاحظت شيئا غربيا مقلقا : هناك من يراقب البيت منذ بضعة أيام ، حوالي خمسة رجال كل منهم يتمركز في جهة يظل يحوم حولها طول النهار فإذا دخل المساء انصرف وتسلم المكان بدلا منه شخص آخر ؛ كما أنها لاحظت أن هناك من يلحقها في الخفاء أثناء توجهها إلى أي مشوار وأن إحدى صديقاتها نبهتها إلى ذلك متأخذ حذرها وأني يجب أن آخذ حذري أيضا إذ لابد أني مراقب كذلك .

قدمت لي كوب الليمون على السرير وهي تقول:

«لابد من الرحيل! السفر هو الحل! بقاؤنا هنا يجر علينا متاعب لا تتخيلها
 بسبب أختك!!».

- «ومصالحنا ؟!».

- «نبيمها ولو بالخسارة! أن الأوان لأن نستريح من القلق والمسئولية التي نقع فيها بسبب غيرنا! فلوسنا في بنوك الخارج تكفي لنعيش من أرياحها السنوية! ومن يسدرى؟ ربما وفقنا الله في عمل مشاريع جديدة في البلد التي نستقر فيها!!».
 - «تظنين أنهم يسمحون لنا بالسفر ؟! » .
- دساتصرف! البلد كلها شرقانة وكل شيء يمكن شراؤه بالفلوس حتى الدحال! سأتصدف!!».
 - «وعملية بيم الشركات أتظنينها سهلة ؟! » .
 - -- «سأتصرف أيضا ! هي سهلة عندي !! » .
- «دبور یزن علی خراب عشه! أخاف أن نخسر ما تعبنا فی تأسیسه وفی
 نفس الوقت نُمنع من السفر!! » .
- أنا متأكدة أننا لو انتظرنا سنوضع تحت الحراسة لسبب من الأسباب!
 فدعني أتصرف!! ».
 - دخلاص يألم أدهم! تصرفي!! » ،

وفطنت ياخال إلى أن زوجى التى تخرجت فى الجامعة الأمريكية بعد الزواج ، خدمها جمالها الفطرى الصارخ عندما أصبحت ترتدى أحدث الأزياء من أشهر وأغلى بيوتها فى باريس ، فأصبحت معبودة بين أشيك نساء مصر ؛ صارت شخصية لها ثقلها واحترامها وخطرها ، صارت صديقة حميمة لجميع نساء الوزراء والكبراء والرءوس التخينة فى البلد ناهيك عن الرءوس التخينة فى شركاتى. كل يوم عزائم وضيوف ، وهدايا ثمينة متبادلة ، وحضور أفراح ، وحضور ندوات ، ولقاءات فى نادى الجزيرة والنادى الأهلى وهليوبوليس . كانت

ملحلحة وذكية ومحبوبة ، وعطوفة ..

اشتغات التليفونات عدة أيام ، ثرثرة النساء ترتب عليها لقاءات متكررة وعاجلة
بين محامين ومحاسبين ، مستشارين ووكلاء . تكونت شركة مساهمة من مجموعة
الإداريين الكبار المهيمنين على نشاط شركاتى من رجال الإدارة المركزية الأم ،
تقوم هذه الشركة بشراء أصول شركاتى كلها ، على أن يتم التعاقد مع بنكتا
الرئيسى في سويسرا ، الذي أعطيناه توكيلا وتقويضا بذلك . ولما كانوا جميعا من
ذرى الأرصدة في الخارج فقد تم التحويل بالعملة الصعبة من بنك إلى بنك ، وتم
كل شيء في يسر وسهولة بواسطة المندوبين الوكلاء والمحامين والمحاسبين ، فيما
نحن جلوس في بيتنا ..

سافرت زوجى إلى فرنسا وحدها لتعرض نفسها على أحد كبار أطباء التجميل ليريحها من شيء تافه كان يزعجها مع أنه كان يعجبنى . ذلك هو أنفها الذي كان طويلا حادا مدببا في عوجة أمامية صغيرة كمنقار الديك الشركسي ..

بعد سفرها بساعات جاضى الخبر من أسيوط بأن أمى قد ماتت منذ عدة أيام وتم دفنها تحت إشراف زوج ابنتها أبو هليل . أتانى بالخبر واحد من السماكين الذين يوردون السمك لقصرى كل أسبوع ، وهو في الأصل من بلدنا . قال إن أمى ماتت من الخضة ، إذ فوجئت بقوة مسلحة من رجال الشرطة تقتحم عليها منزل خرابة القديم لتفتش عن أخى حسين الذي انضم للجماعة الإسلامية في كلية الطب وأصبح من أنشط وأبرز عناصرها . قال إنه كان أميراً للجماعة وإنه هارب منذ وقت طويل في مكان مجهول بعد أن هجر الدراسة تماما . بكيت مُرَّ البكاء ياخال ، فهو أخى الوحيد الذي كنت أدخر له مستقبلا عظيما في السنين القليلة القادمة من سفر الخارج إلى فتح عيادات ومستشفيات خاصة . يعلم الله ياخال كيف تلقيت سفر الخارج إلى فتح عيادات ومستشفيات خاصة . يعلم الله ياخال كيف تلقيت

هذه الطعنة النجلاء في قلبي . إعتبرته قد مات ، ولعنت الشيخة سعادة وسنينها السوداء وطاقت بذهني فكرة السفر إلى أسبوط الأقرأ الفاتحة على قبر أمي وأتسقط أخبار أخي حسين لعلني أظفر به وأحاول إنقاده من هذا الجنون ..

لحظة أن هممت بارتداء ثيابى وقعت عينى على شاشة التليفزيون فرأيت ملابس عسكرية وببابات فى الميدان وجنود تحمل المدافع والكورس الغنائى يصبح مغنيا : الله أكبر ! الله أكبر ! فتذكرت أن غدا هو اليوم السادس من أكتوبر ، وأننى مدعو لحضور الاحتفال السنوى بالعرض المسكرى فى مدينة نصر مع الرئيس السادات والوزراء وكل رجال الدولة المهمين ؛ ولابد أن أحضر ياخال ؛ فصرفت النظر عن السفر إلى ما بعد الاحتفال ؛ ثم ما لبثت حتى صرفته نهائيا . فطرل مرة ياخال أشعر أن الصعيد فقد حميميته تماما بالنسبة لى ، أصبح غابة عدوان بشعة مخيفة مشبعة بالظلام . وتلك كانت أكبر خسارة منيت بها فى حياتى ياخال .

ذهبت إلى مقر الاحتفال ياخال . كنت منقبض الصدر بصورة أخافتنى ،
والهواء الذي أتنفسه يبدو مشبعًا بالمؤامرات والضبة والقرف ، وكل المرئيات
رمادية كابية قاتمة . عزوت ذلك إلى القلق الذي أقض مضبعى حتى الصباح ، في
نوم متقطع ملىء بالكوابيس المزعجة ..

رأيت فيما يرى النائم أن أنور السادات أشبه بفلاح ممسك بفأس ومقطف يعلقها في كتفه . وكان يبدو أننى عزمته على الغداء في دارنا القديمة في البلد . ولم أكن أعرف لماذا عزمته مع أنه في المنام لم يكن صديقي بل كان يظهر كما لو كان أتيا يصطحبني لنعمل سويا في العزيق تبع مقاول أنفار يعرفه . لكنه كان يبدو عليه التوجس والخوف لا تكف عينه عن التلصص . ثم إذا به ينتفض واقفا

في خوف صائحا:

- دخيئتى ياحسن ! شف لى ركنا اختفى فيه ! المقاول سيقتلنى ياحسن مع أننى مظلوم ! والله مظلوم ياحسن واست أكره الأنفار كما صور لهم المقاول اللمين !!».

ثم اأندفع يجرى داخل الدار بيحث عن منفذ يهرب منه ؛ فالتقاه في منتصف الحوش ملثم اأنسلخ من الحائط وفي لمح البصر شج رأسه بالفاس واختفى . جعلت أصوت وألطم حتى صحوت ؛ فأخذت أتشهد وأقرأ الفاتحة وسورة يس ؛ ثم نمت ؛ فرأيته ثانية ، يجلس معى في شقة مصر عتيقة مرتديا لباسه العسكرى ممسكا بكربة شاى صغيرة ؛ فإذا بالسقف ينهار فوقنا فاختفى هو تحت الهديم أما أنا فرأيتني طائرا في الهواء كأني بأجنحة خفية ، والدم يسيل من رأسى ، وعيني في الأرض تبحث عن رقعة أمنة لأهبط فيها ، والأرض كلها أوحال وبرك ومنحدرات جبلية وعرة ..

وكنت أحوم في الفضاء حول هذه المنصرات الوعرة حينما صكت أذني أمسوات جلبة العرض المسكرى ؛ فأفقت ، فتحت عينى ، فإذا بي جالس في المنصة في مدينة نصر في ثالث صف وراء الرئيس السادات . تحلف اليمين ياخال ما أن فتحت عينى حتى رأيت إحدى السيارات المصفحة تمر أمامنا في العرض ثم تتوقف ؛ ومن فوقها جنود يصوبون المدافع نحونا . ظننت ذلك من ضمن العرض يابوى ؛ لكنني فوجئت بالرصاص ينطلق في وجوهنا ، مصوبا على رقبة الرئيس السادات نفسه . جمدنا الذهول ياخال ، وإذا بشاب ضخم الجثة يقبل مهرولا نحو أنور السادات يصب الرصاص في صدره مع الصرخات الآمرة المتشفية — هبطنا كلنا تحت الكراسي كالأرانب المذعورة ، حدثت دريكة هائلة ؛ فر من فر ، ووقع من

وقع ؛ إمتلات الدنيا بالصداخ المنعور مختلطا بطلقات الرصاص . عينى جاحت فى عين الشباب الضخم الذى اقترب من المنصة ؛ تحلف اليمين ياخال أننى رأيته بنفسه بعينيه فى مخبأ الشيخة سعادة . تعرفت عليه وعلى شاب آخر ممن لانوا بالفرار .

منذ ذلك اليوم المشئوم ياخال كمشت في منزلي لا أبرحه ، أعاني من مرض في معدتي وأمعائي ، وصداع مزمن ، ورعشة في أطرافي مستمرة لا أقوى معها على الإمساك بشيء . كرهت السياسة طلقتها بالثلاثة جمدت عضويتي بالحزب . الوطني منعت نفسي عن مجلس الشعب نهائيا أصبحت أخاف من خيالي تعويني أشباح تتريص بي لتغتالني . صدرت أقضى النهار والليل في الصلاة أضرع إلو الله أن يسامحني وينجيني ..

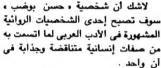
وكانت زوجتى قد علمت بالخبر فور وقوع الحادث ، فأبرقت لى تطلب النصع ، فأبرقت إليها بأن تبقى لأنى قادم إليها لأعرض نفسى على الأطباء . وبالفعل سافرت إليها فتقرر إبقائي في أحد مستشفيات سويسرا مدة تحت العلاج . تركتنى زوجى وعادت إلى مصر ، جهزت أوراق العيال ، سرحت جميع الخدم إلا واحدة عجوز ؛ أغلقت أبواب القصر ، جاحت بالعيال ، ألحقتهم بأرقى المدارس في سويسرا . استقر بنا المقام في هذه العاصمة البديعة ، صار بيتنا بفضل زوجى مزارا للجالية المصرية كلها ؛ لختفى الشعور بالوحشة ؛ لكننى ما لبثت حتى مزارا للجالية المصرية كلها ؛ لختفى الشعور بالوحشة ؛ لكننى ما لبثت حتى وجدت نفسى تلقائيا ذات يوم أجلس في الطائرة المتجهة إلى مصر . إن مصر هي الداء والدواء ياخال . لقد كنت في الغرية أتمنى أن أعود إليها ولو كان الثمن كل ما أملك . وها أنذا قد عدت ياخال كما كنت أول مجيئي إلى القاهرة ، مجرد رجل من جملة الناس ، مع الناس ، بلا وجع الدماغ ، من البيت لنجامع ، ومن الجامع

للبيت ، وكل بضعة أيام يقتادنى الشوق إلى العيال فأركب سيارتى إلى مطار القاهرة ، أقضى مع العيال ما أشاء من أيام ، ثم أتلفن للسائق بأن ينتظرنى فى المطار يوم كذا الساعة كذا ، وحدى أو مع العيال أحيانا . وهكذا لم يعد يقلقنى فى الدنيا شىء سوى ما يحتدم فى بطن الجبل فى أسيوط من براكين مروعة تعود بمصر والعالم العربى كله إلى عصور الجاهلية الأولى . إن الحياة فى مصر اليوم أصبحت شبه مستحيلة ياخال ، ولكنها فى الخارج بالنسبة لى أكثر استحالة بإخال ، على كل حال ربنا على الظالم .. مساء الغل .

رقم الايداع: ٥٩٥٠ / ١٩٩٥

I . S . B . N 977 - 07 - 0389 - 3

الرواية



وقد عايش قراء روايات الهلال هذه الشخصية في روايتين هما « أولنا ولد » وج ثانينا الكومي » ، وهاهو « أبوضب » غيرى شلبي هذه السيرة الشعبية باسلوب خيرى شلبي هذه السيرة الشعبية باسلوب المشخصيات تكتمل تلك السيرة الروائية الفذة التي الفتت انظار القراء ومن خلال بناء ادبي المندسي استمده المؤلف من إعجابه الشديد بالعمارة الإسلامية ، وهو من الاتقان الى حد أن العمل مغلف ببساطة وغزير ، يقدر على استيعابها كاملة كل من يستطيم فك الخط

وسوف يجد القارىء فى هذه الرواية بناء داخليا متماسكا شديد العمق، مما يجعلها وثيقة لمن يبحث عن متعة القراءة.



خيرى شلبى

● روائى يكتب القصة القصيرة والمقال الأدبى، ويراس تصرير مجلة والشعر،

 حصل على حائزة الدولة التشجيعية في عام ١٩٨٠ . قدم للمكتبة العربية خمسين كتابا ، ومن أشهر رواياته والأوياش، ، و السنيورة ، و اللعب خارج الطبة، ، د الشطار » ، د العراوي » ، د الوتد ، د فرعان من الصباره ، درجالات الطرشجي والطوجيء دوكالة عطبة و وسارق الفرح، و « تاريخ عباءة » ● تدور أحداث أغلب أعماله في البيئات الشعبية المصرية ، شواء في أحياء القاهرة القنديمة أو في المناطق الريفية العتيقة . ● تحولت بعض أعماله الى

افسلام مثل دالشطسار» و دسبارق الفرح».





نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من: أدب، وقصــة ورواية، ودراسة، وسيــر، وبحوث، وفكر، ونقــد، وشــهــر، وبلاغــة، وعلوم، وتراث، ولغات، وقطات، وتاريخ، واجتماع، وعلم نفس، ورحلات، وسياســة إلخ،

صدر من هذه الططة :

- ا- الإنسان الباهت.
- ٢- الإنسان المتعدد.
 - ٣- انقراض الرجل.
- ٤- الحياة مرة أخرى .
 - ٥- نوم العازب .
- ٦- الإعلام والخدرات.
- ٧- من شرفات التاريخ جــ ١ .
 - ٨- فكر وفن وذكريات .
 - ٩- أم كلثوم .
 - ١٠ المرأة العاملة.
 - ١١- ساعة الحظ.
- ١١- من شرفات التاريخ جـ ١٠
- ١٣- الملامح الخفية (جبران ومي).

١٤- شعرة معاوية ، وملك بني أمية .

- ١٥- عبد الحليم حافظ.
- ١١- محمد عبد الومات.